الجمـــهوريـــة الجزائـــريـــة الديـــمقراطيـــة الشعبيـــة

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة تلمسان

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة العربية وآدابها

تخصص : الصوتيات

أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه

الموضوع:

الجوانب الصوتية في تفسير الكشاف للزمخشري

إعداد الطالب :	إشــــراف:
بلالي مبارك	أ.د. غيثري سيدي محمد

أعضاء اللجنة المناقشة

أ.د/ ديـــدوح عمــــر	أستـــاذ التعليم العالي	جامعة تلمســـان	رئيسا
أ.د/ غيثري سيدي محمد	أستـــاذ التعليم العالي	جامعة تلمســـان	مشرفا
أ.د/ بورويـة المهـدي	أستـــاذ التعليم العالي	جامعة تلمســـان	عضوا
د/ طيبـــي أمينـــة	أستـــاذة محاضـرة-أ-	جامعة سيدي بلعباس	عضوا
د/ شارف عبد القادر	أستـــاذ محاضـــر-أ-	جامعة الشلـــف	عضوا
د/ رفـــاس سميرة	أستـــاذة محاضـرة-أ-	جامعة سيدي بلعباس	عضوا

السنة الجامعية : 1433-1434هـ/2012-2013م

بسم الله الرحمن الرحيم

شكـــرٌ واجب

لابـد لي من أن أشكر لأستاذي المشرف: الأستاذ الدكتور سيدي محمد غيثري إشرافه على إعداد هذا البحث؛ فقد قرأ أصوله، وأفادني بملاحظاته القيمة، وكان مثالاً طيباً للأستاذ القريب من طلبته، المتابع لشؤونهم، جزاه الله خيراً .

ويلزمني أيضاً توجيه الشكر إلى الأخ الصديق الوفي: الدكتور يحي زغودي على جهوده الطيبة، وعلى ما أسداه إليّ من عون فنيّ، جزاه الله خيراً .

كما أشكر للزميلين: الأستاذين عبد العزيز ابليلة وعبد الرحمان العربي، تعاونهما العلمي الطيب، جزاهما الله خيراً .

والشكر موصول لجميع من أسهم من بعيد أو من قريب في إخراج هذا البحث إلى النور .

إهـــــداء

إلى من ربيـــــاني صغيراً . .

أبي العـــزيز رحمــــه الله.

أمي الحبيبة بارك الله في عمرها .

إلى زوجتي. .أثابهـــا الله علـــى صـــبرها .

إلى ريحانتي. .

بسملـــة و محمـــد نجيب حفظهمـــا الله.

إلى الأحبـــة. .

أخــــي رحمــه الله وأخـــواتي.

أهــدي هــذا الجهـد المتواضـــع.

مقـــدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين، والصلاة والسلام على الأمي المعلّم، وعلى آله وصحبه أجمعين.

أمـــا بعد:

فقد حظيت الدراسة الصوتية في العربية قديماً وحديثاً بنصيب وافرمن الاهتمام و التقعيد، نظراً إلى خطرها ودورها في فهم التركيب اللغوي وكشف قوانينه، ومن ثم وجدنا طائفة كبيرة من علماء العرب في شتى مناحي النظر العلمي.. وجدناهم أفردوا لها في مؤلفاتهم بحوثا أو تناولوها مختلطة مع باقي قضايا النظر، وقد توزع هذا الاهتمام بين اللغة والنقد والبلاغة والتفسير والفلسفة والاجتماع وغيرها.

وقد كان لعلم التفسير تفرّد لافت في توظيفه للدراسة الصوتية واستخدام معطياتها وحقائقها في كشف المعاني والدلالات التي يهدف إليها البيان القرآني، ومن هنا رأينا ذلك الاهتمام بتحليل الظواهر الصوتية المتعددة في كتب التفسير، من خلال إيراد صور القراءات مشهورها وشاذّها. وقد كنت لاحظت منذ فترة ليست بالقصيرة، توظيف بعض المفسرين للقضايا الصوتية وربطها بالقضايا الدلالية، وقد يكون ذلك الاهتمام منصباً على الجوانب الصوتية دون مراعاة لأثر ذلك في الدلالة. وكان من بين التفاسير التي لفتت انتباهي في هذا الصدد تفسير الكشاف، هذا التفسير الذي يمكن عده التفسير الأول من حيث احتفاؤه بالقضايا اللغويةِ بمختلف مستوياتها، ومما استوقفني هو توظيفه الهائل للمعطيات الصوتية من قراءات وأقوال علماء وربما نظرات خاصة تعود للزمخشري نفسه، ومن ثم وقع اختياري على هذا التفسير هادفاً إلى الوقوف أكثر على تلك الجوانب ودراستها بشكل مستقل.

وقد كانت تلك الجوانب في كتاب الكشاف متوزعة بين مجالي الفوناتيك والفونولوجيا؛ أو بين قضايا الصوت اللغوي من حيث المخرج والصفة وخصائص النطق الأخرى، وبين قضايا التعامل والتشكيل الصوتي في التركيب.

فكان عنوان البحث: "الجوانب الصوتية في تفسير الكشاف للزمخشري" ولم أشر إلى غيرها من الجوانب إلا من حيث خدمتها(أي الجوانب الأخرى) للجانب الصوتي من قريب أو بعيد.

أهداف البحث.

تهدف هذه الدراسة إلى كشف الجوانب الصوتية في الكشاف استقراء ودراسة من خلال :

1) النظر في منهج تناول المادة الصوتية، وخصائص ذلك المنهج.
2) التعرف إلى مصادر هذه المادة، ومناقشة شواهدها في ضوء المعطيات الصوتية المعاصرة.
3) التعرف إلى طريقة توظيف الزمخشري للمادة الصوتية في وجوه التفسير.
4) استجلاء قيمة المستوى الصوتي ــ بين باقي المستويات اللغوية ــ في التفسير.

منهج البحث.

يقوم منهج هذه الدراسة على تحليل الموضوعات والقضايا الصوتية ومناقشتها، ويعتمد هذا التحليل المنهج الوصفي الذي يقوم على عرض المسائل ومناقشتها، واصفاً الظاهرة الصوتية كما وردت في الشاهد وعرضها على قوانين اللغة، والاستفادة في ذلك من آراء المفسرين واللغويين وكذا الدراسات الحديثة.

فالمنهج ــ إذن ــ تحليلي ينهض على الوصف ابتداءً، ولكنه لا يغفل أحياناً اللجوء إلى التفسير الاجتماعي لشيوع بعض الظواهر في بيئات دون بيئات أخرى.

خطة البحث.

جاءت خطة الموضوع بناء على المادة المستقرأة كما يلي:

بدأنا البحث بمقدمة يليها تمهيد تضمن نبذة عن الزمخشري وتفسيره الكشاف، وكذا بياناً لمفهوم الصوت اللغوي، ولمحة عن تاريخ الدراسة الصوتية عند العرب، وملخّصاً حول أهمية الدراسة الصوتية ومزاياها في البحث العلمي والتطبيق الاجتماعي. ثم تليه أربعة فصول، عالجنا في الفصل الأول منها المنهج الصوتي للزمخشري في الكشاف ويضمّ ثلاثة مباحث:

- **المبحث الأول:** مصادر المادة الصوتية: ويتحدث عن :
  - ــ الأعلام اللغويين المستشهد بأقوالهم وآرائهم.
  - ــ أعلام القراءات المستشهد بقراءاتهم.
  - ــ كتب اللغة والقراءة المنقول عنها في الكشاف.

❖ **المبحث الثاني:** طرق نقل المادة الصوتية: ويتحدث عن:
- نقل المواد الصوتية من أقوال واستشهادات مع عزوها لقائليها.
- نقل المواد الصوتية من غير عزوها لقائليها.

❖ **المبحث الثالث:** مصادر الاستشهاد الصوتي: ويتحدث عن:
- القراءات مشهورها وشاذها.
- لغات العرب وأقوالهـــــم.

وأما الفصل الثاني فتناول الجوانب النطقية في الكشاف من خلال ثلاثة مباحث:

❖ **المبحث الأول:** مخارج الأصوات وصفاتها، ويتحدث عن:
- مخارج الأصوات الوارد ذكرها في الكشاف.
- صفات الأصوات المُتحدّث عنها في الكشاف.

❖ **المبحث الثاني:** الصوت اللغوي في فواتح السور (الحروف المقطعة) ويتحدث عن:
- التصنيف الصوتي في فواتح السور.
- فلسفة التركيب الصوتي في الفواتح .

❖ **المبحث الثالث:** الدلالة الصوتية في الكشاف، ويتحدث عن :
- دلالة الخوف الهادر .
- دلالة الندى الصارخ.
- دلالة الاستغراق في المدّ الصوتي.
- سيادة القالب الواحد .
- مصاقبة اللفظ للمعنى .
- اللفظ المناسب للصوت المناسب .

وأما الفصل الثالث فعقدناه للاتجاهات الصوتية في الكشاف، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

❖ **المبحث الأول:** اتجاه المماثلة، ويتحدث عن:
- المماثلة وأنوعها بين الأصوات الصامتة .
- المماثلة بين الحركات.
- الإتباع.

❖ **المبحث الثاني:** اتجاه المخالفة، ويتحدث عن:

ـــ المخالفة بين الصوامت.

ـــ طرائق المخالفة بين الصوامت (بالحذف ، بالإبدال).

ـــ المخالفة بين الحركات .

❖ **المبحث الثالث:** اتجاه السهولة واليسر.

وأما الفصل الرابع فقد خصصناه لمناقشة الجوانب التشكيلية في الكشاف، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

❖ المبحث الأول: الظواهر التشكيلية في الصوائت.

❖ المبحث الثاني: الظواهر التشكيلية في الصوامت.

❖ المبحث الثالث: ظواهر صوتية أخرى (الإبدال الصوتي / القلب المكاني).

وأما الخاتمة فضمنّاها أهمّ ما توصل إليه البحث من نتائج.

وقد رجعت في هذا البحث إلى مصادر لغوية وقرآنية قديمة وحديثة متعدّدة؛ فكانت كتبُ: الكشاف، ومعاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن للأخفش، وبعض كتب التفسير كالتفسير القرطبي، وبعض كتب القراءات، كانت أهمّ المصادر القديمة التي شكّلت روافد لمادة البحث.

وكانت كتب: الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، ودراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر، وعلم الأصوات لكمال بشر، واللهجات العربية القديمة لشام رابين، والعربية الفصحى لهنري فليش، واللهجات العربية في التراث لأحمد علم الدين الجندي وغيرها.. كانت أهمّ المراجع المعاصرة التي أفدت منها في بحثي.

وقد بذلت ــ بقدر الوسع والطاقة ــ جهدي في هذا البحث، وحرصت على العناية به، عناية رفدها الإخلاص لكتاب الله، وللغة القرآن، ثم لجهود سلف الأمة.

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة إلا أن أشكر لأستاذي المشرف: الأستاذ الدكتور سيدي محمد غيثري إشرافه على هذا البحث، فقد غمرني بعلمه الجمّ وخلقه الكريم، وتوجيهاته السديدة، فجزاه الله عنيّ وعن طلاب العلم خيراً.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، متقبلاً عنده، إنه نعم المجيب.

البـــاحث

أدرار في: 2012/05/01

التمهيـــد

- الــزمخشري .
- الكشـــاف.
- الصـوت اللغـوي.
- موجز حول الجهود الصوتية عند العرب.
- قيمـة الـدراسـة الصوتيـة .

أ- الزمخشري.

حيـــاته[1].

هو أبو القاسم محمود بن عمر بن محمد الخوارزمي الزمخشري، ولد بزمخشر سنة 467هـ وهي قرية كبيرة من قرى خوارزم، وإليها نسب. زار بغداد مرات عديدة، وأخذ الأدب عن أبي الحسن علي بن المظقر النيسابوري، وأبي مضر محمود بن جرير الأصبهاني، وسمع من أبي سعيد الشفاني، وغيرهم، سافر إلى مكة وجاور بها زماناً، فقيل له: جار الله. وكانت إحدى رجليه مقطوعة ويمشي في رجل من خشب قيل: سبب ذلك أن خراجاً أصابه في رجله فقطعها. وقيل: إنه كان في بعض أسفاره في بلاد خوارزم، فأصابه ثلج وبرد شديد في الطريق، فسقطت رجله من شدة البرد. وقيل: إنه أمسك عصفوراً في صباه وربطه في خيط في رجله، فأفلت من يده، فأدركه وقد دخل في خرق فجذبه فقطع رجله في الخيط، فتألمت والدته لذلك، فدعت عليه، وقالت: قطع الله رجلك كما قطعت رجله.

توفي الزمخشري في جرجانية في خوارزم بعد رجوعه من مكة ليلة عرفة سنة 538هـ.

عقيدته: كان الزمخشري معتزلي المذهب، مجاهراً باعتزاله، حتى نقل عنه: أنه كان إذا قصد صاحباً له واستأذن عليه في الدخول يقول لمن يأخذ له الإذن: قل له أبو القاسم المعتزلي بالباب[2].

مؤلفاته: ألف الزمخشري كتبا كثيرة حسنة، وكان بارعاً في عديد العلوم. وبخاصة منها العلوم الشرعية وعلوم اللغة، ومن أهم تصانيفه[3]:

1) الكشاف. طبع عدة طبعات، منها طبعة القاهرة ــ البابي الحلبي عام 1966 م.
2) المفصل في علم العربية.
3) أساس البلاغة. طبع عدة طبعات منها طبعة دار الكتب بمصر عام 1982 م.

---

[1] ــ تنظر ترجمته في: البداية والنهاية لابن كثير: 219/12، وبغية الوعاة للسيوطي: 279/2 ، والبلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز أبادي، ص 180.

[2] ــ ينظر وفيات الأعيان لابن خلكان: 509/2.

[3] ــ بروكلمان: 216/5، 238، وينظر الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري لفاضل صالح السامرائي 85 ــ 101. (طبعة دار عمار 2009 م).

4) الأنموذج. وهو مختصر لكتاب المفصّل طبع عدة طبعات منها طبعة القاهرة عام 1289هـــ.

5) الفائق في غريب الحديث. طبع بمصر ــ البابي الحلبي عام 1367هـــ.

6) المستقصى في الأمثال طبع في حيدر آباد الدكن بالهند عام 1962م، وفي بيروت عام 1397 هـــ.

7) القسطاس في العروض.

8) صميم العربية .

9) شرح أبيات الكتاب.

10) أطواق الذهب في المواعظ والأدب. طبع في بيروت عام 1293 هـــ.

11) الأحاجي النحوية.

12) الرائض في الفرائض.

13) التوقيف على مناهج التركيب والتأليف.

14) نوابغ الكلم. طبع في القاهرة عام 1287 هـــ، ونشر في بيروت عام 1306هـــ.

15) المقامات.

16) ربيع الأبرار. طبع في بغداد ــ العاني.

17) مسألة في كلمة الشهادة.

ب- **الكشاف.**

يعد كتاب الكشاف من أشهر كتب الزمخشري ألّفه بمكة في صحبة أبي الحسن علي بن حمزة بن وهاس فيما يظهر من رواية الزمخشري نفسه[1]، وقد قاربت مدة تأليفه السنتين نصف، قال الزمخشري:«..ووقف الله وسدّد، ففرغ منه في مقدار خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان يقدّر تمامه في أكثر من ثلاثين سنة»[2].

[1] ــ تنظر مقدمة الكشاف: 20/1 (طبعة دار الفكر 2008م).
[2] ــ تنظر مقدمة الكشاف: 21/1.

<u>سبب تأليفه</u>: ذكر الزمخشري في مقدّمة كتابه "الكشاف" سبب تأليفه في قوله :« ولقد رأيت إخواناً في الدين من أفاضل الفئة الناجية العدلية الجامعين بين علم العربية والأصول الدينية، كلما رجعوا إليّ في تفسير آية فأبرزت لهم بعض الحقائق من الحُجُب أفاضوا في الاستحسان والتعجُّب، واستطيروا شوقاً إلى مصنّف يضمّ أطرافاً من ذلك، حتى اجتمعوا إليّ مقترحين أن أملي عليهم (الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل) فاستعفيت فأبوا إلاّ المراجعة والاستشفاع بعظماء الدين وعلماء العدل والتوحيد..»[1].

<u>قيمته</u>: حوى تفسير الكشاف مجموعة من العلوم اللغوية والشرعية كالبلاغة والأدب واللغة والفقه والقراءات والنحو، وقد احتفى العلماء به احتفاء عظيماً ووقفوا معه وقفات متعدّدة، فوصفوا محاسنه وجوانب بنوع صاحبه فيه، قال العلامة ابن خلدون(ت 808هـ) في مدح الكشاف لاشتماله على فن البيان «..وأحوج ما يكون إلى هذا الفن ــ يقصد فن البيان ــ المفسرون وأكثر تفاسير المتقدمين غفل منه حتى ظهر جار الله الزمخشري ووضع كتابه في التفسير وتتبع آي القرآن بأحكام هذا الفن بما يبدي البعض من إعجازه فانفرد بهذا الفضل على جميع التفاسير لولا أنه يؤيد عقائد أهل البدع»[2].

ذكر[3] بروكلمان أن للكشاف أكثر من 95 مخطوطة، وذكر له 22 شرحاً وتعليقاً منها تعليق لمحمود بن مسعود الشيرازي (ت710هـ) ومنه مخطوطة قي باريس برقم 604، وآخر لأبي الحسن بن محمد الطيبي (ت743هـ)، ومنه مخطوطة في فيينا برقم 1639 والجزائر 326 واسمه " فتوح الغيب" ومنها "الكشف عن مشكلات الكشاف" لأبي حفص عمر بن عبد الرحمان بن عمر الفارسي القزويني(ت745هـ) ومنه نسخة في برلين790 راغب باشا183 كوبرللي187، 188 وغيرها، ومنها: « شرح الكشاف» لمحمد بن محمد التحتاني الرازي المتوفى (766هـ)، ومنها شـــرح لشمس الدين محمد بن عبد الله المصري، كتبه سنة 732.

---

1 ــ تنظر مقدمة الكشاف:1 / 17، 18.

2 ــ مقدمة ابن خلدون ص 745.

3 ــ بروكلمان: 290/1 وما بعدها، وينظر الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري ص 96، 97.

ومنها شرح اسمه "كشاف الكشّاف" لعمر بن عبد الرحمان البلقيني (ت 743هـ).

وذكر له تسعة مختصرات منها[1]:

ـ "التقريب في التفسير " لمحمد بن مسعود السيرافي القالي الشُّقّار

ـ " الجوهر الشفاف الملقط من مغاصة الكشاف" لعبد الله بن الهادي بن يحي بن حمزة.

هذا وقد تناول المحدثون تفسير الكشاف بالبحث والدراسة من الجوانب البلاغة والنحوية والصرفية والمنهج مثل " أثر البلاغة في تفسير الكشاف" للدكتور عمر الملاّ حويش وبحث " الدراسات النحوية في الكشاف للزمخشري لأحمد جمعة الهيتي، وبحث " الكشاف للزمخشري ـ دراسة صرفية" لمها إبراهيم عبيد، والبحث المسمى « منهج الزمخشري في تفسير القرآن وبيان إعجازه» للدكتور مصطفى الصاوي الجويني، وغيرها.

ت- الصوت اللغوي.

الصوت اللغوي ظاهرة من ظواهر اللغة وعنصرٌ مهمّ من عناصرها، يشكل هو وعنصران آخران بنية اللغة وجسمها الداخلي؛ فاللغة بما هي بناء تتكون من عناصر ثلاث:

1. الأصوات المفردة وهي اللبنات الأولى والأساسية في بناء اللغة.
2. الكلمة أو الكلمات، وهي تأليف من مجموعة أصوات مفردة.
3. التراكيب والجمل، وتتألف من الكلمات مجتمعة، فهي عبارة عن مجموعة من الكلمات منظمة بطريقة خاصة، يتواضع أفراد الجماعة اللغوية على استعمالها والتواصل بوساطتها.

ويعرف الصوت اللغوي بأنه « أثر سمعي يصدر طواعية واختياراً عن تلك الأعضاء المسماة تجاوزاً أعضاء النطق»[2]. ويتحقق هذا الأثر في صورة ذبذبات معدّلة ملائمة لما يصحبها من حركات عضوية في الفم[3].

فالحدث الكلامي ـ بناء على ما سبق ـ يتشكل من عناصر ثلاث متصلة ببعضها وهي[4].

---

[1] ـ المرجع السابق: 290/1 وما بعدها.
[2] ـ علم الأصوات لكمال بشر ص 119.
[3] ـ ينظر نفسه ص 119.
[4] ـ ينظر معجم الصوتيات لرشيد عبد الرحمان العبيدي ص 53.

ــ مصدر التصويت وتمثله آلة النطق أوالآلة المصوتة، ويعرف أيضاً بالجانب الفيزيولوجي أو النطقي.

ــ القناة الناقلة للصوت المتمثلة بالهواء الذي ينقل الموجات الصوتية الصادرة عن أعضاء النطق..ينقلها إلى أذن السامع ويسمى هذا الجانب بالأكوستيكي أو الفيزيائي.

ــ استقبال الصوت وتقوم بذلك أذن السامع، من خلال استقبال الأصوات وتمييز بعضها عن بعض.

إن علم الأصوات يدرس تلك العناصر المشار إليها فضلاً عن دراسته للأصوات المفردة ومعرفة مخارجها.. من حنجرة وحلق ولسان وشفة، وكذا معرفة صفاتها.. من جهر وهمس وشدة ورخاوة وغيرها، ويعرف هذا الاتجاه من الدراسة الصوتية باسم (الفوناتيك). كما يضطلع اتجاه آخر بدراسة مواقع الأصوات من الكلمات من حيث وظائفها في الاستعمال اللغوي التواصلي، ويسمى هذا الاتجاه باسم (الفونولوجيا) أو علم الأصوات الوظيفي أو التشكيلي.

ويلاحظ هنا أنه بالرغم من التباين الواضح بين الاتجاهين المذكورين في مجال دراستيهما، فإن علماء الأصوات لا يتصورون وجود حدّ فاصل بينهما، لأن الباحث في التحليل الفونولوجي لأية لغة لابد له من التحرك بصورة مستمرة بين التحليلين؛ التحليل الفوناتيكي والتحليل الفونولوجي[1].

والصوت اللغوي هو الصوت الإنساني، لأن وصف الصوت بأنّه " لغوي" لا يكون إلا للإنسان، بوصفه كائناً أو مخلوقاً واعياً يمتلك قدرة خلاقة إبداعية في ابتكار صنوف الأداء الصوتي أثناء تواصله مع بني جنسه.

أمّا ما يكون من أصوات من غير الإنسان كأصوات الطبيعة أو الحيوان أو غيرها فتدخل في الصوت بمعناه الفيزيائي العام، وإن وجدنا أحياناً مصطلحات مثل: لغة الحيوان، لغة الطير، لغة الأسماك، فلا تعدو أن تكون كلمة "لغة " هنا من باب المجاز لا الحقيقة، نظراً

---

[1] ــ ينظر الأصوات اللغوية لزين كامل الخويسكي ص 20.

إلى بعض أوجه الشبه الموجودة بينها وبين لغة الإنسان من حيث استخدامها في أداء بعض الأغراض الحيوية[1].

فعلم الأصوات لا يُعنى بغير الصوت الإنساني إلا بقدر ما يخدم هدفه في دراسة ذلك الصوت، ومحاولة التعرف على طبيعته ودلالته. ولهذا فإنه إذا تعرض للصوت الطبيعي أو الفيزيائي.. إنما يفعل ذلك بقصد الوصول إلى طبيعة الصوت الإنساني الذي لن يكون في الحقيقة غير ذبذبات صوتية، تدخل في دائرة الصوت بمعناه العامّ وتخضع لكل القوانين التي تحكمه في تكوينه وانتقاله[2].

والوحدة الأساسية أو المادة الخام لعلم الأصوات العام هي الصوت المفرد " phone" الذي يُعزّف بأنه أي صوت لغوي مفرد بسيط يمكن تسجيله بالآلات الحساسة في المعمل...فموضوع علم لأصوات إذن هو أصوات اللغة المدركة(الفونات) التي هي حقائق عامة ويمكن قياسها بدقة الآلات الميكانيكية. وموضوع علم الفونيمات هو الأصوات أو المجموعات الصوتية المتقاربة التي يدرك علاقتها شعور الجماعة التي تتكلم لغة معينة. والاختيار الموضوعي للفونيمات هو " المغايرة"، أو الاختلاف في المعنى الذي يظهر أول ما يظهر عندما ما يحلّ صوت محلّ آخر، مع بقاء سائر حروف الكلمة كما هي[3].

وقد حصر علم الأصوات جهوده زمناً طويلاً في دراسة إنتاج الأصوات، ولا يكاد علماء اللغة يشتغلون بدراسة الجانب السمعي، ولعلّ ذلك يعود إلى أنه لا قيمة للصور السمعية إلا إذا تحولت لدى السامع إلى صور متحركة، تجعله قادراً على أن يتحول إلى متكلم من جديد. وبعبارة أخرى يجب أن يكون السامع حائزاً بالقوة على ما يحققه المتكلم بالفعل. على هذا الشرط يتوقف وجود الكلام، ويترتب عن ذلك أنه يمكن الاستغناء عن

[1] ـــ كلمة أو مصطلح "لغة " إذا أطلقت في مجال الحيوان أو الطير دلت على محدودية في العقل ترتبط بالغريزة، ومن ثم فهي غير متطورة تدور في دائرة معينة من الأغراض، وتقوم على مقتضيات العيش وضروريات الحياة (ينظر لغة الحيوان لمحمد كشاش ص72،73).

[2] ـــ ينظر علم الصوتيات لعبد العزيز أحمد علام وعبد الله ربيع محمود ص 19.

[3] ـــ أسس علم اللغة لماريوباي، تر: أحمد مختار عمر ص 47 و 50.

الجانب السمعي من اللغة واستبعاده من الدارسة مادام السماع يفترض وجود قوة مساوية للكلام إذا تواجه شخصان بالتخاطب بينهما[1].

والدراسة التي بين أيدينا لا تخرج عن هذا الجانب الإنتاجي الفيزيولوجي فهي تتتبع الأحداث الجزئية المتشابكة في المستوى الفونيتيكي من خلال النظر في الخصائص الفردية للأصوات اللغوية، ثم تنتقل ثانياً إلى مرحلة التجريد في المستوى الفونولوجي، وهذان المستويان ــ في الواقع ــ غير منفصلين من الناحية التحليلية، إذا إن كلا منهما يخدم الآخر.

ث- موجز حول الجهود الصوتية عند العرب.

عُني العرب ــ منذ بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ــ بالمحافظة على الأداء القرآني حتى لا تتطرق إليه ألسنة التحريف واللحن فتضيع المعاني وتختفي معالم النطق الصحيح..وتظهر تلك العناية فيما قام به العرب من وصف لمخارج الأصوات وصفاً دقيقاً حازوا فيه قصب السبق عن الغربيين، وقد شهد بذلك بعض الأروبيين حين قال:«..ولم يسبق الغربيين في هذا العلم، إلا قومان من أقوام الشرق، وهما أهل الهند يعني البراهمة والعرب..»[2]. كما تحدث العرب عن صفات الأصوات المفردة وظواهر الأصوات من الناحية التركيبية، وأسسوا لعلم يُعنى بتلك النواحي عناية أدائية غاية في الدقة والبراعة وهو علم التجويد.

لقد كان اشتغال العرب بعلم التجويد باكورة الاهتمام العلمي بعلم الأصوات وكانت الغاية منه الحفاظ على الأداء القرآني من الانحراف، ثم توسعت بعد ذلك دائرة العناية بالصوت وقضاياه فألفت في ذلك الكتب؛ فالخليل بن أحمد ألّف كتاباً في النغم والأصوات، وضمّن كتابه العين مقدّمة جامعة لأسس الدراسة الصوتية مؤصلة لقضاياها[3].

كما تحدث سيبويه عن سمات الأصوات ومخارجها وائتلافها، وبلغ في ذلك مبلغاً عظيماً من حيث الدقة في التصنيف والشمول في النظر، حتى غدت دراساته مصدراً أساسيا

---

[1] ــ ينظر اللغة لفندريس ص 43، 44.

[2] ــ التطور النحوي للغة العربية لبراجشتراسر ص 11.

[3] ــ ينظر حول مقدمة كتاب العين: الدراسة التي أعدها دكتور أحمد محمد قدور بعنوان: « أصالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين».

للدراسات العربية من بعده. ويعد تأليفه "الكتاب" المصدر الأهم الذي استقى منه الدارسون في علم الأصوات أسس هذا العلم ومبادئه وقامت على أثر ذلك الكثير من الدراسات التحليلية والوصفية والنقدية على المادة الصوتية التي ضمها[1].

وممن تحدث عن الجانب الصوتي اعتماداً على مادة سيبويه نجد أبا العباس المبرد، وقد سار على نهج سيبويه في ترتيب مادته الصوتية، ولم يخرج عن كثير من عبارته وتحليلاته، على الرغم مما حاول أن يُضيفه من تعليقات وتوضيحات خاصة به، تكشف عن رؤيته الخاصة في مثل ما قام به في تعريف الصوت المجهور والشديد[2] وغير ذلك.

ونجد إلى جانب المبرد أبا علي الفارسي الذي خصّ الدراسة الصوتية باهتمام غير يسير بحيث ضمنها كُتباً له مثل البغداديات والشيرازيات، والبصريات والحجة في القراءات السبع، وكذلك فعل تلميذه الألمعي ابن جني حين خصّ مؤلفاً كاملاً للدارسة الصوتية هو" سر صناعة الإعراب" وأودع كتابه " الخصائص" كثيراً من قضايا الصوت.

ثم ينتقل مسار الدراسة الصوتية إلى أعلام آخرين بعد ذلك أمثال الزجاج(311هـ) وابن السراج(316هـ) والزجاجي(337هـ) والزمخشري(538هـ) وابن يعيش(643هـ) والرضي(680هـ) وابن عصفور(699هـ) والأشمـوني(911هـ) والسيوطي(911هـ) وغيرهم.

وقد أسهم علماء القراءات القرآنية ــ من جانبهم ــ في إضافة تفصيلات صوتية إلى ما ورد عن الخليل وتلميذه سيبويه؛ فهم قد سعوا إلى وصف " تلاوة" القرآن الكريم حسب القراءات المختلفة فسجلوا خصائص صوتية تنفرد بها التلاوة القرآنية وابتدعوا علامات كتابية تمثل لتلك الخصائص النطقية وتدل عليها[3].

ولم يقتصر إسهام علماء التجويد في الإضافة بل تعداه إلى التأليف المستقل في الدراسة الصوتية، وقد حملت بحوثهم وكتبهم عنواناً مستقلاً هو" علم التجويد"، واستطاع

---

[1] ــ المدارس الصوتية عند العرب لعلاء جبر محمد ص 52.
[2] ــ ينظر المقتضب: 224/1، 225.
[3] ــ علم اللغة (مقدمة للقارئ العربي) لمحمود السعران ص 96.

علماء التجويد بذلك تجريد المباحث الصوتية المتناثرة في كتب النحو والصرف والقراءات، وبعد ذلك جمعوها في كتب مستقلة.. كما استطاع علماء التجويد تمييز أبحاثهم الصوتية بتسمية جديدة هي" علم التجويد" كما ذكرنا بعيداً عن التسميات الأخرى لمستويات الدراسة اللغوية مثل علم النحو أو علم الصرف أو علم القراءات، وإن كانت الدراسة الصوتية ذات صلة بهذه العلوم.. ففي مطلع القرن الرابع الهجري استخدم مصطلح " التجويد" في ميدان الدراسة الصوتية المتصلة بقراءة القرآن، ثم صار هذا المصطلح اسماً لمجموع البحوث الصوتية وذلك في مطلع القرن الخامس الهجري، ثم استقر بعد ذلك هذا المصطلح استقراراً نهائياً[1]، وارتضته الأوساط العلمية وتلقته بالقبول.

وهناك طائفة أخرى من علماء العرب والمسلمين عنيت بالدراسة الصوتية، وهي طائفة الفلاسفة التي اهتمت بقضايا الصوت في خضم عنايتها بالبحث اللغوي بوجه عامّ، ولم يكتف الفلاسفة المسلمون بدراسة الأصوات من زاوية واحدة بل تعدّدت زوايا النظر عندهم وتنوعت؛ فقد درس الكندي ظاهرة اللثغة ودرس ابن سينا أسباب حدوث الحروف في رسالته المعروفة: " أسباب حدوث الحروف".

غير أن الدراسة الأشمل لفلاسفة المسلمين كانت حول الجانب الفيزيائي من الصوت، الذي درسوه في مؤلفاتهم المتعدّدة، ووقفوا على خصائصه الجزئية التفصيلية.

فقد تحدثوا عن طبيعة الصوت اللغوي، وكيفية انتقاله عن طريق تموج الهواء مثل ما فعل الفارابي وإخوان الصفا وابن سينا؛ فالفارابي تناول العديد من الظواهر مثل علم الأصوات الطبيعي الذي وقف فيه على ماهية الصوت ومصدره وكيفية انتقاله واستقباله، ودرس التنغيم وأقسامه وخصائصه. كما اهتمّ بقضايا علم الأصوات النطقي متحدثاً عن أعضاء النطق، وطبيعة الحروف وخصائصها وظواهر المقطع الصوتي والنغم[2].

كما كان لإخوان الصفا إسهامهم هم أيضاً في الدراسة الصوتية حيث تحدثوا في طبيعة اللغة ومفهوم الصوت اللغوي ومستوياته الأدائية والمراحل التي يمر بها. وتحدثوا

[1] ــ ينظر الدراسات الصوتية عند علماء التجويد لغانم قدوري الحمد ص64، 65.
[2] ــ المدارس الصوتية عند العرب لعلاء جبر محمد ص 178.

أيضاً عن إصدار الصوت (الجانب النطقي) وانتقال الصوت (الجانب الفيزيائي)، واستقبال الصوت أو سماعه (الجانب السمعي). هذا إلى جانب حديثهم عن جهارة الصوت و خفّته، وحدّة الصوت وغلظته، وكبر الصوت وصغره، وسرعة الصوت وبطئه، وكذا إدراك الصوت اللغوي[1].

وأما ابن سينا فقد تحدث عن حدوث الحروف أي الأصوات وفرّق بين الحبس التام للهواء والحبس غير التام، وتحدث أيضاً عن الحروف المفردة والمركبة[2]. كما تحدث عن انتقال الصوت والوسط الناقل والعملية السمعية، يضاف إلى ذلك عنايته بطبيعة الصوت اللغوي.

وكان للبلاغيين ـــ هم أيضاً ـــ إسهامهم في مجال الدارسة الصوتية من خلال نظرهم إلى الصوت اللغوي من زاوية تخصصهم البلاغي، فقد تحدثوا عن فصاحة اللفظ والتركيب في اللسان العربي وقياسها بالنظر إلى البنية اللفظية الصغرى " الكلمة " والبنية اللفظية الكبرى " الجملة ".

كما تحدث البلاغيون عن آلة البلاغة وهي من المباحث الصوتية الدلالية، من خلال البحث في أمرين أساسيين هما: "صور الفصاحة" و" الجمالية في الكلام الفصيح". كما تحدثوا عن عيوب النطق وكشفوا عن أسبابها اللغوية ووصفوا علاجها وطرق التخلص منها.

ومن أبرز أعلام البلاغيين المهتمين بالدراسة الصوتية نجد ابن سنان الخفاجي (466هـ) الذي وقف عند ماهية الصوت وفرق بين الصوت والحرف، فقد أورد نصوصا كثيرة في كتابه " سر الفصاحة" ينبّه فيها على ضرورة التفريق بين الصوت والحرف، على نحو دقيق يشبه ما تقرره الدراسات الحديثة في هذا الشأن[3].

كما عرض ابن سنان الخفاجي إلى التصنيف الذي وضعه علماء العربية حول الأصوات من حيث هي أصول وفروع منطلقون في ذلك من مستوى الأداء اللهجي أو التعاملي التشكيلي.. بحيث عرض ابن سنان إلى ما يحسن أداؤه واستعماله من تلك الأصوات

[1] ـــ ينظر البحث اللغوي عند إخوان الصفا لأبي السعود أحمد الفخراني ص 111وما بعدها.

[2] ـــ آليات النطق في رسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا لأحمد محمد قدور ص 23.

[3] ـــ ينظر حول مصطلحي:" الصوت " و" الحرف" : مرجع المصطلح الصوتي في الدراسات العربية لعبد العزيز الصيغ ص 215 وما بعدها

وما لا يحسن. وتحدث ابن سنان الخفاجي وغيره من البلاغيين عن الأصوات المستقبحة. كما عرض البلاغيون لمخارج الأصوات ورتبوها ترتيباً إجمالياً تفصيلياً.. نجد ذلك عند ابن سنان الخفاجي، والإمام الفخر الرازي(606هـ) وكذا أبي يعقوب السكاكي(626هـ) وكمال الدين ميثم البحراني (679هـ) وغيرهم[1].

كما يمكن الإشارة إلى بعض علماء البلاغة القرآنية ممن اشتغلوا بالإعجاز أمثال علي بن عيسى الرماني(384هـ) في "نكته" بحيث أشار إلى تقسيم الكلام إلى متنافر ومتلائم، وعرض إلى مخارج الأصوات وغيرها من الموضوعات الصوتية. ومن جملة العلماء أيضاً أبو بكر الباقلاني الذي ضمن كتابه " إعجاز القرآن" الكثير من المباحث الصوتية وأسرار نظمها في كتاب الله تعالى[2].

ج- قيمة الدراسة الصوتية.

للدراسة الصوتية قيمة حيوية كبيرة، إن في مجال البحث اللغوي بشكل عام، وإن في مجال التطبيقات الاجتماعية المختلفة، وتستطيع الدراسة الصوتية أو البحث الصوتي إمداد تلك المجالات بما تحتاجه من مناهج وأدوات لتحقيق الأهداف والمتطلبات.

1. في مجال البحث اللغوي.

- يمكن للصوت إعطاء رموز مفصلة لكل كلمة في اللغة، الأمر الذي يحل مشكلة كثير من اللغات غير المكتوبة في العالم، ولكن هذه ليست طريقة ملائمة دائماً، لأن ذلك سيؤدي إلى إيجاد عدد ضخم من الرموز لا يسهل تعلّمه لدى الشخص، بل يلقي بعبء ضخم.. وأي نظام ألفبائي يقوم على أساس من التعرف على الفونيمات، وكل فونيم يعطى رمزاً معيناً يمثله، وعلى هذا تمثل الكلمة بتتابع من الرموز، كل رمز يمثل فونيماً[3] .

ويذهب الدكتور كمال بشر إلى أن المفروض في الألفباء عند وضعها الأول أن تأتي في صورة تمثل النطق تمثيلا صادقاً قدر المستطاع. والمشهور أن كل الألفباءات المعروفة

[1] ـــ ينظر المدارس الصوتية عند العرب لعلاء جبر محمد ص 182 وما بعدها.
[2] ـــ الأصوات اللغوية لزين الخويسكي ص 45 وما بعدها .
[3] ـــ دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر ص 405.

لنا الآن قد روعي فيها هذا المبدأ بالفعل أول الأمر، ولكن اللغة بمرور الزمن يصيبها التغيير والتطور على حين تبقى الألفباءات على صورتها الأولى دون تغيير قليل أو كثير، ومن ثم يظهر فيها نوع من القصور[1].

ومن المفيد هنا أن نشير إلى ما ذكره كمال بشر حول صور ذلك القصور في نظم الكتابة لكثير من لغات العالم[2]:

الصورة الأولى: تتمثل في عدم قدرة الألفباء على تمثيل النطق تمثيلاً صادقاً بسبب التطور الذي يلحق أصوات اللغة على مرّ الزمن، وأمثلة هذه الصور كثيرة في لغات مختلفة فهناك في اللغة الانجليزية...الصوت القصي الوقفة الانفجارية المهموسة(k) يصور في الألفباء الإملائية مرة بحرف(k) ومرة ثانية بالرمز(c) وثالثة بالرمز(q)ورابعة بالرمزين(ch) وأمثلة هذه الحالات بالترتيب هي kill ,cat, queen, charcuter.

ولهذا الحالة أمثلة معروفة في نظم كتابة اللغة العربية، وإن كان ذلك في حدود ضيقة، من ذلك مثلاً كتابة الفتحة الطويلة برمز الألف أحياناً، كما في النحو (رمى) في حين أن طبيعة الصوت توجب كتابتها بالألف (أي رما) وفقاً لخاصتها الصوتية ونطقها الفعلي.

ويدخل في هذا الباب أيضاً عجز الألفباء العادية أحياناً عن تصوير النطق في أمثلة من نحو (هذا وهذه)، حيث لم تقابل الفتحة الطويلة بما تستحقّه من رموز، ويبدو أن هذا القصور في المثالين الأخيرين ليس راجعاً إلى التطور، وإنما هو قصور في وضع الألفباء نفسها.

وأما الصورة الثانية: من صور القصور في الألفباءات التقليدية فنعني بها وجود رموز في الكتابة ليس لها مقابل صوتي في الكلام المنطوق. وهذه الصورة على ما يبدو ترجع إلى تطور اللغة في الغالب الأعمّ.

ومن أمثلة ذلك في الانجليزية الرمز(p) في كلمة psychology حيث لا يوجد مقابل صوتي له.

---

[1] ــ علم الأصوات لكمال بشر ص 597.

[2] ــ نفسه ص 599 وما بعدها .

ومن أمثلة ذلك في العربية ــ وإن كان قليلاً نادراً ــ نحو: " رموا" و "أولائك" حيث كتبت الألف في نهاية الكلمة الأولى، والواو بعد الهمزة في الثانية دون مقتضى نطقي يدعو إلى هذا النهج .

- إن دراسة الأصوات مهمة جداً لدراسة نحو اللغة وصرفها بالقدر الذي رأيناه في أهميتها في موضوع الكتابة ووضع الأبجدية .

فموقعية النبر في الفعل الماضي في العربية تؤكد أهمية اعتماد الصرف على الأصوات؛ فالفعل الماضي الثلاثي المجرد ينبر مقطعه الأول دائماً فإذا اتصلت به لاحقة صرفية تغير موقع النبر فيه تقول:(ضَرَبَ) ــ بنبر المقطع الأول ــ، فإذا قلت:(ضَربتُ) ينبر المقطع الثاني[1] .

ومن اللغات ــ كالإنجليزية ــ ما يعتمد على تغيير موضع الارتكاز (النبر) لتغيير معنى الكلمة.[2]

وأما حاجة علم النحو للدراسة الصوتية فيتضح من خلال ما نلاحظ في عملية الأداء من قدرة للعربي مثلاً على التمييز بين المعاني المختلفة، ومن ثم يكون الأداء مميّزاً بين إعراب وآخر، وهو أيضاً تبعاً لذلك عامل مهمّ في تصنيف الجمل والتمييز بين نوع وآخر منها، ويقوم الأداء الصوتي وحده بهذه الوظيفة النحوية عندما تخلو الجملة من هذه الأدوات، كما نرى في الجملة الاستفهامية التي خلت من أداة الاستفهام.. فالذي دلّ على الاستفهام في قولنا:(تحرك الجيش؟) هو الأداء الذي تختلف صورته إذا نطقنا الجملة نفسها قاصدين الإخبار[3].

---

[1] ــ أصوات اللغة العربية لعبد الغفار حامد هلال ص 15.

[2] ــ علم اللغة لمحمود السعران ص191.

[3] – علم الصوتيات لعبد العزيز أحمد علام وعبد الله ربيع محمود ص 53.

• إن الدراسة الصوتية مهمّة أيضاً في دراسة المعاجم وبنائها، والمنهج الحديث في المعاجم اللغوية هو العناية بتدوين صورة أداء الكلمة ــ علاوة على بيان المعاني ــ فيحدّد مكان نبر الكلمة ونوعه، وخط سير التنغيم و الطول في أصواتها، إلى غير ذلك مما يتصل بالأداء[1].

2.في مجال التطبيقات الاجتماعية[2].

لعلم الأصوات دور عظيم في عدّة مجالات اجتماعية تعليمية انطلاقاً من أن اللغة هي أهم وسيلة للتبادل والتفاهم بين أفراد المجتمع، ومن تلك المجالات:

تعليم الأداء: احتل الأداء(Diction) أو فن النطق مكانا هاماً في التعليم، ويعد علم الأصوات هو القاعدة الأساسية لأي تعليم معاصر يهدف إلى المحافظة على اللغة القومية حية بين الأجيال.

تعلم اللغة الأجنبية: لا يكفي في تعلم لغة أجنبية تعلم الأصوات الغريبة، بل لابد من التمكن من النظام النطقي بما فيه من تنغيم وعادات شفوية وأساليب نطقية خاصة بالحركات وغيرها.

وسائل الإعلام: يجب على المشتغلين بالصحافة وأجهزة الإعلام المسموعة والمرئية أن يكونوا على دراية كافية بطرائق نطق الأصوات. كما أن الدراسة الصوتية مهمة أيضاً للمشتغلين بالغناء والتمثيل لما لها من أثر خطير ينعكس على تلقي الجماهير لأصوات اللغة وطرائق الأداء النطقي من لدن هؤلاء[3].

هندسة الصوت: يحتاج مجال هندسة الصوت إلى المعطيات الصوتية، وذلك بأن يكون القائمون على ذلك من العارفين بتفاصيل نطق الأصوات وتحديد عدد الذبذبات..يحتاجون إلى ذلك كله وهم يتعاملون مع أجهزة الصوت الحديثة كالتليفونات وأجهزة التسجيل الصوتي المختلفة وأجهزة الراديو والسينما الناطقة، وأجهزة المساعدة على إسماع الصمّ وغيرها من الأجهزة.

---

1 ــ المرجع السابق، ص55.

2 ــ ينظر دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار ص 402 وما بعدها .

3 ــ ينظر أصوات اللغة العربية لحامد هلال ص 17.

تعليم الصم وعلاج عيوب السمع والنطق: إن استخدام علم الأصوات في تعليم الصمّ له أهمية عظيمة سواء كان الأصم ثقيل السمع أو وُلد أصماً أو أصيب في وقت من الأوقات، بحيث يمكن الاعتماد على الدراسة الصوتية في تعليم الطرائق الخاصة بنطق الأصوات.

فمن ذلك تدريب هذه الفئة على الإدراك بقراءة الشفتين أو قراءة الكلام.

ومن ذلك التجارب والأبحاث التي أجريت لتحديد معايير للسمع وتعيين درجات للصم[1].

ويتدخل علم الأصوات لعلاج عيوب النطق أو الكلام بالنسبة لمن يتمتعون بأذن صحيحة وإدراك سليم للأصوات، كتدريب من يخطئ في نطق الراء العربية على النطق الصحيح عن طريق شرح طريقة نطقها، ومكان اتصال طرف اللسان بسقف الحلق، وتكليفه بعمل التدريب مستقلاً عن طريق النظر في مرآة .

وهناك تدريبات تخص من يشكو من شق خِلقي في سقف الحنك، حيث يقوم الأصواتي بتدريب المريض على كيفية استخدام الطبق اللين كصمام يمنع من دخول الهواء خلال فتحة الأنف[2].

وهكذا تتضح أهمية الدراسة الصوتية، ونلمس معها الفوائد والخدمات التي تؤديها في مجال البحث اللغوي بوجه عامّ، أو في تلك المجالات التطبيقية المذكورة وغيرها مما لم نذكره كالموسيقى وفن التكلم، وبنوك المعلومات والترجمة الإليكترونية والعلوم والإغراض العسكرية.

[1] ــ أصوات اللغة العربية لحامد هلال ص 18.

[2] ــ دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر ص 407 وما بعدها .

الفصـل الأول

المنهج الصوتي للزمخشري في الكشّاف وموقفه من أصل اللغة.

المبحث الأول: مصادر المادة الصوتية.

المبحث الثاني: طرق نقل المادة الصوتيـة.

المبحث الثالث: مصادر الاستشهاد الصوتي.

المبحث الرابع: موقف الزمخشري من أصل اللغـة.

المبحث الأول: مصـــــادر المــــادة الصوتية.

استقى الزمخشري المادة الصوتية التي أوردها في الكشاف من مصادر متنوعة، ويمكن تقسيم هذه المصادر إلى أقسام ثلاثة :

1.الأعلام (في المجال اللغوي).

إذا نظرنا إلى ما نقله الزمخشري عن أعلام العربية في المجال اللغوي غير الصوتي، فإن هنالك طائفة كبيرة من الأعلام منهم ابن عباس(ت68هـ) ومجاهد(ت104هـ) وقتادة(118هـ) والخليل (ت175هـ) وسيبويه (180هـ) والفراء (207هـ) و الأخفش (ت215هـ) وثعلب (291هـ) وغيرهم.

غير أن الملاحظ في نقل الزمخشري لمادته الصوتية أن عدد أعلام اللغة المنقول عنهم آراؤهم قليل، وذلك راجع ــ في نظرنا ــ إلى أن طبيعة المادة الصوتية في مجملها ــ إن لم تكن كلها ــ هي القراءات القرآنية المشهور منها والشاذ، ولأجل ذلك حفلت نقول الزمخشري بأعلام القراء أكثر من غيرهم، ومع ذلك نجده مثلا ينقل عن علم من أعلام اللغة، وإن كان معدوداً أيضاً في أعلام القراءات وهو أبو عمرو بن العلاء (159هـ)، ينقل عنه رأيه في قراءة ﴿ وَلاَ تِقْرَبَا هَـــذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾[1] بكسر التاء، قال الزمخشري: «وعن أبي عمرو أنه كرهها وقال: يقرأ بها برابرة مكة وسودانها».[2]

ومن ذلك ما نقله عن أبي إسحاق الزجاج (311هـ) في قوله: « وقد جوز الزجاج أن يكون ــ أعهِد (بكسر الهاء) ــ من باب نعم يَنعِم وضَرَبَ يَضْرِب»[3].

2. الأعلام (في مجال القراءات).

نقل الزمخشري مادته الصوتية والمتمثلة في أوجه القراءات المتعددة عن طائفة كبيرة من القـــــراء منهم :

1– سورة البقرة الآية 35.

2– الكشاف:273/1.

3– الكشاف : 327/3.

- سعيد بن جبير(ت95هـ).[1]
- يحي بن وثاب(ت 103هـ).[2]
- الحسن البصري(ت110هـ).[3]
- عاصم بن أبي النجود(ت 127هـ).[4]
- عبد الله بن أبي إسحاق(ت 129هـ).[5]
- الأعمش سليمان بن مهران(ت 148هـ).[6]
- عيسى بن عمر(ت149هـ).[7]
- إبراهيم بن أبي عبله(ت151هـ).[8]
- أبو عمرو بن العـــــلاء(ت 154هـ).[9]
- حمزة بن حبيب الزيات (ت156هـ).[10]
- الكسائي (علي بن حمزة) (ت 187هـ).[11]
- أبو حيوة (شريح بن يزيد الحضرمي) (ت203هـ).[12]

3. الكتب.

اعتمد الزمخشري في إيراده للمادة الصوتية على ما اطلع عليه في بطون كتب القراءات واللغة، ولكنه لا يشير إلى أسمائها، غير أننا نستطيع الاستدلال على بعضها من

[1]- ينظر الكشاف : 188/4.
[2]- ينظر الكشاف : 417/2.
[3]- ينظر الكشاف :51/1، 52.
[4]- ينظر الكشاف : 502/2.
[5]- ينظر الكشاف : 533/2.
[6]- ينظر الكشاف : 98/3.
[7]- ينظر الكشاف : 548/2.
[8]- ينظر الكشاف : 2/ 296.
[9]- ينظر الكشاف : 1/ 164، 2/ 296.
[10]- ينظر الكشاف : 2/ 502، 2/ 533.
[11]- ينظر الكشاف : 1/ 164.
[12]- ينظر الكشاف :3/ 369، 213/4.

خلال ما يورده من أقوال مؤلفيها إيراداً حرفياً، مثال ذلك ما أورده في تفسير قوله عز وجل ﴿ تَلْفَحُ وُجُوهَهُمُ النَّارُ وَهُمْ فِيهَا كَالِحُونَ ﴾[1].

فقد نقل عن الزجاج قوله: « اللفحُ والنفحُ واحد إلا أن اللفح أشد تأثيراً.[2] وهذا النص موجود في معاني القرآن وإعرابه» للزجاج.

ومن ذلك أيضاً ما نقله ابن جني (ت 392هـــ)، إذ قال في تفسير قوله تعالى:﴿ ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّن بَعْدِ مَا رَأَوُاْ الآيَاتِ لَيَسْجُنُنَّهُ حَتَّى حِينٍ ﴾[3].« (حتى حين) إلى زمان كأنها اقترحت أن يسجن زماناً حتى تبصر ما يكون منه، وفي قراءة ابن مسعود (عتىّ حين) وهي لغة هذيل، وعن عمر رضي الله عنه أنه سمع رجلاً يقرأ (عتيّ حين)، فقال من أقرأك؟ قال: ابن مسعود فكتب إليه: إن الله أنزل هذا القرآن فجعله عربياً وأنزله بلغة قريش، فأقرئ الناس بلغة قريش، ولا تقرئهم بلغة هُذيل والسلام»[4].

ورواية عمر(رضي الله عنه) هذه مقتبسة حرفياً من كتاب (المحتسب) لابن جني[5].

ومن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى: ﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[6]. حين ذكر أن هنالك من قرأها (بِظَنِينٍ) من الظنّة وهي التهمة.. وأشار بعد ذلك إلى مخارج صوتي الضاد والظاء فقال:« فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا»[7].

وهذا الكلام يكاد يكون كلام ابن جني بنصه[8] لولا أن الزمخشري تصرف فيه قليلاً.

1- سورة المؤمنون الآية 104.
2- الكشاف : 3/ 43.
3- سورة يوسف الآية 35.
4- الكشاف : 2/ 319.
5- ينظر المحتسب في تبين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها: 343/1.
6- سورة التكوير الآية 24.
7- الكشاف : 225/4.
8- سر صناعة الإعراب : 1 / 60.

المبحث الثاني : طرق نقل المادة الصوتية.

اعتمد الزمخشري طرقاً متعددة في نقل مادته الصوتية، التي تضمنها الكشاف ويمكن حصرها فيما يأتي :

1) نقل المادة الصوتية مع عزوها .

استعمل الزمخشري هذه الطريقة كثيراً في نقل مادته الصوتية والمتمثلة أساساً في وجوه القراءات المتعددة، فنجده ــ في كثير الأحيان ــ إذا أشار إلى وجه من أوجه القراءة فإنه ينسبه إلى صاحبه من القراء .

فمن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى:﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴾[1] قال الزمخشري: «وقرأ طلحة بن مصرف تتلهى»[2].

ومن ذلك أيضاً ما أورده في قراءة:(نَسياً) بالفتح من قوله تعالى:﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[3]، إذ قال « وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة وحفص نَسيا بالفتح، قال الفراء: هما لغتان كالوِتْر والوَتر والجَسْر والجِسْر»[4].

ومن ذلك ما أورده في قراءة (نِسْتَعِين) بكسر النـــــون من قوله تعـــالى: ﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾.[5] حيث قال «وقرأ ابن حبيش (نِستَعِين) بكسر النون»[6].

ومن ذلك أيضا ما أورده في قراءة (المحصِنات) بكسر الصاد من قوله تعالى: ﴿ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاء ﴾[7] حيث قال « القراءة بفتح الصاد، وعن طلحة بن مصرف أنه قرأ بكسر الصاد»[8].

وقد يعزو الزمخشري القراءة إلى غير واحد من القراء بل يعزوها إلى جهة كاملة تشتمل على مجموعة قبائل كما في عزوه إلى أهل نجران قراءة (منِ اللهِ) بكسر نون (من)

---

[1]– سورة عبس الآية 10.
[2]– الكشاف : 4/ 118.
[3]–سورة مريم الآية 23.
[4]– الكشاف :2/ 506
[5]– سورة الفاتحة الآية 05.
[6]– الكشاف : 1/ 66.
[7]– سورة النساء الآية 24.
[8]– الكشاف :1/ 518.

في قوله تعالى:﴿ بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[1] حيث قال« وقرأ أهل نجران (منِ اللهِ) بكسر النون والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرتهِ»[2].

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما نقله الزمخشري عن أبي عمرو بن علاء في قراءة (وَلا تِركَنُوا)[3] بكسر التاء وفتح الكاف إذ قال: «وعن أبي عمرو بكسر التاء وفتح الكاف على لغة لغة تميم كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب عَلِمَ يَعلَمُ...»[4].

وفي قوله تعالى:﴿ نُزُلاً مِّنْ عِندِ اللَّهِ ﴾[5] أورد الزمخشري قراءة مسلم بن محارب والأعمش (نُزْلاً) بالسكون[6].

ومن ذلك قراءة (صُحْفاً مُنْشَرة) بالتخفيف من قوله تعالى:﴿ صُحُفًا مُّنَشَّرَةً ﴾[7] حيث عزاها الزمخشري إلى سعيد بن جبير[8].

ومن ذلك أيضاً قراءة (ثُلثَ ورُبَع) على القصر من ثُلاث ورُباع من قوله تعـــــالى: ﴿ فَانكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاء مَثْنَى وَثُلاَثَ وَرُبَاعَ ﴾[9]، فقد عزا الزمخشري تلك القراءة لإبراهيم بن أبي عبلة .

كما عزا الزمخشري قراءة (في الحَفِرَة) من قــــوله تعـــــالى:﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾[10]، عزاها إلى أبي حيوة إذ قال: «وقرأ أبو حيوة (في الحَفِرَة) والحَفِرَة، بمعنى المحفورة يقال: حفرت أسنانه فحفرت حفراً وهي حَفِرَة، وهذه القراءة دليل على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفورة، يقال نخر العظم فهو نَخِر وناخر كقولك: طمع فهو طمع وطامع، وفَعِل أبلغ من فاعل...»[11].

1- سورة التوبة الآية 1.
2- الكشاف :172/2.
3- من قوله تعالى: ﴿وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾. سورة هود الآية 113.
4- الكشاف :296/2.
5- سورة آل عمران الآية 198.
6- ينظر الكشاف : 491/1.
7- سورة المدثر الآية 52.
8- الكشاف :188/4.
9- سورة النساء الآية 03.
10- سورة النازعات الآية 10.
11- الكشاف : 213/4.

ومن ذلك ما عزاه الزمخشري لعيسى بن عمر أنه قرأ كلمة (أولاءِ) في قوله تعــــالى:﴿ قَالَ هُمْ أُولاء عَلَى أَثَرِي ﴾[1] أنه قرأها بالقصر (أولا)[2].

كما عزا الزمخشري قراءة (عصيّ) في قوله تعالى:﴿هِي عَصَايَ﴾[3] عزاها لابن أبي إسحاق إذ قال: « قرأ ابن أبي إسحاق (عصَيّ) على لغة هذيل ومثله (يا بُشريّ)، أرادوا كسر ما قبل ياء المتكلم فلم يقدروا عليه فقلبوا الألف إلى أخت الكسرة، وقرأ الحسن(عَصَاي) بكسر الياء لالتقاء الساكنين وهو مثل قراءة حمزة (وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخيّ)[4]..»[5].

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما نسبه الزمخشري من إمالة الهاء وتفخيمها وكذا تفخيم الطاء لابن كثير وابن عامر وأبي عمرو بن علاء في قوله تعالى: ﴿طه﴾[6]، إذ قال:« أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء وفخمها ابن كثير و ابن عامر على الأصل والباقون أمالوها»[7].

وفي قوله تعالى:﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّة ﴾[8]، قال الزمخشري:« قرأ الحسن(يَخِصِّفَانِ) بكسر الخاء وتشديد الصاد وأصله يختصِفان»[9].

وقد يستعين الزمخشري ببعض أعلام اللغة والتفسير في توضيحه لقضية من القضايا الصوتية، كاستعانته مثلا بقول ابن عباس في محاكاته لصوت أنفاس الخيل، وذلك حين عرض لتفسير قوله عز وجل﴿ والعَادِيات ضَبحَاً﴾[10]، حيث قال الزمخشري:« الضبْحُ صوت أنفاس الخيل إذا عدون وعن ابن عباس أنه حكاه فقال: أح، أح »[11].

1- سورة طه الآية 84.
2- الكشاف :548/2.
3- سورة طه الآية 18.
4- من قوله تعالى (وَمَا أَنتُم بِمُصرِخي) سورة إبراهيم الآية 22.
5- الكشاف :2/ 533.
6- سورة طه الآية 01.
7- الكشاف :528/2.
8- سورة الأعراف الآية 22.
9- الكشاف :73/2.
10- سورة العاديات الآية 01.
11- الكشاف 277/4.

2) نقل المادة الصوتية من غير عزو.

كثيراً ما يورد الزمخشري مادته الصوتية المنقولة والمتمثلة ــ في الأغلب الأعم ــ في وجوه القراءة للكلمة من الآية.. يوردها من غير عزو إلى قائلها بحيث يكتفي بالقـــــول: (قُرئ، قرأ الباقون...ألخ).

فمن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى:﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾[1]، إذ قال الزمخشـــــــري : « وقرئ على الأصل تتلقونه، وإذ تلقونه(بإدغام الذال في التاء)»[2].

ومن ذلك ما قاله في تفسير قوله تعالى:﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾[3]، إذ قال:« قُرئ(يَخَصمُونَ) مع فتح الخاء وكسرها، وإتباع الياء الخاء في الكسر»[4].

وفي قوله تعالى:﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ ﴾[5]، قال الزمخشري: «وقُرئ (وعَازَني) من المعازّة وهي المغالبة، وقرأ أبو حيوة وعَزَني بتخفيف الزاي طلبا للخفة وهو تخفيف غريب، وكأنه قاسه على نحو: ظَلْتُ وَمَسْتُ[6]...»[7].

وقال في تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأَنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾[8]، قـــــــال « (مُزْدَجَر): ازدجار أو موضع ازدجار، والمعنى هو في نفسه موضع ازدجار ومظنة له، وقرئ (مزّجر) بقلب تاء الافتعال زاياً وإدغام الزاي فيها»[9].

---

[1]– سورة النور الآية 15.
[2]– الكشاف : 3/ 54.
[3]– سورة يس الآية 49.
[4]– الكشاف: 3/ 325.
[5]– سورة ص الآية 23.
[6]– في هذه إشارة إلى ما سماه سيبويه وغيره من علماء العربية كراهية التضعيف قال سيبويه:" ومن الشاذ قولهم أحست، ومست، وظلت، لما لما كثر في كلامهم كرهوا التضعيف... فحذفوا كما حذفوا التاء من قولهم : يستطيع فقالوا: يسطيع...." (ينظر الكتاب : 4/482– 483).
[7]– الكشاف :369/3.
[8]– سورة القمر الآية 04.
[9]– الكشاف : 36/4.

وفي قوله تعالى:﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾[1]، قال الزمخشري «وقرئ (لَيُزْلِقُونَكَ) و(لَيَزلِقُونَكَ) بضم الياء وفتحها و زلقه و أزلقه بمعنى ويقال: زلق الرأس وأزلقه: حلقه، وقرئ (ليزهقونك) من زهقت نفسه وأزهقها، يعني أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شذراً بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك»[2].

وفي قوله تعالى:﴿ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾[3]، قال الزمخشري:« وقرئ (مِرُدِّفِينَ) بكسر الراء وضمها وتشديد الدال وأصله: مرتدفين أي مترادفين أو متبعين من أرتدفهُ، فأدغمت تاء الافتعال في الدال فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل، أو على إتباع الدال، و بالضم على إتباع الميم»[4].

ومن الشواهـد على ذلك ما أورده الزمخشـــري في تفسير قولــــه تعالـــــى:﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ ﴾[5]، إذ قال«وقرأ عبدالله (قسيّة) أي رديه مغشوشة من قولهم: درهم قسيٌّ وهو من القسوة لأن الذهب والفضة الخالصين فيهما لين والمغشوش فيه يبس وصلابة، وقرئ (قِسِية) بكسر القاف للإتباع»[6].

ومن الشواهد على ذلك أيضاً ما ذكره في تفسير قوله عز وجل﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[7]، إذ قال:« قُرِئ (ولا تَرِكَنوا) بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن وعن أبي عمرو بكسر التاء وفتح الكاف على لغة تميم كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب علم يعلم، ونحوه قراءة من قرأ (فتِمَسكم النار) بكسر التاء»[8].

---

[1]– سورة القلم الآية 51.
[2]– الكشاف : 148/4.
[3]– سورة الأنفال الآية 09.
[4]– الكشاف: 2/ 507.
[5]– سورة المائدة الآية 13.
[6]– الكشاف : 1/ 600.
[7]– سورة هود الآية 113.
[8]– الكشاف 2/ 296.

ومن ذلك أيضاً ما أورده في تفسير قوله تعالى:﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ﴾[1]، قال الزمخشري:« وقرئ (الْمُثُّلاَتُ) بضمتين لإتباع الفاء العين والمَثْلات بفتح الميم وسكون الثاء ...والمُثْلات بضم الميم وسكون الثاء (تخفيف المثلات بضمتين)، الْمُثُّلاَتُ جمع مثله كركبة ورُكبات»[2].

ومن الشواهد على ذلك أيضاً ما أورده الزمخشري في تفسير قوله تعالى:﴿يس﴾[3]. إذ قال:« قرئ (يس) بالفتح كأين وكيف، أو بالنصب على (اتْل يس) وبالكسر على الأصل (كجير)، وبالرفع على(هذه يس) أو بالضم كحيثُ، وفخمت الألف وأميلت»[4].

ومن ذلك أيضاً ما ورد في تفسير قوله تعالى:﴿حم﴾[5]، إذ قال الزمخشري: «وقرئ بإمالة ألف (حا) وتفخيمها، وبتسكين الميم وفتحها ووجه الفتح التحريك لالتقاء الساكنين وإيثار أخف الحركات نحو أين وكيف»[6].

وأورد الزمخشري في تفسير كلمة (ضيزي) من قوله تعـــــــالى:﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾[7] ما نصه:«(ضيزى) جائرة من ضازه يضيزه إذا ضامه والأصل: ضوزي، وقرئ: ضئزي من ضأز بالهمز، وضيزي بفتح الضاد»[8].

على أن الزمخشري في أحيان نادرة يورد قوله:(قُرئ) أي من دون عزو ــ على سبيل الإجمال ــ لكنه في أثناء بسطه للآراء يتناول أصحاب القراءة بالذكر، على نحو ما فعله في تفسير قوله تعالى:﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[9]، إذ قال: «(بظنين) بمتهم من الظنة وهي التهمة، وقرئ بضنين من الضن وهو البخل: أي لا يبخل بالوحي فيزوي بعضه

1– سورة الرعد الآية 06.
2– الكشاف : 2/ 350.
3– سورة يس الآية 01.
4– الكشاف : 3/ 313.
5– سورة غافر الآية 01.
6– الكشاف 412/3.
7– سورة النجم الآية 22.
8– الكشاف : 31/47.
9– سورة التكوير الآية 24.

غير مبلغه أو يسأل تعليمه فلا يعلمه، وهو في مصحف عبد الله بالظاء، وفي مصحف أبي بالضاد، وكان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ يقرأ بهما»[1].

3) نقل الآراء.

استخدم الزمخشري أسلوب نقل آراء القراء واللغويين بكثرة في مناقشته للقضايا الصوتية، ففيما يتعلق بالقراء فقد مر معنا ــ في العنصر الأول من هذا المبحث ــ شواهد كثيرة على نقل الزمخشري لأوجه القراءة عن أصحابها، كما يورد آراء غير القراء بألفاظ قائليها، كاملة أو مجتزأة، وقد يشير إلى صاحب الرأي أو لا يشير إليه مكتفياً بالقول(يقال، قيل، قالوا وغيرها).

فمن أمثلة ذلك ما أورده في قراءة (نسياً) بالفتح في قوله تعالى:﴿ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا ﴾[2]، إذ قال:« وقرأ ابن وثاب والأعمش وحمزة وحفص(نَسياً) بالفتح، قال الفراء: هما لغتان كالوَتر والوِتر والجَسْر والجِسْر»[3].

ومن ذلك ما أورده في تفسير قوله تعالى:﴿والعَادِياتِ ضَبْحاً﴾[4]، إذ قال: «الضبح صوت أنفاس الخيل إذا عدون[5]، وعن ابن عباس أنه حكاه فقال: أح، أح»[6].

ومن الشواهد على عدم إشارة الزمخشري إلى صاحب الرأي ما أورده في تفسير قوله تعالى:﴿ لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[7]، قال الزمخشري في ذلك :« فإن قلت قد فرقوا بين العِوج والعَوج: فقالوا العِوج بالكسر في المعاني، و العَوج بالفتح في الأعيان والأرض عين فكيف صح فيها المكسور العين؟ قلت: اختيار هذا اللفظ له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون....»[8].

1– الكشاف : 225/4.
2– سورة مريم الآية 23.
3– الكشاف: 506/2.
4– سورة العاديات الآية01.
5– ينظر أساس البلاغة للزمخشري ص 372.
6– الكشاف: 277/4.
7– سورة طه الآية 107.
8– الكشاف : 553/2.

فما يلاحظ إذاً أن الزمخشري لم ينسب الرأي لأصحابه في الفرق بين العِوج والعَوج، غير أن بعض أصحاب المعاجم نسب ذلك لأبي زيد الأنصاري[1]، صاحب كتاب الفرق، إذ قال أبوزيد :«..وكل ما رأيته بعينك فهو مفتوح [العين] وما لم تره فهو مكسور [العين] ...وبعض العرب تقول في الطريق (عِوج) بالكسر»[2].

ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ فَلا تَسْمَعُ إلاَّ هَمْسًا ﴾[3]، إذ قال الزمخشري:«(فلا تسمع إلا همساً) وهو الركز الخفي ومنه الحروف المهموسة، وقيل: هو همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت: أي لا يسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر»[4].

وهنا أورد الزمخشري هذا الرأي من دون أن يذكر صاحبه، ولعل ذلك راجع لاشتهاره عند اللغويين، فقد أورد أبو حاتم السجستاني[5] في نزهة القلوب قوله: «(همساً) أي صوتاً خفياً، وقيل: يعني صوت الأقدام إلى المحشر»[6].

وجاء في أساس البلاغة:«همس الكلام أخفاه همساً، وكلام مهموس وحروف مهموسة، غير مجهورة (فلا تسمع إلا همساً) وهمس إلي بحديثه قال :

قَد خَطبَ النوْمُ إلي نَفْسي

هَمْساً وأَخْفَى من نَجيّ الهَمسْ

وما بأن أَطِلبُه من بَأسِ

والشيطان يهمس بوسوسته في صدر الإنسان، وهامسته مهامسة: ساررته(...) وسمعت همس الأخفاف والأقدام...»[7].

1– هو سعيد بن أوس بن ثابت أبو زيد الأنصاري عالم في اللغة والنوادر والغريب(ت 215هـ) (ينظر بغية الوعاة: 582/1).
2–المصباح المنير للفيومي، ص 435، 436.
3– سورة طه الآية 108.
4– الكشاف: 554/2.
5– هو سهل بن محمد بن عثمان السجستاني، الإمام في علوم القرآن واللغة والشعر(ت 255هـ) (ينظر بغية الوعاه: 606/1).
6– نزهة القلوب (في غريب القرآن)، ص 210..
7– أساس البلاغة للزمخشري، ص 706.

هذا و قد فسر الزمخشري كلمة (الركز) التي وردت في كلامه السابق في الكشاف فسرها بالهمس في موضع آخر من الأساس[1].

ومن الشواهد على ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى :﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾[2]، قال الزمخشري:« الصرصر، العاصفة التي تصرصر أي تصوت في هبوبها، وقيل الباردة التي تحرق بشدة بردها، تكرير لبناء الصر وهو البرد الذي يصر أي يجمع ويقبض»[3].

وقد أشار بعض أصحاب المعاجم إلى أن الصرصر بمعنى الباردة بحيث جاء في القاموس المحيط «(الصرة) بالكسر: شدة البرد أو البرد...وريح صَرْصرَ شديدة الصوت أو البرد»[4].

وأما القول بأن الصرصر هي العاصمة أو الريح الباردة التي تحرق فقد أورد ذلك الفراء حين تناول الآية السابقة بالتفسير إذ قال :« باردة تحرق كما تحرق النار»[5].

ومن الأمثلة في هذا الباب ما جاء في تفسير قوله تعالى :﴿الحَمْدُ للهِ﴾[6]، حيث قال الزمخشري:«(الحَمْدِ للهِ) بكسر الدال لإتباعها اللام، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة(الحَمْدُ للهُ) بضم اللام لإتباعها الدال، والذي جسرهما على ذلك والإتباع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم(مُنْحُدُر الجَبَل ومِغِيرة) تنزل الكلمتين منزلة كلمة لكثرة استعمالهما مقترنتين»[7].

قال الفراء في ذلك:« وأما من خفض الدال من (الحمدِ) فإنه قال: هذه كلمة كثرت على ألسن العرب حتى صارت كالاسم الواحد، فثقل عليهم أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمه بعدها كسرة، أو كسرة بعدها ضمه، ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل (إبِل)، فكسروا الدال ليكون على المثال من أسمائهم»[8].

---

[1]– ينظر نفسه، ص 248.
[2]– سورة فصلت الآية 16.
[3]– الكشاف : 449/3.
[4]– ينظر القاموس المحيط للفيروز آبادي : 126/2.
[5]– معاني القرآن للفراء: 13/3.
[6]– سورة الفاتحة الآية 02.
[7]– الكشاف : 1/ 51–52.
[8]– معاني القرآن: 3/1.

وهذا الذي تحدث عنه الفراء هو ما يعرف في عرف الدراسات الحديثة بظاهرة التماثل الحركي أو الإتباع، كما نص على ذلك الزمخشري في النص السابق. غير أن إشارة الزمخشري إلى قول العرب(مُنحُدُر الجبل و مِغِيرة) وقوله بان الإتباع لا يقع إلا في كلمة واحدة، له ما يؤيده من الشواهد التي ساقها علماء اللغة، فهاهو ابن جني يسوق بعضاً من الشواهد على ما سماه تقريب الصوت من الصوت، وهو يقصد هنا حركة من حركة، فنجده يقول:« فأما مغيرة فليس إتباعه لأجل حرف الحلق، إنما هو من باب: مِنتِن، ومن قولهم أنا أجوءك وأنبؤك، والقرفصاء، والسُلُطان وهو مُنْحدر من الجبل... »[1].

ومن الشواهد على ما نقله الزمخشري من آراء ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾[2]، إذ قال:« (لم يتسنه) لم يتغير والهاء أصلية أو هاء سكت واشتقاقه من السنه على الوجهين لأن لامهما هاء أو واو، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمان، وقيل أصله (يتسنن) من الحمإ المسنون فقلبت نونه حرف علة كتقضى البازي »[3].

إن ما نقله الزمخشري عن بعض أهل اللغة من أن (يتسنه) أصلة (يتسنن) من الحمإ المسنون ثم قلبت نونه حرف علة، إن ذلك يصب في مصب التغيرات الصوتية التي يفرضها التركيب والسياق، ففي ما نقله الزمخشري إشارة إلى ظاهرة المخالفة الصوتية[4]، التي تهدف إلى التقليل من التماثل الصوتي في السياق اللغوي وقد عبر عنها سيبويه بكراهية التضعيف، قال:« وذلك قولك: تسريت وتظنيت وتقصيت من القصة وأمليت»[5].

وقد ذكر الفراء أنه يجوز أن يكون النون في (تسنن) ــ والمقصود النون الثانية ــ قد أبدل ياءاً « لما كثرت النونات، كما قالوا، تظنيت وأصله الظن»[6].

---

[1]– الخصائص لأبن جني :1/ 497.
[2]– سورة البقرة الآية 259.
[3]– الكشاف : 390/1.
[4]– يقول إبراهيم أنيس: « إن الكلمة قد تشتمل على صوتين متماثلين كل المماثلة فيقلب أحدهما إلى صوت الآخر لتتم المخالفة بين الصوتين المتماثلين.. وهذا التطور هو احدي نتائج نظرية السهولة التي نادى بها كثير من المحدثين...وقد اعترف القدماء بكراهية التضعيف، ولعلهم كانوا يريدون بهذا أنه يحتاج إلى مجهود عضلي» (ينظر الأصوات اللغوية، ص 211، 212.).
[5]– الكتاب 424/4.
[6]– معاني القرآن: 182/1.

ومن الشواهد ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾[1]، حيث قال الزمخشري: « وقرئ (لَيُزْلِقُونَكَ) بضم الياء وفتحها وزلقه و أزلقه بمعنى، ويقال زلق الرأس وأزلقه حلقه، وقرئ ليزهقونك من زهقت نفسه و أزهقها: يعني أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شذراً بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك»[2].

جاء في لسان العرب:«زلق رأسه يزلقه زلقاً حلقه»[3]، وقد نص الفراء على أن « العرب تقول للذي يحلق الرأس : قد زلقه و أزلقه»[4].

غير أن الزمخشري ذكر أن بعضهم قرأها (لَيُزْهِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ)، وهي القراءة التي نسبها الفراء[5] لابن عباس وهي أيضاً للأعمش وأبي وائل ومجاهد[6]، كما نسبها الفراء أيضاً إلى عبد الله بن مسعود قال: « أي لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ، وذلك أن العرب كان أحدهم إذا أراد أن يعتان المال، أي يصيبه بالعين تجوع ثلاثاً، ثم يتعرض لذلك المال فيقول : تالله مالاً أكثر ولا أحسن(يعني ما رأيت أكثر فتسقط منه الأباعر فأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك فقالوا: ما رأينا مثل حججه، ونظروا إليه ليعينوه، فقالوا: ما رأينا مثله، وإنه لمجنون»[7].

والذي أراه أن (زلق) و(زهق) قد تكون من شواهد الإبدال الصوتي في العربية وإن لم يشر إلى ذلك الزمخشري، ولم أعثر ــ في كتب اللغة المتوفرة لدي ــ على من قال بذلك، غير أن ما أورده صاحب اللسان[8] من أن: زلقه و أزلقه من معانيها نحاه عن مكانه وبهذا المعنى فسر ابن منظور الآية السابقة...إذاً فما أورده ابن منظور هنا وما أورده في معنى (زهق) الذي هو (هلك واضمحل)، كل ذلك يشير إلى أن التركيبين بمعنى واحد وإن اختلفا

1– سورة القلم الآية 51.
2– الكشاف : 4/ 148
3– لسان العرب لأبن منظور: 885/5(زلق).
4 – ينظر معاني القرآن: 179/3.
5– ينظر معاني القرآن:179/3.
6– الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 162/9.
7– ينظر معاني في القرآن : 3/ 179.
8– لسان العرب :886/5: (ز ل ق) و (ز هــ ق).

في صوتي اللام والهاء، وهو الأمر الذي جعلنا نستنتج أن التركيبين يدخلان في شواهد الإبدال بين الأصوات الصامتة. كما يمكن القول هنا أيضاً أن اللام والهاء وإن كانا صوتين بينهما تباعد[1] إلا أن الإبدال يسوغ فيهما، وقد وقع الإبدال بين صوتي الميم والهاء في (لمز- لهز) على ما بينهما من تباعد، والتباعد المقصود هنا هو التباعد في المخرج والصفة، فالميم صوت شفوي مجهور متوسط بينما الهاء صوت حنجري مهموس رخو قال الزمخشري في ذلك حين فسر قوله تعالى:﴿وَيلٌ لِكُل هُمَزةٍ لُمَزَةٍ﴾[2]: «الهمز الكسر كالهرم، واللمز الطعن، يقال: لمزه ولهزه طعنه ...»[3]. فالإبدال إذاً بين الميم والهاء في(لمز – لهز) لا يختلف عن الإبدال بين اللام والهاء في (زلق – زهق)، والميم أخت اللام في الذلاقة والجهر والتوسط.

ومن الشواهد ما أورده الزمخشري في تفسير قوله تعالى:﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَت ﴾[4]، إذ قال: وقرئ «(الْمُثُلاَتُ) بضمتين لإتباع الفاء العين و (الْمَثْلاَتُ) بفتح الميم وسكون التاء كما يقال: السمرة و(المُثلاتَ) بضم الميم وسكون الثاء (تخفيف المُثُلاتَ بضمتين)، والمٌثلات جمع مُثله كركبة ورُكْبَاتَ»[5].

إن جمع (الْمُثلاَتَ) الذي أشار إليه الزمخشري هو في الواقع تخفيف لجمع (المٌثلاتَ) بضمتين، وهي لغة تميم وإن لم يذكر ذلك الزمخشري قال الفـــــراء:« وتميم تقول (الْمُثُلاَتُ) وكذلك قوله تعالى:﴿ وَآتُواْ النَّسَاء صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً ﴾[6]، حجازية وتميم: صدقات واحدها صدقة، وأهل الحجاز يقولون: أعطها صَدْقتها، وتميم تقول أعطها صُدقتها في لغة تميم[7] وعبارة الزمخشري (تخفيف المُثلات بضمتين) ويقصد بها (المثلات) بضم ثم فتح إشارة إلى ما عرفت واشتهرت به قبيلة تميم من التخفيف في استخدام الحركات.

---

[1]– فصوت اللام صوت ذلقي مجهور متوسط بينما صوت الهاء حنجري مهموس رخوا(ينظر الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس ص، 65 و 87).
[2]– سورة الهمزة الآية 01.
[3]– الكشاف : 4/ 283.
[4]– سورة الرعد الآية 06.
[5]– الكشاف : 2/ 350.
[6]–سورة النساء الآية 04.
[7]– معاني القرآن للفراء 59/2.

المبحث الثالث: مصادر الاستشهاد الصوتي.

اعتمد الزمخشري في إثباته للقواعد اللغوية الصوتية، وفي الاحتجاج لكثير من الأحوال النطقية التي يفرضها الاستخدام اللغوي...اعتمد على مصادر لغوية مهمة لإثبات أو نفي وجه من الوجوه النطقية لصوت معين أو لبناء من الأبنية، ومن أهم تلك المصادر التي وجدناه يحتج بها القراءات القرآنية ولغات العرب وأقوالهم.

1) القراءات القرآنية.

القراءات القرآنية هي« اختلاف ألفاظ الوحي المذكور في كِتَبة الحروف أو كيفيتها، من تخفيف وتثقيل وغيرهما»[1].

وقد وضع العلماء شروطاً للقراءة الصحيحة المقبولة فــــ « كل قراءة وافقت العربية ولو بوجه ووافقت أحد المصاحف العثمانية ولو احتمالا وصح سندها فهي القراءة الصحيحة التي لا يجوز ردها ولا يحل إنكارها بل هي من الحروف السبعة التي نزل بها القرآن ووجب على الناس قبولها، سواء كانت عن الأئمة السبعة أم عن العشرة أم غيرهم من الأئمة المقبولين، ومتى اختل ركن من هذه الأركان الثلاثة أطلق عليها ضعيفة أو شاذة أو باطلة سواء كانت عن السبعة أم عمن هو أكبر منهم »[2].

وقد استشهد الزمخشري في مواضع عديدة من تفسيره بالقراءات القرآنية لإثبات حكم من الأحكام الصوتية أو نفي أو إيراد قاعدة صوتية أو ظاهرة من الظواهر فمن ذلك ما أورده الزمخشري في إثباته لوقوع ظاهرة الإتباع في العربية وتدليله عليها أن قــراءة الحسن البصري(الحمدِ لله) بكسر الدال مـــــن قوله تعــالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ ﴾[3] وقراءة إبراهيم من أبي عبلة (الحمُدُ للهِ) بضم اللام هما من بين القراءات الشاهدة على شيوع ظاهرة الإتباع في الكلام العربي، وأنها تعبر عن أن الاستعمال يفرض ننفسه في واقع الكلام، فكثرة دوران اللفظة على الألسنة يعرضها للتطور الصوتي الذي يخرجها من دائرة

1– البرهان في العلوم القرآن : 223/1.
2– النشر في القراءات العشر لابن ألحزري: 15/1.
3– سورة الفاتحة الآية 01.

القاعدة اللغوية إلى واقع الاستخدام الذي لا يخضع إلا إلى سلطان الأداء والنطق، وقد عبر الزمخشري عن ذلك بقوله :« والذي جسرهما ــ يقصد الحسن البصري وإبراهيم من أبي عبلة ــ على ذلك والإتباع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم (مُنحُدر الجبل ويغيره) تنزل الكلمتين منزله كلمة لكثرة استعمالها مقترنتين...».[1]

وهذا الذي أشار إليه الزمخشري في الواقع جهد المحدثون في التقعيد له وبحثه حتى غدا قانوناً من قوانين التغير في اللغة وفي الأصوات بشكل خاص، فقد أشار بعضهم إلى أن الأصوات التي يشيع تداولها في الاستعمال، تكون أكثر تعرضاً للتطور من غيرها... وقد كان القدماء من علماء العربية يحسون بصحة هذه النظرية...وكانوا يشيرون إلى هذه الفكرة في ثنايا كتبهم[2].

وفي هذا الموضع نجد الزمخشري استشهد بقراءتي الحسن البصري وابن أبي عبلة في تدليله على وقوع هذه الظاهرة وهي الإتباع في العربية، فوقوع كسرة بعدها ضمة أو ضمة بعدها كسرة خاصة وأن ذلك وقوع في « كلمة كثرت على ألسن العرب حتى صارت كالاسم الواحد»[3].

ومن الشواهد على استشهاد الزمخشري بالقراءات في سبيل إثبات وقوع بعض الظواهر الصوتية ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ ﴾[4].

فقد أشار الزمخشري إلى وقوع ظاهرة الإمالة في قوله تعالى:(أبصارهم)، وتساءل الزمخشري عن السبب الذي جعل أبا عمرو بن العلاء والكسائي يميلان الألف في (أبصارهم) على الرغم من سبقها بصوت من أصوات الاستعلاء[5] وهو الصاد وأجاب عن هذا

---

[1]- الكشاف:51/1، 52.
[2]- ينظر : الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس ص 238.
[3]- معاني القرآن للفراء : 03/1، و"كلمة"ــ في كلام الفراء ــ يريد بها جملة(الحمْدُ للهِ) وإطلاق كلمة على جملة من باب المجاز.
[4]- سورة البقرة الآية 07.
[5]- ينظر الكشاف : 164/1.

التساؤل بالقول:« لأن الراء المكسورة تجلب المستعلية لما فيها من التكرير كأن فيها كسرتين وذلك أعون شيء على الإمالة وأن يمال له ما لا يمال»[1].

وجاء في كتاب الكنز في القراءات العشر أن« أبا عمرو، والكسائي إلا الليث والدوري عن حمزة والصوري عن ابن ذكوان أن كل ألف بعدها راء تليها مجرورة، هي لام الاسم أصلية كانت الألف أو زائدة... أن من أوزانه (أفعال) نحو (أبصارهم)»[2].

غير أن القاعدة المتفق عليها عند النحاة والقراء على حد سواء هي أن حروف الاستعلاء، بصفة عامة، تعد مانعة للإمالة قال سيبويه في (باب ما يمتنع من الإمالة من الألفات التي أملتها فيما مضي): « فالحروف التي تمنعها الإمالة همزة السبعة : الصاد والضاد، الطاء، الظاء، العين، القاف، والخاء، إذ كان حرف منها قبل الألف والألف تليه، وذلك قولك: قاعد، وغائب، وخامد وصاعد، وطائف، وضامن، وظالم.

وإنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعلية إلى الحنك والأعلى والألف إذا خرجت من موضعها استعلت إلى الحنك الأعلى، فلما كانت مع هذه الحروف المستعلية غلبت عليها، كما غلبت الكسرة عليها في مساجد ونحوها، فلما كانت الحروف مستعلية وكانت الألف تستعلي، وقربت من الألف، كان العمل من وجه واحد أخف عليهم، كما أن الحرفين إذا تقارب موضعهما كان رفع اللسان من موضع واحد أخف عليهم فيدغمونه ولا نعلم أحداً يميل هذه الألف إلا من لا يؤخذ بلغته»[3].

وقال ابن أبي مريم الشيرازي[4]،(ت 565هــ) في كتاب(الموضح في وجوه القراءات): « وأما ما يمنع الإمالة...فمنه الحروف المستعلية وهي السبعة أحرف (الصاد والضاد والطاء و العين والقاف والخاء) ..فهذه الحروف تمنع الإمالة إذا وقعت قبل الألف، وهي تلي الألف أو وقعت بعد الألف سواء وليها أو وقعت بعده بحرف أو حرفين نحو(صابر

1- الكشاف :164/1.
2- ينظر" فصل في إمالة الألف التي بعدها راء مجرورة " في كتاب الكنز في القراءات العشر لابن الوجيه الواسطي ص 91.
3- الكتاب : 4/ 129.
4- هو نصر بن على بن محمد أبو عبد الله الشيرازي الفارسي النحوي المعروف بابن أم مريم، أخد عن محمود بن حمزة الكرماني له شرح إيضاح الفارسي (ينظر بغية الوعاة: 2/ 314).

ناصر، هابط، منافيخ) وإنما امتنعت الإمالة مع الحروف المستعلية، لأن هذه الحروف صاعدة إلى الحنك الأعلى كما صعدت الألف فغلبت على الألف فمنعتها عن أن تصير إلى جهة الياء، فلا يتناسب الصوت فيها، فلحرصهم على تناسب الصوت امتنعوا على عن إمالة الألف مع الحروف المستعلية، كما أمالوها مع الكسرات والياءات إرادة لتناسب الصوت...لأن الانحدار بعد التصعيد غير ثقيل، فلهذا لا يستنكر، وإنما المستنكر عكسه، وهو التصعد بعد التسفل.»[1].

فإذاً اتفق علماء اللغة والقراءة على أن حروف الاستعلاء تمنع الإمالة، فما مبرر إمالة ألف(أبصارهم) وقد سبقها حرف استعلاء؟ وجواباً على هذا نسارع إلى إيراد ما يمنع إبطال الإمالة في هذه الحالة، وهو إذا اتصلت بالألف راء مكسورة قال سيبويه:« ومما تغلب فيه الراء قولك: قارب وغارم، وهذا طارد، وكذلك جميع المستعلية إذا كانت الراء المكسورة بعد الألف التي تليها»[2].

وقد تنبه سيبويه إلى قوة الراء في هذه الحال وعلى كل حال وذلك أنها صوت مكرر وأنها « إذا تكلمت بها خرجت كأنها مضاعفة.. فلما كانت كذلك قويت على نصب الألفات وصارت بمنزله القاف»[3].

والشاهد في هذا الكلام أن سيبويه ينبه إلى قوة الراء المتمثل في تكريرها[4]، وأن هذا التكرير يضاهي قوة القاف المستعلية، ولا غرابة إذن إن وجدنا الراء المكسورة لما فيها من التكرير تقوى على إمالة الألف المسبوقة بصوت استعلاء.

ويرى بعض المحدثين[5] أن حرف الاستعلاء ليست موضع خلاف في تأثيرها التفخيمي إذا كانت تالية للراء، أما إذا كانت سابقة عليها فيقع الاختلاف في تأثيرها التفخيمي.. فالأولوية لتأثير ما يلي الراء لا ما يسبقها، وعلى هذا فإن ما يلي الراء في الشاهد

---

[1] – ينظر الموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أم مريم الشيرازي، ت : عمر حمدان الكبيسي، مكتبة التوعية الإسلامية، مصر ط 2، 2001 ص 41.

[2] – الكتاب : 136/4.

[3] – الكتاب : 136/4.

[4] – قال مكي بن أبي طالب القيسي،« الحرف المكرر سمي بذلك لأنه يتكرر على اللسان عند النطق به، كأن طرف اللسان يرتعد به،..والراء حرف قوي للتكرير الذي فيه» (ينظر الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة ص، 130، 131).

[5] – مقال: دراسة صوتية للراء في ضوء القراءات القرآنية لمصطفي زكي التوني مجلة كلية دار العلوم العدد 20، 1996 ص 94.

المذكور(أبصارهم) هو الكسرة وهي حركة أمامية، وقد أثرت تأثيراً رجعياً فيما يسبقها وهو الألف فأملتها على الرغم من سبق الألف بحرف من حروف الاستعلاء وهو الصاد، لكن ذلك لم يكن مانعاً من حدوث الإمالة، ومما يدل أيضاً على قوة الكسرة وتأثيرها على الراء بالترقيق ما جاء عن الجماعة، بخلاف ورش من طريق المصريين من ترقيق للراء في مثل قوله تعالى: ﴿ وَقَالَ ادْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَاء اللَّهُ آمِنِينَ ﴾،(سورة يوسف الآية 99) وقوله تعالى:﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾(سورة سبأ الآية 12)، بحيث رقق الجماعة الراء في(مصر) و(القِطْر) لسبقها بكسر وهي هنا كسرة الميم في(مِصر) وكسرة القاف قي(القِطر) على الرغم من وجود حرف استعلاء بين الكسرة والراء، ولكن ذلك لم يكن مانعاً من حدوث التأثير التقدمي من الكسرة بالترقيق[1].

والترقيق هنا هو نتيجة المماثلة بين الكسرة والراء، وهو يشبه الإمالة في الشاهد السابق، وهي نتيجة المماثلة بين الكسرة والألف وإن كانت الأولى تقدمية والثانية رجعية. ومن الشواهد على استشهاد الزمخشري بالقراءات ما ورد في تفسير، قوله تعالى:﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُمْ ﴾[2].

قال الزمخشري: « وقرئ على الأصل تتلقونه، وإذ تلقونه(بإدغام الذال في التاء)»[3].

إن إشارة الزمخشري إلى إدغام الذال في التاء هي إشارة إلى ظاهرة صوتية سياقية وهي المماثلة الكاملة، وهي من قبيل إدغام المتقاربين، إذ إن الذال والتاء صوتان متقاربتان في المخرج،[4] وقد حفلت بعض القراءات القرآنية بإدغام الذال في التاء كقراءات أبي عمرو وحمزة والكسائي وخلف.[5]

وإدغام الذال في التاء جائز لقوة الحرفين، وذلك أن الذال فيها ضعف وقوة فالضعف من جهة أنها رخوة، والقوة من جهة أنها مجهورة، كذلك التاء فيها ضعف وقوة، فالضعف

---

[1] – ينظر المرجع السابق ص، 94.
[2] – سورة النور الآية 15.
[3] – الكشاف : 54/3.
[4] – فالأول من المخرج الأسناني والثاني من المخرج الأسناني اللثوي، وهما مخرجان متجاوران.
[5] – ينظر النشر : 13/2.

من جهة أنها مهموسة، والقوة من جهة أنها شديدة فقد تقاربت في القوة والضعف في صفاتهما فجواز الإدغام حسن[1] .

ومن شواهد الإدغام ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ مَا يَنظُرُونَ إلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾[2].

حيث قال الزمخشري:« (يَخَصِّمُونَ) و(يَخِصِّمُونَ) بإدغام التاء في الصاد مع فتح الحاء وكسرها وإتباع الياء الخاء في الكسر»[3].

وهنا حدثت مماثلة كاملة بين التاء والصاد وتفسير ذلك من الناحية الصوتية أن عين (أفتعل) وهي الصاد أثرت في تاء الافتعال، وذلك لأن الصاد مطبقة مستعلية مفخمة والتاء بضد ذلك فأدغمت التاء في الصاد والأصل يختصِمُون كما في قراءة أبي بن كعب[4].

ومن صور استشهاد الزمخشري بالقراءات لتقرير بعض الظواهر الصوتية ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿وإذَا أنْعَمْنَا عَلَى الإنَسانَ أعرض ونئا بِجَانبهِ و إذا مسه الشر فذو دعاء عريض﴾، إذ قال الزمخشري:« وقرئ (ونئا بِجَانبهِ) بإمالة الألف وكسر النون للإتباع..»[5]. بحيث اجتمعت في هذا الشاهد ظاهرتان صوتيتان هما الإمالة[6] والإتباع وهما ظاهرتان تخصان الحركات تعبران عن ما يكون بين الحركات من تجانس صوتي يفرضه الأداء الكلامي، وإشارة الزمخشري إلى إمالة ألف (ناي) ربما يكون السبب فيها هو ما يلي الألف وهو كسرة الباء في (بِجانبهِ) تحقيقاً للانسجام الصوتي بين إمالة الألف إلى الكسرة وكسرة الباء بعدها وهو أمر يفرضه السياق الصوتي لكل منهما، فقد وردتا في سياق واحد بحيث يتطلب نطق الألف، والأصح هي الهمزة المفتوحة، استواء اللسان في الفم مع انفتاح الشفتين، بينما يتطلب نطق الكسرة صعود الجزء الأمامي من اللسان نحو الحنك الأعلى و تحديداً نحو مقدم الحنك، ولا يخفى ما في انتقال اللسان من وضع الاستواء إلى الارتفاع من مشقة فتمال

---

[1] – القراءات القرآنية بين الدرس الصوتي القديم و الحديث لمي فاضل الجبوري ص 85.
[2] – سورة يس الآية 49.
[3] – الكشاف : 325/3.
[4] – معاني القرآن للقراءة 379/2.
[5] – الكشاف : 3/ 458– 459.
[6] – أمال الهمزة في كلمة (نأي) ابن سوار وفارس ابن أحمد والشاطبي، وأمال النون مع الهمزة الكسائي وخلف (ينظر النشر : 34/2).

فتحة الهمزة، المعبر عنها بالألف، نحو الكسرة تحقيقاً للانسجام الصوتي بينها وبين الكسرة بعدها. بيد أن ثمة تغير صوتي نتج عن هذه الإمالة وهو كسر نون(نِأي) والتي أصلها الفتح إتباعاً ــ كما عبر عن ذلك الزمخشري ــ لإمالة فتحة الهمزة، وهي حالة صوتية أملاها التركيب وقانون التجاور بين الحركات والأصوات. وقد اعتبر بعضهم أن ما حدث في الواقع في هذا الشاهد ليس إتباعاً لإمالة الهمزة، بل هو إمالة لفتحة النون نحو الكسرة تأثراً بإمالة فتحة الهمزة وهو ما يسميه الباحثون في مجال القراءات "الإمالة للإمالة" وقد قرأ القراء بالإمالة للإمالة في عدة كلم من ذلك صاد (النصارى)، وتاء (اليتامى)، وسين(أسارى) و(كسالى)، وكاف(سكارى) أمالها بعض القراء لإمالة ما بعدها[1].

وهذا النوع من الإمالة يدخل تحت مسمى التجانس الصوتي والاقتصاد في الجهد العضلي حتى لا يجمع القارئ في جهازه الصوتي بين عملتين مختلفتين، وهي أثر من آثار مجاورة الأصوات ورغبة في المماثلة أو التقريب كما وصفها ابن جني فجعل الإمالة إدغاماً أصغرا[2].

فالإمالة لكسر أو لإمالة هي انسجام بين الأصوات التي يطلقها المتكلم، والأذن العربية نرتاح لترديد الأصوات بغير مبالغة كما في السجع والقوافي الشعرية فرويها المتشابه مدعاة طرب عندهم، ولكن ازدحام الكلمات بأصوات مكررة مكروه فالعرب لا تحب التكرار.

ويدخل في مثل هذا تفخيم الراء وتغليظ اللام وترقيقها، فالانسجام والتجانس الصوتي هو مدعاة ذلك في الكلمة، وقد ذكر الدكتور سلمان العاني[3] أن التفخيم في الصوت يدعو إلى تفخيم الأصوات المجاورة في المقطع بل يمتد تأثيره إلى المقاطع المجاورة فتفخم أحياناً، ومجاورة الإمالة أو الكسر أو التاء يؤدي إلى ترقيق هذين الصوتين لتحدث المناسبة بين أصوات الكلمة فضلاً عن اختصار بعض الجهد في الأداء.

---

1 ــ ينظر النشر : 50/2.
2– ينظر الخصائص : 495/1ــ 496
3 – ينظر كتابه " التشكيل الصوتي في اللغة العربية" ص 70 وما بعدها.

ومن صور إدغام المثلين من الأصوات في بعض القراءات المستشهد بها في الكشاف ما جاء في تفسير قوله تعالى :﴿ وَلَقَدْ جَاءهُم مِّنَ الأنبَاء مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ ﴾[1].

حيث استشهد الزمخشري بقراءة (مُزّجَرٌ) بقلب تاء الافتعال زاياً وإدغام الزاي فيها[2]. والحق أن تاء الافتعال تقلب ابتداء إلى دال حتى تتماثل الدال مع الجيم من حيث الصفة، ومن ثم تقلب الدال زاياً "سعياً" إلى تماثل الدال مع الزاي من حيث المخرج، وينتج عن ذلك اجتماع زايين (الزاي) المنقلبة عن الدال والزاي الأصلية والتي هي فاء الفعل فتدغم الزاي في الزاي لتحقيق المماثلة الكاملة.

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه، أن تاء الافتعال في (مزتجر) تقلب ابتداء إلى دال وليس إلى زاي كما ذكر الزمخشري، أن الفراء قال ما نصه « إذا كان الحرف أوله زاي صارت تاء الافتعال فيه دالاً من ذلك: زُجِرَ، وأزدجر ومزدجر، ومن ذلك: المزدلف ويزداد هي من الفعل (يفتعل)....»[3].

وشبيه بالمثال السابق ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾[4]، حيث استشهد الزمخشري بقراءة :« (مُذَّكِرٍ) بقلب التاء ذالاً وإدغام الذال فيها[5]، وهنا حدث تماثل بين الذال (فاء الفعل) والدال (المنقلبة عن تاء الافتعال)، والتماثل الحادث هنا هو تماثل في المخرج لأن كلا الصوتين صوت مجهور وهذا يعد تماثلا من حيث الصفة وهي الجهر فاجتمع إذن ذالان (الأصلية والمنقلبة) فأدغمت الأولى في الثانية وبذلك تمت عملية التماثل الكامل. وقد نسب الفراء هذه القراءة إلى بعض بني أسد قال: " فيغلبون الذال فتصير ذالا مشددة»[6].

---

[1] – سورة القمر الآية 04.
[2] – ينظر الكشاف : 36/4.
[3] – معاني القرآن للفراء : 106/3.
[4] – سورة القمر الآية 17.
[5] – ينظر الكشاف : 38/4.
[6] – معاني القرآن للفراء :107/3

ومن صور الإدغام أو المماثلة ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾[1]. فقد أشار الزمخشري إلى قراءة (تَصَدَّى) وهي قراءة نافع وابن محصين[2].

وقد نص الزمخشري على أنها بالتشديد بإدغام التاء في الصاد، والتاء المقصودة هنا هي التاء الثانية لأن الأصل في(تَصَدَّى) هو (تتَصَدَّى)، ومن ثم تدغم التاء الثانية في الصاد وتبقى الأولى، والحق أن التاء الثانية سقطت تخفيفاً في قراءة العامة[3]، وقرئت الصاد بالتخفيف أي من غير تشديد إلا فيما ذكرناه من قراءة نافع وابن محصين بحيث أدغما التاء الثانية في الصاد.

و(تَصَدَّى) يتفعل من الصدى وهو الصوت: أي لا يناديك إلا أجبته كذا قال العكبري أبو البقاء، وأضاف أنه يجوز أن تكون الألف بدلاً من دال ويكون من الصدد وهو الناحية والجانب[4]، ومعنى هذا أن (تصدى) شاهد من شواهد المخالفة الصوتية وهي ظاهرة صوتية تهدف إلى التقليل من درجة التماثل التي تكون بين الصوتين المثلين[5]، فالصوتان المثلان هنا هما الدال والدال في(تصدد) ونظراً للثقل الناتج عن اجتماعها في كلمة واحدة تبدل الدال الثانية ألفاً لتتم المخالفة بين الصوتين المثلين، وكل ذلك يهدف إلى التخفيف في عملية الأداء والتقليل من الجهد العضلي المبذول.

ومما استشهد الزمخشري لإثبات ظاهرة الإمالة قراءة الحسين بن على(رضي الله عنهما). وذلك في تفسير قوله تعالى:﴿ أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا ﴾[6] والقراءة هي(أَنَّا صَبَبْنَا) بإمالة بإمالة ألف(أَنَّا)، غير أن الفراء نسبها في المعاني إلى الأعمش وعاصم وأضاف: « يجعلانها في موضع خفض أي فلينظر إلى صبنا الماء إلى أن صببنا، وفعلنا، وفعلنا...»[7].

---

[1] – سورة عبس الآية 06.
[2]– ينظر معاني القرآن للفراء: 236/3.
[3] – قرأ أبو جعفر (فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى) بضم التاء وتخفيف الصاد، (ينظر المحتسب: 2/ 352).
[4] – إملاء ما من به الرحمان للعكبري ص 577.
[5] – الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس ص211
[6] – سورة عبس الآية 25.
[7] – معاني القرآن: 238/3، وهي قراءة الأعرج ويحي ابن وثاب والكوفيين و رويس (النشر 298/2).

وقراءة الحسين بن على(رضي الله عنهما) (أَنَّا) بالإمالة حولها إلى حرف من حروف المعاني وهو (أنىّ) بمعني كيف في قوله تعالى :﴿ أَنَّىَ يُحْيِــي هَــَذِهِ اللَّهُ ﴾[1]. أي كيف يحييها؟ وقوله تعالى:﴿ فَأْتُواْ حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ ﴾[2].أي كيف شئتم، وقد ذكر ابن قتيبة[3] أن أن (أنى) يكون بمعنى: من أين، نحو قوله تعالى: ﴿ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ ﴾[4].

2) **لغات العرب وأقوالهم .**

استشهد الزمخشري، كغيره من اللغويين بطائفة من لغات وأقوال العرب على المسائل الصوتية الواردة في الكشاف، وهذه الاستشهادات في الحقيقة قليلة إذا قورنت بسابقتها (الاستشهاد بالقراءات القرآنية)، ويمكن أن نصنف استشهاداته في هذا الموضع صنفين؛ الأول منهما لغات العرب والثاني أقوال العرب.

الأول: لغات العرب : استشهد الزمخشري ببعض لغات العرب وهي لغة قريش وتميم ولغة السروات؛ فما استشهد به من لغة قريش قوله عند تفسيره قوله تعالى: ﴿ اهدِنَا الصِّرَاطَ المُستَقِيمَ ﴾[5]. قال:« والسراط من قلب السين صاداً لأجل الطاء كقوله(مصيطر في مسيطر، وقد تشم الصاد صوت الزاي وقرئ بهن جميعاً وفصحاهن إخلاص الصاد وهي لغة قريش»[6].

وقد ذكر صاحب الإملاء أن من قرأ (السراط) بالصاد « فقد قلب السين صاداً لتجانس الطاء في الإطباق، والسين تشارك الصاد في الصفير والهمس، فلما شاركت الصاد في ذلك قربت منها فكانت مقاربتها لها مجوزة قلبها إليها لتجانس الطاء في الإطباق »[7].

وهذا يعده المحدثون من ألوان التماثل الجزئي المدبر في حال الاتصال[8].

---

[1] – سورة البقرة الآية 259.
[2] – سورة البقرة الآية 223.
[3] – تأويل مشكل القرآن ص 525، وينظر إملاء ما من به الرحمان للعكبري ص 116.
[4] – سورة التوبة الآية 30.
[5] – سورة الفاتحة الآية 06.
[6] – الكشاف 68/1.
[7] – إملاء ما من به الرحمان للعكبري ص13
[8] – التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه لرمضان عبد التواب ص 48.

ومما استشهد به الزمخشري في هذا الصدد ما ذكـــــره عند تفسيره قولـــه تعالى:﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ ﴾[1]. حيث قال الزمخشري:« قرئ (وَلاَ تَرْكَنُواْ) بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو بكسر التاء وفتح الكاف على لغة تميم كسرها حروف المضارعة...»[2] .

فكسر التاء في (تِركنوا) لغة تنسب إلى قبيلة بهراء التي عرفت لهجتها بكسر هذا الحرف مع الياء أيضاً، وقد سميت هذه الظاهرة بتلتلة بهراء، وبهراء هذه قبيلة في قضاعة وكانت مساكنهم متاخمة لحدود الشام[3].

وقد نسبها صاحب اللسان إلى كثير من القبائل قال:«وتعلم بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب، وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون (تعلم)، والقرآن عليها»[4].

وهذه الظاهرة كما يشير إلى ذلك بعض المعاصرين- ظاهرة سامية قديمة توجد في العبرية والسريانية والحبشية[5].

وأما على صعيد التفسير الصوتي لهذا الظاهرة فقد ذكر إبراهيم أنيس أن حركة حرف المضارعة ربما خضعت في اللهجات إلى قانون صوتي، وأنه كان لطبيعة فاء الكلمة أثر في شكل حرف المضارعة، فحين كانت فاء الكلمة من حروف الحلق، مال حرف المضارعة إلى الفتح، أما في غير ذلك فقد التزم الكسر في معظم اللهجات[6].

غير أن اللغة العربية المعاصرة لم تعد تشتمل على أمثلة هذه الظاهرة، وكذلك اللغة العربية القديمة، إلا ما كان في بعض النصوص التي نقلها اللغويون حول كسر حرف

---

1 – سورة هود الآية 113.
2 – الكشاف : 2/ 296.
3 – في اللهجات العربية للدكتور أنيس ص 121.
4 – لسان العرب لأبن منظور: (وقي) مج 819/8.
5 – فصول في فقه العربية لرمضان عبد التواب ،ص125.
6 –في اللهجات العربية لأنيس ،ص 122.

المضارعة في الفعل (إخال) بمعنى أظن، وهذا المثال الشاذ حول هذه الظاهرة أدخله الدكتور رمضان عبد التواب ضمن ما سماه بالركام اللغوي[1].

ومما ذكر الزمخشري من استشهاد بكلام قبيلة تميم ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾[2]، حيث قال:« وأحهد بالحاء وأحّد وهي لغة تميم»[3].

والذي حدث في هذا التركيب هو أن الهاء قلبت حاء ثم أدغمت الحاء الأولى في الثانية(المنقلبة عن الهاء) وحدثت بذلك المماثلة الكاملة بينهما، ويفسر ذلك من الناحية الصوتية ما هو معروف عن صوت الهاء في عرفت اللغويين من الضعف والخفاء وقد أطلقوا عليه صفة الهت قال ابن جني في سر الصناعة:« من الحروف المهتوت وهو الهاء، وذلك لما فيها من الضعف والخفاء»[4].

ومن الشواهد التي أوردها الزمخشري حول الاستشهاد بلغات العرب ما ذكره عند تفسير قوله تعالى:﴿ وَجَاءتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُواْ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَى دَلْوَهُ قَالَ يَا بُشْرَى هَـذَا غُلاَمٌ ﴾[5].

قال الزمخشري:« وفي قراءة الحسن وغيره يا بشريّ بالياء مكان الألف جعلت الياء بمنزله الكسرة قبل ياء الإضافة، وهي لغة للعرب مشهورة، سمعت أهل السروات يقولون في دعائهم: يا سيدي ومولىّ »[6]. و(مولي) هنا جاء بالياء ويبدو من ذلك أن أهل السراة كانوا يميلون ومثله(يا بشريّ) بالياء مكان الألف كما ذكر الزمخشري وهو تقريب للألف الممدودة(الفتحة الطويلة) من الياء لإحداث الانسجام الصوتي بين الصوتين. وأما الفراء[7] فقد فقد نص على أن (يا بشريّ) بالياء المشددة لغة لهذيل ونقل عن بعض بني سليم أنه قال له: آتيك بمولي فإنه أروى مني، وقد قيد الفراء أن كل ألف أضافها المتكلم إلى نفسه جعلتها ياء مشددة قال الفراء أنشدني القاسم بن معن:

---

1 – في اللهجات العربية لأنيس ص 126.
2 – سورة يس الآية 60.
3 – الكشاف : 327/3.
4 – سر صناعة الأعراب: 74/1.
5 –سورة يوسف الآية19.
6 – الكشاف :308/2، 309.
7 – معاني القرآن : 2 /39.

تركو هويّ واعنقوا لهواهم **** ففقدتهم ولكل جنب مصرع

الثاني: أقوال العرب.

أورد الزمخشري بعضاً من الأقوال نسبها إلى العرب من دون تحديد، فهو يستخدم ألفاظاً مثل يقال، كقولهم، قيل قالوا وغيرها من ذلك ما أورده في معرض تفسيره لقوله تعالى في بداية سورة الفاتحة﴿ الْحَمْدُ للَّهِ ﴾[1].

قال الزمخشري:«وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة (الْحَمْدُ للَّهِ) بضم اللام لإتباعها الدال والذي جسرها على ذلك والإتباع إنما يكون في الكلمة واحدة كقولهم (مُنحُدُر الجبل)و(مِغِيرة) تنزل الكلمتين منزلة كلمة لكثرة استعمالهما مقترنتين»[2]، فــ (مُنحُدُر) الأصل فيها مُنحَدَر فأتبعت حركة الحاء والدال حركة الميم قبلهما فصارت (مُنحُدُر) وما حدث هنا حدث في كلمات أخر نقلها اللغويون عن العرب من دون عزو مثل(مِنتِن) والأصل فيها مُنتِن[3]، وكل ذلك من قبيل المماثلة في الحركات أو الانسجام الصوتي في الحركات وهو يهدف إلى تقريب الصوائت بعضها من بعض لضرب من التشاكل ومراعاة لظاهرة الانسجام، وكأن العلة في الانسجام أن اللسان يعمل في الحرفين عملا واحداً[4].

ومن الأمثلة على كلام العرب المستشهد به ما ذكره الزمخشري في معرض تفسيره قول الله تعالى:﴿ وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ ﴾[5]. حيث قال:«..ويقال: زلق الرأس وأزلقه حلقه»[6]. ونص الفراء على أن« العرب تقول للذي يحلق الرأس: قد زلقه وأزلقه»[7]، وجاء في اللسان: «زلق رأسه يزلقه زلقاً: حلقه وهو من ذلك وكذلك أزلقه وزلقه تزليقاً ثلاث لغات»[8].

---

1 – سورة الفاتحة الآية 01.
2 – الكشاف :51/1، 52.
3 – الخصائص لابن جني : 497/1.
4 – اللهجات العربية في التراث لأحمد علم الدين الجندي : 273/1.
5 – سورة القلم الآية 51.
6 – الكشاف : 148/4.
7 – معاني القرآن : 179/3.
8 – لسان العرب ☹زلق): 885/5.

ويتضح مما سبق أن زلق وأزلق وزلّق لغات ثلاث وردت عن العرب في الدلالة على الحلاقة غير أن (زلق) و(زلّق) عدها الزمخشري في الأساس من المجاز.[1]
وكأن المعنى الأصلي لزلق أو زلّق هو الملاسة واستعير بعد ذلك للدلالة على حلق الرأس.

ومن الشواهد على ما نقله الزمخشري عن العرب ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا ﴾[2] .

قال الزمخشري:« التدسية: النقص والإخفاء، بالفجور، وأصل دسي: دسس كما قيل في تقضض تقضى»[3]، فقد أشار الزمخشري إلى أن بعض العرب تقول في تقضض تقضى وهو من المخالفة الصوتية التي تهدف إلى التسيير في الأداء الصوتي والتخلص من عبء توالى الأمثال فقلبت الضاد الأخيرة ألفاً طويلة تخفيفاً للنطق بعدما كان توالى أمثال(ثلاث ضادات) يشكل عبئاً أدائياً[4]، وقد عرف اللغويون قديماً هذه الظاهرة وفطنوا لها وعللوها تعليلاً صوتياً، فقد جاء في اللسان«.. وربما قالوا: تقضى يتقضى، وكان في الأصل تقضض، ولما اجتمعت ثلاث ضادات قلبت إحداهن ياء كما قالوا تمطّى وأصله تمطط أي تمدد(....) وقـــال العجـــاج:

إذا الكرام ابتدروا البـــاع بدر **** تقضـــى البـــازي إذا البـــازي كســـر

أي كسر جناحه لشدة طيرانه».[5]

ويلاحظ هنا أن ابن منظور اعتبر أن الصوت المنقلب إليه هو الياء وليس الألف الطويلة(أو الفتحة الطويلة) تأثيراً بما كان يعتقده القدماء من أن الألف الطويلة إذا جاءت مقصورة اعتبروها ياء نظراً إلى صورتها التي تشبه الياء، ويمكننا ملاحظة ذلك أيضاً عند السيوطي من خلال هذا النص الذي يخلص لنا فيه ما سماه « اجتماع الأمثال المكروه» قال:« قالوا في دهدهت الحجر: دهديت، قلبوا الهاء الأخيرة ياء كراهية اجتماع الأمثال

---

1 – أساس البلاغة ص 274.
2 – سورة الشمس الآية 10.
3 – الكشاف : 259/4.
4 – التطور الصوتي في الألفاظ لمحمود عكاشة ص 44 وما بعدها.
5 – لسان العرب: (قضض): 649/4، وقد عقد سيبويه لهذه الظاهرة بابا في كتابه سماه«باب ما شذ فأبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف..» ينظر الكتاب: 424/4،

وكذلك قولهم في حاحا زيداَ: حيحا زيدُ قلبوا الألف ياءاً لذلك،و قال الخليل أصل 'مهما) الشرطية: ماما»[1]. قلبوا الألف الأولى هاء لاستقباح التكرير وكذلك دينار ودبياج، وقيراط، و ديماس، وديوان أصلها دنّار ودبّاج، و دوّان، قلب أحد حرفي التضعيف ياءً لذلك. ولبى أصله لبّب، قلبت الباء الثانية، التي هي اللام ياء هروباً من التضعيف فصار : لبى، ثم أبدلت الياء الفاً، لتحركها وانفتاح ما قبلها، فصار لبى»[2] .

ومن الأمثلة المستشهد بها لكلام العرب ما أورده الزمخشري في تفسيره لقول الله تعالى:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ ﴾[3]، حيث قال :« وأحهد بالحاء وأحّد (بالإدغام) وهي لغة تميم ومنه قولهم : دحّا محّا»[4]، فــ: دحّا ومحّا تركيبان لغويان بهما إدغام والأصل فيهما كما أورد صاحب اللسان نقلا من الفراء قوله:« تقول العرب: دحّا محّا، يريدون: دعها معها[5]، ويمكن تفسير ما حدث من تغير صوتي في هذين التركيتين من خلال الوقوف على مرحلتين مر بهما هذا التغير؛ المرحلة الأولى حدث فيها تأثر لصوت العين المجهور بصوت الهاء المهموس تأثراً رجعياً أو مماثلة رجعية فصارت العين حاء، لأن الحاء تماثل الهاء في الهمس، وبذلك تم التقريب بين العين والهاء المتنافرتان غير المنسجمتين في(الجهر والهمس).

وأما المرحلة الثانية فقد تأثرت الهاء في(دَحْهَا) و(مَحْها) بالحاء قبلها والمماثلة هنا غايتها الانسجام في المخرج لأن الحاء صوت حلقي بينما الهاء حنجري وإن كانا متجاورين على وجه العموم في المخرج، فأبدلت الهاء حاء والتأثير هنا أو المماثلة هي تقدمية لأن الثاني تأثر بالأول فحصلنا في النهاية على صوتين مثلين(حاءان) في(دححا) و(محححا) ومن ثم تم إدغام الأولى في الثانية وتحقيق بذلك المماثلة الكاملة. ويغلب على الظن أن (دحّا)

---

[1] – ينظر في الماهية التكوينية لهذا المورفيم المعجم الوصفي في مباحث علم الدلالة لعبد القادر عبد الجليل ص 373.
2 – الأشباه و النظائر للسيوطي 18/1.
[3] – سورة يس الآية 60.
[4] – الكشاف : 327/3.
[5] – لسان العرب: (دحح): 216/2.

(محّا) تأديتان صوتيتان قد تكونانِ لتميم اعتماداً على سياق ورودهما في كلام الزمخشري»[1].

ومما استشهد به من كلام العرب ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ إِذَا نُودِي لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ ﴾[2]، حيث قال الزمخشري:« ويوم الجمعة تثقيل للجمعة كما قيل في عُسْرة في عُسُرة..»[3]، فتركيب وعسره بالتخفيف جرى عليه تركيب جُمْعَة بالتخفيف عند من خفف وهو الأعمش كما نص على ذلك الفراء قال:« خففها الأعمش فقال: الجمعة وثقلها عاصم وأهل الحجاز، وفيها لغة: جُمَعَة وهي لغة لبني عقيل لو قرئ بها كان صواباً.»[4]، وقول الفراء أن (جمَعة) بفتح الميم لغة دل على أن (الجمعة) بتخفيف الميم هي أيضاً لغة وردت عن العرب بل لقد نص أبو حيان النحوي على أنها لغة لتميم، ومن ثم فإن الميل إلى التخفيف ينسجم تماماً مع هذا العزو لأنه على وجه العموم كانت قبائل تميم وأسد وغيرهما من قبائل بادية العرب تميل إلى التخفيف والاختزال الصوتي، وبالمقابل فإن قبائل الحجاز، في الأغلب الأعم كانت تميل إلى التخفيف الصوتي للأصوات، ويصدق هذا ما قال به الفراء في قوله السابق من أن التثقيل سمة لأهل الحجاز.

ومن ذلك أيضاً ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾[5]. حيث قال الزمخشري:« وقرئ (أبي لهْب)، بالسكون وهو من تغيير الأعلام كقولهـــــم (شَمسُ بن مالك) بالضم»[6].

فتركيب (لهْب) بالسكون يعد تخفيفاً(للهب) بفتحتيين وقد نص ابو البقاء العكبري على أن الإسكان في تركيب لهب هو لغة[7]، وأما شمس التي أشار إليها الزمخشري من أنها تغيير انبثق عن تركيب شمس فقد عدها من الأحوال التي تطرأ على الأعلام مثل ما حدث مع (لهب) في تحولها إلى(لهب) وإن كان اتجاه التغير هنا معاكس لما حصل في(شمس).

[1] – فصيغة (أحّد) بالإدغام مرت بنفس التغيرات الصوتية التي تحدثنا عنها مع (دحّا) (محّا) وصيغة(أحّد) صيغة تميمة كما نص على ذلك الزمخشري.
[2] –سورة الجمعة الآية 9.
[3] – الكشاف 104/4.
[4] – معاني القرآن للفراء: 156/3.
[5] ـــ سورة المسد الآية 01.
[6] – الكشاف: 296/4.
[7] – إعراب القراءات الشواذ: 2/ 389 إملاء من به الرحمان ص 592.

ومن الشواهد على الاستشهاد بكلام العرب ما جاء في تفسير قولــه تعالى:﴿ أَئِنَّا لَمَرْدُودُونَ فِي الْحَافِرَةِ ﴾[1]، حيث قال الزمخشري :« وقرأ أبو حيوة (في الحَفِرة) والحفرة بمعنى المحفورة يقال حفرت أسنانه فحفرت حفراً وهي حفرة، وهذه القراءة دليل على أن الحافرة في أصل الكلمة بمعنى المحفورة، يقال نخر العظم فهو نخر وناخر كقولك: طمع فهو طمع وطامع وفَعِل أبلغ من فاعل »[2]

فتركيب(الحفرة) أحد التركيبتين المستعملتين عند العرب وكلا هما بمعنى المحفورة قال صاحب اللسان "الحافرة الأرض التي تحفر فيها قبورهم فسماها الحافرة والمعنى يريد المحفورة[3] وأما(الحفرة) فهي مقصور من(الحافر) ونقل القرطبي أن الحفرة «هي الأرض المنتنة بأجساد موتاها من قولهم حفرت أسنانه، إذا ركبها الوسخ من ظاهرها وباطنها يقال في أسنانه حفر... وبنو أسد يقولون: في أسنانه حفر بالتحريك... وقيل: هما لغتان[4] بمعنى كذلك تقول العرب: نخر الشيء فهو نخر وناخر كقولهم: طمع فهو طمع وطامع، وحذر وحاذر، بخل وباخل»[5].

ويمكن أن يلاحظ هنا بعد أن ثبت عن العرب استخدام التركيبين (الحافرة) و (الحفرة) أن الأمر لا يعدو أن يكون سعي لتخفيف (الحافرة) باللجوء إلى تقصير الصائت الطويل والذي يعبر عنه القدماء بحذف الألف، وكان ذلك – على ما يبدو– صنيع قبائل البدو ويتضح ذلك من خلال إشارة القرطبي في النص السابق إلى قبيلة بني أسد وهي أحدى قبائل البادية، وقد عرف عن هؤلاء الإسراع في النطق والأداء وبالتالي الإمعان في التخفيف بإجراء المماثلة بين الحركات القصار فيسفر الأداء عن توالي ثلاث حركات قصار بدل حركة طويلة ثم حركتين قصيرتين.

---

[1] – سورة النازعات الآية 10.
[2]– الكشاف : 213/4.
[3] – لسان العرب (حفرة) 193/3
[4] – يقصد ناخر ونخر ومثلهما حافرة وحفره وقد اورد الزمخشري المثالين لتشابهما.
[5] – تفسير القرطبي 119/10

ومن الأمثلة التي استشهد بها الزمخشري من كلام العرب أو أقوالهم ما جاء في وتفسير قوله تعالى:﴿ لا تَرَى فِيهَا عِوَجًا وَلا أَمْتًا ﴾[1]، حيث قال الزمخشري: « فإن قلت فرقوا بين العِوج والعَوج فقالوا:العوج بالكسر في المعاني، والعوج بالفتح في الأعيان والأرض عين...»[2]، ويبدو أن ما نقله الزمخشري من قول العرب العوج بالكسر في المعاني والعوج بالفتح في الأعيان يعد موضع إجماع عند العرب[3]، إلا ما كان نادراً في أقوال بعض العرب من إطلاق العوج بالكسر في المعاني والأعيان معاً، فقد نقل صاحب اللسان عن ابن الأثير قوله:« قد تكرر ذكر العوج في الحديث أسماء وفعلاً ومصدرا وفاعلاً ومفعولاً وهو بفتح العين مختص بكل شخص مرئي كألاجسام، وبالكسر، بما ليس بمرئي كالرأي والقول، وقيل: الكسر يقال فيهما معاً...»[4].

غير أن ما يلاحظ أن(العِوج) بكسر العين يطلق على الأرض من قبيل أن الأرض كثيرة التعويج بحسب ما ذكره صاحب اللسان فأطلق عليها ــ مع أنها من الأعيان ــ لكثرة ما فيها من نتوء وحفر، يقول ابن منظور« والعوج بكسر العين في الدين وفيما كان التعويج يكثر مثل الأرض والمعاش..»[5].

وكأن(العِوج) بالكسر أدق تعبيراً عن معنى الاعوجاج في الأشياء من(العوج) بالفتح، والمعاني كما هو معلوم أدق وأخفى من الأعيان والمشاهدات وقد عبر الزمخشري عن هذه الدقة في اختيار اللفظ المناسب من قبل الله عز وجل بأنه اختيار:« له موقع حسن بديع في وصف الأرض بالاستواء والملاسة ونفي الاعوجاج عنها على أبلغ ما يكون... فنفي الله عز وعلا ذلك العوج الذي دق ولطف عن الإدراك »[6]، ومن ذلك ما وصف الله عز وجل به القرآن في قولـــه: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا ﴾[7].

---

[1] – سورة طه الآية 107.
[2] – الكشاف: 553/2.
[3] – ينظر الأساس للزمخشري: ص438، والمصباح للفيومي ، ص 434، 436.
[4] اللسان : (عوج):121/10.
[5] – نفسه الصفحة نفسها.
[6] – الكشاف :553/2.
[7] – سورة الكهف الآية 01.

ومن أقوال العرب المستشهد بها ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا ﴾[1]. قال الزمخشري في تفسير ذلك:« فلا تسمع إلا همساً، وهو الركز الخفي ومنه الحروف المهموسة، وقيل هو همس الإبل وهو صوت اخفافها إذا مشت»[2].

فالهمس لعل له دلالة عامة والمتمثلة في الصوت الخفي أو الركز الخفي قال صاحب المصباح، «الهمس، الصوت الخفي وهو مصدر(همست) الكلام إذا أخفيته»[3]، وهذا المعنى يعد شائعا في الاستخدام العربي ويمثل فيما يبدو الدلالة الأساسية للفظ (همس) ومن أجل ذلك بدأ به الزمخشري، ثم نقل عن العرب بعد ذلك دلالة أخرى لهذا اللفظ وهي همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت فقد ذكر صاحب اللسان ما روى عن ابن عباس أنه تمثل فأنشد:

وهـــــــن يمشين بنـــــا هميســـــــاً

قال وهو صوت نقل أخفافِ الإبل[4]، وأما على صعيد معنى الهمس في الآية الكريمة فقد ذكر الفراء في المعاني أنه نقل الأقدام إلى المحشر[5]، ونقل القرطبي عن الحسن وأبن جريج: هو صوت وقع الأقدام بعضها على بعض إلى المحشر[6]، وأضاف القرطبي قوله: «..وقيل الهمس تحريك الشفة واللسان وقرأ أبي بن كعب(فلا ينطقون إلا همساً)[7]، أي لا يسمع لهم نطق ولا كلام، ولا صوت أقدام»[8].

ونخلص مما سبق إلى أن ما نقله الزمخشري من أن همس التي هي بمعنى صوت أخفاف الإبل إذا مشت قد جعلته العرب في الإبل خاصة وفي سائر الحيوان عامة، فقد نقل صاحب اللسان عن العرب أنهم كانوا يسمون الأسد هموساً لأنه يهمس همساً أي يمشي مشياً

---

[1] – سورة طه الآية 108.
[2] – الكشاف : 2/ 554.
[3] – المصباح المنير للفيومي، ص 460، وينظر الأساس للزمخشري ص، 706.
[4] – لسان العرب : (همس)، 344/4.
[5] – معاني القرآن : 192/2.
[6] – تفسير القرطبي :112/6.
[7] – تفسيراً وليس قرآناً.
[8] – السابق : 112/6.

يخفيه فلا يسمع صوت وطئهِ[1]، ويبدو أن(همس) أطلقت أول ما أطلقت في المجال الدلالي لأصوات الحيوان أو أصوات أخفافهِ إذا مشي ثم انتقلت بعد ذلك إلى أصوات الإنسان أو أصوات وقع أقدامه على الأرض.

ومن الشواهد على ما نقله الزمخشري من أقوال العرب في تفسيره، ما ذكره عند تفسيره لقوله تعالى:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾[2].

حيث قال الزمخشري:« الصرصر: العاصفة التي تصرصر: تصوت في هبوبها وقيل الباردة التي تحرق بشدة بردها...»[3].

فتركيب (صرصراً) يحمل معنى البرد الحارقة وإحراقها شبيه بإحراق النار كما نص على ذلك الفراء[4]، وذكر القرطبي أن (صرصراً) بمعنى «ريحاً باردة شديدة البرد وشديدة الصوت والهبوب ويقال[5]: أصلها صررّ من الصرّ وهو البرد فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء فاء الفعل، كقولهم كببوا، وتجفجف الثوب أصله تجففّ»[6]، ويعلل القرطبي سبب دلالة (صَرْصَر) في الآية على البرد قال:« لأن (صَرْصَراً) مأخوذة من صرّ والصرّ في كلام العرب البرد كما قال امرؤ ألقيس.

لـــها عُـــذَرٌ كقـــــرون النســـا *** ءٍ رُكبْـــــنَ فـــي يوم ريح وصِـــــرّ »[7].

فالدلالة العامة الشائعة لتركيب(صَرّصر) هي الريح الباردة التي تحرق ببردها وهذه هي الخصيصة أو الملمح الأساس في كيانها الدلالي، وفي الوقت ذاته يمكن أن تحمل ملامح أخرى ذكرها علماء اللغة والمعاجم ومنها شديدة عاصفة كما نقل ذلك عن أبي عبيدة[8]، أو شديدة الصوت كما نقل عن ألسدي[9].

---

1 – ينظر اللسان:(همس) : 345/4.
2 – سورة فصلت الآية 16.
3 – الكشاف: 3/ 449.
4 – معاني القرآن : 13/3.
5 – نسب صاحب اللسان هذا القول إلى ابن السكيت، ينظر اللسان: (صرر)، 420/3.
6 – تفسير القرطبي: 214/8.
7 – نفســــــــه:214/8.
8 – تفسير القرطبي: 214/8.
9 – تفسير القرطبي : 214/8.

ويمكن أن نضيف في هذا الموضع ما نقله ابن منظور عن ابن الأنباري في قوله تعالى:﴿ كَمَثَلِ رِيَحَ فِيها صِر﴾[1] قال: فيها ثلاثة أقوال: أحدها: فيها صِر أي برد، والثاني: فيها تصويت وحركة[2].

والملاحظ أن كل تلك الدلالات للفظ (صرصرا) تصح في وصف ما حل بقوم عاد من عذاب الله بالريح التي هي آية من آياته عز وجل.

ومن الشواهد على ما احتج به الزمخشري من كلام العرب ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ ﴾[3]، حيث قال الزمخشري:«(لَمْ يَتَسَنَّهْ) لم يتغير يتغير الهاء أصلية أو هاء سكت واشتقاقه من السنه ...وقيل أصله يتسنن من الحمإ المسنون، فقلبت نونه حرف علة كنقضي البازي »[4]، فإشارة الزمخشري إلى أن من العرب من يعتبر أن أصل (يتسنه) هو(يتسنن) فيه إشارة إلى ما نقله أبو عمرو الشيباني عن العرب قال:« هو من قولهم حمإ مسنون فأبدلوا من يتسنن كما قالوا: تظنيت وقصيت أظفاري»[5].

وهذه الظاهرة اصطلح عليها علماء العربية حديثاً بظاهرة المخالفة[6]، وهي إبدال أحد الصوتين المثلين صوتاً يكون من الأصوات المائعة كاللام والنون والميم أو أحد الأصوات الصائتة الطويلة وهي حروف المد الثلاثة الألف والياء والواو أو ما هو من جنسها وهما الياء والواو غير المديتين. وقد عقد سيبويه لهذه الظاهرة الصوتية بابا[7]، في الكتاب سماه:« هذا بابُ ما شذ فأبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف، وليس بمطرد»، وتحدث فيه عن جملة من أمثلة هذه الظاهرة كتظنيت أصلها تظننت فأبدلت النون الثانية ياء للتخلص من اجتماع مثلين.

---

1 – سورة آل عمران الآية 117.
2 – ينظر تفسير القرطبي: 214/8
3 – سورة البقرة الآية 259.
4 – الكشاف: 390/1
5 – لسان العرب: 1080/7.
6 – ينظر ظاهرة المخالفة الصوتية ودورها في نمو المعجم العربي لأحمد عبد المجيد هريدي ص 15 وما بعدها.
7 – ينظر الكشاف : 424/4.

وأما في يتسنن فكما أشار إلى ذلك الزمخشري وأبو عمرو الشيباني[1]، فإن النون الثانية أبدلت حرف علة أو ألفا من اجل تخفيف عملية الأداء لأن اجتماع مثلين وهما النون الأولى المشددة والنون الثانية مبعث ثقل على اللسان فحينئذ يلجأ إلى التخفيف بإبدال الثانية ألفا أو فتحة طويلة ونحصل في النهاية على التركيب(يتسنى)، ومثل ذلك حصل أيضاً في (تقضى) لأن أصلها (تقضض) فأبدلت الضاد الثانية ألفا مقصورة وحصلنا على التركيب(تقضى) الذي هو أخف من تقضض.

وقال الفراء:« من قال في تصغير (السنه) سُنينة وإن كان ذلك قليلاً جاز، أن يكون تسنيت تفعلت أبدلت النون بالياء لما كثرت النونات، كما قالوا: تظنيت وأصلها الظن، وقد قالوا هو مأخوذ من قوله " من حمإٍ مسنون " يريد متغير فإن يكن كذلك فهو أيضاً هما أبدلت نونه ياء»[2].

وذكر صاحب الإملاء أن يتسنن هي:« من قوله (حمإٍ مسنون) فلما اجتمعت ثلاث نونات قلبت الأخيرة ياء كما قلبت في تظنيت ثم أبدلت الياء ألفا ثم حذفت للجزم»[3].

ويبدو واضحاً مما سبق أن الإبدال الذي حصل للنون الثالثة الأخيرة تحولت بموجبه إلى ألف أو فتحة طويلة وليس إلى هاء كما ذهب إلى ذلك بعض[4] المحدثين بحيث اعتبر أن النون الثالثة تحولت إلى هاء في حين أن الهاء ما هي في الواقع إلا هاء وسكت كما نص على ذلك قدماء العربية.

المبحث الرابع : موقف الزمخشري من أصل اللغة.

تناول العلماء قديماً وحديثاً موضوع أصل اللغة وتباينت آراؤهم ونظرياتهم حوله، وسنقف هنا مع بعض هذه النظريات والآراء ثم نبين موقف الزمخشري منها.

---

[1] – قال أبو عمرو الشيباني:« (يتسنه) أصله (يتسنن) فأبدلت إحدى النونين ياء كراهية التضعيف فصار يتسنى ثم سقطت الألف للجزم ودخلت الهاء للسكت» تفسير القرطبي: 192/2.

[2] – معاني القرآن : 172/1.

[3] – إملاء ما من به الرحمان للعكبري ص 116.

[4] – علوم اللغة العربية في الآيات المعجزات لنشأه محمد رضا ظبيان ص 112، أقول: إن قانون المخالفة الصوتية يقتضي بأن الصوت الذي يحصل به الإبدال لا بد أن يكون في الأداء الصوتي من الأصوات الأيسر نطقاً والأسهل أداء كالأصوات الصائتة الطويلة أو الأصوات المائعة أو أشباه الصوائت وهي الياء والواو غير المديتين كما هو واضح من خلال الشواهد الكثيرة على هذه الظاهرة في كلام العرب.

1. نظريات أصل اللغة:

النظرية الأولى: وهي نظرية التوقيف والإلهام ومؤداها أن الله عز وجل لما خلق المخلوقات ألهم آدم عليه السلام أن يضع لها تسميات ودليل علماء العرب على ذلك هو قوله تعالى:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ ﴾[1].

قال ابن جني: «..غير أن أكثر أهل النظر على أن أصل اللغة إنما هو تواضع واصطلاح لا وحي وتوقيف، إلا أن أبا على [الفارسي] رحمه الله، قال لي يوماً: هي من عند الله واحتج بقوله سبحانه:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾، وهذا لا يتناول موضع الخلاف، وذلك أنه قد يجوز أن يكون تأويله: أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة، فإذا كان ذلك محتملاً غير مستنكر سقط الاستدلال به»[2]، وواضح من هذا الكلام أن ابن جني متردد بين القول بتوقيفها واعتبارها وحياً من عند الله كما ذهب إلى أستاذه أبو علي.

إن القول بأن اللغة وحي من الله نزل على الإنسان فعلمه النطق وأسماء المسميات هو أول رأي حاول تفسير أصل الألفاظ والكلمات ووجودها في حياة الناس، ويعود القول بذلك إلى الفيلسوف اليوناني هيراقليط (توفي عام 480ق.م)[3].

– **النظرية الثانية:** وهي نظرية المواضعة والاصطلاح والتي ترى أن اللغة اتفاق بين الناطقين، وقد حاول ابن جني تقديم مؤدى هذا الاتفاق بين الناطقين بقوله:« كأن يجتمع حكيما أو ثلاثة فصاعداً، فيحتاجوا إلى الإبانة عن الأشياء المعلومات، فيضعوا لكل واحد منها سمة ولفظاً إذا ذكر عرف به مسماه، ليمتاز من غيره...فكأنهم جاءوا إلى واحد من بني آدم فأومأوا إليه وقالوا:..إنسان فأي وقت سمع هذا اللفظ علم أن المراد به هذا الضرب من المخلوق وإن أرادوا سمة عينه أو يده أشاروا إلى ذلك فقالوا: يد.. عين.. رأس..قدم أو نحو ذلك، فمتى سمعت اللفظة عرف معنيها...ثم لك من بعد ذلك أن تنقل هذه المواضعة إلى غيرها فتقول: الذي اسمه(انسان) فليجعل مكانه: مرد، والذي اسمه(رأس) فليجعل مكانه سر،

[1] – سورة البقرة الآية 31.
[2] – الخصائص : 94/1.
[3] – ينظر في علم اللغة العام لعبد الصبور شاهين ص 70.

وعلى هذا بقية الكلام..وعلى هذا ما نشاهده الآن من اختراعات الصناع لآلات صنائعهم من الأسماء كالنجار والصائغ، ولكن لابد لأولها من أن يكون متواضعاً بالمشاهدة والإيماء»[1] .

ويرى بعض المحدثين أن هذه النظرية ليس لها أي سند عقلي و نقلي أو تاريخي بل إن ما تقرره يتعارض مع النواميس العامة، التي تسير عليها النظم الاجتماعية.. لأن النظم تتكون بالتدريج من تلقاء نفسها، هذا إلى أن التواضع على التسمية يتوقف في كثير من مظاهره على لغة صوتية يتفاهم بها المتواضعون، فكيف نشأت هذه اللغة الصوتية إذن؟

ومن ثم فإن ما يجعله أصحاب هذه النظرية منشأ للغة، يتوقف هو نفسه على وجودها من قبل[2]، وذهب بعض الباحثين الآخرين إلى أن هذا الخيال ــ خيال تواضع الناطقين على تسمية الأشياء ــ بعمل في طياته عناصر البساطة والسذاجة[3].

النظرية الثالثة: وهي نظرية المحاكاة ومؤداها أن الإنسان سمى المسميات بأسماء مقتبسة من أصواتها، وقد عرض ابن جني لهذه النظرية بقوله:« وذهب بعضهم إلى أن أصل اللغات كلها، إنما هو من الأصوات المسموعات كدوى الريح، وحنين الرعد، وخرير الماء، وشحيح الحمار، ونعيق الغراب وصهيل الفرس، ونزيب الظبي ونحو ذلك، ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد، وهذا عندي وجه صالح، ومذهب متقبل»[4].

وقد ذهب إلى هذه النظرية كثير من المحدثين من علماء اللغة وعلى رأسهم العلامة(ويتني) ومن قبله ذهب إليها بعض فلاسفة العصور القديمة والوسطى، وتقرر هذه النظرية أن لغة المحاكاة محدودة الألفاظ قريبة الشبه بالأصوات الطبيعية التي أخذت عنها، قاصرة على الدلالة على المقصود، ومن ثم فهي محتاجة إلى مساعد يصحبها ليوضح مدلولاتها، وكان هذا المساعد هو الإشارات اليدوية والحركات الجسمية وهي حركات فطرية تصحب انفعالات الإنسان منذ نشأته[5].

---

[1] – الخصائص: 97/1.
[2] – ينظر المدخل إلى علم اللغة لرمضان عبد التواب ص، 111– 112.
[3] – ينظر في علم اللغة العام لعبد الصبور شاهين،ص 71.
[4] – الخصائص: 1/ 98– 99
[5] – ينظر الاساس في فقه اللغة لهادي نهر ص 57.

وبناءا على هذه النظرية يرى بعض العلماء أن مناسبة اللفظ للمعنى مناسبة حتمية، بمعني أن اللفظ يدل على معناه دلالة وجوب، لا انفكاك فيها وممن نادى بهذا الرأي عباد بن سليمان الصيمري من المعتزلة؛ فقد ذهب إلى أن بين اللفظ ومدلوله مناسبة طبيعية حاملة للواضع على أن يضع هذه اللفظة أو تلك، بإزاء هذا المعنى أو ذلك، ويروون عن بعض من تابعه على رأية هذا، أنه كان يقول: إنه يعرف مناسبة الألفاظ لمعانيها فسئل عن معنى كلمة:" إذغاغ" وهي بالفارسية الحجر ــ كما يقولون ــ فقال أجد فيه يبساً شديداً وأراه الحجر[1]. وقد شك الدكتور رمضان عبد التواب في صحة هذه الرواية عن الصيمري، وكذا صدق ما نقل عنه ،لأنه كما قال:« لوصح ما قاله لاهتدى كل إنسان إلى لغة على وجه الأرض»[2].

وعلى الرغم أن بعض الألفاظ موحية بمعاني معينة مأخوذة من جرسها مثل ما في لفظي(وسوس) و(همس) من الرقة وما في لفظي (دق) و(طرق) من القسوة، ولكننا لا نستطيع أن نربط هذه الألفاظ بأصوات محددة، ولا نجد خشونة في الفعل مقرونة بخشونة في القول، بل نجد اللفظ الرقيق كالسيف والرمس دالا على أقسى المعاني، ونجد اللفظ الجاسي كالبرقع، والقطر والقلب دالاً على أرق المعاني، وهذا يعني أن الأمثلة القليلة التي تتصاقب فيها المعاني والألفاظ في العربية أو في الإنجليزية لا ترقى بهذا الرأي الفطير من أفق التخمين والرجم بالغيب إلى أفق اليقين والعلم، والقوانين تبني على الكثير المطر لا على القليل والنادر[3] .

النظرية الرابعة: وهي نظرية التنفيس عن النفس ومؤدى هذه النظرية أن اللغة الإنسانية نشأت من أصوات عفوية فطرية أطلقها الإنسان الأول تعبيراً عن سرور أو نفور، وترجمة لقبول أو رفض، وبوحاً بحب أو بغض، ثم تطورت هذه الأصوات المنفعلة[4].

---

[1] – بحوث ومقالات في اللغة لرمضان عبد التواب ص 18
[2] – المدخل إلى علم اللغة – ص 114.
[3] – في علم اللغة لغازي مختار طليمات، ص48.
[4] – ينظر المرجع نفسه ، ص 50.

نقل فندريس في كتاب اللغة تصور أصحاب هذه النظرية لنشأة اللغة فقال:« عند هذا السلف البعيد، الذي لم يكن مخه صالحاً للتفكير، بدأت اللغة بصفة انفعالية محضة، ولعلها كانت في الأصل مجرد غناء، ينظم بوزنه حركة المشي، أو العمل اليدوي، أو صيحة كصحية الحيوان، تعبر عن الألم أو الفرح، وتكشف عن خوف أو رغبة في الغذاء. بعد ذلك لعل الصيحة اعتبرت، بعد أن زودت بقيمة رمزية، كأنها إشارة قابلة لأن يكررها آخرون، ولعل الإنسان وقد وجد في متناول يده هذا المسلك المريح، قد استعمله للاتصال ببني جنسه، أو لإثارتهم إلى عمل ما أو لمنعهم منه.. هذا الفرض تبدو عليه مخايل الصدق، وإن لم يكن مما يمكن البرهان عليه»[1].

وعلى الرغم من طرافة هذه النظرية وما يبدو عليها من مخايل الصدق ــ كما ذكر فندريس ــ إلا أنها ناقصة وغامضة؛ أما نقصها فلأنها لا تبين منشأ الكلمات الكثيرة التي لا يمكن ردها إلى أصوات انفعالية، وأما غموضها فلأنها لا تشرح لنا السر في أن تلك الأصوات الساذجة الانفعالية، تحولت إلى ألفاظ أو أصوات مقطعية، فلهذين الأمرين انصراف عنها اللغويون، وسخر منها ماكس موللر كذلك[2].

2. موقف الزمخشري من أصل اللغة:

جاء في كتاب الكشاف في تفسير قوله تعالي:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَـا ﴾[3]، « الأَسْمَاءَ كُلَّهَا: أي أسماء المسميات، فحذف المضاف إليه لكونه معلوماً مدلولاً عليه بذكر الأسمـــــاء لأن الاسم لابد لـــه مـــن مسمى، وعوض منه الـــلام كقولــــــه:﴿ وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا ﴾،[سورة مريم الآية 04] فإن قلت: هلا زعمت أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه وأن الأصل وعلم آدم مسميات الأشياء؟ قلت: لأن التعليم وجب تعليقه بالأسماء لا بالمسميات لقوله:﴿ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَــؤُلاء ﴾، أنبئهم بأسمائهم فلما أنبائهم بأسمائهم فكما علق الإنباء بالأسماء لا بالمسميات ولم يقل أنبئوني بهؤلاء وأنبئهم بأسمائهم

[1] – اللغة لفند ريس، ترجمة عبد الحميد الدواخلي ومحمد القصاص ، ص 38 – 39.
[2] – المدخل إلى علم اللغة لرمضان عبد التواب،ص 116.
[3] – سورة البقرة الآية 31.

وجب تعليق التعليم بها، فإن قلت: فما معنى تعليمه أسماء المسميات؟ قلت: أراه الأجناس التي خلقها، وعلمه أن هذا اسمه فرس وهذا اسمه بعير وهذا اسمه كذا، وعلمه أحوالها وما يتعلق بها المنافع الدينية والدنيوية»[1].

والذي يؤخذ من كلام الزمخشري أنه يميل إلى اعتبار أصل اللغة وحي وتوقيف وهو في هذا موافق لمعتقد أهل السنة الذين يذهبون مذهب التوقيف، بينما المعتزلة ــ والزمخشري من أعلامهم ــ يرون أن أصل واللغة اصطلاح و تواضع[2]، ولعل ذلك راجع إلى أصل معتقدهم أن الإنسان خالق أفعاله واللغة من جملتها، ومعى ذلك أن الزمخشري مخالف لمذهبه في هذه المسألة، تماماً كما خالف أبو علي الفارسي هو أيضاً مذهب المعتزلة لما قال بتوقيفية اللغة فقد ذكر ابن جني في الخصائص:« أن أبا علي قال لي يوماً: هي من عند الله واحتج بقوله سبحانه:﴿ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ﴾.. وذلك انه قد يجوز أن يكون تأويله أقدر آدم على أن واضع عليها، وهذا المعنى من عند الله سبحانه لا محالة»[3].

ومما يتصل بموضوع أصل اللغة عند الزمخشري إشارته إلى أول من تكلم العربية، فقد جاء في كتابه الفائق:« الحمد لله الذي فتق لسان الذبيح بالعربية البينة والخطاب الفصيح وتولاه بأثر التقدم في النطق باللغة التي هي أفصح اللغات وجعله أبا عذر التصدي للبلاغة التي هي أتم البلاغات واستل من سلالته عدنان وأبناءه واشتق من دوحته قحطان وأحياءه، وقسم لكل من هؤلاء من البيان قسطاً»[4].

ولعل الزمخشري فيما ذهب إليه يستند إلى حديث شريف ذكره القرطبي في الجامع وهو قوله صلى الله عليه وسلم« أول من فتق لسانه بالعربية المبينة إسماعيل وهو ابن عشر

---

[1] – الكشاف: 272/1.

[2] – من الذين آمنوا بذلك ودافعوا عنه من المعتزلة القاضي عبد الجبار في :« متشابه القرآن»، والجاحظ في «البيان والتبيين» وكانت قضية أصل اللغة بين المعتزلة وخصومهم من أهل السنة و الأشاعرة موضع خلاف حاد. وعلى الرغم من أن الأشاعرة (أتباع أبي الحسن الأشعري) (330هـ) والمعتزلة يتفقون على أن المواضعة شرط من شروط الدلالة اللغوية، ألا أن أبا الحسن الأشعري أقر بأن اللغة توقيف استدلالا بالآية السابقة (ينظر التصور اللغوي في الفكر الاعتزالي لمختار لزعر دار الأديب وهران 2006، ص 96ــ 97).

[3] – الخصائص: 1/ 94.

[4] – الفائق في غريب الحديث والأثر ضبط وتصحيح محمد البجاوي ومحمد أبو الفصل إبراهيم ط1، القاهرة 1945، ج1، ص1.

سنين»، وإن كان رأي القرطبي أن الصحيح في أول من تكلم باللغات كلها من البشر هو آدم عليه السلام[1].

[1] – الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 1/ 205.

الفصـل الثاني

الجـوانب النطقيـــة في الكشـــّاف.

المبحث الأول : مخارج الأصوات وصفاتها .

المبحث الثاني: الصوت اللغوي في فواتح السور .

المبحث الثالث: الـدلالـة الصوتيـة.

نتناول في هذا الفصل القضايا الصوتية التي ينتظمها ما يعرف عند علماء الأصوات بـــ"الفوناتينك" وهو القسم الذي يدرس أصوات اللغة وهي معزولة عن البنية اللغوية من حيث طبيعة الصوت ومخرجه وخصائصه، وكذا الصفات النطقية والسمعية المصاحبة لأدائه، والجرس الحادث بعد تمفصله والدلالات الصوتية لذلك الجرس، ومن ثم فإن عناصر هذا الفصل تتوزع على ثلاثة مباحث؛ وهي مخارج الأصوات وصفاتها في كتاب الكشاف ثم الصوت اللغوي في فواتح السور، وفي الأخير الدلالة الصوتية في كتاب الكشاف .

المبحث الأول: مخارج الأصوات وصفاتها.

1) مخارج الأصوات

المخرج هو موضع خروج الصوت وفيه يظهر ويتميز، أو هو الموضع من الفم ونواحيه الذي يخرج أو يُخرج منه الحرف[1]، ويقول ماريو باي:« إن التميز بين أصوات اللغة سواء منها الأنفي أو الفموي يعتمد على استمرار الصوت ودرجة إسماعه وقوة إنتاجه، وفوق كل هذا على المخرج. وكلمة المخرج تشير إلى النقطة المحددة في الجهاز النطقي التي يتم عندها تعديل وضعه وهذا التعديل ربما يحدث عن طريق إغلاق مجرى الهواء في نقطة معينة ثم فتحه فجأة ليندفع الهواء.. كما أنه يحدث عن طريق تضييق المجري إلى درجة تسمح بمرور الهواء ولكن مع احتكاكه بجانبي المجري محدثاً صوتاً مسموعاً. ويحدد اللسان، الذي هو أكثر أعضاء النطق قدرة على الحركة في العادة مخرج الصوت وطبيعتِه، وربما تقوم الشفتان بهذه المهمة وحدهما أو مع الأسنان »[2]

أشار الزمخشري في الكشاف إلى موضوع المخارج حين تطرق إلى الفرق بين مخرجي الضاد والظاء وهي مسألة شغلت القدماء من علماء اللغة والتجويد[3].

قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى:﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴾[4].

---

[1]- ينظر التطور النحوي للغة العربية لبراجيستراشر، ص 11.

[2]- أسس علم اللغة لماريو ياي ص 78.

[3]- التبست الضاد بالظاء في القديم بجامع الرخاوة والجهر والاستعلاء(أوالتفخيم) في كل منهما، وإن بقيت الاستطالة سمة فارقة بينهما، إذ إنها صفة لم تقر إلا للضاد وحدها، ومن ثم دأب المتقدمون على التحذير من الخلط بينهما...(ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية للدكتور عبد اللطيف الخطيب، ص 20 وما بعدها)

[4]- سورة التكوير الآية 24.

«..(بِضَنِينٍ) بمتهم من الظنة وهي التهمة، و قرئ بضنين وهو البخل: أي لا يبخل بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه أو يسأل تعليمه فلا يعلمه، وهو في مصحف عبد الله بالظاء وفي مصحف أبي بالضاد، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرأ بهما. وإتقان الفصل بين الضاد والظاء واجب ومعرفة مخرجيهما مما لابد منه للقارئ، فإن أكثر العجم لا يفرقون بين الحرفين وإن فرقوا ففرقاً غير صواب وبينهما، بون بعيد؛ فإن مخرج الضاد من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره.. وأما الظاء فمخرجها من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا، وهي أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء، ولو استوى الحرفان لما ثبت في الكلمة قراءتان واختلاف بين جبلين من جبال العلم والقراءة»[1].

إن هذا هو الموضع الوحيد من تفسير الكشاف الذي نجد فيه الزمخشري يتحدث عن مخارج الأصوات، غير أنه كاف للدلالة على وعي الزمخشري بالأصوات ومخارجها وحتى صفاتها، لا بل وحتى إتقان الفرق بين الأصوات التي قد يجد الناطق فيها صعوبة في التعريف بين تمفصلاتها الأدائية، وهو بهذا يحذو حذو بعض علماء التجويد في التنبيه على ضرورة ذلك التفريق[2].

ومن أجـل إتقـان الفـرق بين الضــاد والظــاء عند الزمخشري عمد إلى ذكر مخرجيهما؛ فالضاد:« من أصل حافة اللسان وما يليها من الأضراس من يمين اللسان أو يساره» وهذا التعريف يكاد يتطابق مع تعريف سيبويه لمخرج الضاد؛ فقد ذكر سيبويه أن الضاد« من بين أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس»[3].

---

[1]- الكشاف: 225/4.

[2]- جاء في المصباح المنير: " الضاد حرف مستطيل ومخرجه من اللسان إلى ما يلي الأضراس ومخرجه من الجانب الأيسر أكثر من الأيمن والعامة تجعلها ظاء فتخرجها من طرف اللسان وبين الثنايا وهي لغة حكاها الفراء عن المفضل قال: من العرب من يبدل الضاد ظاء فيقول(عظت) الحرب بني تميم، ومن العرب من يعكس فيبدل الظاء ضاداً فيقول في (الظهر) (الضهر) وهذا وإن نقل في اللغة وجازا استعماله في الكلام فلا يجوز العمل به في كتاب الله تعالى لأن القراءة سنة متعبة وهذا غير منقول فيها" (المصباح المنير للفيومي ص365).

وقال ابن الجزري في النشر: "والضاد انفرد بالاستطالة، وليس في الحروف ما يعسر على اللسان مثله ، فإن ألسنة الناس فيه مختلفة وقل من يحسنه فمنهم من يخرجه ظاء ومنهم من يخرجه بالذال، ومنهم من يجعله لاما مفخمة ومنهم من يشمه بالزاي وكل ذلك لا يجوز". (النشر في القراءات العشر: 173/1).

[3]- الكتاب: 433/4.

غير أن الزمخشري في المفصل يورد ذكراً لمخرج الضاد بعبارة سيبويه حين قال:« للضاد أول حافة اللسان وما يليها من الأضراس»[1]، والذي نفيده من ذلك أن الزمخشري ــ وربما غيره من علماء اللغة في الأغلب الأعم ــ لم يخرجوا عن عبارة سيبويه في وصف مخرج الضاد، والسبب في ذلك فيما نراه هو وضوح ذلك الوصف لمخرج الضاد وإشارتهِ إلى طبيعة الحركات العضوية المصاحبة لأدائهِ بشكل يكاد يكون دقيقاً أو هو أقرب من الدقة.

ولمزيد من البيان حول مخرج الضاد عند الزمخشري عمد إلى نقل الصورة النطقية التي كان عليها هذا الصوت عند أحد فصحاء العرب وهو الخليفة عمر بن الخطاب لما ذكر أنه (أي عمر رضي الله عنه):« كان أضبط، يعمل بكلتا يديه، وكان يخرج الضاد من جانبي لسانه»[2]

وذكر هذه الصورة الأدائية عند عمر رضي الله عنه تأتي في سياق حديث القدماء عن المخرج الدقيق للضاد عند العرب؛ فقد أشار الزمخشري في قوله السابق حول مخرج الضاد أن الضاد تكون من يمين اللسان أو يساره ولم يزد على ذلك. كما أنه لم يذكر أيها الأصل هل هو النطق من الجانب الأيمن؟ أو النطق من الجانب الأيسر. غير أن الذي لم يشر إليه الزمخشري جاء في حديث سيبويه عن صورة نطقية من صور نطق الضاد أو ما سماه هو بالضاد الضعيفة حيث قـــال :« الضاد الضعيفة تُتكلف من الجانب الأيمن، وإن شئت تكلفتها من الجانب الأيسر وهو أخف، لأنها من حافة اللسان مطبقة، لأنك جمعت في الضاد تكلف الإطباق مع إزالته عن موضعه. وإنما جاز هذا فيها لأنك تحولها من اليسار إلى الموضع الذي في اليمين وهي أخف لأنها من حافة اللسان، وأنها تخالط مخرج غيرها بعد خروجها، فتستطيل حين تخالط حروف اللسان، فسهل تحويلها إلى الأيسر لأنها تصير في حافة اللسان في الأيسر إلى مثل ما كانت في الأيمن ثم تنسل من الأيسر حتى تتصل بحروف اللسان، كما كانت كذلك في الأيمن»[3].

[1]- المفصل للزمخشري ص 419
[2]- الكشاف : 225/4.
[3]- الكتاب : 432/4 - 433.

والذي يمكن ملاحظته حول كلام سيبويه أن الضاد الأصل فيها أن تكون من الجانب الأيمن، غير أنها يمكن أن تتكلف من الجانب الأيسر وهذا يدل على أن التكلف من الجانب الأيسر أمر طارئ على الضاد، أو هو تغير مخرجي أصابها. وأما ما ذهب إليه الزمخشري في هذا فلعله يقف في صف الفريق من العلماء[1] الذي يرى أن الضاد تنطق من الجانبين وعلى ذلك كان عمر بن الخطاب كما أشار إلى ذلك في نص القول السابق.

وأما إشارة الزمخشري إلى أن الضاد من الحروف الشجرية في قوله:«وهي أحد الحروف الشجرية أخت الجيم والشين»[2]. فهو لا شك بيان للعائلة الصوتية التي ينتظمها مخرج واحد وهو شجر الفم، ولعل الزمخشري نقل ذلك عن الخليل لأنه أول من أشار إلى مخرج شجر الفم حين قال عن الضاد وأختيها " سميت شجرية لأن مبدأها من شجر الفم"[3].

ويتضح مما سبق أن الضاد عند الزمخشري صوت ينشأ من ذلك الاتصال غير المحكم بين أصل حافة اللسان وبين الأضراس الموالية لها، وهو صوت مطبق رخو يمكن أن يحدث في جانبي اللسان الأيمن والأيسر كما كان يفعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه، هذا إلى أن الضاد عند الزمخشري من الحروف الشجرية التي يتحدث منشؤها عند شجر الفم أو مفرج الفم، وتشاركها في ذلك الجيم والشين، وبذلك يكون الزمخشري قد جمع بين ما ورد عن صوت الضاد عند الخليل من تعيين للمخرج وهو شجر الفم، وما ورد عند تلميذه سيبويه من بسط للقول في صفة إخراجه.

وأما على صعيد الفرق بين وصف الزمخشري لمخرج الضاد ووصف المحدثين له فقد عد المحدثون صوت الضاد: « أسنانيا لثوياً»[4]. حسب ما يقدمه لنا الأداء الصوتي المعاصر لأصوات العربية. وأما ما سجله القدماء من وصف لنطق صوت الضاد فقد تقدم

[1] - هنالك ثلاثة أراء يمكن تسجيلها في مواقف العلماء قديماً من نطق الضاد؛ الأول أن الضاد تنطق من الجانب الأيسر وهو موقف أكثر القدماء والثاني أنها تنطق من الجانب الأيمن وهو موقف عدد قليل منهم. وأما الرأي الثالث فيرى أن الضاد تنطق من الجانبين معاً (ينظر همع الهوامع للسيوطي :292/6، تحقيق عبد العال سالم مكرم وهارون، ط دار البحوث العلمية - الكويت 1975).

[2] - الكشاف: 4/ 225،وفي أساس البلاغة " والضاد من الحروف الشجرية" الأساس ،ص 321.

[3] - العين للخليل :1/ 58 (تحقيق مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي دار الهجرة إيران قم ،ط1، 1405هـ).

[4] - ينظر مناهج البحث في اللغة لتمام حسان، ص 92 ، ودراسة الصوت اللغوي ص 316، وأثر القراءات في الأصوات والنحو العربي لعبد الصبور شاهين ص 227.

الحديث عنه، والزمخشري ــ على وجه العموم ــ لم يخرج عن ذلك المفهوم. فالمحدثون يقيدون القول في المخرج الضاد بالقول: « ينطق بوضع طرف اللسان بحيث يلتصق بالأسنان العليا، ومقدمه بحيث يتصل بأصول الثنايا التي تسمى اللثة ثم إلصاق الطبق بالجدار الخلفي للحلق ليسد المجرى الأنفي، ويتم كل ذلك مع وجود ذبذبة في الأوتار الصوتية »[1].

وقال بعضهم الآخر:" الضاد صوت أسناني لثوي وقفة انفجارية مجهور مفخم وهو الصوت الذي ينطقه ويعتمده المتخصصون وقراء القرآن الكريم في مصر، النظير المفخم للدال..وله وظيفة مستقلة في النظام الصوتي تختلف عن وظيفة نظيره الدال.."[2]. ويتضح من هذين النصين أن الضاد الحديثة أصبحت تنطق من مخرج غير مخرجها القديم وعلى ذلك فقد أصابها تغير أو تطور وأبرز وجوه[3] التغير الذي أصابها حين صارت تنطق دالاً مفخمة(أو مطبقة) يقول إبراهيم أنيس:« فالضاد الحديثة صوت شديد مجهور.. الضاد كما ننطق بها الآن في مصر لا تختلف عن الدال في شيء سوى أن الضاد أحد أصوات الإطباق»[4].

ولما كان قراء القرآن من المصريين يحتلون في زمننا هذا موقع الريادة في قراءة القرآن وفي التدريس في معاهد القراءة، فقد كان لهم تأثير هام وكبير في إشاعة نطق الضاد الحديثة(الدال المفخمة أو المطبقة) وهي من مخرج الطاء والدال والتاء فصار بذلك نطق الضاد بهذه الصفة هو النطق الفصيح.. الذي يجب أن يحتذى به في نطق العربية الفصحى اليوم[5] خاصة وأن هذا الأداء الصوتي للضاد الحديثة يستند إلى قراءات القراء في مصر والشام ومن تابعهم في ذلك.

[1]- مناهج البحث في اللغة لتمام حسان ،ص 92.
[2]- علم الأصوات لكمال بشر ص ، 267 - 268.
[3]- من أوجه التغير التي أصابت الضاد أنها تنطق عند بعض البدو وأهل العراق أشبه ما تكون بالظاء (ينظر الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس ص 49).
[4]- الأصوات اللغوية ص 48.
[5]-- ينظر المدخل إلى أصوات العربية لغانم قدوري الحمد ص 290، وينظر (التحول والثبات في أصوات العربية لحسام النعيمي مجلة المجمع العلمي العراقي ، ج1 بغداد 1986 ص 301).

وأما مخرج الظاء عند الزمخشري فـ: « من طرف اللسان وأصول الثنايا العليا وهي أحد الأحرف الذولقية أخت الذال والثاء..»[1]، وفي هذا الوصف مخالفة جزئية لما ورد عند سيبويه الذي نص على أن أصوات الظاء والذال والثاء:« مما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا»[2]، وموطن المخالفة هنا هو أن الزمخشري جعل أصوات الذال والثاء والظاء من طرف اللسان وأصول الثنايا، ولا شك أن هنالك فرقاً بين عبارة "أصول الثنايا" التي وردت عند الزمخشري وعبارة "أطراف الثنايا" التي وردت عند سيبويه، فالأولى تشير إلى مغارز الأسنان أو لحم الأسنان، وطرف اللسان إذا اتصل بهذا الجزء ينتج عن ذلك ولادة أصوات الطاء والدال والتاء قال: سيبويه« ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء »[3].

وأما العبارة الثانية وهي "أطراف الثنايا " ففيها إشارة إلى الموضع الذي يكون فيه طرف اللسان ملامسا لأطراف الأسنان العليا غير متصل بأصولها، وهذا ما يتطلبه أداء أصوات الظاء والذال والثاء. ولعل وهما ما حصل للزمخشري فخلط بين وصف مخرج المجموعتين، وإلا فإننا نجده في المفصل لا يخرج عن وصف سيبويه قال:« وللظاء والذال والثاء ما بين طرف اللسان وأطراف الثنايا»[4].

وأما وصف الزمخشري لصوت الظاء بأنه "أحد الأحرف الذولقية " فيبدو أنه تَفرُّد تَفرَّد به دون سائر علماء اللغة قديماً؛ فالمشهور المروي عن الخليل أن الحروف الذولقية أو حروف الذلاقة هي اللام والراء والنون، إضافة إلى الفاء والباء والميم، وجميع هذه الأصوات تتصف بالذلاقة وهي صفة تنشأ عن انطلاق اللسان بالراء واللام والنون من طرف أسلته وكذا خفة عمل الشفتين:« فلما ذُلقت الحروف الستة ومذل بهن اللسان وسهلت عليه في المنطق كثرت في أبنية الكلام...»[5].

---

[1]- الكشاف : 4/ 225.
[2]- الكتاب : 4 /433.
[3]- الكتاب : 433/4.
[4]- المفصل الزمخشري ص 419.
[5]- العين : 1/ 52.

وفي ما ذكره الزمخشري مخالفة من وجه أخر لما قال به الخليل عن أن صوت الظاء من الأصوات اللثوية قال:« والظاء والذال والثاء لثوية، لأن مبدأها من اللثة»[1]. والحق أن وصف هذا الصوت بأنه ذولقي كما ذكر الزمخشري أمر بعيد عن طبيعة أداء هذا الصوت، فهو يتحقق لما يقترب طرف اللسان اقترابا شديداً من أطراف الأسنان العليا، أو بعبارة أخرى لما يكون طرف اللسان بين أطراف الأسنان العليا والسفلى، وبناء على ذلك يلقبها المحدثون بالأصوات الأسنانية أو بين أسنانية[2].

ثم إن وصف هذا الصوت(الظاء) بأنه لثوي كما ذكر الخليل أيضاً يعد بعيداً عن طبيعتهِ الأدائية وإن كان بعض المحدثين يرى في تسمية الظاء وأختيها بالأصوات اللثوية هو تجوز في التسمية لخروجها قرب اللثة[3].

وقد وصف بعض المحدثين أيضاً هذا المخرج بــِ:«المخرج الأسناني الرخو»[4]، وهي تسمية اتخذت من صفة الرخاوة في أصوات/ظ/ذ/ث محددا من محددات وصف المخرج، وما يعيب هذه التسمية في نظرنا أنها تتخذ من صفة الرخاوة التي هي للأصوات، صفة لموضع خروج الصوت؛ فالمخرج لا يوصف بالرخاوة أو بالشدة، وإنما الذي يوصف بذلك هو الأثر الحادث(أي الصوت) في هذا المخرج.

وبالعود إلى ما ذكره الزمخشري حول وصف الظاء بأنها أحد الحروف الذولقية فقد ذكر في الأساس ما نصه:« حروف ذلق، و ذولقية، خارجة من ذلق اللسان»[5]، وهذا النص ربما يقدم تفسيراً مقبولاً لاعتباره الظاء وأختيها (الذال والثاء) حروفا ذولقية انطلاقا من وصفه لها بأنها خارجة من ذلق اللسان، وذلق اللسان هو طرفه جاء في لسان العرب «.. والحروف الذلق حروف طرف اللسان.. سميت ذلقاً لأن مخارجها من طرف اللسان. وذلق

---

[1]- العين : 58/1.
[2]- علم اللغة العام - الأصوات لكمال بشر ، ص 92.
[3]- فقه اللغة وخصائص العربية لمحمد المبارك، ص 48 أقول " إن هذا التجوز لا مبرر له وعندنا المصطلح الدال دلالة دقيقة وصريحة على طبيعة أداء هذه الأصوات وهو مصطلح أسناني أو بين أسناني كما تقدم ذكره".
[4]- في صوتيات العربية لمحي الدين رمضان ص 150.
[5]- أساس البلاغة ص 207.

كل شيء وذولقه طرفه»[1]. فالتسمية أخذت في الاعتبار عمل طرف اللسان، وهو الجزء المتحرك في عملية النطق، ولم تأخذ بالجزء الثابت وهو أطراف الأسنان العليا والسفلى.

وبعد..هذا ما أمكننا الوقوف عليه من حديث عن مخارج الأصوات عند الزمخشري، أما الحديث عن المخارج الأخرى[2]. فليس هنالك إشارة صريحة لها في الكشاف.

2) صفات الأصوات

حين يتكون الصوت من الأصوات في نقطة ما من الجهاز الصوتي، فإن ذلك التكون تصاحبه حركات عضوية مختلفة تقوم بها أعضاء النطق وهذه الحركات العضوية تسهم في إعطاء الصوت مزيداً من الخصائص المميزة بالإضافة إلى خصيصة المخرج الدقيق، الذي هو حاصل اتصال عضوين أثنين من أعضاء النطق اتصالاً قد يكون محكماً أو غير محكم. وقد اصطلح علماء العربية على ما يصحب عملية النطق من حركات وأنشطة عضوية بالصفات.

---

[1]- اللسان :854/5.'(ذ ل ق)

[2]- والمخارج الأخرى نوردها مرتبة حسب ما وردت في الكتاب لسيبويه، قال سيبويه: ولحروف العربية ستة عشر مخرجاً: فللحلق منها ثلاثة:

1. فأقصاها مخرجاً: الهمزة والهاء والألف.
2. ومن أوسط الحلق مخرج العين والحاء.
3. وأدناها مخرجا من الفم: العين والخاء.
4. ومن أقصى اللسان وما فوقه من الحنك الأعلى مخرج القاف.
5. ومن أسفل من موضع القاف من اللسان قليلاً ومما يليه من الحنك الأعلى مخرج الكاف.
6. ومن وسط اللسان بينه وبين وسط الحنك الأعلى مخرج الجيم والشين والياء.
7. مخرج الضاد (وقد سبق ذكره في المتن).
8. ومن حافة اللسان من أدناها إلى منتهى طرف اللسان ما بينها وبين ما يليها من الحنك الأعلى وما فويق الضاحك والناب والرباعية والثنية مخرج اللام.
9. ومن طرف اللسان بنية وبين ما فويق الثنايا مخرج النون.
10. ومن مخرج النون غير أنه أدخل في ظهر اللسان قليلا لا نحرفه إلى اللام مخرج الراء. =
11. ومما بين طرف اللسان وأصول الثنايا مخرج الطاء والدال والتاء.
12. ومما بين طرف اللسان وفويق الثنايا مخرج الزاي والسين والصاد.
13. مخرج الظاء والذال والثاء (وقد سبق ذكره في المتن).
14. ومن باطن الشفة السفلي وأطراف الثنايا العليا مخرج الفاء.
15. ومما بين الشفتين مخرج الباء والميم والواو.
16. ومن الخياشيم مخرج النون الخفيفة.

(الكتاب : 4 / 433 - 434).

وذكر مكي بن أبي طالب أن هذه الصفات والألقاب:« إنما هي طبائع في الحروف خلقها الله عز وجل على ذلك فسميت تلك الطبائع التي فيها، بما نذكر من الألقاب اصطلاحاً، ولقبت به اتفاقاً.....»[1].

تناول الزمخشري موضوع صفات الأصوات حينما عرض وجوه تأويل فواتح السور في تفسيره لبداية سورة البقرة حيث قال:«..واعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانه في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والياء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورة على عدد حروف المعجم، ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف[2]. بيان ذلك أن فيها من المهموسة نصفها الصاد والكاف والهاء والسين والحاء. ومن المجهورة نصفها الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والباء والنون. ومن الشديدة نصفها الألف والكاف والطاء والقاف. ومن الرخوة نصفها اللام والميم والراء والصاد والهاء والعين والسين والحاء والياء والنون. ومن المطبقة نصفها الصاد والطاء. ومن المنفتحة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والعين والسين والحاء والقاف والياء والنون. ومن المستعلية نصفها القاف والصاد والطاء. ومن المنخفضة نصفها الألف واللام والميم والراء والكاف والهاء والياء والعين والسين والحاء والنون. ومن حروف القلقلة نصفها القاف والطاء[3].

وفيما يلي بيان تلك الصفات التي ذكرها الزمخشري في نصه السابق.

أولاً :المجهورة والمهموسة.

قسم علماء العربية الأصوات بحسب ذبذبة الأوتار الصوتية وجوداً وعدماً إلى مجهورة ومهموسة.

---

[1]- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب ص 115، 116.

[2]- يعني بأجناس الحروف أقسام الأصوات بحسب الصفات، على ما استقر عليه الأمر مع سيبويه في الكتاب، فذكر من الصفات:المجهورة والمهموسة والشديدة والرخوة وبين الشديد والرخو والمنحرف وحروف الغنة والمكرر... وغيرها (الكتاب : 434/4 وما بعدها) .

[3]- الكشاف 1 /100 - 103.

الأصوات المجهورة:

قال سيبويه:«الحرف المجهور حرف أشبع الاعتماد في موضعه ومنع النفس أن يجري معه حتى ينقضي الاعتماد عليه ويجري الصوت»[1]، وقال المحدثون «..فالصوت المجهور هو الذي يهتز معه الوتران الصوتيان»[2].والأصوات المجهورة في العربية بحسب التجارب المعاصرة ثلاثة عشر صوتاً، وهي الباء والجيم، والدال، والذال، والراء، والزاي، والضاد، والظاء، والعين، والغين، واللام، والميم، والنون، يضاف إليها الواو والياء. وأما في تصنيف القدماء فقد ورد عنهم أنها تسعة عشر حرفاً؛ فبالإضافة إلى ما ذُكر، عد القدماء حروف:الألف والهمزة والطاء والقاف حروفاً مجهورة. وقد ذكر الزمخشري عشرة أصوات من هذه الأصوات المجهورة حين قال:« ومن المجهورةِ نصفها الألف واللام والميم والراء والعين والطاء والقاف والباء والنون»[3].

وعلى صعيد الفرق بين تصنيف الزمخشري للأصوات المجهورة وتصنيف المحدثين لها فالذي يظهر أن الزمخشري تابع سيبويه في تصنيفه للأصوات المجهورة، كما تابعهُ في ذلك أيضاً علماء اللغة والتجويد. غير أن الذي يمكن ملاحظته أن أصوات القاف والطاء استقر لدى المحدثين من الاصواتيين أنها أصواتٌ مهموسة وليست مجهورة كما ذكر القدماء. ولتفسير ذلك ذهب بعض المحدثين إلى أن هذا الاختلاف بين القدماء والمحدثين في وصف تلك الأصوات يعود إلى أحد أمرين[4].

أ- أن نطق العربية الفصحى أصابه التغير والتطور .

ب- أن نطق العربية الآن هو عينه النطق القديم، غير أن القدماء وهِمُوا في وصف تلك الأصوات.

وأما صوت الهمزة فأكثر المحدثين على أنه صوت لا مجهور ولا مهموس، قال بعض المحدثين:« .. والقول بأن الهمزة لا مجهور ولا مهموس هو الرأي الراجح إذ أن وضع

1- الكتاب : 4 / 434.
2- الأصوات اللغوية لأنيس ص 20، ومناهج البحث في اللغة لتمام حسان ص 88.
3- الكشاف : 100/1.
4- ينظر تفصيل ذلك في مدخل إلى علم أصوات العربية لغانم قدوري الحمد ص 283، وما بعدها.

الأوتار الصوتية حال النطق بها لا يسمح بالقول بوجود ما يسمى بالجهر أو ما يسمى بالهمس»[1].

وعلى هذا فوصف الزمخشري وكذا جملة القدماء للهمزة بأنها مجهورة أمر غير دقيق، والسبب في ذلك قد يعود إلى أنهم ــ أي القدماء بمن فيهم الزمخشري ــ كانوا ينطقونها متلوةً بحركة، والحركة مجهورة أو هي نفس مجهور، فأثر جهر الحركة على أداء الهمزة فوصفوها هي الأخرى بالجهر توهماً[2].

وأما الألف الذي ورد في تصنيف الزمخشري للأصوات المجهورة فإنه في المفهوم الصوتي المعاصر عبارة عن هواء مجهور أو نفس مجهور.. فلا يمكن القول في هذه النقطة من الجهاز الصوتي يضيق مجرى النفس محدثاً صوت الألف، كما يمكن أن نقول ذلك عن أي حرف آخر من حروف العربية، ومنها الياء والواو أختا الألف في الامتداد واللين[3]. ومن ثم فصوت الألف لا يصنف ضمن الأصوات الصامتة أصلاً حتى يكون ضمن المجهورة منها، وحقه أن يكون في صف الصوائت الطويلة أو الحركات الطوال، وهذه الطائفة ــ مع الحركات القصيرة ــ أصوات مجهورة باتفاق.

الأصوات المهموسة.

الصوت المهموس« حرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى النفس معه»[4].

وفي العرف الصوتي المعاصر هو:« الصوت الذي لا يهز معه الوتران الصوتيان ولا يسمع لهما رنين حين النطق به»[5].

والأصوات المهموسة عند المحدثين إثنا عشر، وهي التاء، والثاء، والخاء، والسين، والشين، والصاد، والطاء، والفاء، والقاف، والكاف، والهاء. بإضافة القاف والطاء على ما

[1]- علم اللغة العام - الأصوات لكمال بشر ص 112.
[2] ينظر علم اللغة العام - الأصوات لكمال بشر ص 115.
[3]- التحول والثبات في أصوات العربية لحسام سعيد النعيمي مجلة المجمع العراقي ج1 ص 273.
[4]- الكتاب : 4/ 434.
[5]- الأصوات اللغوية لأنيس ص20.

ذكره القدماء وهي عندهم عشرة أصوات يجمعها قولهم:« ستَشْحُثك خَصَفَه». والذي أورده الزمخشري خمسة منها وهي الصاد، والكاف، والهاء، والسين، والحاء.[1]

ثانياً: الشديــدة والرخوة.

قسم علماء العربية الأصوات بحسب إغلاق ممر النفس أو ضيقه عن موضع النطق إلى ثلاثة أقسام: شديدة ورخوة ومتوسطة.

فأما **الشديدة** فهي التي ينحبس النفس معها عند النطق، وقد عرف سيبويه الشديد بأنه « الذي يمنع الصوت أن يجري فيه»[2]، وذكر أصوات الشدة وهي الهمزة والقاف، والكاف، والجيم، مالطاء، والتاء، والدال، والباء. وذكر الزمخشري أربعة منها بقوله:« ومن الشديدة نصفها الألف والكاف والطاء والقاف»[3].

وصفه الشدة في الأصوات عند المحدثين تعني« انحباس الهواء معها عند مخرج كل منها انحباساً لا يسمح بمروره حتى ينفصل العضوان فجأة ويحدث النفس صوتاً انفجارياً»[4]. والأصوات الشديدة في العربية حسب التجارب الحديثة هي: الباء، والتاء، والدال، والطاء، والضاد، والكاف، ولقاف، والجيم القاهرية. وأما الجيم الفصيحة ففيها شيء من شدة الدال وهو جزؤها الأول وشيء من رخاوة الشين ويشكل جزأها الثاني، وعلى ذلك فهي صوت مركب أو مزجي مكون من (د+ ش)[5].

وبالعود إلى تصنيف الزمخشري للأصوات الشديدة أو ما ذكره منها على الأقل نلحظ أنه أورد الألف ضمن تلك الأصوات بدلا من الهمزة وهو وهم واضح منه، إلا إذا حملنا صنيعه هذا على محمل حسن، وهو ما كان قد استقر الأمر عليه عند القدماء من أن الألف رمز للهمزة، فتذكر و يراد بها الهمزة لأن الألف حاملٌ لرأس العين وهو أمر قام به الخليل لأجل أن يجعل الخط العربي مطابقاً لنطق العربية الفصحى قال ابن جني:« اعلم أن الألف التي في أول حروف المعجم هي صورة الهمزة، وإنما كتبت الهمزة واواً مرة وياء أخرى

[1]- الكشاف :1/ 101 - 102.
[2]- الكتاب: 434/4.
[3]- الكشاف: 102/4.
[4]- الأصوات اللغوية ص 23.
[5]- ينظر علم اللغة العام ـ الأصوات لكمال بشر ص 116.

على مذهب أهل الحجاز في التخفيف، ولو أريد تحقيقها البتة، لوجب أن تكتب ألفاً على كل حال »[1].

والخلاصة أن الزمخشري أورد لفظ الألف وأراد به الهمزة.

وأما **الأصوات الرخوة** فهي التي يضيق معها مجرى النفس حين النطق بها، وهي الهاء، والحاء، والغين، والخاء، والشين، والصاد، والضاد، والزاي، والسين، والظاء، والثاء، والذال والفاء. وقد عبر سيبويه عن الرخاوة في هذه الأصوات بأن المرء إذا نطق بها أجرى فيها الصوت[2] .

وضابط الرخاوة عند المحدثين أن « لا ينحبس الهواء انحباساً محكماً، وإنما يكتفي بأن يكون مجراه عند المخرج ضيقاً جداً، ويترتب على ضيق المجرى أن النفس في أثناء مروره بمخرج الصوت يحدث نوعاً من الصفير أو الحفيف تختلف نسبته تبعاً لنسبة ضيق المجرى»[3].

وقد ذكر الزمخشري أصوات الصاد والهاء والعين والسين والحاء على أنها أصوات رخوة، غير أنه أضاف إليها أصوات الياء والراء والعين واللام والميم والنون وهي أصواتُ متوسطة تحدث بالتقاء عضوين أو اتصالهما اتصالاً محكماً غير أن الهواء يجدله مسرباً إلى خارج الفم أو الأنف« وحينئذ يمر الهواء دون أن يحدث أي نوع من الصفير أو الحفيف.. ولعل هذا هو الذي دعا القدماء إلى تسمية هذه الأصوات بالأصوات المتوسطة، أي التي ليست انفجارية ولا احتكاكية»[4].

واللافت في هذا الصدد أن سيبويه أطلق على العين وحدها دون أخواتها من الأصوات المتوسطة، وصف "بين الشديدة والرخوة" على حين وصف اللام والميم والنون والراء بأنها حروف شديدة "جرى فيها الصوت". وأما الياء فلم يرد ذكرها مع هذه الطائفة من الأصوات إلا عند من جاء بعد سيبويه كابن جني[5] مثلاً.

---

[1]- سر صناعة الإعراب لابن جني 1: 55، وينظر مشكلة الهمزة العربية لرمضان عبد التواب، ص 14 وما بعدها.
[2]- ينظر الكتاب : 435/4.
[3]-الأصوات اللغوية، ص24.
[4] - الأصوات اللغوية لأنيس ص 24.
[5]- ينظر سر صناعة الإعراب75/1.

ولعل إيراد الزمخشري للأصوات المتوسطة السابقة الذكر مع الأصوات الرخوة ولم يخصهما بتصنيف خاص، راجع إلى اقتدائه بسيبويه بعدم تلقيبه لها، ورأى أنها في طبيعة أدائها هي أقرب إلى الأصوات الرخوة باعتبار أن عبارة سيبويه " جرى فيه الصوت" التي خص بها اللام والميم والنون والراء هي إشارة واضحة إلى صفة الرخاوة في هذه الأصوات. وقد ذكر الزمخشري في المفصل عن صفة التوسط في العين أنها تحدث من خلال إحساس الناطق أن في صوت العين « شبه الانسلال من مخرجها إلى مخرج الحاء»[1].

ومعنى ذلك أن صوت العين يشتمل على قدر كبير من الرخاوة تجعله أقرب إلى الأصوات الرخوة منه إلى الأصوات المتوسطة، وهو ما دعى بعض المحدثين من علماء الأصوات ــ بعد إجراء التجارب على هذا الصوت ــ إلى القول:«اتضح بصورة الأشعة أن في نطق العين تضييقاً كبيراً للحلق، وهذا ما يدعونا وما دعا غيرنا من المحدثين قبل ذلك إلى اعتبار صوت العين رخواً لا متوسطاً»[2].

ثالثاً: المطبقة والمنفتحة.

تنقسم الأصوات العربية بحسب وضع ظهر اللسان من حيث ارتفاع طرفه وأقصاه من عدم ذلك قسمين: المطبقة والمنفتحة .

فأما **المطبقة** فهي أصوات « إذا وضعت لسانك في مواضعهن انطبق لسانك من مواضعهن إلى ما حاذى الحنك الأعلى من اللسان ترفعه إلى الحنك فإذا وضعت لسانك فالصوت محصور فيما بين اللسان والحنك إلى موضع الحروف»[3] وأصوات الإطباق في العربية أربعة: الصاد والضاد والطاء والظاء. ويعلل مكي بن أبي طالب تسمية حروف الإطباق بقوله :«لأن طائفة من اللسان تنطبق مع الريح إلى الحنك عند النطق بهذه الحروف وتنحصر الريح بين اللسان والحنك الأعلى عند النطق بها مع استعلائها في الفم »[4].

وقد ذكر الزمخشري من أصوات الإطباق صوتين فقط وهما الصاد والطاء.

[1]- ينظر المفصل الزمخشري ص 421.
[2]- مناهج البحث في اللغة لتمام حسان ص102، ودراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر ص 322.
[3]- الكتاب : 4/ 436.
[4]- الرعاية ، ص 122.

وأما المحدثون فيعرفون الإطباق بأنه « اتخاذ اللسان شكلا مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى ويرجع إلى الوراء قليلاً»[1] . فالصاد صوت مطبق يتحقق فيه الإطباق (التفخيم) بارتفاع مؤخر اللسان تجاه الحنك الأعلى ورجوعه قليلاً إلى الخلف[2].

وأما الطاء فاللسان معها « يتخذ شكلاً مقعراً منطبقاً على الحنك الأعلى، ويرجع إلى الوراء قليلا[3].

إن الشكل الذي يتخذه اللسان مع أصوات الإطباق ــ ومنها الصاد والطاء ــ وذلك أن طرف اللسان وأقصاه يرتفعان ويتقعر وسطه مما يعطيه شكلاً مقعراً.. إن الارتفاع في هذين القسمين من اللسان أشار إليه سيبويه إشارة واضحة لما قال عن الأصوات المطبقة؛ الصاد والضاد والطاء والظاء:« فهذه الأربعة لها موضعان من اللسان، وقد بُين ذلك بحصر الصوت»[4]، وهذا ما يتوافق تماماً مع وصف المحدثين؛ فقد سجل بعضهم أن الإطباق بحصر الصوت (ومعناه الأثر السمعي)، بين اللسان والحنك، كما أن اللسان حينما يرتفع إلى الحنك الأعلى يكون لهذه الأصوات موضعان من اللسان أحدهما موضع المخرج وهو بالنسبة مثلا لصوتي الصاد والطاء المخرج الأسناني اللثوي، وثانيهما موضع التفخيم وهو مؤخر اللسان المرتفع إلى الحنك الأعلى[5].

وأما المنفتحة فهي التي«لا تطبق لشيء منهن لسانك، ترفعه إلى الحنك الأعلى»[6].

فالانفتاح ضد الإطباق وهو عدم رفع مؤخر اللسان نحو الحنك الأقصى وتأخره نحو الجدار الخلفي للحلق عند النطق بالصوت فينتج عن ذلك عدم حصر الصوت بين اللسان والحنك.

وأصوات الانفتاح هي جميع الأصوات عدا الأصوات المطبقة الصاد والضاد والطاء، والظاء وقد ذكر الزمخشري نصفها.

1- الأصوات اللغوية ص 62.
2- ينظر علم اللغة العام ـ الأصوات لكمال بشر ص 120
3- الأصوات اللغوية ،ص 62.
4الكتاب: 4/ 436.
5- ينظر اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان ص 63.
6- الكتاب : 436/4.

رابعاً:المستعلية والمنخفضة.

حروف **الاستعلاء** سبعة « منها الأربعة الأحرف التي هي حروف الإطباق المذكورة، والغين والخاء والقاف، وإنما سميت بالاستعلاء، لأن الصوت يعلو عند النطق بها إلى الحنك[الأعلى] فينطق الصوت مستعلياً بالريح (مع طائفة من اللسان مع الحنك مع حروف الإطباق المذكورة على هيئة ما ذكرنا، ولا ينطبق مع الخاء والغين والقاف إنما يستعلى الصوت غير منطبق بالحنك »[1]، فالأصوات المستعلية إذا سبعة وهي الصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف والخاء، وقد ذكر سيبويه مصطلح الاستعلاء وذكر أصواته عند حديثه عن موانع الإمالة في الحروف قال:«فالحروف التي تمنعها[2] الإمالة هذه السبعة: الصاد والضاد، والطاء، والظاء والغين والقاف والخاء...وإنما منعت هذه الحروف الإمالة لأنها حروف مستعلية إلى الحنك الأعلى[3].

وأما الزمخشري فقد كان مصطلح الاستعلاء عنده محددا وواضحاً، وقد صاغه بإيجاز بقوله: «والاستعلاء، وارتفاع اللسان إلى الحنك، أطبقت أو لم تطبق ... والمستعلية الأربعة المطبقة والخاء والغين والقاف... »[4]، وذكر الزمخشري منها القاف والصاد الطاء.

وأما حروف **الانخفاض** فهي:« ماعدا الحروف المستعلية المذكورة، وإنما سميت مستفلة لأن اللسان والصوت لا يستعلي عند النطق بها إلى الحنك، كما يستعلي عند النطق بالحروف المستعلية المذكورة»[5]. ومصطلحا[6] الانخفاض والاستفال بمعنى واحد في استخدام استخدام اللغويين وعلماء التجويد واستعمل الزمخشري مصطلح الانخفاض للدلالة على الحروف غير المستعلية، ثم أنه في كتابه "المفصل" استخدم مصطلح الانخفاض أيضا في معرض تعريفه للاستعلاء فقد قال في التعريف السابق:«الاستعلاء ارتفاع اللسان إلى الحنك أطبقت أو لم تطبق، والمنخفضة ما عداها».

---

[1]- الرعاية لمكي القيسي ص 123، وما بين قوسين مربعين في النص زيادة من عندنا يقتضيها السياق.
[2]- أي الألف التي تمال.
[3]- الكتاب : 4/ 128 – 129.
[4]- المفصل، ص421.
[5]- الرعاية ص 124.
[6]- مصطلح الانخفاض من وضع الخليل بينما مصطلح الاستفال من وضع تلميذه سيبويه (ينظر المصطلح الصوتي في الدراسات العربية لعبد العزيز الصبغ ص 143 وما بعدها).

وقد ذكر الزمخشري في تفسيره نصف الأصوات المستقلة .

خامساً:أصــوات القلقلة.

قال سيبويه:« إن من الحروف حروفاً مشربة ضغطت من مواضعها، فإذا وقفت خرج معها من الفم صويت، ونبا اللسان عن موضعه، وهي حروف القلقلة»[1]. وقال مكي في الرعاية:« القلقلة ويقال اللقلقة وهي خمسة أحرف، يجمعها هجاء قولك: "جد بطق"، وإنما سميت بذلك لظهور صوت يشبه النبرة عند الوقف عليهن، وإرادة إتمام النطق بهن..»[2].

وقال الزمخشري في المفصل:« القلقلة ما تحس به إذا وقفت عليها[3]، من شدة الصوت المتصعد من الصدر مع الحفز والضغط»[4]. فحروف القلقلة إذن خمسة وهي: القاف والجيم والطاء والدال والباء.

إن ما يميز أصوات القلقلة هي أنها أصوات شديدة (أو انفجارية) ومجهورة في الآن معاً، وقد لاحظ علماء الأصوات واللغة والتجويد أن هذه الأصوات عندما تكون مشكلة بالسكون يجب إتباعها بصويت أو حركة خفيفة من أجل أن يتحقق نطقها تحققاً كاملاً، بمعنى الإتيان بخاصيتي الجهر والشدة معاً، وتفسير ذلك أن نطق هذه الأصوات بالذات نطقاً كاملاً واضحاً حال السكون يستدعي جهداً كبيراً، وذلك لأن شدتها تعني أن الهواء عند نطقها محبوس حبساً تاماً، ولأن جهرها يعني عدم جريان النفس معها، ومن ثم وجب إتباعها بصويت أو حركة خفيفة فتنتقل هذه الحروف من السكون إلى شبه التحريك فيتحقق نطقها نطقاً كاملاً بكل صفاتها من شدة وجهر[5].

وبالعود إلى تعريف الزمخشري للقلقلة، فلعله من القلة القليلة من العلماء الذين أشاروا في تعريف القلقلة إلى صفة الجهر التي تجمع أصوات القلقة، وكذلك إلى الشدة التي تجمعها أيضاً؛ فالإشارة إلى صفة الجهر تفيدها عبارة " الصوت المتصعد من الصدر"، كما أن وصفه القلقلة بـــ "شدة الصوت" إشارة إلى صفة الشدة.

[1]- الكتاب :174/4.
[2]- الرعاية ص 124.
[3]- أي أصوات القلقلة : ق/ ط /ب / ج / د.
[4]- المفصل ص 422.
[5]- علم اللغة العام ـ الأصوات لكمال بشر ص 116.

إن هذا الذي أوردناه عن موضوع المخارج والصفات عند الزمخشري، يدل على وعي بحقيقة مخارج الأصوات وصفاتها، وإحاطة بخصائصها الإفرادية في العربية .

المبحث الثاني: الصوت اللغوي في فواتح السور (الحروف المقطعة).

عني الزمخشري بتفسير ورود الحروف المقطعة في أوائل بعض سور القرآن غير أن تفسير ورودها مبنى على ما تتركب منه من حروف، ومن أجل ذلك أورد الزمخشري التصنيف الصوتي لحروف المعجم، مستدركاً فيها على من سبقهُ في الحديث عن هذا الموضوع، ومحاولاً تفسير حكمة التركيب الصوتي الذي ورد به في تلك الفواتح .

وأما حكمة ورود الحروف المقطعة في أول السور فقد تحدث عن ذلك غير واحد من علماء التفسير وغيرهم، فقد قال ابن كثير(ت 774هـ):«إنما ذكرت هذه الحروف في أوائل السور التي ذكرت فيها بياناً لإعجاز القرآن، وأن الخلق عاجزون عن معارضتهِ بمثلهِ، هذا مع أنه مركب من هذه الحروف المقطعة التي يتخاطبون بها، وقد حكى هذا المذهب الرازي في تفسيره عن المبرد وجمع من المحققين، و حكى القرطبي عن الفراء وقطرب نحو هذا، وقرره الزمخشري في كشافه ونصره أتم نصر، وإليه ذهب الشيخ الإمام العلامة أبو العباس ابن تيمية»[1]. وهذا الذي نقله ابن كثير عن القرطبي مختصراً حول رأي الفراء وقطرب في الحروف المقطعة، نجد القرطبي قد فصل القول فيه فقال:«...وقال قطرب والفراء وغيرهما: هي إشارة إلى حروف الهجاء أعلم الله بها العربَ حين تحداهم بالقرآن أنه مؤتلف من حروف هي التي منها بناء كلامهم؛ ليكون عجزهم عنه أبلغ في الحجة عليهم إذ لم يخرج عن كلامهم. قال قطرب: كانوا ينفرون عند استماع القرآن فلم سمعوا ﴿الم﴾ و﴿المص﴾ استنكروا هذا اللفظ، فلما أنصتوا أقبل عليهم بالقرآن المؤتلف ليثبته في أسماعهم وآذانهم ويقيم الحجة عليهم[2].

[1]- تفسير القرآن العظيم لابن كثير : ج1/ 56.
[2]- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي : 121/1.

ويرى بعضهم أن الافتتاح بالأحرف المقطعة[1]، يشير إلى أن القرآن الكريم مركب من هذه الأحرف وأمثالها، وهي مبنى كلام العرب وبيانهم، ومع ذلك فقد عجزوا عن الإتيان بمثل سورة من سور هذا القرآن مما يؤكد إعجازه وإنه لا ينبغي أن يكون كلام بشر. ومن هنا فإن الآيات التي ترد بعد الأحرف المقطعة تكون دائماً متحدثة عن القرآن الكريم وصفاته والتذكير بأنه تنزيل من رب العالمين، وهذا المعنى هو أصح ما قاله المفسرون عن الأحرف المقطعة التي افتتحت بها (29) تسعة وعشرون سورة من القرآن الكريم[2].

وفيما يلي نعرض للتصنيف الصوتي وفلسفة تركيبه عند الزمخشري مع الاستشهاد بما كان قد سبقه إليه علماء القرآن والإعجاز في هذا الموضوع.

1. التصنيف الصوتي في الفواتح.

عني علماء القرآن والإعجاز بالتصنيف للفواتح من وجهة النظر الصوتية المحضة، وفي مقدمة هؤلاء أبو بكر الباقلاني(403هـ) قال:«إن الحروف التي بني عليها كلام العرب تسعة وعشرون حرفاً، وعدد السور التي افتتح فيها بذكر الحروف ثمان وعشرون سورة [3]، وجملة ما ذكر من هذه الحروف في أوائل السور من حروف المعجم نصف الجملة، وهي أربعة عشر حرفاً ليدل بالمذكور على غيره والذي تنقسم إليه هذه الحروف أقساماً: فمن ذلك قسموها إلى حروف مهموسة وأخرى مجهورة، فالمهموسة منها عشرة وهي: الحاء والهاء والخاء والكاف والشين والثاء والفاء والتاء والصاد والسين..وما سوى ذلك من الحروف فهي مجهورة، وقد عرفنا أن نصف الحروف المهموسة مذكورة في جملة الحروف المذكورة في أوائل السور، وكذلك نصف الحروف المجهورة على السواء لا زيادة ولا نقصان»[4].

فالحروف التي وردت في فواتح السور هي من حروف المعجم، ولكنها ليست جميعها، غير أن ما يؤسس للمناسبة أو المقارنة بين حروف المعجم وحروف الفواتح هو

[1]- الحروف المقطعة افتتح بها في تسع وعشرين سورة من كتاب الله، وهي خمسة أنواع:
أ- ثلاثة حروف موحدة هي : ص، ق، ن.
ب- عشرة حروف مثناه هي : طه، طس، يس، وحم استعملت في افتتاح سبع سور، فهذه عشرة.
ت- اثنا عشر مثلثة الحروف هي :مثلثة الحروف هي : الم، الر، طسم، وقد تكرر الأولان عدة مرات في المصحف دون طسم.

[2]- بحوث منهجية في علوم القرآن الكريم لموسى إبراهيم الإبراهيم، ص 227.

[3]- هذا وهم من الإمام والحقيقة تسع وعشرون سورة.

[4]- إعجاز القران للباقلاني: ص 66.

الأساس التصنيفي الذي وضعه الباقلاني وتبعه فيه الزمخشري فيما بعد، وهو أساس صوتي عمد فيه إلى تقسيم تلك الحروف بحسب الصفات فخلص إلى أن ما ورد من حروف مقطعة في فواتح السور، يماثل ما في العربية من عدد حروف المعجم إذا أخذنا بالاعتبار الصفات التي انتظمت هذه الحروف.

ثم يعرض الباقلاني بحسب الأساس الذي ذكرناه إلى علاقة المذكور من الحروف المعجم بما لم يذكر منها فيقول: « إن نصف حروف الحلق (العين والحاء والهمزة والهاء والخاء والغين) مذكورة في جملة هذه الحروف، وأن النصف المذكور هو العين والحاء والهاء. وكذلك نصف عدة الحروف التي ليست من الحروف الحلق مذكور في جملة هذه الحروف، وأن نصف الحروف الشديدة (الهمزة، القاف، والكاف، والجيم، والتاء، والدال، والطاء، والباء) مذكور في جملة هذه الحروف والمذكور(الطاء، والقاف، والكاف، والهمزة)، وأن نصف الحروف المطبقة وهي:(الطاء، والضاد، والصاد، والظاء)، مذكور في جملة هذه الحروف، والمذكور هو:(الصاد والطاء) »[1].

وثمة ملحوظتان لابد من إبدائهما تعليقاً على نص الباقـــلاني وهما:

الأولى: إن تقسيم الباقلاني الحروف إلى حلقية وغير حلقية تقسيم يخرج عن الأساس الذي وضعه وهو الصفات؛ لأن الحلق هو مخرج من المخارج وليس صفة للصوت، فهل وهم الباقلاني في ذلك؟ وهل يعد وصف الصوت عند الباقلاني بأنه حلقي أو غير حلقي يستوي مع مراده من صفات شديد، مطبق وغيرها؟ وفي نظرنا أن الباقلاني لم يكن واهماً ولا مخطئا في ذلك، وكما أنه وهو العالم باللغة يعرف الفرق بين الصفة والمخرج، ولا مجال للخلط بينهما؛ فقد تقرر لدى علماء اللغة والتجويد وعلوم القرآن والبلاغة وغيرهم أن للصوتِ مخرجاً وصفة، ومؤلفاتهم وما ورد فيها من بسط في هذا الموضوع تشهد على ذلك الوضوح الذي بدا عليه هذان المصطلحان منذ أن وضعهما واضعهما سيبويه[2]. غير أن الذي

[1] - نفســه، ص 67، 68.
[2]- ينظر تفصيل ذلك في الكتاب : 431/4 وما بعدها، وقد أفرد سيبويه للحديث في المخارج والصفات بابا خاصا سماه باب الإدغام، وذلك من أجل التنبيه على خطر معرفة المخارج والصفات في تفسير ظاهرة الإدغام.

يمكن أن نفسره به صنيع الباقلاني هو إرادته التنبيه على أن للصوت(الحرف بالاستخدام القديم) خصيصةٌ أخرى غير الصفة وهي المخرج؛ فالمخرج يمثل المحدد الأول للصوت في اللسان العربي، ثم تأتي الصفات لتضيق مجال تلك الخصائص حتى تكون للصوت اللغوي قيمته ووظيفته التي لا يشاركه فيها غيره من الأصوات.

وأما الملحوظة **الثانية**: فهي أن الباقلاني في تصنيفهِ المذكور بحسب الصفات أغفل حروف الرخاوة والانفتاح والاستعلاء والانخفاض والقلقلة، وهو أمر استدركه عليه الزمخشري فيما بعد، ولعل ذلك لم يكن إغفالاً بقدر ما كان إجمالاً يفسره تقسيم الحروف إلى حلقية وغير حلقية، ولاشك أن هذا التصنيف يشمل كل الحروف.

وهنالك ملحوظة صوتية أخرى في غاية الأهمية لها ارتباط بما سبق من كلام الباقلاني وهي إشارته إلى الجهاز الصوتي وما يتركب منه من مخارج و أحياز وعلاقة ذلك ببعض الحروف المقطعة؛ ففـــي معـــرض حديثه عن الحـــرف﴿الم﴾ أشار إلى تسلسل هذه الحروف الثلاثة في النطق وهي الألف واللام والميم؛ تسلسلها بحسب ما يحتويه جهاز النطق من مدارج: الحلق واللسان والشفتين، فأول جهاز النطق هو الحلق ويليه اللسان ثم الشفتان، وعلى هذا فالألف من الحلق، والـــــلام من اللسان، والميم من الشفتين يقول الباقلاني:« لأن الألف المبدوء بها هي أقصاها مطلقاً واللام متوسطه[1] والميم متطرفة»[2].

ولا يخفي ما في هذه اللمحة الصوتية من إدراك حصيف للحقائق الصوتية في الآي القرآنية، فهاهو ابن قيم الجوزية يقتفي أثر الباقلاني في إثبات تلك القراءة الصوتية في تفسيره لقوله تعالى:﴿الم﴾ يقول:« تأمل سر﴿الم﴾ كيف اشتملت على هذه الحروف الثلاثة، فالألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف وهي أشدُ الحروف اعتماداً على اللسان، والميم آخر الحروف ومخرجها من الفم، وهذه الثلاثة هي أصول مخارج الحروف: أعني الحلق واللسان والشفتين...فهذه الحروف معتمدُ المخارج الحروف الثلاثة التي تتفرع منها ستة عشر مخرجاً، فيصير منها

[1]- يعني أن مخرجها وهواللسان يتوسط مخرجي الألف والميم، وليس في ذلك إشارة إلى صفة التوسط في اللام.
[2]- إعجاز القرآن للباقلاني ص 68-69.

تسعة وعشرون حرفاً عليها مدار كلام الأمم الأولين والآخرين..»[1]. والحق أن لابن القيم لمحات أخرى[2] عديدة يربط فيها بين ما للحروف المقطعة من قيم صوتية، تفوق بها نظيراتها مما لم تذكر في الفواتح، وكذا نسبة ورود الكلمات المشتملة عليها في السور التي تفتتحها.

ومن العلماء من شبه الحروف المقطعة في أوائل السور بالحروف التي تدل على أصوات التعجب والانفعال مثل "آه "" أوه "" أف " وغيرها، وهي أصوات تدل على انفعالات عاطفية.[3]

وأما تصنيف الزمخشري لحروف المعجم فقد قال عنه:« أعلم أنك إذا تأملت ما أورده الله عز سلطانهُ في الفواتح من هذه الأسماء وجدتها نصف أسامي حروف المعجم أربعة عشر سواء، وهي الألف واللام والميم والصاد والراء والكاف والهاء والباء والعين والطاء والسين والحاء والقاف والنون في تسع وعشرين سورةً على عدد حروف المعجم ثم إذا نظرت في هذه الأربعة عشر وجدتها مشتملة على أنصاف أجناس الحروف »[4]. وهنا لابد من تسجيل ملحوظة تعليقاً على نص الزمخشري، فقد جعل الزمخشري أسامي حروف المعجم ثمانية وعشرين حرفاً، وقد نص على أن عدد حروف المعجم تسعة وعشرون، مما قد يُتصور معه عدم الدقة في الحساب، وفي حقيقة الأمر ليس هنالك تناقضٌ أو خطأ في احتساب الزمخشري، وإنما كانوا يعتبرون الألف جزئين: رسم ولفظ؛ فالرسم هو(أ) الألف الممدودة و(ء) والهمزة، وهي عين صغيرة وما يدل على ذلك هو قولهم: الألف إما ساكنة أو متحركة، والألف الساكنة هي العمودي(المدة) والمتحركة هي الهمزة.

ثم إن هذا التفريق بين الألفين ــ إن صح القول ــ تعقبه مرحلة أخرى ذات طبيعة صوتية وهي مرحلة استعمال التعريف بالألف اللينة على الألف المدة العمودية، والهمزة(ء)

---

[1]- التفسير القيم لابن قيم الجوزية، ص 123، وبدائع الفوائد لابن القيم: مج134/2 .
[2]- ينظر التفسير القيم، ص 123، 124، وبدائع الفوائد مج 134/2 – 135.
[3]- ينظر مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي، تحقيق محمد أجمل أيوب الإصلاحي ص 118.
[4]- الكشاف: 101/1.

التي هي عين صغيرة كما أشرنا من قبل وهذا ما نبه عليه الزمخشري بقوله:« الهمزة والألف حرف واحد عند الفقهاء، وحرفان في عرف العامة »[1].

وبعد ذلك أوضح الزمخشري أن في هذه الحروف من المهموسة نصفها وذكر النصف منها، ومن المجهورة نصفها وعددها، ومن الشديدة نصفها وعددها، ومن الرخوة نصفها وعددها، ومن المطبقة نصفها وعددها، ومن المنفتحة نصفها وعددها، ومن المستعلية نصفها وعددها، ومن المنخفضة نصفها وعددها، ومن حروف القلقلة نصفها وعددها، ويمكن جدولة هذه الحروف وفقاً لمنهج الزمخشري على النحو الآتي :[2]

أ. الحروف المهموسة وهي: الصاد، الكاف، الهاء، السين، الحاء.

ب. الحروف المجهورة وهي: الألف، اللام، الميم، الراء، العين، الطاء، القاف، الباء، النون.

ت. الحروف الشديدة وهي الألف، الكاف، الطاء، القاف.

ث. الحروف الرخوة: وهي اللام، الميم، الراء، الصاد، الهاء، العين، السين، الحاء، الياء، النون.

ج. الحروف المطبقة: الصاد، الطاء.

ح. الحروف المنفتحة: الألف، اللام، الميم، الراء، الكاف، الهاء، العين، السين، الحاء، القاف، الياء، النون.

خ. الحروف المستعلية: القاف، الصاد، الطاء.

د. الحروف المنخفضة: الألف، اللام، الميم، الراء، الكاف، الهاء، العين، السين، الحاء، الياء، النون.

ذ. حروف القلقلة: القاف، الطاء.

والزمخشري يذكر هذه المجموعات الصوتية بنوعيها؛ المذكور في فواتح السور والمهمل أيضا، لأن إهمالها مقصود بحكمة الله فيقول:«.. ثم إذا استقريت الكلمة وتراكيبها،

[1]- الكشاف: 101/1.
[2]- نفسه ، 102/1.

رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكور منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته. وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز اسمه، عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم، إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم»[1].

وأما حول نسبة شيوع بعض الحروف في الفواتح دون أخرى، والغاية من ورود فواتح إفرادية الحرف وفواتح ثنائية، وغيرها ثلاثية، فقد انبري الزمخشري للإجابة على تلك التساؤلات، والتي منها ما الغاية من ورود الألف واللام كأكثر الحروف وقوعاً في فواتح السور؟ وهل لذلك علاقة بنسبة وقوعها في كلام العرب؟ يجيب على ذلك الزمخشري بقوله:« ومما يدل على أنه تعمد بالذكر من الحروف المعجم أكثرها وقوعاً في تركيب الكلم، أن الألف واللام لما تكاثر وقوعهما فيها جاءتا في معظم هذه الفواتح مكررتين وهي فواتح سورة البقرة، وآل عمران، والروم، والعنكبوت، ولقمان، والسجدة، والأعراف، والرعد، وإبراهيم، وهود، ويوسف، والحِجر.

فإن قلت: فهلا عددت بأجمعها في أول القرآن؟

وما لها جاءت مفرقة على السور؟

قلت: لأن إعادة التنبيه على أن المتحدى به مؤلف منها لا غير، وتجديده في غير موضع واحد أوصل إلى الغرض، وأقْوله في الأسماع والقلوب من أن يفرد ذكره مرة، وكذلك مذهب كل تكرير جاء في القرآن فمطلوب به تمكين المكرر في النفوس وتقريره.

فإن قلت: فهلا جاءت على وتيرة واحدة؟

ولم اختلفت أعداد حروفهـــــــا؟

قلت: هذا على عادة افتنانهم في أساليب الكلام وتصرفهم فيه على طرق شتى، ومذاهب متنوعة، وكما أن أبنية كلماتهم على حرف وحرفين إلى خمسة أحرف، لم تتجاوز ذلك، سلك بهذه الفواتح ذلك المسلك»[2].

[1]- الكشاف 1/ 103.
[2]- نفسه 1/ 104 وما بعدها .

وهنا لابد من تسجيل ملحوظة صوتية أشار إليها الزمخشري وهي حديثه عن أن الألف واللام يكثر وقوعهما في كلام العرب، وجرياً على ذلك كثر ورودهما في فواتح السور؛ فالألف وهو بالمفهوم الصوتي المعاصر الفتحة الطويلة، واللام وهو صوت من الأصوات المائعة أثبتت الدراسات الحديثة أنهما صوتان شائعان في تراكيب الكلام، فالأول منها وهو الألف أو الفتحة الطويلة إضافة إلى الفتحة القصيرة يعد أكثر شيوعاً من أختيهِ الواو والياء(المديتن) وكذلك الحركتان القصيرتان الضمة والكسرة. كما أن اللام بين بقية الأصوات الصامتة أكثر شيوعاً في تراكيب الكلام العربي سواء أتعلق الأمر بالنص القرآني أم بكلام العرب[1].

2. فلسفة التركيب الصوتي في الفواتح.

أشار الزمخشري إلى فلسفة تركيب الأصوات في فواتح السور فقال: « ثم إذا استقريت الكلم وتراكيبها، رأيت الحروف التي ألغى الله ذكرها من هذه الأجناس المعدودة مكثورة بالمذكور منها، فسبحان الذي دقت في كل شيء حكمته، وقد علمت أن معظم الشيء وجله ينزل منزلة كله، وهو المطابق للطائف التنزيل واختصاراته، فكأن الله عز اسمه عدد على العرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم إشارة إلى ما ذكرت من التبكيت لهم وإلزام الحجة إياهم»[2].

إن حكمة التركيب الصوتي في الفواتح من أبرز الموضوعات التي بحثها الزمخشري، وقد وقف على بعض أسرارها، وكانت إشاراته في هذه الصدد ملهمة للذين جاءوا بعده. فها هو بدر الدين الزركشي(ت 794هـ) تسترعي انتباهه ظاهرة الابتداء بثلاثة أحرف، فرأى أن في ذلك سراً عجيباً، وذلك أن الألف إذا بدئ بها أولاً كانت همزة، وهي أول المخارج من أقصى الصدر، واللام من وسط مخارج الحروف، وهي أشد الحروف اعتماداً على اللسان، والميم آخر الحروف، ومخرجها من الفم. وهذه الثلاثة يعني (آلم)وهي أصل مخارج

---

[1]- ينظر في بيان ذلك الأصوات اللغوية لأنيس ص 239 وما بعدها، ودراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر، ص396 ، 397، (الهامش).

[2]- الكشاف :103/1.

الحروف، أعني الحلق واللسان والشفتين وترتبت في التنزيل من البداية إلى الوسط إلى النهاية. فهذه الحروف تعتمد المخارج الثلاثة، التي يتفرع منها ستة عشر مخرجاً، ليصير منها تسعة وعشرون حرفاً، عليها مدار الحلق أجمعين، مع تضمنها سراً عجيباً، وهو أن الألف للبداية واللام للتوسط والميم للنهاية، فاشتملت هذه الأحرف الثلاثة على البداية والنهاية والمتوسطة بينهما[1].

فإشارة الزركشي إلى أن(الــم) المكونة من الأحرف الثلاثة، تشير إلى المخارج الثلاثة التي يتفرع منها ستة عشر مخرجاً، والتي هي مواضع نطق الأصوات العربية. وقد أشار أبن قتيبة (276هـــ) في كتاب تأويل مشكل القرآن إلى قريب مما ذكره الزركشي حين قال عن تركيب (آلـــم) يراد بها« جميع الحروف المقطعة كما يقول القائل:(تعلمت ا ب ت ث وهو لا يريد تعلم هذه الأحرف الأربعة دون غيرها من الثمانية والعشرين، ولكنه لما طال أن يذكرها كلها، اجتزأ بذكر بعضها»[2].

ثم يتنقل الزركشي إلى الحديث عن أسرار الحروف فيقول:« وأيضا من أسرار علم الحروف أن الهمزة من الرئة فهي أعمق الحروف، واللام مخرجها من طرف اللسان ملصقة بصدر الغار الأعلى من الفم، فصوتها يملأ ما وراءها من هواء الفم والميم مطبقة، لأن مخرجها من الشفتين إذا أطبقا، ويرمز بهن إلى باقي الحروف »[3]. وهنا يحاول الزركشي أن يقف على مخارج حروف الألف واللام والميم بدقة، فيدلي بدلوه في موضوع مخارج الأصوات؛ فقد جعل الهمزة من الرئة وهو أمر في نظرنا لم يقل به أحد ممن تقدمه من اللغويين، ولعله أراد به الصدر، والدليل على هذا هو عبارة "أعمق الحروف"، وهي عبارة قريبة الدلالة من عبارة الخليل " أقصى الحلق"[4]، الذي جعل منه الهمزة. وأما وصفة للميم بأنها مطبقة فهو أمر مخالف تماما لما استقر عليه اللغويون بعد سيبويه، فالإطباق صفة الصاد والضاد والطاء والظاء، وهو اللقب "الإطباق" وضعه سيبويه لوصف آلية عمل اللسان

[1]- البرهان في علوم القرآن: 168/1 تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية القاهرة 1957.
[2]- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة ص300 شرح ونشر السيد أحمد صقر المكتبة العلمية د ط د ت.
[3]- البرهان في علوم القرآن للزركشي : 168/1.
[4]- العين للخليل بن أحمد : 52/1.

أو ظهر اللسان على الأصح مع هذه الأصوات الأربعة حال النطق بها. غير أن الزركشي وافق الخليل في تلقيب الميم بهذا اللقب، ولعله أخذه عنه، فقد وصف الخليل الميم بأنها مطبقة "لأنها تطبق الفم إذا نطق بها"[1].

ومن المسائل التي تأملها الزركشي في أصوات أو حروف الفواتح اقتران بعض الحروف ببعضها والسر وراء ذلك الاقتران فقال:« وتأمل اقتران الطاء بالسين والهاء في القرآن[2]، فإن الطاء جمعت من صفات الحروف خمس صفات لم يجمعها غيرها، وهي الجهر والشدة والاستعلاء والإطباق والإصمات. والسين مهموس، رخو، مستفل، صفيري، منفتح، فلا يمكن أن يجمع إلى الطاء حرف يقابلها كالسين والهاء، فذكر الحرفين اللذين جمعا صفات الحروف[3] .

ومن المسائل التي تنبه لها الزركشي احتواء سورة (ق) على الحرف ذاته لأسباب تجانسية صوتية، تشير إلى المجانسة بين بداية السورة وما ورد فيها من كلمات تشتمل على صوت القاف يقول:« وتأمل السورة[4] التي اجتمعت على الحروف المفردة، كيف تجد السورة مبنية على ذلك الحرف، فمن ذلك:(ق والقرآن المجيد)[5] فإن السورة مبنية على الكلمات القافية من ذكر القرآن، ومن ذكر الخلق، وتكرار القول ومراجعته مراراً والقرب من أبن آدم وتلقي الملكين، وقول العتيد، وذكر السابق والقرين، والإلقاء في جهنم والتقدم بالوعد، وذكر المتقين، وذكر القلب، والقرآن، والتنقيب في البلاد، وذكر القتل مرتين، وتشقق الأرض، وإلقاء الرواسي فيها، ويسوق النخل، والرزق، وذكر القوم، وخوف الوعيد »[6] .

إن هذه المجانسة الصوتية بين مطلع السورة المشتمل على حرف القاف وبين ما ورد فيها من كلمات تحمل هذا الصوت يدل على توليف صوتي دلالي يربط أجراء السورة

---

[1]- العين للخليل: 52/1.
[2]- يشير الزركشي إلى قول الله تعالى: (طه) (طس).
[3]- البرهان في علوم القرآن: 167/1، وبدائع الفوائد لابن القيم : مج 2/ 134.
[4]- السياق يقتضي أن يكون التعبير بالجمع (السور) وليس(السورة) بالمفرد، لأن الذي يجتمع على الحروف المفردة من فواتح السور مجموع سور، وليس سورة واحدة .
[5]- سورة ق الآية 01.
[6]- البرهان في علوم القرآن 1/ 169.

ببعضها ربطاً صوتياً أدائياً محدثا أثراً سمعياً بالغاً في النفس، ولعل هذا ما أراد التعبير عنه ابن القيم لما علق على بناء سورة(ق) بقوله:« وسر آخر وهو أن كل معاني هذه السورة مناسبة لما في حرف القاف من الشدة والجهر والعلو والانفتاح»[1]. وفي كلام ابن القيم هذا إشارة إلى أن القاف تتصف بصفات قوية وعدد تلك الصفات، وهي صفات من شأنها جعل القاف من أقوى الأصوات العربية قال الخليل عن القاف والعين:« ..العين والقاف لا تدخلان في بناء إلا حسّنتاه لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرساً، فإذا اجتمعتا في بناء حسن البناء، لنصاعتهما»[2].

ويلاحظ على هـذا الكـلام أن العين والقـاف صوتان قويـان، وعبـارة "وأضخمها جرسا" تشيـر إلى قوة العين بجهرها وترددها بين الشدة والرخاوة، وقوة القاف باستعلائها وتفخيمها وشدتها. وأما الجهر الذي تحدث عنه القدماء، وجاء في عبارة ابن القيم، فهو صفة قوة لاشك في ذلك، غير أن البرهنة على أنها كانت صفة للقاف في القديم يبدو صعبا، لأن القاف التي نسمعها اليوم على ألسنة قراء القرآن الكريم من المجيدين، هي قاف مهموسة، ولا أثر للجهر فيها إذا كان الجهر يعني اهتزاز الوترين الصوتيين عند النطق بالصوت.

ووقف الزركشي أيضا مع الدلالة الصوتية لحرف الصاد في سورة(ص) فقال:« وإذا أردت زيادة إيضاح فتأمل ما اشتملت عليه سورة(ص)من الخصومات المتعددة، فأولها خصومة الكفار مع النبي(ص) وقولهم﴿أَجَعَلَ الآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾[3]، إلى آخر كلامهم، ثم اختصام الخصمين عند داود ثم تخاصم أهل النار، ثم اختصام الملأ الأعلى في العلم، وهو الدرجات والكفارات، ثم تخاصم إبليس واعتراضه على ربه وأمره بالسجود، ثم اختصامه ثانيا في شأن بنيه، وحلفه ليغويهم أجمعين إلا أهل الإخلاص منهم»[4].

---

[1]- بدائع الفوائد مج 134/2.
[2]- العين : 54/1.
[3]- سورة ص والآية 05.
[4]- البرهان في علوم القرآن: 1/ 170.

إن ما ذكره الزركشي ــ في تنبيهاته الصوتية ــ يؤكد العمق الصوتي لدى علماء العربية في أبراز حقيقة الصوت اللغوي فيما اتسمت به فواتح السور القرآنية ذات الحروف الهجائية المقطعة. والحق أن استقراء المراد من هذه الأحرف المقطعة، وأن لم تدرك أسراره لا يخرجها عن حقيقة واقعها الصوتي في الأسماع ولا جوهرها الإنصاتي لدى الإطلاق، فهي من جنس أصوات العرب في لغتهم، ومن نسيج حروف معجمهم، ومن روح أصداء لغة القرآن الكريم، ولا يمانع هذا الاستقراء على اختلاف وجهات النظر فيه من شموخ الصوت اللغوي في أضوائها، وبروز الملحظ الصوتي في تأويلاتها[1].

وخلاصة القول أن ما تناوله الباقلاني والزمخشري والزركشي من ملحوظات حول الصوت اللغوي في فواتح السور، يؤكد رسوخ المفهوم الصوتي في أذهان وعقول هؤلاء الأعلام ــ كما غيرهم من المتقدمين ــ وأنهم استوعبوا قضايا علم الأصوات استيعاباً شاملا، أسفر عن تذوق رائع للصوت اللغوي في حالتيه الإفرادية والتركيبية التوليفية، وكذا الوقوف على دلالته السياقية الأدائية في الكلام المنظوم.

المبحث الثالث: الدلالة الصوتية.

إن الدلالة الصوتية في القرآن من أكثر الموضوعات التي حظيت بالبحث والمناقشة حديثاً، ذلك أن الوقع الصوتي لألفاظ القرآن يلقي بظلال من التأثير النفسي الوجداني في نفس المتلقي لا يضاهيه أي وقع لغوي آخر، فألفاظ القرآن المختارة، تكونت من حروف مختارة، فشكلت ظاهرة صوتية فريدة من نوعها مكثفة في جرسها ونغمها وإيقاعها، وكذا في دلالاتها وإيحاءاتها ومعانيها، فغدت مصدرا بيانيا لا تنقضي عجائبهُ يمد كل ظمآن بجرعات وجرعات من الأحاسيس الإنسانية النبيلة فتسمو النفس بصاحبها إلى عليين.

وسنحاول في السطور القادمة إلقاء الضوء الكاشف على أبعاد دلالة القرآن الصوتية، في تشعب جوانبها وعظمة انطلاقها، من خلال ما حفل به كتاب الكشاف من الشواهد لهذه الظاهرة وموقف الزمخشري منها وتحليله لها، بما يسمح بتلمس مظاهرها عنده بوصفة

[1]- الصوت اللغوي في القرآن لمحمد حسين على الصغير، ص94، دار المؤرخ العربي بيروت ط1/ 2000.

واحداً ممن أنزلوا اللفظة القرآنية منزلتها ووقفواعلى خصائصها الصوتية في الدلالة على المعاني المزادة منها .

1. دلالة الخوف الهادر .

استخدم القرآن الكريم مجموعة من الألفاظ لها جرس يوحي بدلالة معينة، تستشف من الصدى الصوتي الحاصل في الأذن، فالخوف والصراخ والزلزلة والكب والعنف والخصام كلها ألفاظ توحي بدلالتها من جنس صياغتها الصوتية، فقد وقف الزمخشري مع بعض ألفاظ التنزيل مستظهراً وجوه الدلالة الصوتية فيها على ما أريد لها أن تعبر عنه من تصوير مشاهد الخوف والفزع، قال الزمخشري في تفسير قوله تعالي:﴿ وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا ﴾[1]:« يتصارخون: يفتعلون من الصراخ وهو الصياح بجهد وشدة»[2].

فالجهد والشدة كلمتان توحيان بأن الاضطراب قد بلغ مداه[3]، والصراخ قد تجاوز حدوده وبلغ بهم اليأس مبلغاً عظيماً فلا مغيث لهم ولا ناصر، ويدلك على ذلك ما في الصاد والطاء من إطباق يشبه إطباق العذاب على أهل النار من كل جانب، فهم محصورون هناك كما يحصر الصوت بين ظهر اللسان والحنك الأعلى فيطبق عليه حينئذ. وقد قال تعالى:﴿ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنقَذُون ﴾ [4]، لا صريخ لهم الصريخ: صوت المستصرخ والمغيث[5].

فالصريخ من الأضداد، غير أنه يعني هنا المغيث إذ لا مغيث لهؤلاء الكفار مما هم فيه، وانظر إلى تقاطر الراء والخاء وبينهما ياء المد المستغرقة لكل أنواع الإغاثة وصنوفها، ووقوع الراء بين صوتين مستعليين مما يوحي بهول الموقف وخروج الأمر عن السيطرة وذهاب كل أمل للنجاة.

1- سورة فاطر الآية 37.
2- الكشاف : 3/ 310.
3- ينظر الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 217/7.
4- سورة يس الآية 43.
5- رسالة الأضداد، للمنشي ص 43 دارسة وتحقيق محمد حسين آل ياسين دار عمار ط1، 2008.

• في قوله تعالى: ﴿ فَكُبْكِبُوا فِيهَا هُمْ وَالْغَاوُونَ ﴾[1]. قال الزمخشري:« الكبكبة تكرير الكبّ، جعل التكرير في اللفظ دليلا على التكرير في المعنى كأنه إذا ألقي في جهنم ينكب مرة بعد مرة حتى يستقر في قعرها»[2]، وفي هذا تصوير لما يحل بالكفار في جهنم من كبّ على وجوههم، فنظراً إلى أن قاع جهنم قاع سحيق بعيد، فإنهم لا يزالون يهوون على وجوههم مرة بعد مرة حتى يستقروا في قاعها.

• في قوله تعالى:﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾[3]، قال الزمخشري:« (وزلزلوا) وأزعجوا إزعاجاً شديدا شبيها بالزلزلة بما أصابهم من الأهوال والأفزاغ، (حتى يقول الرسول) إلى الغاية حتى قال الرسول ومن معه فيها (متى نصر الله) أي بلغ بهم الضجر ولم يبق لهم صبر حتى قالوا ذلك، ومعناه طلب الصبر وتمنيه واستطالة زمان الشدة، وفي هذه الغاية دليلٌ على تناهي الأمر في الشدة وتماديه في العِظم، لأن الرسل لا يُقادر قدر ثباتهم واصطبارهم وضبطهم لأنفسهم، فإذا لم يبق لهم صبر حتى ضجّوا، كان ذلك الغاية في الشدة التي لا مطمح وراءها »[4].

فلنتأمل تقاطر الزاي واللام وهما صوتان مجهوران، يحدثان صدى سمعياً هائلاً، ثم ترنمّ النون، كل ذلك يعطي انطباعا باضطراب القلوب وتعاظم الخطب، وبلوغ الأمر مداه في الضجر وذهاب الصبر حتى ينطق المرء منهم (متى نصر الله؟). وقد أضفى صفير الزاي مع جهرها أزيزاً يكاد يشبه أزيز النفس إذا بلغ بها الخطب مداه، وما ذلك إلا اضطراب القلب إذا بلغ به الضجر مبلغا عظيماً واستطال زمن الشدة، وقد ذكر الله تعالى في موضع

1- سورة الشعراء الآية 94.
2- الكشاف : 3/ 119.
3- سورة البقرة الآية 214.
4- الكشاف : 1/ 356.

آخر:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾[1]، قال الزمخشري:«الزلزلة شدة التحريك والإزعاج، وأن يضاعف زليل الأشياء عن مقارّها ومراكزها »[2].

فذكر الإزعاج وهو التخويف الذي يحصل للناس إذا قامت الساعة، فالبعد التهويلي المفزع في لفظ (زلزل)، يأخذ على الناس قلوبهم وأفئدتهم.

• في قوله تعالى:﴿ فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى ﴾[3]، قال الزمخشري: «(ما غشّى) تهويل وتعظيم لما صب عليها من العذاب وأمطر عليها من الصخر المنضود»[4].

فالتهويل والتعظيم في لفظ الزمخشري، يدل على عِظَم ما حل بمدائن قوم لوط بحيث رفعها جبريل عليه السلام إلى السماء، ثم أهوى بها إلى الأرض، بعد أن ألبسها الله تعالى ما ألبسها من الحجارة المنضودة، وتأمل تتابع الغين المستعلية الرخوة مع الشين المتفشية الرخوة هي أيضا، وكيف أحدث هذا التتابع أثراً سمعياً يدل على الهول والعظم؛ فصفة الاستعلاء في الغين، وصفة التفشي في الشين من صفات القوة، التي تضفي على الصوتين ضخامة أدائية وظهوراً في النطق، ثم مجيء ألف المد(المقصورة) لتدل على الاستغراق في عقاب قوم لوط استغراقا يدل على عظم ما حل بهم من عذاب الله، نظير ما فعلوا من مخالفة أمر الله ودعوة رسولهم.

• في قوله تعالى:﴿ إِذَا رُجَّتِ الأَرْضُ رَجًّا ﴾[5]. قال الزمخشري: « رجت حركت تحريكا شديداً حتى ينهدم كل شيء فوقها من جبل وبناء»[6]. فبناء(رجّ) إذا يدل على التحريك والاضطراب قال ابن منظور:«معنى(رجت) حركت حركة شديدة وزلزلت»[7]، قال الفراء:«(رجت)إذا زلزلت حتى ينهدم كل بناء على وجه الأرض»[8].

1- سورة الحج الآية 01.
2- الكشاف:03/3.
3- سورة النجم الآية 54.
4- الكشاف: 34/4، 35.
5- سورة الواقعة الآية 04.
6- الكشاف : 52/4.
7- لسان العرب لابن منظور : 84/2(ر ج ج).
8- معاني القرآن : 121/3.

والمتأمل لاجتماع الراء المكررة المجهورة مع الجيم الشديدة المجهورة مع تشديدها، يلحظ الأثر الذي تحدثه صفة التكرير في الراء وهي من صفات القوة فيها فإذا أجتمع إلى ذلك شدة الجيم وجهرها ترك أثراً مهولا في النفس يبعث على الخوف والاضطراب، من هذا المشهد الهائل الذي تتهدم له الجبال ويخر له البناء وتنشق له الأرض.. فياله من مشهد مفزع وحدث جلل!!

- في قوله تعالى:﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً ﴾[1]، قال الزمخشري: «(فَدُكَّتَا) فدكت الجملتان جملة الأرضيين وجملة الجبال فضرب بعضها ببعض حتى تندق وترجع كثيباً مهيلا وهباء منبثا والدك أبلغ من الدق»[2].

فتركيب(دك) يدل على الكسر والدق و(دكتا): إي فدقتا دقة واحدة لا زيادة عليها أو ضربتا ضربة واحدة بعضها ببعض حتى صارتا كثيباً مهيلا، وهباء منبثاً... وقيل معنى دكتا أي بُسطتا بسطة واحدة، ومنه اندك سنام البعير: إذا انفرش على ظهره[3].

وقد جعل الزمخشري دلالة الدكّ أبلغ من الدق، لأن الدك هو الزلزلة الشديدة، فاجتماع الدال الشديدة مع الكاف الشديدة هي أيضاً، والمشكلة برمز الشدة، جعل من التركيب غاية في الصلابة الدالة على انهدام الأرض والجبال واستوائها ومنه جاءت ناقة دكّاء: وهي المفترشة السنام في ظهرها، وأرض دكاء: أي مستوية[4].

2.دلالة الندى[5] الصارخ.

إن الوضوح السمعي القوى الذي تتمتع به أصوات الصفير يجعل لها وقعاً متميزاً في الأذن نتيجة لشدة رخاوتها واقتراب أسلة اللسان من أصول الثنايا اقترابا شديداً، ما يؤدي إلى اصطكاك الأذن اصطكاكاً قوياً تترك معه أثرا في النفس، ونحن هنا سنعرض لبعض النماذج من الاستخدام القرآني لأصوات الصفير ونبين أثر ذلك في مواد القرآن من تصوير لمشهد

---

[1]- سورة الحاقة الآية 14.
[2]- الكشاف : 151/4.
[3]- ينظر من أسرار اللغة لمحمود الطناحي ص 645 ، 646 المكتبة المكية، مكة مكرمة ط1/ 2008..
[4]- غريب القرآن للسجستاني، ص 88.
[5]- الندى هنا بمعنى: بعد الصوت (ينظر لسان العرب: 739/8(ن د ى)، وقد اقتبست هذه المصطلح من سيبويه الذي قال عن حروف الصفير:" وأما وأما الصاد والسين والزاي.. حروف الصفير، وهن أندى في السمع" (الكتاب: 464/4)، ويعني بذلك: هن أرفع وأعلى صوتاً، دلالة على قوة الوضوح السمعي التي تتمتع به.

من مشاهد العذاب أو رسم معالم الحقيقة في أمر من الأمور، فتأمل قوله تعالى:﴿ إِنَّا مُنزِلُونَ عَلَى أَهْلِ هَذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزًا مِّنَ السَّمَاء بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴾[1]. قال الزمخشري:« الرجز والرجس: العذاب من قولهم: ارتجز وارتجس»[2].

فالرجز والرجس بمعنى واحد كما يبدو من ظاهر كلام الزمخشري، وقال بعضهم[3]: «الرجز لغة في الرجس وأصل المعنى: الاضطراب والحركة العنيفة والارتعاش، ولذلك يطلقان على القذر لما تشمئز منه النفس وتضطرب، وعلى العذاب لإزعاجه الناس». ويظهر من هذا الكلام أن إبدالا ما حدث بين السين والزاي وأن إحدى التركيبين أصل، والآخر نشأ عنه، ثم إن التركيبتين ينتهيان بصوت من أصوات الصفير ذات الوضوح السمعي القوي، فيحس المرء بارتجاج واضطراب نتيجة لذلك الصدى السمعي القوي، ما يبعث في النفس يقيناً بوقوع العذاب، فيصرفها عن اقتراف ما اقتراف الذين نزل بهم ذلك العذاب من مخالفات وعصيان.

فالجرس الصوتي الصارخ الذي يحدثه التصاق أسلة اللسان بأصول الثنايا يحدث اصطكاكاً عظيماً في الأذن بغية أداء المعنى والتأثير المرادين.

وأما إطلاق الرجز والرجس على ما تشمئز منه النفس وهو المعنى الذي أشار إليه الفراهي وقد ذكرنا تعريفه[4] من قبل، فإن هنالك جملة آيات قرآنية اشتملت هذا المعنى منها قوله:﴿ إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلاَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[5].

وقوله تعالى:﴿ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الأَوْثَانِ﴾[6] .

---

[1]- سورة العنكبوت الآية 34.
[2]- الكشاف: 205/3.
[3]- مفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي،ص 355، وقال الجوهري في الصحاح:" الرجس بالفتح الصوت الشديد من الرعد، ومن هدير البعير، ورجست السماء ترجس، إذا رعدت وتمخضت، وارتجست مثله.. ويقال هم في مرجوسة من أمرهم أي في اختلاط. (الصحاح للجوهري: 933/3(ر.ج س) تحقيق احمد عبد الغفور عطار، ط2، 1402هـ).
[4]- وهو قوله " الرجز لغة في الرجس... يطلقان على القذر لما تشمئز منه النفس وتضطرب .." (مفردات القرآن للفراهي : ص 355) و(تأويل مشكل القرآن لأبن فتيبة ص 471).
[5]- سورة المائدة: الآية 90
[6]- سورة الحج الآية 30.

وقوله تعالى:﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[1].

وقوله تعالى:﴿ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ﴾[2].

قال ابن قتيبة: « يعني بــ(الرجز) الأوثان سماها رجزاً والرجز العذاب، لأنها تؤدي إليه»[3]. وسواء الرجس بالسين أو الرجز بالزاي، فإن إطلاق اللفظين على النتن أو ما تشمئز منه النفس، يحدث أثراً في النفس يدعوها إلى الكف عما يعكر صفوها وفطرتها وطهرها، مبعث ذلك الإحساس هو ما تقوم به أصوات الصفير من نغم وإيقاع صارخين مدويين، يحملان دلالة الكف المباشر، والانتهاء عن تعاطي مثل تلك الأعمال التي لا تليق بطهارة وسمو النفس المؤمنة. ثم إن الذي يجعل أصوات الصفير تؤدي هذه الوظيفة الصوتية الدلالية بالإضافة إلى وضوحها السمعي، هو توالى صوتين مهجورين قبلها وهما الراء والجيم؛ الراء لما فيها من جهر وتكرير وهما من صفات القوة، والجيم لما فيها من جهر وشدة وهما أيضاً من صفات القوة، فتجتمع كل تلك الصفات لتجعل الدلالة الصوتية لأصوات الصفير، دلالة قوية مؤدية للغرض المراد.

والحق أن صوتي الزاي والسين حظيا باهتمام بالغ لدى المحدثين، لما يكونان عليه في أغلب الأحيان إذا قورنا بالصاد؛ فقد ذكر بعض المحدثين أن الزاي والسين «يوصفان غالبا بأنهما صفيريان Sibilants لما يصبحها من صفير وأزيز وهما في الحقيقة من النوع الاحتكاكي»[4].

وإذا وقفنا على دلالة الصاد وهي من أصوات الصفير في مثل قوله تعالى:﴿ قَالَتِ امْرَأَةُ الْعَزِيزِ الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ ﴾[5]، لحظنا ما في هذا الصوت من الصدى المدوي والأزيز الصادح بالحقيقة المجلجلة التي طالما أخفتها امرأة العزيز، (حصحص) في تكرار الصاد الصفيري إشارة إلى جلاء الأمر وانكشافه، فلا تُرد دلائله ولا براهينه الساطعة قال

1- سورة الأحزاب الآية 33.
2- سورة المدثر ألآية 05.
3- تأويل مشكل القرآن ص 471.
4- أسس علم اللغة لماريو باي، تر أحمد مختار عمر، عالم الكتب ط8 - 1998.
5- سورة يوسف الآية .51

الزمخشري:« (حصحص) ثبت واستقر»[1]، وقال غيره:«(حصحص) لما دعا النسوة فبرأن يوسف قالت: لم يبق إلا أن يُقبلن علي بالتقرير فأقرت وذلك قولها: الآن حصحص الحق. تقول صاف الكذب وتبين الحق، وهذا من قول امرأة العزيز وقيل: حصحص الحق إذا ظهر وبرز»[2].

وتأمـل أيضاً دلالة صوت الصاد في قوله تعالى:﴿وَحُصِّلَ مَا فِـــي الصُّدُورِ ﴾[سورة العاديات الآية 10]. والمقصود بالصاد محل الشاهد هي الصاد هي الصاد في (حصّل)، فإن الملاحظ أنها جاءت مشددة والتشديد تكثير للفعل، والزيادة في المبني دليل على الزيادة في المعنى. وسواء أكان المراد: بــ (حصّل) أظهر محصلا مجموعاً[3]، أم كان المراد: استخراج الذهب من حجر المعدن[4] على ما تقرره معاجم اللغة حول المعنى اللغوي الأصلي لــ (حصل)، فإن التحصيل عموماً إخراج اللب من القشور، وقد جاء صوت الصاد في معرض وعيد من الله لمن عصاه في الدنيا، بأن يخرج ما كان مدفونا في الصدور، ويكشف ما كان مستوراً فيها. والصاد صوت مفخم مطبق تحدث باندفاع الهواء حتى موضع خروجهِ إذ طرف اللسان تجاه مقدم الحنك المخطط بينهما فرجة ملحوظة، وكتلة اللسان مرتفعة مقابل سقف الحنك، والأسنان متقاربة، لكنها غير منطبقة، والحنك اللين مرتفع يسد طريق النفس من الحنك، ولا يتذبذب الوتران، فينفذُ الهواء باتجاه الثنيتين العليين إذ يسمع صوتها مصفراً مطبقاً[5].

وهذا الصفير والإطباق هما أبرز الخصائص القوية وراء جرس الصاد القوي الصارخ.

3. دلالة الاستغراق في المد الصوتي.

اشتمل النص القرآني على مقاطع صوتية استغرقت بمواصفاتها الصوتية الخاصة حدود المد والطول الشديد، وتحمل دلالات معبرة تعبيرا يتجاوز الإيحاء إلى إفادة المعاني

---

[1]- الكشاف: 376/2.
[2]- لسان العرب: 468/4 (حصص).
[3]- الكشاف: 4/ 279، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي:10/ 100-.
4- المصباح المنير للفيومي ص 139-.
[5]- في صوتيات العربية لمحي الدين رمضان ص 144.

المتكاثرة، من تلك الألفاظ والمقاطع: الحاقة، الطامّة، الصاخّة، دابّة، كافّة، فهذه الصيغ تمتاز صوتياً بصداها الصوتي البعيد والمدوي، يتفاعل مع النفس مترقباً للمجهول من حقائق ومفاجئات ونوازل. قال الزمخشري في تفسير قوله تعالى:﴿ الْحَاقَّةُ (1) مَا الْحَاقَّةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحَاقَّةُ﴾[1] «الأصل الحاقة ما هي: أي شيء هي تفخيماً لشأنها وتعظيماً لهولها..»[2] ، وقال في تفسير قوله تعالى:﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى﴾[3]«(الطامة) الداهية التي تطم على الدواهي أي تعلو وتغلب، وهي القيامة لطمومها على كل هائلة»[4].

فأصوات المدّ في (الطامة) و(الحاقة) جاءت مستغرقة، صارخة، مهوّلة، وتأمل ذلك في (الصاخة)، وفي ما جاء بغير تعريف كدابة وكافة في قوله تعـــالى:﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾[5]، وقوله تعالى:﴿ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾[6].

فالمد المستغرق في لفظة (دابة) استغرق المخلوقاتِ كلها المعروف منها وغير المعروف، ما يرى وما لا يرى، كما استغرق الأزمان كلها والأمكنة كلها التي سخرها الله لهذا المخلوقات، كما أن المد المطلق في(كافة) يستغرق جميع الأزمنة والفئات من البشر، فالرسول صلى الله عليه وسلم ليس مختصا في إرساله إلى الناس بفئة دون أخرى، أو أمة دون أخرى، فهو رسول للعالمين. فناسب المد الصوتي في الألف (الفتحة الطويلة) ما أريد من الشمول والاستغراق والإحاطة في الدلالة على مطلق الدواب التي خلقها الله، ومطلق البشر في كل زمان ومكان.

على أن الحرف المشدد في تلك المقاطع ساعد من الناحية الصوتية على مد الألف مداً مطلقا لإحداث التأثير المطلوب والوفاء بالمعاني المرداة. وقد أطلق ابن جني على هذا النوع

---

[1]- سورة الحاقة الآية.
[2]- الكشاف: 4/ 149.
[3]- سورة النازعات ألآية 35.
[4]- الكشاف: 215/4.
[5]- سورة هود الآية 06.
[6]- سورة سبأ الآية 28.

من المد "المطل" قال:«والحروف الممطولة هي الحروف الثلاثة اللينة المصوتة، وهي الألف والياء و الواو... اعلم أن هذه الحروف أين وقعت ففيها امتداد ولين.. إلا أن الأماكن التي يطول فيها صوتها وتتمكن مدتها ثلاثة؛ وهي أن تقع بعدها الهمزة أو الحرف المشدد أو أن يوقف عليها عند التذكر»[1]، وواضح أن المد الصوتي الممطول بتعبير ابن جني يحتاج إلى نسبة عالية من الضغط والارتكاز، ويتطلب من أعضاء النطق مجهوداً أعلى، ويسمى المحدثون هذا النوع من المد بــ"النبر الطولي" ويتمثل في إطالة النطق بالمقطع المشتمل على حرف مد، فوق ما جرت به العادة في نطقها[2].

إن هذا المد الصوتي غير الطبيعي يراد له أن يؤدي إلى تقرير حقيقة البعث، وأن ذلك اليوم ــ يوم النشر ــ آت لا محالة، وأنه ليس مما عهد الناس وألفوه وما يتوافق ويتوازي مع هذا المعني من الناحية الصوتية هو الأداء الجهوري لألف المد، مما يحدث جلجلة مدوية وإيقاعاً هائلا، فإذا استقر في النفس أن الطامة والصاخة والحاقة هي أوصاف لذلك اليوم مع ما تحمله هذه المقاطع من حمولات لغوية دلالية ذكرها علماء التفسير والمعاجم، أحدث ذلك أثرا عظيما هائلا يترجم إلى يقين يستقر في الوجدان ويبعث على العمل لذلك اليوم الموعود قال الفــراء: «(الحاقة) القيامة سميت بذلك لأن فيها الثواب والجزاء»[3].

وقال الزمخشري في الأساس عن لفظة (الصاخة): (الصاخة) الداهية الشديدة وسمعت للحجر صخة وقد صخ صخيخا وهو صوته إذا قُرع[4]. ولاشك أن الداهية الشديدة أراد بها الزمخشري القيامة وقد ذكر في الكشاف في تفسير (الصاخة) بأنها النفخة؛ وصفت النفخة بالصاخة مجازاً لأن الناس يصخون لها.[5]

1- الخصائص لابن جني: 2/ 352.
2- أبحاث في علم أصوات اللغة العربية لأحمد عبد التواب الفيومي،ص 178.
3- معاني القرآن للفراء : 3/ 179.
4- أساس البلاغة ص 349.
5- الكشاف: 220/4.

والصاخة القيامة وبه فسر أبو عبيدة قوله تعالى:﴿ فإذا جاءت الصاخة﴾[1].فإما أن يكون اسم الفاعل من صخ يصخ، وإما أن يكون المصدر؛ وقال أبو إسحاق (الزجاج) الصاخة هي الصيحة التي تكون فيها القيامة تصخ الأسماع أي تصمها فلا تسمع إلا ما تدعى به الأحياء.

وتقول صخ الصوت الأذن يصخها صخاً...وفي حديث ابن الزبير وبناء الكعبة فخاف الناس أن يصيبهم صاخة من السماء، هي الصيحة التي تصخ الأسماع أي تقرعها وتصمها. قال ابن سيدة: الصاخة صيحة تصخ الأذن أي تطعنها فتصمها لشدتها، ومنه سميت القيامة الصاخة[2].

وقال القرطبي:«(الصاخة): الصيحة التي تكون عنها القيامة وهي النفخة الثانية تصخ الأسماع: أي تصمها فلا تسمع إلا ما يدعى به الأحياء. وذكر ناس من المفسرين قالوا: تصيخ لها الأسماع من قولك أصاخ إلى كذا: أي استمع إليه ومنه الحديث« ما من دابة إلا وهي مصخية يوم الجمعة شفقاً من الساعة إلا الجن والإنس».. قال الخليل: الصاخة: صيحة تصخ الآذان صخاً أي تصمها بشدة وقعها، وأصل الكلمة في اللغة: الصك الشديد وقيل هي مأخوذة من صخه بالحجر: إذا صكه، ومن هذا الباب قول العرب صختهم الصاخة وباتتهم البائتة وهي الداهية قال ابن العربي: الصاخة التي تورث الصمم وأنها لمسمعة..لعمر الله إن صيحة القيامة لمسمعة تصم عن الدنيا وتسمع أمور الآخرة[3].

وأما لفظ (الطامة) التي فسرها الزمخشري[4] بالداهية التي تطم على الدواهي أي تعلو وتغلب، وهي القيامة لطمومها على كل هائلة، فإن هذا اللفظ بما اشتمل عليه من أصوات تحمل صفات قوية مناسب وموافق للمعنى الهائل المراد تصويره؛ فالإطباق والتفخيم الذي في الطاء وما ألقته هاتان الصفتان من ظلال تفخيمية على صوت الألف يضاف إلى ذلك تشديد الميم، كل ذلك أسهم في تقرير الدلالة الصوتية وجعلها موافقة لمعنى الطامة في كلام العرب،

---

[1]- سورة عبس الآية 33.
[2]- لسان العرب لأبن منظور:436/2(ص خ خ).
[3]- الجامع لأحكام الفرآن للقرطبي : 134/10.
[4]- الكشاف: 215/4.

فقد استخدمت العرب الطامة في الداهية العظيمة التي تغلب ما سواها، وأية داهية أعظم من القيامة!؟ بل إنها الكبرى.

4. سيادة القالب الواحد.

نعني بذلك أن القرآن الكريم سمى بعض مسمياته بأسماء متعددة ذات قالب صوتي واحد، ومجموع مقاطع متشابهة في نسق صوتي متجانس يدل ببنائهِ الصرفي على مضمونه، وبجرسه الصوتي على معناه، من ذلك تسمية القرآن للقيامة بأسماء متقاربة الصدى موحدة الجرس، فألفاظ مثل القارعة، الواقعة، الآزفة، الراجفة، الرادفة، الغاشية، تدل بجرسها الصوتي على معاني متعددة تلتقي عند حقيقة واحدة وهي تصوير مشاهد ذلك اليوم الذي لا خلاص منه، الواقع لا محالة، يقرع بقوارعهِ ويفجؤ برواجفه يغشي بحوادثه... القالب الواحد والنعيم المتوازن والسكت المفزع، كلها عوامل تحدث صدى صوتيا هائلا.. تترقب معه النفسُ المجهولَ المنتظر والحادث النازل.

- قال تعالى:﴿ الْقَارِعَةُ (1) مَا الْقَارِعَةُ (2) وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ ﴾[1]. قال القرطبي: «(القارعة) أي القيامة والساعة كذا قال عامة المفسرين وذلك أنها تقرع الخلائق بأهوالها وأفزاعها، وأهل اللغة يقولون: تقول العرب: قرعتهم القارعة وفقرتهم الفاقرة إذا وقع بهم أمر فظيع »[2].

وذكر الزمخشري في تفسير الآية نفسها بأن القارعة هي التي تقرع[3]. وأما في تفسير قوله تعالى:﴿ وَلاَ يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ ﴾[4]. فقد قال الزمخشري:« داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم.. فيفزعون ويضطربون ويتطاير إليهم شررها ويتعدى إليهم شرورها»[5].

---

[1]- سورة القارعة الآية3.
[2]- الجامع لأحكام القرآن 101/10.
[3]- الكشاف: 279/4.
[4]- سورة الرعد الآية 31.
[5]- الكشاف: 361/2.

وجاء في لسان العرب« القارعة كل هنة شديدة القرع وهي القيامة والقارعة في اللغة النازلة الشديدة تنزل عليهم بأمر عظيم، ولذلك قيل ليوم القيامة القارعة. ويقال قرعتهم قوارع الدهر أي أصابتهم، ونعوذ بالله من قوارع فلان ولواذعهِ وقوارص لسانه، وفي حديث أبي أمامة: من لم يغز أو يجهز غازيا أصابه الله بقارعة أي بداهية تهلكه، يقال: قرعه أمر إذا أتاه فجأة، وجمعها قوارع، الأصمعي: يقال أصابته قارعة يعني أمراً عظيماً يقرعه، ويقال: أنزل الله به قرعاء وقارعة ومقرعة، وأنزل الله به بيضاء ومبيضة هي المصيبة التي لا تدع مالا ولا غيره»[1].

ولنتأمل تركيب القارعة وما اشتمل عليه من أصوات تقرع السمع وتهز الوجدان لما للقاف والعين من صفات النصاعة وضخامة الجرس يقول الخليـل: « ..العين والقاف لا تدخلان في بناء إلا حسنتاه لأنهما أطلق الحروف وأضخمها جرساً، فإذا اجتمعتا في بناء حسن البناء لنصاعتهما»[2]، وفي هذا الكلام إشارة إلى قوة القاف العين في قوله:« وأضخمها جرساً»، ولعلها إشارة إلى قوة العين بجهرها وترددها بين الشدة والرخاوة، وقوة القاف باستعلائها وتفخيمها وشدتها .

- قال تعالى:﴿إِذَا وَقَعَتِ الْوَاقِعَةُ (1) لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ﴾[3]. قال الزمخشري في تفسير الواقعة:«..(هي) كقولك كانت الكائنة وحدثت الحادثة والمراد القيامة، وصفت بالوقوع لأنها تقع لا محالة فكأنه قيل: إذا وقعت لابد من وقوعها، ووقوع الأمر نزوله»[4] .

وقال القرطبي:«..(إذا وقعت الواقعة) أي قامت القيامة والمراد النفخة الأخيرة، وسميت واقعة لأنها تقع عن قرب، وقيل لكثرة ما يقع فيها من الشدائد»[5]. وقال أبن منظور: " الواقعة: الداهية والواقعة النازلة من صروف الدهر والواقعة اسم من أسماء يوم القيامة وقوله

[1]- لسان العرب لأبن منظور : 242/5 - 243(ق ر ع).
[2]- العين : 54/1.
[3]- الواقعة الآية 1،2.
[4]- الكشاف : 4/ 51.
[5]- الجامع لأحكام القرآن : 9/ 122.

تعالى:﴿إذا وقعت الواقعة﴾، يعني القيامة. قال أبو إسحاق: يقال لكل آت يتوقع قد وقع الأمر، كقولك: قد جاء الأمر، قال والواقعة ههنا: الساعة والقيامة»[1].

ومما يؤخذ من تلك الأقوال أن الواقعة هي النازلة وهي الداهية وهي الحادثة، وكلها أسماء ليوم القيامة جاءت على قالب واحد وهو اسم الفاعل الدال هنا على معنى الثبوت لا التجدد، أي ثبوت تلك الأوصاف لليوم الآخر ثبوتاً مؤكداً يفيده التعبير بصيغة اسم الفاعل المكررة[2]. وأما الدلالة الصوتية لهذه الأوصاف في قالبها الواحد، فتتجلى في معني السقوط والنزول من أعلى من غير توقع وأكثر ما جاء ذلك في القرآن الكريم في مواطن الشدة والعذاب والعقاب واليوم الآخر.

- قال تعالى:﴿أَزِفَتْ الآزِفَة (57) لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ﴾[3]. قال الزمخشري: «(أزفت الآزفة) قربت الموصوفة بالقرب»[4]. وقال في الأساس:« الآزفة القيامة لأزوفها»[5].

وقال القرطبي:« ...أزفت الآزفة أي قربت الساعة ودنت القيامة وسماها آزفة لقرب قيامها عنده، وقيل سماها آزفة لدنوها من الناس وقربها منهم ليستعدوا لها، لأن كل ما هو آت قريب وفي الصحاح: أزف الترحل يأزف أزفاً أي دنا وأفد ومنه قوله تعالى: (أزفت الآزفة) يعني القيامة»[6].

وقال ابن منظور«(الآزفة) القيامة لقربها وإن استبعد الناس مداها قال تعالى:(أزفت الآزفة) القيامة أي دنت القيامة»[7].

ويؤخذ من تلك الأقوال أن مادة(أ ز ف) تدل عموما على القرب والدنو، و للتعبير عن هذه المعنى وظف القرآن الكريم صوتي الزاي الرخوة الصفيرية والفاء الرخوة التأفيفية (نسبة إلى صفة التأفيف)؛ فبما للزاي من رخاوة شديدة يتسرب معها الهواء إلى خارج الفم يصاحبه أزيز الصفير المدوي ويتبعه انتشار هواء الفاء خارج الفم(وهو المراد بالتأفيف)،

[1]- لسان العرب :5/ 368 (و ق ع).
[2]- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم لعبد الحميد هنداوي ص 241، المكتبة العصرية بيروت د/ط 2002.
[3]- سورة النجم الآيتان 57و58.
[4]- الكشاف: 35/4.
[5]- أساس البلاغة، ص 15.
[6]- الجامع لأحكام القرآن : 9/ 78.
[7]- لسان العرب: 5/ 422 (أ ز ف).

ويدل ذلك كله على أن إيقاف حلول القيامة مستحيل، وأن وقوعها حتمى لا مرد له، ويدعم هذا المعني ذلك المد الصارخ المنبعث من الجوف الذي يلقي بسلطانه الصوتي الناشئ عن اهتزاز وأزيز الأوتار الصوتية، يلقي به في أتون هذا المشهد الهادر النازل الواقع.. مشهد القيامة الكبرى.

• قال تعالى:﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ (6) تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ ﴾[1]. قال الزمخشري: (الراجفة) الواقعة التي ترجف عندها الأرض والجبال وهي النفخة الأولى وصفت بما يحدث بحدوثها (تتبعها الرادفة) أي الواقعة التي تردف الأولى وهي النفخة الثانية، ويجوز أن تكون الرادفة بمعنى القيامة التي يستعجلها الكفرة. وقيل الراجفة الأرض والجبال.. والرادفة السماء والكواكب لأنها تنشق وتنشر كواكبها على إثر ذلك.[2]

وقال في الأساس: رجف البحر: اضطربت أمواجه[3]، وفي هذا المعنى اللغوي إشارة إلى ما يحل بالأرض والجبال والدواب وغيرها من اضطراب وتحول. وقد فسر الفراء(الراجفة) و(الرادفة) بالنفخة الأولى والثانية[4].

وقال القرطبي: الراجفة أي المضطربة كذا قال عبد الرحمان بن زيد، قال: هي الأرض والرادفة الساعة. مجاهد:(الرادفة)، الزلزلة و(الرادفة) الصيحة، وعنه أيضاً وابن عباس والحسن وقتادة.. هما الصيحاتان: أي النفختان. أما الأولى فتميت كل شيء بإذن الله تعالى، وأما الثانية فتحي كل شيء بإذن الله تعالى[5].

فمعاني الواقعة النفخة الأولى، النفخة الثانية، الاضطراب، الصيحة، كل ذلك يدل عليه لفظ (الراجفة) و(الرادفة) ذوات الوقع الصوتي الهائل؛ فالراجفة الدالة على التزلزل والاضطراب والصياح وتبدل معالم الأرض يتعالق فيها تكرار الراء مع جهر الجيم وتأفيف الفاء، مضاف إلى ذلك المد الهائل، وهاء السكت المنبئة عن مجهول سيقع، بل إن الراجفة

1- سورة النازعات: 7/6.
2-الكشاف : 4/ 212.
3- أساس البلاغة ص 222.
4- معاني القرآن : 3/ 231.
5- الجامع لأحكام القرآن : 118/10.

ليست لحركة الأرض والأحياء فقط كما يشير إلى ذلك القرطبي، بل من قولهم: رجف الرعد يرجف رجيفاً ورجفاً إي أظهر الصوت والحركة، ومنه سميت الأراجيف، لاضطراب الأصوات بها[1].

فيتناسب إذا معنى (الراجفة) صوتا ودلالة مع الاستعمال العربي لمادة رجف في الدلالة على حركة الأشياء واضطرابها وحركة أعضاء النطق وأدائها.

وأما الرادفة فتتوافق في الصدى والوزن مع معالم الواقعة والآزفة والقارعة، خاصة وأنها تتشمل على تتابع صوتي جهوري تتذبذب معه الأوتار الصوتية، وهو الراء والمد والدال، وهو أمر مناسب لمشهد بعث الناس والخلائق وانتشارهم وتلقيهم لصيحة البعث والنشور، فجهر هذه الأصوات يكاد يعبر عن صيحة الحشر في ذلك اليوم الموعود.

- قال تعالى:﴿ هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ ﴾[2]. قال الزمخشري:(الْغَاشِيَةِ) الداهية التي تغشى الناس بشدائدها وتلبسهم أهوالها يعني القيامة وقيل النار[3]. وقال القرطبي:« (الْغَاشِيَةِ) النار تغشى وجوه الكفار.. وقيل تغشى الخلق.. وقيل المراد النفخة الثانية للبعث لأنها تغشى الخلائق. وقيل(الْغَاشِيَةِ): أهل النار يغشونها ويقتحمون فيها[4]. وقال ابن منظور:« الْغَاشِيَةِ الداهية من خير أو شر أو مكروه ومنه قيل للقيامة: الغاشية، وأراد في غشية من غشيات الموت[5].

فالغاشية اسم من أسماء يوم القيامة سميت بذلك لأنها تغشى الناس بأهوالها وتفجؤهم بشدائدها، أو أنها النار التي تغشى وجوه الكفار، وهي الداهية الطامة التي تحيط بالناس من كل جانب، وتملأ قلوبهم فزعاً وخوفاً. و(الْغَاشِيَةِ) التي تتآلف فيها الغين الطبقية الرخوة المفخمة مع الشين المتفشية الرخوة، ينضاف إليها صوت المد (الألف) فتقترب في صداها الصوتي من مناخ الواقعة والقارعة والراجفة والرادفة وغيرها، فتكون هذه الصيغة في بنائها السائد حافلة

---

[1]- نفسه الجزء والصفحة نفسها .

[2]- سورة الغاشية الآية 1.

[3]- الكشاف: 4 /246 ، وينظر أساس البلاغة ص 451.

[4]- الجامع لأحكام القرآن : 17/10.

[5]- لسان العرب :568/8.

في دلالتها الصوتية بالأهوال والأفزاع والأحداث الجسام، أحداث يوم القيامة، اليوم الذي لا مرد له:﴿ يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُواْ للّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾ [1] .

5. **مصاقبة اللفظ للمعنى .**

استخدام القرآن الكريم طائفة من الألفاظ الموحية بمعناها من جرسها بحيث تكون الأصوات دالة بجرسها على معنى اللفظ الذي يتركب منها، كما أن اللفظ بمعناه يحاكي طبيعة الأصوات من حيث جرسها وأداؤها. وقد ألفت الأقدمون إلى هذا النوع من الألفاظ الموحية، وأغلب الظن أن بذرة هذه الفكرة، قد وجدت عند قدامى النحويين واللغويين؛ فقد روي عن الخليل أن العرب قالوا في الدلالة على صوت الجندب: صرّ لأن في صوته امتداد واستطالة، أما البازي فدلت العرب على صوته بالفعل صرصر، لأن فيه تقطيعيا وعدم استمرار. وقد خص ابن جني هذا النوع من الألفاظ بباب مستقل في كتاب الخصائص سماه "باب في تصاقب الألفاظ لتصاقب المعاني" ومما ذكر فيه: "العسف والأسف؛ العين أخت الهمزة كما أن الأسف يعسف النفس وينال منها، والهمزة أقوى من العين كما أن أسف النفس أغلظ من التردد بالعسف فقد ترى تصاقب اللفظين لتصاقب المعيين[2].

ونشير فيما يلي لأمثلة هذا النوع من الدلالة الصوتية في شواهد الزمخشري وغيره من اللغويين والمفسرين.

- لفظ "ينعق" في قوله تعالى:﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَاء وَنِدَاء صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾[3].

قال الزمخشري:«(كمثل الذي ينعق)، ومثل الذين كفروا كبهائم الذي ينعق والمعنى ومثل داعيهم إلى الإيمان في أنهم لا يسمعون من الدعاء إلا جرس النغمة ودوي الصوت من غير

[1]- سورة إبراهيـــم الآية 48.
[2]- الخصائص: 499/1 طبعة دار الكتب العلمية بتحقيق هنداوي.
[3]- سورة البقرة الآية 171.

إلقاء أذهان، ولا استبصار كمثل الناعق بالبهائم التي لا تسمع إلا دعاء الناعق ونداءه الذي هو تصويت بها وزجر لها ولا تفقه شيئا آخر ولا تعي كما يفهم العقلاء ويعون»[1].

وذكر ابن منظور في تفسير هذه الآية عن الفراء قوله:" أضاف المثل إلى الذين كفروا ثم شبههم بالراعي، ولم يقل كالغنم والمعنى والله أعلم مثل الذين كفروا كالبهائم التي لا تفقه ما يقول الراعي أكثر من الصوت، فأضاف التشبيه إلى الراعي والمعنى في المرعي قال: ومثله في الكلام: فلان يخافك كخوف الأسد، المعنى كخوفه الأسد لأن الأسد معروف أنه المخوف، وقال أبو إسحاق: ضرب الله لهم هذا المثل وشبههم بالغنم المنعوق بما لا يسمع إلا الصوت، فالمعنى مثلك يا محمد ومثلهم كمثل الناعق والمنعوق بها بما لا يسمع، لأن سمعهم لم يكن ينفعهم فكانوا في تركهم قبول ما يسمعون بمنزلة من لم يسمع.[2]

وما يلحظ على هذه الأقوال أن وجه الدلالة في (ينعق) صوت الراعي إذا صوت بالغنم، ومن حكاية استدعاء الغنم عند العرب قولهم دع دع[3]، فصوت العين المتسم بالنصاعة والوضوح السمعي نتيجة لجهره اشتملت عليه مادة(ينعق)، وكأنها تدل في ذاتها على النداء أو التصويت بالغنم، فصوت الحكاية في نظرنا هنا هو العين وجيء بالنون لتسهيل عملية النطق، والقاف لتوهم إنهاء الحكاية عند مخرجه. وما يجدر ذكره أيضا في هذا الموضع، أن حكاية زجر الإبل لتحتبس يشتمل هو أيضا على صوت العين، وحكاية زجر الإبل هي: « عيه عيه»[4].

- لفظ « خرّ» في قوله تعالى﴿ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾[5]، قـــال الزمخشـــري:« خرّ من السقف﴿فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاء﴾ وخرّوا لأذقانهم خرورا. وخرّ الماء خريرا وخرخر، وكذلك الريح والقصب، وقال العجاج:

1- الكشاف : 328/1 و الأساس للزمخشري ص 643.
2- لسان العرب : 5/ 1081، (ن ع ق)، ومعاني القرآن للفراء: 99/1.
3- الدلالة الصوتية في اللغة العربية لصالح سليم عبد القادر ص71، منشورات جامعة سبها 1988
4- نفســه ص61.
5- سورة الحج الآية 31

لوذ العصافير ولوذ الدخـــــل *** تحت العضـــــاه من خرير الأجدل

من حفيف، وله عين خرارة في أرض خوارة »[1]. وقال محمـــود الطناحـــي: «..﴿ خَرَّ مِنَ السَّمَاء ﴾، سقط ويقال للحجر إذا تدهدى من الجبل خر يخُر خرورا بضم الخاء من يخر، وخر الماء يخِر خريرا بكسر الخاء وكذلك خر الميت يخر خريرا. وفي حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن لا أخر إلا قائما. قال أبو عبيد القاسم بن سلام: قد أكثر الناس في معنى هذا الحديث وما له عندي وجه إلا أنه أراد بقوله: لا أخر: لا أموت لأنه إذا مات فقد خر وسقط. وقوله: "إلا قائما" أي إلا ثابتا على الإسلام وكل على من ثبت على شيء وتمسك به فهو قائما عليه»[2]. وقال ابن منظور في اللسان:«الخرير صوت الماء والريح والعقاب إذا حفت وقد يضاعف إذا توهم سرعة الخرير في القصب وغيره فيحمل على الخرخرة وأما في الماء فلا يقال إلا خرخرة ..»[3].

فالخرير صوت الماء والريح ولكنه أيضا للسقوط قال صاحب اللسان:« خر الحجر يخر خرورا: صوّت في انحداره بضم الخاء من يخُر، وخر الرجل وغيره من الجبل خرورا، وخر الحجر إذا تدهدي من الجبل»[4] .

وسواء الخرور الذي للحجر أو الخرير الذي للماء فقد نصت الأقوال السابقة كما في قول الطناحي وابن منظور أن مادة خرّ حكاية لصوتي الماء والسقوط، وهي تعبر عن الاندفاع والجري والجامع بين الاستعمالين هو وجود الراء التكريرية الدالة على الاضطراب والاهتزاز، ومن ثم جاء اللفظ دالاً على المعنى دلالة تستفاد من جرس الصوت وطبيعته النطقية. ويمكن أن نلحظ كلمات أخرى تشترك مع خر في انتهائها بالراء وتختلف عنها في

---

[1]- أساس البلاغة ص157-158
[2]- من أسرار اللغة لمحمود الطناحي : 495/2، واللسان لابن منظور: 221/3
[3]- لسان العرب : 220/3.
[4]- نفســه : 220/3.

الصوت الأول مثل جرّ وكرّ وهما كلمتان دالتان أيضاً على الاندفاع والاضطراب، فصوت الحكاية إذن هنا هو الراء، ثم تأتي الأصوات التي تسبقها حسب الموضع[1].

والصوت الذي يدل على التهاوي والسقوط لا يمكن فصله عن معنى الخرير الذي للماء، وصوت الريح، وبذلك فهما وحدة صوتية واحدة متلابسه وإن كانت تلك الوحدة أحياناً تطلق على فعل المؤمن حين ينكب ساجداً لربه معترفاً بفضله؛ فالخاء بما فيها من دلالة صوتية على الانتشار والشيوع لرخاوتها، والراء لما فيها من دلالة صوتية على تكرار الفعل وجريانه واندفاعه، فإن اتحادهما في صيغة واحدة يؤكد ثبوت معنى التهاوي والحركة والانسياب والسجود، وكلها معان تتصاقب في دلالتها اللغوية مع طبيعة (خرّ) الصوتية .

• لفظ: " **صَرّ**" في قوله تعالى:﴿ مَثَلُ مَا يُنفِقُونَ فِي هِـذِهِ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَثَلِ رِيحٍ فِيهَا صِرٌّ أَصَابَتْ حَرْثَ قَوْمٍ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ فَأَهْلَكَتْهُ وَمَا ظَلَمَهُمُ اللّهُ وَلَـكِنْ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[2]. إن مادة (صرّ) بأصواتها المجلجلة تستحضر معها قواصف الرعد، وزمجرة الرياح، وصقيع البرد، ووابل المطر والثلج، قال الزمخشري:« الصر: الريح الباردة، الصرصر وفيه أوجه.

1- أن الصر في صفة الريح بمعنى الباردة، فوصف بها القرة بمعنى فيها قُرة صُر كما تقول برد بارد على المبالغة.

2-أن يكون الصُّر مصدرا في الأصل بمعنى البرد فجيء به على أصله.

3- أن يكون شبه ما كانوا ينفقون من أموالهم(أي المشركين) بالزرع حسَّه البرد فذهب حطاماً»[3].

والصر عند الإمام الفراهي: الجمع ثم الشدّ والعزم[4].

وقال ابن منظور في اللسان: «..الصر بالكسر والصرة شدة البرد، وقيل هو البرد عامة.. وقال الليث: الصر البرد الذي يضرب النبات ويحسنه وريح صِرّ وصرصر: شديدة

[1]- الدلالة الصوتية في اللغة العربية لصالح سليم عبدا لقادر ص 65.
[2]- سورة آل عمران الآية 117.
[3]- الكشاف: 457/1، والأساس ص353.
[4]- مفردات القران للفراهي ص 292.

البرد وقيل شديدة الصوت.. وقال ابن السكيت: ريح صرصر فيه قولان: يقال أصلها صَرّر من الصر وهو البرد فأبدلوا مكان الراء الوسطى فاء الفعل كما قالوا تجفجف الثوب وكبكبوا، وأصلهُ: تجّفف وكبّبوا ويقال هو من صرير الباب ومن الصرّة وهي الضجة»[1].

فالجرس الصوتي لمادة (صرّ) يدل على حالة ووصف هذه الريح التي تصطك معها الآذان وترتجف معها الأطراف، فإذا انضم إلى ذلك شدة الصوت أو صوت الصرير، كان ذلك دالا دلالة خاصة على أن هذه الريح لها أوصاف معينة.

فقد نقل ابن منظور عن ابن الأنباري، قوله في تأويل قوله تعالى:﴿ كمثل ريح فيها صر﴾. قال فيها ثلاثة أقوال: أحدهما فيها صر أو برد، والثاني: فيها تصويت وحركة، وروي عن ابن عباس قول آخر" فيها صر" قال: فيها نار. وقال الزجاج: الصرّة أشد الصياح تكون في الطائر والإنسان وغيرهما[2].

وما أشار إليه ابن الأنباري فيما نقله عنه صاحب اللسان من أن (فيها صر) بمعنى فيها تصويت وحركة، فجعل صرِّ مثل صرصر كلاهما يصلح أن يكون بمعنى التصويت أي تصويت الريح، فقد ذكر الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى:﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾[3]. ذكر ما مؤداه أن الصرصر: العاصفة التي تصرصر، أي تصوت في هبوبها [4]، وأضاف الزمخشري أن الصرصر هو البرد الذي يصر أي يجمع ويقبض[5].

وربما يكون وصف الصر بأنه صوت الريح محاكاة لصوت بعض الطيور كالجندب والبازي وغيرهما فقد ذكر[6] ابن منظور أنه قيل لامرأة: أي النساء أبغض إليك فقالت: التي إن صخبت صرصرت.. وصوت الطائر صوت وخص بعضهم به البازي والصقر..

[1]- لسان العرب : 420/3.
[2]- لسان العرب : 420/3.
[3]- سورة فصلت الآية : 16.
[4]- الكشاف : 449/3.
[5]- وقد ورد هذا المعنى عند الإمام الفراهي كما سبقت الإشارة (مفرادات القرآن ص 292).
[6]- حكى ذلك عن أبي العباس ثعلب.

وفي حديث جعفر بن محمد: اطلع علي ابن الحسين وأنا أنتف صراً. يقال صرّ العصفور يصر إذا صاح، وصر الجندب يصر صريراً، وصر الباب يصر..

وكل صوت شبه ذلك فهو صرير، إذا امتدّ، فإذا كان فيه تحفيف وترجيع في إعادة ضوعف كقولك: صرصر الأخطب صرصرة، كأنهم قدروا في صوت الجندب المدّ وفي صوت الأخطب الترجيع[1] .

ومن شواهد مصاقبة اللفظ للمعنى دلالة حروف الزيادة في الصيغ الصرفية مثل الهمزة والسين والتاء، فقد توافرت بعض الأبنية والألفاظ في القرآن تشتمل على حروف زيادة، ثم إننا نجد ثمة مصاقبة بين هذه البنى وما تدل عليه من المعاني: مثل استعصم، استفزز، اسطاعوا، وغيرها.

• في قوله تعالى:﴿وَلَقَدْ رَاوَدتُّهُ عَن نَّفْسِهِ فَاسَتَعْصَمَ﴾[2].قال الزمخشري:«الاستعصام بناء مبالغة يدل على الامتناع البليغ والتحفظ الشديد كأنه في عصمة، وهو يجتهد في الاستزادة منها، ونحوه استمسك واستوسع الفتق واستجمع الرأي، واستفحل الخطب»[3]. فالاستعصام في نظر الزمخشري هنا مبالغة يدل على الامتناع البليغ وأما البناء الذي يدل على مطلق الامتناع فهو "اعتصم" قال ابن منظور:« اعتصم به واستعصم: امتنع وأبى، قال الله عز وجل حكاية عن امرأة العزيز حين راودته عن نفسه(فاستعصم) أي تأبى عليها ولم يجبها إلى ما طلبت»[4].

والحق أنه وإن كان "استعصم" بناء يحمل دلالة استعصى كما ذكر القرطبي[5] إلا أنه يتجاوزه في الدلالة على شدة الامتناع عن ارتكاب المعصية، ولنتأمل دلالة السين والتاء؛ السين في صفيرها الشديد الناشئ عن شدة احتكاكها بمجرى الهواء، والتاء الشديدة الممتنع معها النفس في الخروج من بين العضوين، كيف تآلف ذلك وتصاقب مع معنى الامتناع

1- لسان العرب: 420/3.
2- سورة يوسف الآية 32.
3- الكشاف: 318/2.
4- لسان العرب: 367/9.
5- الجامع لأحكام القرآن: 111/5.

الشديد. على أن بناء استعصم يدل على معنى آخر تابع لمعنى الامتناع الشديد، وهو معنى طلب العصمة ولعل ما يدل على ذلك هو ذكر الزمخشري في الكلام السابق عن الاستعصام كأن نبي الله في عصمة وهو يجتهد في الاستزادة منها، وقد عبر عن ذلك الزمخشري في الأساس بقوله:« دعي إلى مكروه فاستعصم أي أبى وطلب العصمة منه»[1].

• في قوله تعالى:﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ ﴾[2] قال الزمخشري:« استفزاز إبليس هو كلام ورد مورد التمثيل مثلت حاله في تسلطه على من يغويه بمغوار أوقع على قوم فصوّت بهم صوتاً يستفزهم من أماكنهم ويقلقهم عن مراكزهم وأجلب عليهم بجنده ورجاله حتى استأصلهم..»[3].

فالاستفزاز إذن هو تصويت بإزعاج يقع من إبليس على من يغويه، غير أن هذا التصويت ليس تصويتا ناتجا عن كلام وإنما هو دعاء واستخفاف باستخدام وسائل الإغواء والوسوسة وغيرها، ولكن خطره على قلب المستفَز ووقعه عليه، يشبه ما يقع من مغوار إذا واجه خصماً، فإنه ينطلق بصوته مدوياً وبرجاله وجنده فيقلق خصمه ويزعجه ويجعله يترك موقعه ويستجيب للاستفزاز قال ابن منظور:« استفزه الخوف أي استخفهُ، وفي حديث صفية: لا يغضبه شيء ولا يستفزه أي لا يستخفه ورجل فزّ: أي خفيف»[4]. وقد نقل القرطبي في تفسيره أن الاستفزاز أصله القطع، ومنه تفزّز الثوب إذا انقطع والمعنى استزلّه بقطعك إياه عن الحق. واستفزّه الخوف أي استخفّه وقعد مستوفزا أي غير مطمئن[5].

وأما الدلالة الصوتية في تركيب "استفزز" فتظهر من خلال دلالة أصوات الزيادة (السين والتاء) وكذا دلالة الزاي؛ فأصوات الزيادة (السين، والتاء) بما فيها من صفير السين وشدة التاء، قد أضفت قوة على الأداء الصوتي لأن صفتي الصفير والشدة من صفات القوة في الأصوات، ثم إن صفة الجهر في الزاي بالإضافة إلى الصفير تعد من أكثر الصفات قوة،

1- أساس البلاغة ص 423.
2- سورة الإسراء الآية 64.
3- الكشاف : 256/2.
4- لسان العرب: 84/4، (ف ز ز)، وأساس البلاغة ص 473، ومعاني القرآن للفراء: 127/2.
5- الجامع لأحكام القرآن : 178/5.

إذ إن الجهر ينتج عن ذبذبة الأوتار الصوتية مما يضفي على الصوت قوة إسماع عالية أو ما يسميه المحدثون بقوة الوضوح السمعي، وقد ذكر بعضهم[1] أن أصوات المد وهي أصوات مجهورة مثل الزاي تزيد قوة إسماعها وانتظامها الموسيقي لكونها أصوات مجهورة، وهذا ينطبق على الزاي أيضاً وإن كان بدرجة أقل.

• في قوله تعالى:﴿ فَلاَ تسَمْعَ إلا هَمْساً﴾[2] قال الزمخشري:« (فَلاَ تسَمْعَ إلا هَمْساً) وهو الركز الخفي، ومنه الحروف المهموسة، وقيل هو همس الإبل وهو صوت أخفافها إذا مشت: أي لا يسمع إلا خفق الأقدام ونقلها إلى المحشر»[3]. وقال ابن منظور:" الهمس الخفي من الصوت والوطء والأكل، وقد همسوا الكلام همسا وفي التنزيل(فَلاَ تسَمْعَ إلا هَمْساً) في التهذيب: يعنى به والله أعلم خفق الأقدام على الأرض، ويقال إنه الصوت الخفي، وفي الحديث: فجعل بعضنا يهمس إلى بعض؛ الهمس: الكلام الخفي لا يكاد يفهم، ومنه الحديث: كان إذا العصر همس. الجوهري: همس الأقدام أخفى ما يكون من صوت الوطء[4]. والهمس مصطلح من المصطلحات الصوتية التي أطلقها سيبويه على طائفة من الأصوات قال: " فأما المهموس فحرف أضعف الاعتماد في موضعه حتى جرى معه النفس[5] وأما المحدثون فيسمون الصوت الذي لا يتذبذب الوتران الصوتيان عند نطقه صوتاً مهموساً، فالهمس هو إخفاء الصوت[6].

ومما سبق نخلص إلى أن الهمس هو الصوت الخفي ويتطابق في ذلك المعنى اللغوي مع المعنى الاصطلاحي وإن كان المعنى اللغوي يتضمن الدلالة على صوت أخفاف الإبل إذا مشت، وسواء أكان الهمس في موقف المحشر هو لخفق الأقدام كما نص على ذلك الزمخشري أو لمطلق الصوت الخفي، فأن تركيب (همس) بما اشتمل عليه من أصوات يدل دلالة صوتية على مؤداه الاستعمالي ذلك أن الهاء صوت مهموس وقد قال عنه الخليل: ولولا

[1]- الأصوات اللغوية لغالب فاضل المطلبي ص25.، وينظر دارسة الصوت اللغوي لمختار عمر ص 287.
[2]- سورة طه ألآية 108.
[3]- الكشاف: 554/2، وأساس البلاغة،ص 706.
[4]- لسان العرب:344/4 345 (هـ م س) ومعاني القرآن للفراء 192/2.
[5]- الكتاب: 434، ولسان العرب : 345/4(هـ م س).
[6]- ينظر المدخل إلى علم أصوات العربية لغانم قدوري الحمد ص 102.

هتة في الهاء لأشبهت الحاء[1] وجاء في اللسان: قال سيبويه من الحروف المهتوت وهو الهاء، وذلك لما فيها من الضعف والخفاء".[2]

كما أن صوت السين هو أيضاً صوت مهموس، فإذا اجتمع صوتان مهموسان في تركيب واحد وقد أطلقته العربية على الخفاء والخفوت، فإن ذلك يدل على تمام دلالة الجرس الصوتي للهاء والسين على معنى الخفاء .

- في قوله تعالى:﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ ﴾[3] قال الزمخشري في تفسير ذلك:« واستعار لذلك(غلبة الجد للهو) القذف والدمغ تصويراً لإبطاله وإهداره ومحقه، فجعله كأنه جرم صلب كالصخرة مثلاً قذف به على جرم رخو أجوف فدمغه»[4]. فالقذف وهو شدة إلقاء الشيء والدمغ الذي هو محق الشيء استخدما هنا للدلالة على ما يلحقه الحق بالباطل من هزيمة إذا علاه وقهره كما عبر[5]، الزمخشري في المفصل، وقال ابن منظور:« القهر والأخذ والأخذ من فوق دمغ كما يدمغ الحق الباطل، ودمغه يدمغه دمغاً: غلبه وأخذه من فوق وفي التنزيل(بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ) أي يعلوه ويغلبه ويبطله، قال الأزهري: فيدمغه فيذهب به ذهاب الصَّغار والذل »[6].

وأما الراغب الأصفهاني فذهب إلى أن الدمغ هو كسر الدماغ[7] وهذا أخذاً بظاهر اللفظ، غير انه لا ينفي ما أوردناه من معانٍ أخرى ذكرناها، ووجه مصاقبة اللفظ للمعنى تتجلى من خلال ما تتصف به أصوات الدال والميم والغين من قوة وضوح في السمع، وعلو في درجة الجهر، وكذا ما لشدة الدال من أهمية في الإيحاء بالقوة الغالبة والدفع العنيف، وذلك ما يظهر في الانفجار الذي يعقب حبس هواء الدال لفترة معينة، محدثاً صوتاً انفجارياً مزلزلاً. ثم يأتي صوت الميم الانسيابي الذي يتسرب معه الهواء من خلال تجويف الأنف محدثاً صفة الغنة

---

[1]- - العين ص 64.
[2]- لسان العرب 1/ 828.
[3]- سورة الأنبياء الآية 18
[4]- الكشاف:566/2.
[5]- المفصل: ص 195.
[6]- لسان العرب: 388/5 (د م غ).
[7]- معجم مفردات ألفاظ القرآن ص 131.

التي هي نوع من الجهر الصوتي في الميم. وفي الأخير يأتي صوت الغين الرخو الذي تدل رخاوته على التلاشي والاضمحلال الذي يصيب الباطل بعد أن يصاب في مقتل؛ فالرخاوة بما هي تسرب للهواء من خلال ممرّ ضيق تشبه تلاشي الباطل وذهابه أمام سطوة الحق وغلبته ووضوح حجته وظهور برهانه.

وقد أورد القرطبي[1]، في تفسيره للحق والباطل في الآية السابقة آراء، بعضها يفسر الكلمتين بالقرآن والشيطان، وبعضها بالحجة والشبهة، وبعضها بالمواعظ والمعاصي، وكلها في الواقع معاني متقاربة.

- في قوله تعالى:﴿لا يَسْمَعُونَ حَسِيسها﴾[2]. فقد فسرها الزمخشري بالصوت[3]، أي صوت النار وهو الحسيس، وذكر ابن منظور أن حسيسها هنا بمعنى حسها وحركة تلهبها، لأن الحسيس والحسّ بمعنى واحد عنده وهو الذي تسمعه مما يمر قريباً منك ولا تراه[4]. وفسر صاحب المصباح المنير الحسيس بأنه الصوت الخفي[5]، وعلى العموم فالحسيس أو الحس حكاية صوت النار وغيرها، غير أنه أنسب للدلالة على صوت النار، ذلك أن ما أخبر به الله عز وجل من أن أهل الجنة لا يسمعون حتى حسيس جهنم فيه دلالة على أن لجهنم حركة وحسّ وصوت قال الطناحي: الحسيس والحس الحركة[6]. والدلالة الصوتية للفظ حسيس تتمثل تتمثل في اشتمالهِ على صوتي الحاء والسين المهموسين والهمس لغة ما خفي من الكلام، جاء في اللسان: " الهمس الخفي من الصوت والوطء والأكل، وقد همسوا الكلام همساً وفي التنزيل:﴿ فَلا تسَمْع إلا همَساً﴾ وفي التهذيب يعني به والله أعلم خفق الأقدام على الأرض..وروي عن ابن الأعرابي قال: ويقال اهمس وصهِ أي أمشي خفياً واسكت، وفي الحديث: فجعل بعضنا يهمس إلى بعض. الهمس الكلام الخفي لا يكاد يفهم ومنه الحديث:«

---

[1]- الجامع لأحكام القرآن : 130/6.
[2]- سورة الانبياء الآية 102.
[3]- الكشاف : 2/ 585.
[4]- لسان العرب : 163/4 (ح س س) .
[5]- المصباح المنير للفيومي ص 135.
[6]- من أسرار اللغة للطناحي : 1/ 356.

كان إذا صلى العصر همس» قال أبو الهيثم: إذا أسر الكلام وأخفاه، فذلك الهمس من الكلام، قال شمر: الهمس من الصوت والكلام ما لأغور له في الصدر وهو ما همس في الفم[1].

إذا فالدلالة اللغوية للفظ همسً تدل على الخفاء، وقد مر بنا أن الحسيس هو ما تسمعه مما يمر قريباً منك ولا تراه، فناسب أي يكون صوتاً الحاء والسين المهموسين أي الخفيين لأن الاصطلاح الصوتي للهمس يحمل المعنى اللغوي لمادة (همس)، لأن عدم ذبذبة الأوتار الصوتية وهو ما يكون في حال الحاء والسين من شأنه جعل الصوت خفياً، لا يسمع له صدى أو وضوح في السمع، أو لا يسمع له رنين حين النطق به.

• في قوله تعالى:﴿ يَوْمَ يُدَعُّونَ إِلَى نَارِ جَهَنَّمَ دَعًّا﴾[2]. قال الزمخشري:« الدعّ: الدفع العنيف، وذلك أن خزنة النار يغلون أيديهم إلى أعناقهم ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم ويدفعونهم إلى النار دفعاً على وجوههم وزخّاً في أقفيتهم»[3]. وقال صاحب اللسان: دعّه دفعهُ في جفوة، وقال ابن دريد: دعه دفعه دفعاً عنيفا وفي التنزيل(فذلك الذي يدع اليتيم)؛ أي يعنف به عنفاً دفعاً وانتهاراً وفيه(يوم يدعون إلى نار جهنم دعاً)، وبذلك فسره أبو عبيدة فقال: يدفعون دفعاً عنيفاً وفي الحديث: اللهم دُعّهما إلى النار جهنم دعا.ً وقال مجاهد: دفراً في أقفيتهم.. الدع: الطرد والدفع [4].

وذكر القرطبي أن معنى(يدعّون) يدفعون إلى جهنم بشدة وعنف يقال: دععتُه أدعُه دعاً أي دفعته، ومنه قوله تعالى: ﴿ فذلك الذي يدعّ اليتيم﴾ [سورة الماعون الآية02]. وفي التفسير:إن خزنة جهنم يغلون أيديهم إلى أعناقهم، ويجمعون نواصيهم إلى أقدامهم، ثم يدفعونهم في النار دفعاً على وجوههم وزخا في أعناقهم حتى يردوا النار[5].

وأما الدلالة الصوتية للفظ (دعّ) فتظهر من خلال ما يتصف به صوت الدال والعين من صفات قوية تشير إلى قوة فعل الدفع وهي صفات الشدة والجهر في الدال؛ فقوة انفجار

---

[1]- لسان العرب : 344/4 345 (هـ م س).
[2]- سورة الطور الآية 13.
[3]- الكشاف: 23/4.
[4]- لسان العرب : 78/5 (د ع ع).
[5]- الجامع لأحكام القرآن: 41/9، وينظر معاني القرآن للفراء: 91/3.

صوت الدال الناتج عن انحباس الهواء أو النفس لفترة معينة قبل العضوين المشكلين له، وكذا قوة جهر الدال الناتج عن ذبذبة الأوتار الصوتية.. كل ذلك يجعل من صوت الدال صوتاً قوياً. وأما العين فتتصف بالجهر والنصاعة والتردد بين الشدة والرخاوة أي التوسط، فالجهر في العين هو ذبذبةُ الأوتار الصوتية معها ذبذبةً عالية، وهو الأمر الذي يجعل منها صوتاً جرسياً كما عبر عن ذلك الخليل[1]، ووصفها بالإطلاق والضخامة والنصاعة.

هذا وفسر الزمخشري لفظ (يدع) في قوله تعالى:﴿فذلك الذي يدع اليتيم﴾[2]

بمثل ما فسره به في الشاهد السابق حيث قال:(يدع اليتيم) أي يدفعه دفعاً عنيفاً بجفوة وأذى ويرده رداً قبيحاً بزجر وخشونة[3].

6.اللفظ المناسب للصوت المناسب.

اختار القرآن الكريم اللفظ المناسب في المقام المناسب من الآية أو العبارة أو الجملة، بحيث لا يمكن للفظ أن يسدّ مسدّ لفظ آخر أو يأخذ مكانه في التركيب، والجانب الصوتي في تركيب اللفظ يسهم إسهاماً عميقاً في بناء الدلالة الدقيقة والعميقة، بحيث لا يمكن لأية جهة فنية القيام باستبدال لفظ مكان لفظ، وقد اجتهد الزمخشري في الإبانة عن هذا الجانب في غير موضع من كشافهِ، ونحاول في هذه السطور الوقوف مع بعض النماذج.

- وفي قوله تعالى:﴿ يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ ﴾[4]. قال الزمخشري:" فإن قلت: أي فرق بين هذا النظم وبين أن يقال: وآتينا داوود منا فضلا تأويب الجبال معه والطير؟ قلت: كم بينهما؟ ألا ترى إلى ما فيه من الفخامة التي لا تخفى من الدلالة على عزة الربوبية، وكبرياء الألوهية، حيث جعلت الجبال منزلة منزلة العقلاء الذين إذا أمرهم أطاعوا وأذعنوا وإذا

[1]- العين: 1/ 53- 54.
[2]- سورة الماعون الآية 02.
[3]- الكشاف : 289/4.
[4]- سورة سبأ الآية 10

دعاهم سمعوا وأجابوا، إشعاراً بأنه ما من حيوان وجماد، وناطق وصامت إلا وهو منقاد إلى مشيئتهِ، غير ممتنع عن إرادته[1].

إن الدلالة الصوتية للفظ (أوبي) تتأسس على الخصائص الصوتية لأصواته المتوزعة على مدارج الحلق والحنك واللسان؛ فالهمزة صوت حنجري يعد أعمق الأصوات مخرجاً، ثم يأتي الواو الصوت الحنكي القصي بحيث يبدأ تشكلهُ هناك ويستمر نفَسُهُ إلى الشفتين، ثم تأتي الباء الشفوية المستغرقة في المد، وهذا التجميعُ الصوتي غاية في البراعة والجمال، وتزداد هذه البراعة في الوقوف على معرفة المراد منها وهو ترجيع تسبيح الجبال، وهو أمر فيه من الفخامة الدالة على عزة الربوبية وجلال الألوهية كما عبر عن ذلك الزمخشري، بحيث أنزلت الجبال وهي جماد منزلة العقلاء، وفي ذلك مخالفة لناموس من نواميس الكون في ترجيع الأصوات من قبل من لا ينطق بالمفهوم البشري، ولو كان هذا الاستخدام في غير التركيب القرآني لم يصح القبول به عقلا.

وآية ﴿أوبي معه والطير﴾ ذكر الفراء[2] أنها تقرأ بتشديد(أوّبي) عند المعروفين من القراء، وتقرأ بالتخفيف(أوبي) عند بعضهم الآخر، وجعل الفراء الأولى بمعنى: سبّحي، والثانية بمعنى: تصرّفي معه. وقال ابن منظور وقوله عز وجل (يا جبال أوبي معه) ويقرأ (أوبي) معه، فمن قرأ (أوّبي معه) فمعناه يا جبال سبحي معه ورجعي التسبيح لأنه قال ﴿سخرنا الجبال يسبحن﴾، ومن قرأ (أوبي) فمعناه عودي معه في التسبيح كلما عاد فيه[3].

فالتركيب الصوتي للصورتين اللفظيتين(أوّبي) و (أوبي) هو ما يحدد الدلالة السياقية، سواء كانت بمعنى التسبيح في ترديده وترجيعه، أو كانت بمعنى الرجوع والأوبة.

- في قوله تعالى:﴿ مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاء كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴾[4]، إن لفظ (أوهن) يسهم بتركيبهِ الصوتي في

[1]- الكشاف : 281/3.
[2]- معاني القرآن: 355/2، ومن أسرار اللغة للطناجي : 109/1.
[3]- لسان العرب: 211/1 (أ و ب).
[4]- سورة العنكبوت الآية 41.

بناء دلالة الضعف والخور لما يشتمل عليه من أصوات موحية بهذا الدلالة؛ بحيث ضم أصوات الحنجرة، وهي أصوات عميقة المخرج في الجهاز الصوتي، وهي الهمزة والهاء، إلى جانب صوت الواو الصوت الحنكي القصي، والصوت الأنفي (النون)، ولعل ضم الهاء الموصوفة بالهتّ أي الضعف إلى جانب النون الأنفية الموصوفة بالغنة، والتي أسهمت الطبيعة الصوتية للغنة فيها، في إحداث إيقاع وصدى لا يمكن أن يؤديهِ أي صوت آخر إذا حل محلّها، وذلك لتمكن الناطق من مد الصوت بها دون الاعتماد على الأعضاء النطقية، الأمر الذي يُشْعر بالضعف والخور المتناهيين. وقد تنبه الزمخشري إلى هذا حين علل سبب هوان وضعف بيت العنكبوت حين قال:« ..وقد صح أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، وكما أن أوهن البيوت إذا استقريتها بيتاً بيتاً بيت العنكبوت، كذلك أضعف الأديان إذا استقريتها ديناً ديناً عبادة الأوثان لو كانوا يعلمون»[1].

إن هذا الاختيار القرآني للفظ(أوهن) لما فيها من الخصائص الصوتية الموحية بدلالة أن عبادة الأوثان أو اتخاذ أولياء من دون الله، ليُعدّ اختياراً بارعاً يشير إلى التداعي والعجز، لأن هذا الذي يُلجأ إليه من دون الله أعجز من أن يكون ولياً قوياً يقوم بنفسه وبغيره، قال ابن القيم في تفسير الآية السابقة:«..فذكر سبحانه أنهم ضعفاء، وأن الذين اتخذوهم أولياء أضعف منهم، فهم في ضعفهم وما قصدوه من اتخاذ الأولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وهو أوهن البيوت وأضعفها.. وفي القرآن أكثر من ذلك، وهو من أحسن الأمثال وأدلها على بطلان الشرك، وعلى خسران صاحبه وحصوله على مقصوده.. فإن قيل: فهم يعلمون أن أوهن البيوت بيت العنكبوت، فكيف نفى عنهم علم ذلك بقوله:(لو كانوا يعلمون)؟ فالجواب أنه سبحانه لم ينفِ عنهم علمهم بوهن بيت العنكبوت، وإنما نفى عنهم علمهم بأن اتخاذهم أولياء من دونه كالعنكبوت اتخذت بيتاً، فلو علموا ذلك ما فعلوه، ولكن ظنوا أن اتخاذهم الأولياء من دونه يفيدهم عزاً وقدرة. والأمر في الواقع بخلاف ما ظنوه »[2].

---

[1]- الكشاف : 206/3.
[2]- التفسير القيم لابن قيم الجوزية، جمع وإعداد محمد أويس الندوي ص 388.

ومادة (وهن) من الجانب اللغوي تشير إلى الضعف على العموم حِساً ومعنى قال ابن منظور: الوهن الضعف في العمل والأمر وكذلك في العظم ونحوه، وفي التنزيل ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُ وَهْنًا عَلَى وَهْنٍ﴾[1]، جاء في تفسيره: ضعفاً على ضعف أي لزمها بحملها إياه أن تضعف مرة بعد مرة وقيل(وهنا على وهن) أي جهدا على جهد والوَهَن لغة فيه[2].

• في قوله تعالى:﴿ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَى ﴾[3] قال الزمخشري:« (ضيزى) جائرة من ضازه يضيزه إذا ضامه والأصل ضوزى، وقرئ: ضئزى من ضأز بالهمزة وضَيزى بفتح الضاد»[4]. وقال ابن منظور:«..ابن الأعرابي: تقول العرب قسمة ضُؤزى بالضم والهمز، وضُوزى بالضم بلا همز وضِئزي بالكسر والهمز، وضِيزى بالكسر وترك الهمز قال ومعناها كلها الجور»[5]. وقال القرطبي:(قسمة ضيزى) أي جائرة عن العدل، خارجة عن الصواب، مائلة عن الحق. يقال: ضاز في الحكم أي جار، وضاز حقه يضيزه ضيزاً. عن الأخفش: أي نقصه وبخسه.. وقال الكسائي: يقال ضاز يضيز ضيزاً، وضاز يضوز ضوزاً، وضأز يضأزُ ضأزاً إذا ظلم وتعدى وبخس وانتقص[6].

وعلى العموم فإن(ضيزى) تحمل معنى الجور مهما تعددت صورها اللفظية، غير أن الجامع بينهما جميعاً هي اشتمالها على صوتين أسهما إسهاماً كبيراً في جعل دلالتها الصوتية تحمل شحنات دلالية موحية بغرابة قسمة المشركين وقبحها، إذا أنهم جعلوا لله البنات وجعلوا لهم البنين، كما جعلوا الملائكة بناتاً لله ــ تعالى الله عن ذلك ــ وهذا ظلم عظيم .

فالضاد وما فيها من إطباق وتفخيم واستعلاء، وهي صفات قوة توحي بعظم الجرم وفخامة الفعل من جهة سوئهِ وجراءتهِ على الله، يضاف إلى ذلك جهر الضاد إيذاناً بعظم الجريرة، وفضحا لهذا المنطق الغريب البعيد عن الفطرة والأدب مع الخالق. ثم إذا انضمت

---

[1]- سورة لقمان الآية 14.
[2]- لسان العرب : 7/ 1033، (و هـ ن).
[3]- سورة النجم /22.
[4]- الكشاف : 31/4.
[5]- لسان العرب : 58/4 (ض أ ز)، ومعاني القرآن للفراء : 98/3.
[6]- الجامع لأحكام القرآن : 66/9 ، والأساس للزمخشري ص 381.

إلى الضاد الزايُ الصوت الصفيري المجلجل، ذو الأزيز المتردد المشبع بألف المدّ المقصورة، دلّ ذلك على منتهى قبح هذه القسمة ومدى جراءتها على الله.

وهكذا فإن القرآن بما امتاز به من تَخيّر للألفاظ ذات الدلالة المعينة في الموضع المعين، إنما كان ذلك التخيرُ والانتقاءُ يراعى القوة التعبيرية، فضلا عن المعاني الفكرية والمحمولات العقلية في تلك اللفظة المعينة.

- في قوله تعالى:﴿فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ﴾[1]. قال الزمخشري:(نَضَّاخَتَانِ) فوّارتان بالماء، والنضخُ أكثر من النضحِ[2]. وفي هذا الكلام إشارة إلى الدلالة الصوتية لصوتي الحاء والخاء في السياق الوارد وأثر ذلك في الدلالة العامة للتركيب قال ابن جني:« ..ومن ذلك قولهم النضحُ للماء ونحوه، والنضخُ أقوى من النضحِ قال الله سبحانه(فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ) فجعلوا الحاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه»[3].

والذي يبدو من تعليل ابن جني لورود الحاء في سياق الدلالة على الماء الضعيف، وبضد ذلك الخاء..هو أن الخاء تتصف بالاستعلاء والتفخيم بينما صوت الحاء صوت مستفل مرقق؛ فصفتا الاستعلاء والتفخيم تعدان صفات قوة في الخاء تجعلان منه صوتاً أكثر جرسا وأبلغ وضوحا في السمع.

وما يؤكد اختلاف دلالتي الكلمتين ما سجله علماء المعاجم واللغة عن معنى كلمتي نضح ونضخ، فقد أورد ابن منظور في اللسان ما نصه " نضخ عليه الماء ينضخ نضخاً، وهو دون النضحِ.. والنضخُ شدة فور الماء في جيشانه وانفجاره من ينبوعه، قال أبوعلي: ما كان من سفل إلى علو فهو نضخٌ، وعين نضاخة تجيش بالماء وفي التنزيل(فِيهِمَا عَيْنَانِ نَضَّاخَتَانِ) أي فوارتان. التهذيب.. والنضخ من فور الماء من العين والجيشان ينضخان بكل خير، يقال: عين نضاخة أي كثيرة الماء فوارة[4].

---

[1]- سورة الرحمان الآية 66.
[2]- الكشاف : 50/4.
[3]- الخصائص : 509/1(تحقيق هنداوي)، وينظر التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة لمحمود عكاشة ص 22.
[4]- لسان العرب : 462/2، (ن ض خ).

وقال ابن منظور في موضع آخر: " النضح: الرش، نضح عليه الماء ينضحه نضحاً إذا ضربه بشئ فأصابه منه رشاس. ونضح عليه الماء: ارتش.. ونضح البيت ينضِحه بالكسر نضحاً: رشه. وقيل: رشه رشاً خفيفاً. وانتضح عليه الماء أي ترشس .. ونضح الماء العطش ينضِحه: رشّه فذهب به أو كاد يذهب به "[1]

والحاصل من كل ذلك، أن القرآن الكريم وضع اللفظ المناسب في الموضع المناسب لأداء الدلالة المطلوبة، منطلقاً من الطبيعة الصوتية الموحية لأصوات اللغة.

[1]- نفسه: 2/ 388 -389.(ن ض ح).

الفصـل الثالث

الاتجـاهـــات الصوتية في الكشّـاف

المبحث الأول: اتجــــــاه المماثلة.

المبحث الثاني: اتجــــــاه المخالفة.

المبحث الثالث: اتجــــــاه السهولة واليسر.

تخضع التبدلات الصـــوتية التـــي تطـــرأ علـــى الأصـــوات اللغويـــة لقـــوانين أو اتجاهات[1]صوتية تحكم بنيتها، وتسهم في الإبانة عن خصائصها التمييزيـــة، ســـعياً لتحقيـــق الانسجام الصوتي في التيار الكلامي، وقد استرعت هذه الاتجاهات الصوتية اهتمام الدارسين والمعنيين بالبحث اللغوي، ونظروا إليها على أنها السبب المتحكم في التغيـــرات الصـــوتية لأصوات اللغة، سواء في سياقها التاريخي أو التركيبي.

وفي هذه السطور نحاول أن نقف على مظاهر تلك الاتجاهات وأنواعها فـــي كتـــاب الكشاف، بما يكشف حقيقتها وخصائصها عند الزمخشري من خلال النماذج القرآنية المشتملة على تلك القوانين. وسنقصر الحديث هنا عن أهم تلك الاتجاهات وأكثرها وروداً في العربية وهي اتجاهات المماثلة والمخالفة والسهولة واليسر.

المبحث الأول: اتجاه المماثلة.

تتأثر الأصوات بعضها ببعض في السلسلة الكلامية، فيتـــأثر الأول بالثـــاني أو الثـــاني بالأول. ويتخلى الصوت المتأثر خلال عملية التـــأثر عـــن بعـــض خصائصـــه أو جميـــع خصائصه، فإذا كان التخلي يشمل بعض الخصائص فالمماثلة جزئية، وإذا كان التخلي عـــن جميع الخصائص بفناء الصوت في الصوت الآخر فالمماثلة حينئذ كليّة. وإذا كان الصـــوتان منفصلين فإن المماثلة في هذه الحال منفصلة، وإذا كان الصوتان متصلين ببعضهما اتصـــالاً مباشراً في السياق الكلامي، فإن المماثلة متصلة. وأما على صعيد الترتيـــب فـــي الســـياق الكلامي، فإنه إذا أثر الأول بالثاني فالمماثلة تقدمية وإذا كان العكس أي أثر الثاني بـــالأول فالمماثلة رجعية.

وبناءً على تلك الأسس فإن المماثلة يمكن أن تنقسم إلى ثمانية أقسام أو أشكال نوردهـــا فيما يلي مع تحليل شواهدها في اللغة، ومما ورد لدى الزمخشري.

[1]- سنستخدم في هذا الفصل مصطلحي الاتجاهات والقوانين بوصفهما مصطلحين يأخذان نفس المعنى، ولم نفرق بينهما كما فعل بعض الدارسين (ينظر: تفصيل ذلك في كتاب اللغة لفند ريس, ص71 وما بعدها). وتجدر الإشارة أيضا إلى أن علماء اللغة القدامى أطلقوا مصطلح "الأصول المطردة" ولعله المصطلح القديم الذي يقابل مصطلح "الاتجاهات الصوتية " أو" القوانين الصوتية" في الدراسات الصوتية الحديثة (ينظر التطور النحوي لبرجشتراسر، ص 26).

1)المماثلة الكلية المقبلة المتصلة.

تتأثر تاء الفاعل بالصوت المطبق قبلها في "فعلت" نحو: أحطّتُ ـــــ أحــطُّ.

في قوله تعــالى:﴿ أَحَطّتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ ﴾[1]، والذي حصل هنا هو تأثر التاء بالطاء قبلها، فتحولت إلى طاء وأُدْغمت الطاء في الطاء.. قال الفراء:«..قال بعض العرب: أحطُّ فأدخل الطاء مكان التاء[2]، ومثال ذلك أيضاً قول علقمة الفحل:

وفي كل حيّ قد خَبَطّ بنعمة *** فَحُقّ لشأس من نداك ذَنُوبُ

قال ابن جني:« فإنه أراد خَبَطّتَ، ولو قال خبطت لكان أقيس اللغتين، وذلك أن هذه التاء ليست متصلة بما قبلها اتصال تاء افتعل بمثالها الذي هي فيه، ولكنه شبّه تاء خبطت بتاء افتعل من حيث أذكره لك، فقلبها طاء، لوقوع الطاء قبلها، كقولك: اطّلع وأطّرد»[3]، وهذا الكلام الذي أورده ابن جني يشير إلى قضية تخص التاء والطاء في حال اتصالهما اتصالاً مباشراً، فمتى اتصلتا اتصالاً مباشراً وجب نطق التاء طاء، أي قلبها طاء، لأنه لا يمكن الجمع بين المطبق ونظيره المرقق كما لا يمكن الجمع بين المجهور ونظيره المهموس إذا اتصل به مباشرة.

غير أن قدامى اللغويين ومنهم سيبويه وابن جني نصّوا على أن الأقيس في ذلك أي "تاء" فَعَلْتُ "هو عدم الإطباق قال سيبويه:« وأعرب اللغتين وأجودهما أن لا تقلبها طاء، لأن هذه علامة الإضمار، وإنما تجيء لمعنى»[4]، واللغتان التي يشير إليها سيبويه هنا هما "أحطّ" بإدغام التاء في الطاء "وأَحَطْتُ" من غير إدغام وإلى ذلك أشار الزمخشري في معرض تفسيره لقوله تعالى:﴿أَحَطّتُ بِمَالَمْ تُحِط به﴾ حين قال: « بإدغام الطاء في التاء بإطباق وبغير إطباق».[5]

---

1 - سورة النمل الآية: 22.
2 - معاني القرآن : 289/2، وينظر الجامع لأحكام القرآن : 116/7.
3 - سر صناعة الإعراب : 230/1-231.
4 - الكتاب لسيبويه ، 472/4..
5 - الكشاف:143/3.

على أن هنالك لغة ثالثة وردت عن العرب ذكرها الفراء قال: «...والعرب إذا لقيت الطـاءُ التاء فسكنت الطاء قبلها صيروا الطاء تاء، فيقولون: أحـتُّ»[1].

والحق أن أحكام اللغويين وغيرهم في هذه المسألة قائمة على أساس معياري بحـت. وإلاّ فإن عملية الأداء الفعلية لا تسمح بإظهار التاء مع الطاء إلا في حالة قلقلة الطاء، وهي ظاهرة صوتية تصيب الطاء وأخواتها في حال كونها ساكنة. أما في غير ذلك ــ خاصة في الأمثلة المستشهد بها من كلام العرب ــ فإن تفخيم وإطباق واستعلاء الطاء، كفيل بأن يجعل من عملية المماثلة تسير في اتجاه تأثير الطاء في التاء، فيسفر الأداء عن طاء قد أُدغمت فيها التاء.

2)المماثلة الكلية المقبلة المنفصلة.

من ذلك كلمة "أُصيلال" المتطورة عن أُصـيلان " تصـغير "أُصـلان" فـاللام فـي "أصيلال" بدل من النون قال سيبويه: « وقد أبدلوا اللام من النون وذلك قليل جدا، قـالوا : أصيلال، وإنما هو أصيلان"[2].

ــ نقل ابن منظور عن الفراء قول العرب في "لابل" "نابن" قال: « قال الفراء والعرب تقول: بل والله لا آتيك وبَنْ والله، يجعلون اللام فيه نوناً، قال وهي لغة بني سعد ولغة كلب، قـال وسمعت الباهليين يقولون: لابَنْ بمعنى "لا بل" »[3].

ــ تتأثر حركة الضمّ في ضمير النصب والجر الغائب المفرد المذكّر (ـهُ) والجمع المـذكر (ـهُم) والجمع المؤنث (ـهُن) والمثنى (ـهُما) بما قبلها من كسرة طويلة أو قصيرة أو ياء، فتقلب الضمة كسرة مثل: برجلِهُ ـــ برجلِه فيهُ ـــ فيهِ، ضربتهُ ــ ضربتهِ، بصـاحِبهُم ــ بصاحبهِم، قاضيهمُ ــ قاضيهِم، بهُـنَّ ـــ بهِنّ، بهُمَا ـــ بهِما.

[1] ـ معاني القرآن : 2/ 289، وينظر أيضا : 172/1.
[2] ـ الكتاب : 240/4.
[3] ـ لسان العرب: 83/8(بلا).

وقد حافظت القبائل الحجازية على هذا الأصل في أدائها قال سيبويه:« فالهاء تكسر إذا كانت قبلها ياء أو كسرة.. وذلك قولك: مررت بهي قبل، ولديهي مالٌ، ومررت بدارهي قبل، وأهل الحجاز يقولون: مررتُ بهو قبل، ولديهو مالٌ، ويقرءون ﴿ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهو الأَرْضَ ﴾[1]"..»[2].

3) المماثلة الكلية المدبرة المتصلة.

المماثلة أو التأثر المدبر أو الرجعي يكون ـ كما سبقت الإشارة ـ بتأثير الثاني من الأصوات ـ في الترتيب ـ على الأول فيه، وهذا النوع هو الأكثر شيوعاً في اللغات ومن بينها العربية قال إبراهيم أنيس: " ويغلب على العربية أن يتأثر الصوت الأول بالثاني»[3]. وقال أحمد مختار عمر:" والرجعي (أي التأثر) ومثاله: تطيّر ـ أطّير، يتصدق ـ يصّدق، اضطره ـ أطّره، أخذتم ـ أختّم ، عدت ـ عتّ، بل رفعه ـ برّفعه.. والشائع في لغة العرب هو التأثير الرجعي إلا في حالة ما إذا كان الأول أقوى (مجهور، مفخم) فإنه يجوز أن يكون من التأثير التقدمي"[4].

وقال أنيس في "الأصوات اللغوية": "...وهذا النوع ـ يقصد الرجعي ـ كثير الشيوع في الفرنسية والعربية أيضا"[5].

ومن أمثلة وشواهد هذا النوع ما يلي:

ـ تتأثر لام التعريف بما بعدها من أصوات الصفير والأسنان والأصوات المائعة (الراء واللام والنون)، وهي ما يطلق عليها الحروف الشمسية، فتدغم فيها، وقد جمعها أحد الشعراء في أوائل كلمات البيت التالي:

طب ثم صل رحما تفز ضف ذا نعم *** دع سوء ظن زر شريفا للكرم

1 ـ سورة القصص الآية 81.
2 ـ الكتاب: 294/2(طبعة بولاق 1317 هـ).
3 ـ في اللهجات العربية، ص 62.
4 ـ دراسة الصوت اللغوي، ص388.
5 ـ الأصوات اللغوية، ص 181.

ـ تتأثر التاء في مضارع صيغتي ـ تفاعل وتفعّل[1] ـ بعد تسكينها للتخفيف تتأثر بفاء الفعل إذا كانت صوتا من أصوات الصفير أو الأسنان، ثم قيست على ذلك صيغة الفعل الماضـــي مثل:

يتذكر ـــ يتْذكّر ـــ يذّكّر ـــ اذّكّـــر (فـــي الماضي).

يتطهر ـــ يتْطهّر ـــ يطّهّر ـــ اطّهّـــر(فـــي الماضي)

ويرى بعض المحدثين أن هذه الظاهرة كانت في سبيل التطور في العربية الفصـــحى عندما جاء الإسلام، ودليل ذلك هو وجود أمثلة في القرآن الكريم حدث فيها التطور مثل قوله تعالى: ﴿ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ﴾[2]، ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾[3]، ﴿ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُـــواْ الأَلْبَابِ ﴾[4]، ﴿ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنفَعَهُ الذِّكْرَى ﴾[5]، ﴿ حَتَّىَ إِذَا أَخَـــذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ ﴾[6].

ـ ومن أمثلة ذلك : عبدت، وربطت، فقد أثرت التاء في الدال والطاء فأبدلتا تاء مشددة[7].

ـ تتأثر اللام في كلمة " بل " بالراء التي بعدها في الكلمة التالية فتقلب راءاً كقول الشاعر:

عافت الماء في الشتاء فقلنا *** بل رديه تصادفيه سخينــــاً

فإنها تنطق (برّديه).

ـ تتأثر النون في حروف مثل : إن، وأن، ومن، وعن بالميم واللام التي تليها فتقلب ميما أو لاما مثل : إمّا، أمّا، وممّا، وعمّا.

ـ تتأثر الراء في بعض قراءات القرآن باللام بعدها في مثل قوله تعالى:﴿ يَغْفِرْ لَكُم﴾[8]، فتقلب لاما، وقد أنكر ذلك ابن جني في قوله: " اعلم أن الراء لما فيها من التكرير، لا يجوز إدغامها فيما يليها من الحروف لأن إدغامها في غيرها يسلبها ما فيها من الوفور بالتكرير"[9].

بالتكرير"[9].

[1] ـ ينظر اللهجات العربية نشأة وتطورا لحامد هلال ص 366.
[2] ـ سورة التوبة الآية 38.
[3] ـ سورة النمل الآية 66.
[4] ـ سورة البقرة الآية 269.
[5] ـ سورة عبس الآيتان 3و4.
[6] ـ سورة يونس الآية 24.
[7] ـ ينظر التطور النحوي للغة العربية ص 30 ، ودروس في علم أصوات العربية لجون كانتينو ص 53.
[8] ، سورة آل عمران الآية 31.
[9] ـ سر صناعة الإعراب : 1/ 205

والذي يقصده ابن جني بالوفور بالتكرير هنا، هو ما للراء من فضيلة التكرير التـــي هي ارتعاد طرف اللسان وطرقه طرقات عدة على أصول الثنايا، ولذلك فإن وضوح الـــراء في السمع يعد أقوى من وضوح اللام؛ فالمذهب عند ابن جني « أن تـــدغم الأضـــعف فـــي الأقوى»[1]، أو كما لخصه السيرافي في قوله: «الأقل تفشيا يدغم في الأكثر تفشيا»[2].

والحق أن لهذه الفكرة ما يؤيدها في الدراسات الحديثة، ويتضح ذلك من خـــلال مـــا صاغه اللغوي الفرنسي موريس جرا مون في" قانون الجهد الأقوى". ويعني أنه حين يـــؤثر صوت في آخر، فإن الأضعف بموقعه في النطق أو بامتداده النطقي هو الذي يكون عرضة للتأثر بالآخر[3].

ومن الشواهد التي ذكرها الزمخشري شاهد: "ادّارك " الوارد في قوله تعـــالى: ﴿ بَلِ ادَّارَكَ عِلْمُهُمْ فِي الآخِرَةِ ﴾[4] قال الزمخشري : «ادّارك أصله تدارك فأدغمت التاء في الدال وادّرك افتعل»[5].

وهنا أثرت الدال وقد جاءت ثانيا في التاء فقلبت إلى دال جديدة ثـــم أدغمـــت الـــدال الأولى في الثانية، وهذا التأثر من النوع الرجعي.

ومن ذلك أيضا ما ورد في تفسير قوله تعالى:﴿ مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ ﴾[6]، حيث قال الزمخشري: « قُرئ (يخَصّمُون) و(يخِصّمون) بإدغام التاء فـــي الصاد مع فتح الخاء وكسرها وإتباع الياء الخاء في الكسر»[7]. وإشارة الزمخشري إلى إدغام التاء في الصاد تشير إلى أن أصل التركيب هو يختصمون، وواضح أن تجاور التاء المستفلة المرققة المنفتحة مع الصاد المستعلية المفخمة المطبقة، أدى إلى عدم انسجام نطقـــي نظـــرا

[1] - المنصف: 328/2.
[2] - ما ذكره الكوفيون من الإدغام ص 34.
[3] - ينظر دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر ص 372.
[4] - سورة النمل الآية 66.
[5] - الكشاف: 3 / 156
[6] - سورة يس الآية 49.
[7] - الكشاف: 3 / 325.

لتباين الخصائص بين الصوتين، فتماثل الصوتان ووصل التماثل بينهما حد الإدغام أو فنـــاء أحدهما في الآخر فناءا كلياً.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ وَإِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ أَن تَرْجُمُون ﴾[1]، قال الزمخشري في ذلك: «وقرئ (عُتّ) بالإدغام »[2] ولعل مما سهل عملية الإدغام هذه هو تجـاور مخرجـي الصوتين، وهما المخرج الأسناني الذي منه الذال والمخرج الأسناني اللثوي الذي منه التاء، ويبدو هنا أن التأثير الذي حصل على الذال من قبل التاء إنما هو لأجل صـــفة الشـــدة، لأن الانتقال من صوت رخو إلى صوت شديد فيه بعض المشقة، ولعل هذا هو ما يفسر وصـــف القرطبي لهذا الإدغام بأنه سعي إلى التخفيف حيث قال: « أظهر الذال من (عذت) نافع وابن كثير وابن عامر وعاصم ويعقوب، وأدغم الباقون. والإدغام طلبا للتخفيف والإظهار علـــى الأصل »[3].

ومن شواهد الزمخشري ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ﴾ [4] حيث قـــال الزمخشري: " المزّمّل " المتزمل وهو الذي تزمل في ثيابه أي تلفّف بها بإدغام التـــاء فـــي الزاي"[5]. وواضح هنا أن التماثل الكامل الذي حصل بين التـــاء والـــزاي ســـببه أن التـــاء المهموسة جاورت صوتا مجهورا وهو الزاي فضلا عن صفة الصفير وهي صفة تزيد مـــن وضوح الزاي وعلوها في السمع.

وحول أصل (المزمل) فقد نقل القرطبي عن الأخفش الأوسط أن أصلها المتزمل فأدغمت التاء في الزاي[6]

ومن الشواهد أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿فَأَنْتَ لَهُ تَصَـْـدى ﴾[7] حيـــث ذكـــر الزمخشري أنها قرئت (تصدّى) بتشديد الصاد وهو ناتج عن إدغام التاء في الصـــاد[8]، قـــال

---

[1] ـ سورة الدخان الآية 20
[2] ـ الكشاف : 3 / 503
[3] ـ الجامع لأحكام القرآن : 8 / 85
[4] ـ سورة المزمل الآية 01.
[5] ـ الكشاف: 173/4.
[6] ـ ينظر: معاني القرآن للأخفش : 716/2، والجامع لأحكام القرآن : 22/10.
[7] ـ سورة عبس الآية 06.
[8] ـ الكشاف: 04/ 218.

القرطبي: «(تصَدّى) بالتخفيف على طرح التاء الثانية تخفيفا وقرأ نـــافع وابـــن محيصـــن بالتشديد على الإدغام»[1]. وواضح من كلام القرطبي أن الأصل في (تصَدّى) هو تتصدّى لأن التاء التي تدغم في الصاد إنما هي التاء الثانية التي سقطت تخفيفا كما قـــال، ومـــا يســـميه القرطبي هنا تخفيفاً يدخل ضمن ما يعرف في العربية بتوالي الأمثال وهو مكروه لا تحبـــذه العربية، والسبب في ذلك اضطرار اللسان إلى نطق صوتين مثلين في تتابع واحد، وهو أمر تكتنفه صعوبة ظاهرة، فتميل العربية إذن إلى التخلص من ذلك بوساطة حذف أحد المقطعين المكررين قال برجشتراسر: « ومن الترخيم ما هو جنس من التخالف، وهـــو حـــذف أحـــد المقطعين المتتاليين، أولهما حرفان مثلان أو شبهان»[2].

ومن شواهد الزمخشري حول هذا النوع من المماثلة ما ورد في تفســـير قولـــه تعـــالى: ﴿وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾[3] قال الزمخشري: « (ادّكر) بالدال وهو الفصيح، وعـــن الحســـن(وادّكر) بالذال المعجمة والأصل تذكر»[4]، وبإشارة الزمخشري إلى أن الأصل في (ادّكر) هو تذكر، فتكون التاء أدغمت في الذال أو في الدال وسواء كان الإدغام في الذال أو الدال، فإن العلـــة من هذا التماثل هو تحقيق الانسجام الصوتي بين التاء من جهة والدال والذال من جهة ثانية إذ إن التاء مهموسة، والدال والذال صوتان مجهوران.

4) المماثلة الكلية المدبرة المنفصلة.

وفيها يكون الصامت الأول متبوعا بحركة فيسقط نحو قوله تعالى ﴿يُعَذِّبُ مَن يَشَاء﴾[5] و﴿تَخْسِفَ بِهِمُ﴾[6] حيث يتحول التركيب إلى يعذ/ مّن يشاء و(نخس/بّـــهم).[7]

ــ ذكر بعض الدارسين المحدثين أن كسرة الميم في صيغتي اســـم الآلـــة: مفعـــل ومفعلـــة تطورت إلى فتحة وذلك ــ في رأيه ــ مطّرد تمام الاطراد في لهجة الأندلس العربيـــة فـــي

1 - الجامع لأحكام القرآن: 129/10.
2- ينظر التطور النحوي للغة العربية ص 70.
3 - سورة يوسف الآية 45.
4- الكشاف: 324/2.
5- سورة العنكبوت الآية 21.
6- سورة سبأ الآية 09
7- دروس في علم أصوات العربية لجان كانتينو ، ص 31.

القرن الرابع الهجري؛ إذ تتأثر حركة الميم بحركة العين، وذلك من نوع التأثر المدبر الكلي المنفصل مثل: مَقْود، ومَسَنّ، ومَقْنع للثوب الذي يغطى به الرأس، ومطرد للرمح الصـــغير ومخدّة و مزدغة للوسادة، وقد استمر ذلك في القرون التالية، فقد روى ابن هشام اللخمي (ت 577هــ)أن الأندلسيين كانوا يقولون: مصيدة، ومطرقة ومغرفة، ومزود، ومشرط ، ومنجل، ومنبر ومكنسة، ومروحة وملعقة[1].

ــ صيغة (فَعِيل) تتحول في نطق بني تميم باطراد إلى (فِعِيل) وإن كان اللغويون يشترطون لذلك أن يكون الحرف الثاني من حروف الحلق مثل: "لئيم" و " نهيق" و "بعير" ، و "نحيــف" و" رغيف" و "بخيل"، قال ابن جني: "ومن ذلك تقريب الصوت من الصـــوت مـــع حـــروف الحلق، نحو شِعير وبِعير ورِغيف، وسمعت الشجري غير مرة يقول: زئير الأســد، يريــد الزئير، و حكي أبو زيد عنهم: الجنة لمن خاف وعيد الله "[2]. غير أن أبا جعفر النحاس لــم يشترط ما اشترطه اللغويون من أن يكون الحرف الثاني من حروف الحلق حتى يكسر فاء " فَعِيل" حيث قال : " الرَّحيم: هذه لغة أهل الحجاز وبني أسد وقــيس وربيعــة. وبنــو تمــيم يقولون: رِحيم ورِغيف وبِعير[3].

ونجد في اللهجات المعاصرة مثل هذه الظاهرة، وإن خلت من حروف الحلق مثــل: كِبير، وفِطير وكِثير وشِريك وغيرها.

5) المماثلة الجزئية المقبلة المتصلة.

ــ تتأثر التاء في "فعلت" من "فحص"، وحاص" نقول: فَحَصْتُ وتنطق فَحَصْــطُ، وحصــت تنطق: حَصْط.

ــ تتأثر التاء في "فعلت" عند بعض العرب بالدال قبلها فتجهر، ومن هنا قال بعضـــهم فـــي فُزْتُ ــ فزدُ[4].

[1]- التطور اللغوي لرمضان عبد التواب، ص 43، وينظر أيضا لحن العامة والتطور اللغوي له، ص 190، 191.
[2]- الخصائص: 497/1.
[3]- إعراب القرآن للنحاس:1/ 18.
[4]- شرح الشافية للرضي الإستراباذي: 227/3.

ــ تتأثر تاء الافتعال بالجيم إذا كانت فاء للفعل، فتقلب دالا في بعض اللهجات القديمة مثــل: اجتمع ــــ اجدمع، اجتَزّ ــــ اجدَّز.

ويقول ابن جني: « وقد قلبت تاء افتعل دالا مع الجيم فــي بعــض اللغــات قــالوا: اجدمعوا، في اجتمعوا، واجدزّ في اجتزّ وانشدوا:

فقلت لصاحبي لا تحبساني *** بنزع أصوله واجدزّ شيحا

ولا يقاس ذلك إلا أن يسمع، لا تقول في اجترأ : اجدرأ، ولا في اجترح اجدرح»[1].

ــ تتأثر الثاء بالأصوات المجهورة قبلها، فتقلب ذالا في بعض اللهجات القديمة، مثل : يجثو ــ يجذو، تلعثم ــ تلعذم، وإن كان ابن جني ينكر أن يكون ذلك قلباً ويدعي أنهمــا لغتــان؛ فيقول: « وأما قولهم: جذوت وجثوت، إذا قمت على أطراف أصابعك. وقرأت علــى أبــي علي:

إذا شئت غنتني دهاقين قرية *** وصناجة تجذو على كل منسم

فليس أحد الحرفين بدلا من صاحبه، بل هما لغتان، وكذلك قولهم أيضا: قرأ فما تلعثم، ومــا تلعذم»[2].

ــ تتأثر تاء الفاعل بلام الفاعل، إذا كان صوتا مفخما، فتقلب التاء طاء في بعض اللهجات القديمة، وهي تلك اللهجات التي يقول أصحابها: فَحصطُ برجلي، بدلا من فحصتُ[3].

6) المماثلة الجزئية المقبلة المنفصلة.

ــ ذكر ابن جني في سر الصناعة من أنّه يقال: تركتُه وقيذاً ووقيظاً، قال« والوجه عندي والقياس أن تكون الظاء بدلاً من الذال لقوله عزّ اسمه الموقوذة) بالذال، ولقولهم؛ وقذَهُ يَقِذُه، ولم أسمع وقظه ولا موقوظة؛ فالذال إذا أعمّ تصرفاً فلذلك قضينا بأنها هي الأصل»[4].

[1]- سر صناعة الإعراب لابن جني: 201/1.
[2]- نفســه: 201/1.
[3] ـ الكتاب 423//02.
[4] ـ سر صناعة الإعراب: 1/ 233.

وجاء في لسان العرب:« الوقيظ: المثبت الذي لا يقدر على النهوض كالوقيذ ثم أردف يقول: وفي الحديث: كان إذا نزل عليه الوحي وُقظ في رأسه أي أنه أدركه الثقل فوضع رأسه. يقال: ضربته فوقطُهُ أي أثقلته، ويروى بالظاء بمعناه كأن الظاء فيه عاقبت الذال من وقذت الرجل أَقِذُه إذا أثخنته بالضرب وفي حديث أبي سفيان وأمية بن أبي الصلت قالت له هند عن النبي صلى الله عليه وسلم: يزعم أنه رسول الله، قال فوقظتني، قال ابن الأثير: قال أبو موسى: هكذا جاء في الرواية، قال: وأظنُّ الصواب فوقَذَتنِي بالذال أي كَسَرَتْني وهدَّتني»[1].

وقال ابن منظور في مادة: و" قذ "«..الليث: حُمل فلان وقيذاً أي ثقيلاً دَنِقاً مُشفِياً. وفي حديث عمر أنه قال: إني لأعلم متى تهلك العرب، إذا ساسها من لم يدرك الجاهلية، فيأخذ بأخلاقها ولم يدركه الإسلام. فيقِذُه الورع قوله: فيقِذُه أي يُسَكّنه ويثخِنُه ويبلغ منه مبلغاً يمنعه من انتهاك مالا يحِلُّ ولا يَجمُل »[2].

والتبدل الصوتي الذي حدث هنا هو تأثر الذال بالصوت المفخم قبلها وهو القاف ففخمت وتفخيم الذال يجعلها ظاءً، فالقاف والغين والخاء بالإضافة إلى الأصوات المطبقة الأربعة هي أصوات مفخمة، تلقي بظلالها التفخيمية على ما يجاورها من أصوات، إذا كان في السياق من الأصوات ما ليس بمفخم. والتفخيم في الأصوات المفخمة هو الأثر السمعي الناشئ عن تراجع مؤخرة اللسان بحيث يضيق فراغ البلعوم الفموي عند النطق بالصوت[3]، ويعرفه علماء التجويد بأنه « سمن يدخل على جسم الحرف فيمتلئُ الفم بصداه»[4].

وذكر أبو الطيب اللغوي بعض أمثلة على هذه الظاهرة فمن ذلك: بخست عينه أبخسها وبخصتها أبخصها، والخرس والخرص أي الدَّن. ويقال: أجد في بطني مَغْساً ومَغَسا، ومغصاً ومغَصا، ورجسك وعذابك، ورجزك وعذابك، وذلك في دعاء القنوت[5].

ـــ تتأثر الدال بالراء قبلها في لهجة الأندلس العربية في القرن الرابع الهجري فتنقلب إلى نظيرها المفخم، وهو الضاد لأن الراء صوت ذو قيمة تفخيمية مثل معربد ـــ معربض. وقد

---

[1] ـ لسان العرب: 4/ 866 (و ق ظ).
[2] نفسه: 889/2. (و ق ذ).
[3] ـ المصطلح الصوتي في الدراسات العربية لعبد العزيز الصيغ، ص 148.
[4] ـ جهد المقل للمرعشي، ص 127.
[5] ـ الإبدال لأبي الطيب اللغوي: 2/ 175 - 178.

ذكر بعض المحدثين أن هذا يعد من خصائص صوت الراء في العربية، إذ يميل هذا الصوت إلى تفخيم بعض الأصوات المجاورة له، مثل قولنا: (صور) في(سور)، و"أخرص" و"أخرس" و"رفص" في "رفس"..وقد روي كثير مثل ذلك في العربية الفصحى؛ إذ فيها (الخراس) و"الخرّاص" بمعنى صاحب الدنان، و"رسخ الشئ" و"رصخ" بمعنى ثبت و(رجل أرسح) و" أرصح" بمعنى خفيف لحم الوركين، و(السراط) و(الصراط) بمعنى الطريق وغير ذلك[1].

7) المماثلة الجزئية المدبرة المتصلة.

ــ تتأثر التاء في "افتعل" المنقلب عن "اتفعل"، بالصوت المفخم بعدها فتفخم مثل: صبر – اتْصَبر – بالمماثلة الجزئية – اطصبر وبالقلب المكاني تصير – اصطبر.

وظلم – اتظلم – اطظلم – اظطلم فالمماثلة مدبرة وليست مقبلة ويرجع السبب في هذه المماثلة الجزئية هو أن تتابع التاء المرققة والصوت المفخم بعدها مستثقل مكروه في النطق، لأنه يجمع بين صوتين متفقين في المخرج، متنافرين في الصفة، فالتاء المرققة المستفلة تجاورت مع الظاء المفخمة المستعلية ومن ثم تماثل الصوتان بإبدال التاء طاء ليحدث تماثل في صفة التفخيم والاستعلاء قال ابن جني:« والعلّة في أن لم ينطق بتاء "افتعل" على الأصل إذا كانت الفاء أحد الحروف التي ذكرها[2] وهي حروف الإطباق – أنهم أرادوا تجنيس الصوت، وأن يكون العمل من وجه واحد بتقريب حرف من حرف»[3].

– تتأثر التاء في افتعل بالزاي والذال والدال بعدها أصلا وقبلها حالياً فتجهر بإبدالها دالا في نحو: افتعل من زهر – ازتهر – ازدهر وكذلك من ذكر – اذتكر – اذدكر – ادّكر – وادّكر وكذلك نقول في " افتعل من زار – ازدار. ومن كلام ذي الرّمّة في بعض أخبـــاره :" هـــل عندك من ناقة نزدار عليها مياً .. و" مفتعل " منه هو المزدار قال الشاعر :

ألا كعهدهم بذي بقـــر الحمـــــى *** هيهـــــات ذو بقـــر من المزدار[4]

---

[1] ـ الإبدال لأبي الطيب:178/2، وينظر فصول في فقه العربية، ص 200.
[2] ـ يقصد أبا عثمان المازني صاحب "التصريف".
[3] ـالمنصف لابن جني: 2 /324.
[4] ـ سر صناعة الإعراب لابن جني :200/1.

وجهر التاء في "افتعل" من كل ما فاؤه زاي أو ذال أو دال قانون صوتي عامّ يتخلف في هذه الصيغة، لأنَّه قد تمّ قبل حصول عملية القلب المكاني في "أثْعـــل"، قـــال الـــدكتور إبراهيم أنيس: « ولا يتجاور في اللغة العربية صوت مجهور مع نظيره المهموس، فالدال لا تكاد تجاور التاء، والزاي لا تجاور السين والذال لا تجاور الثاء وهكذا فإذا اقتضت صـــيغة من الصيغ أن يتجاور صوت مجهور مع نظيره المهموس مجاورة مباشرة وجب أن يقلـــب أحدهما بحيث يصبح الصوتان إما مهموسين وإما مجهورين..

أما إذا التقى مجهور بغير نظيره المهموس، فالغالب في اللغة العربية أن لا يتم التأثر ألا حين يختلفان اختلافا كبيرا في الصفة، وذلك كأن نصوغ افتعل من الفعل "زاد" فالزاي جـــاورت التاء مجاورة مباشرة ولبعد ما بينهما في الصفة يتم التأثير بقلب التاء إلى نظيرها المجهور، أي إلى الدال فتصبح "ازداد" وذلك لان الزاي أقصى مراحل الرخاوة في حين أن التاء مـــن الأصوات الشديدة فالبون بينهما كبير، ولذلك تحقق التأثر[1].

ومن هذه النوع من المماثلة ما حدث للتاء في صيغة "افتعل" من تأثر بـــالجيم وذلـــك نحو قول بعضهم في : اجتمع ـــــ اجدمع، وفي:اجتز ــــــــ اجدزّ

قال مضرس بن ربعي الفزاري:

فقلت لصاحبي لا تحبسانا *** بنزع أصوله واجدز شيحا

وقد ذهب بعض[2] القدماء إلى أن جهر التاء في افتعل مما فاؤه جيم شاذ، يحفظ ما جاء منـــه عن العرب ولا يقاس عليه، قال ابن جني " ولا يقاس ذلك ألا أن يسمع، لا تقول في اجتـــرأ" اجدرأ ولا في اجترح "اجدرح" [3].

والحق أن ما اعتبره ابن جني شذوذا لا يبدو كذلك لإن السياق الصوتي لتاء افتعل هنا هو نفسه السياق الصوتي الذي وردت فيه في الأمثلة السابقة مما تكون فيه فاء افتعل زايا أو

[1] ـ الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، ص 185.
[2] ـ قلنا بعض القدماء لأنه ليس بينهم سيبويه فهو لم ينص على أن هذه المماثلة من النوع الشاذ حين عرض لأمثلتها.(ينظر الكتاب: 479/4).
[3] ـ سر صناعة الإعراب: 201/1.

دالا أو ذالا، فضلا عن ذلك فإن سيبويه لم ينص على هذا الشذوذ كما أسلفنا. ومن ثم فإننـــا نقول مع المحدثين إنه لا بأس من جهر التاء في مثل هذا السياق، ليس مع الجيم فحسب بـــل أن القاعدة يمكن أن تطرد في كل فعل فاؤه صوت مجهور، فلو أمكن أن نصوغ افتعل مـــن فعل مثل "بعث" الذي يبدأ بصوت مجهور لكان من الجائز المقبـــول أن نـــرى نفـــس هـــذه الظاهرة.[1]

ــ تقلب النون الساكنة ميما في النطق إذا وليتها الباء كما في: عنبرـــــ عمبر وشنباء ـــــــ شمباء، أنبئهم ـــــ أمبئهم وهكذا.

والتعليل الصوتي لهذا، هو أن النون لثوية خيشومية، والباء شفوية، فالمخارج متباعدة، ثم إن النون بوصفها خيشومية تقتضي انخفاض الحنك اللين، وأما البـــاء بوصـــفها انفجاريـــة فتقتضي ارتفاع الحنك اللين، ولصعوبة تتابع هذين الصوتية بسبب التباعـــد فـــي المخـــارج والصفات جيء بصوت يحقق الانسجام بينهما وهو صوت الميم الذي يشترك مع النون فـــي صفة الخيشومية ويشترك مع الباء في المخرج الفموي، وقد علل سيبويه لمثل هذا النوع من المماثلة فقال: «وإذا كانت[2] مع الباء لم تتبين" وذلك قولك شمباء والعمبر لأنك لا تدعم النون وإنما تحولها ميماً»[3].

وقد علل الشريف الرضي لذلك أيضا تعليلا واضحا بقوله: « وذلك إنه يعسر التصـــريح بالنون الساكنة قبل الباء، لأن النون الساكنة يجب إخفاؤها مع غير حروف الحلق.. والنـــون الخفيفة ليست إلا في الغنة التي معتمدها الأنف فقط والباء معتمدها الشفة، ويتعسر اعتمادان متواليان على مخرجي النفس المتباعدين فطلبت حرفا تقلب النون إليها، متوسطة بين النـــون والباء، فوجدت هي الميم؛ لأن فيه الغنة كالنون وهو شفوي كالباء»[4].

---

[1] ـ الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، ص 184.
[2] ـ يقصد النون الساكنة .
[3] ـ الكتاب: 455/4.
[4] ـ شرح الشافية للرضي الإستراباذي :2 /216.

ــ تتأثر السين بالصوت المفخم بعدها فتفخم نحو (بسطة) في قوله تعالى ﴿ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَسْطَةً ﴾[1]، وهي في القرآن الكريم بالصاد، وقد فخمت أيضا في قوله تعالى ﴿ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ ﴾[2]، فقد روي أن نافعا كان يقرؤها بالصاد[3]. ومن أمثلة تفخيم السين لأجل الصوت المفخم بعدها قولهم: الرسغ والرصغ[4]، والقسطل والقصطل[5].

ــ تتأثر الصاد بالدال بعدها فتصير مجهورةً نحو أصدق – أزدق، التصـدير– التزديـر، الفصد – الفزد قال سيبويه: «وسمعنا العرب الفصحاء يجعلونها زايا خالصة ، كما جعلـوا الإطباق ذاهبا في الإدغام وذلك قولك في التصدير: التزدير وفـي الفصـد: الفـزد وفـي أصدرت:أزدرت..وإنما دعاهم إلى أن يقربوها ويبدلوها، أن يكون عملهم من وجـه واحـد وليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد إذ لم يصلوا إلى الإدغام ولم يجسروا على إبدال الـدال صادا، لأنها ليست بزيادة كالتاء في افتعل والبيان عربي»[6].

وقد قرأ القراء بإشمام الصاد زايا في مثل هذا السياق قال ابن الجـزري: "اختلـف القراء في اصدق وتصديق ويصدفون وفاصدع، وقصد، ويصدر ومـا أشـبهه، إذا سـكنت الصاد وأتى بعدها دال، فقرأ حمزة والكسائي وخلف بإشمام الصاد صوت الزاي.[7]

8)المماثلة الجزئية المدبرة المنفصلة.

ــ تتأثر السين بالأصوات المفخمة بعدها فتفخم أي تصبح صادا وذلك أن حروف الاستعلاء تؤثر على السين فتكسبها التفخيم الذي فيها، فمما فخمت فيه السين تحت تأثير الصوت المفخم بعدها كلمة السراط التي تحولت إلى الصراط؛ فالأصل في السراط، هو السين لأن الكلمـة لاتينية[8]، ومن أمثلة ذلك يسلخ ويصلخ، سخر وصخر[9]، وقال الزمخشري في ذلك "الصراط "الصراط الجادة من سرط الشيء إذا ابتلعه، لأن يسترط السابلة إذا سلكوه كما سمي لقماً لأنه

[1] - سورة الأعراف الآية 69.
[2] - سورة البقرة الآية 247.
[3] - السبعة في القراءات لابن مجاهد ص 185.
[4] - الجمهرة لابن دريد : 286/1.
[5] - الابدال لأبي الطيب اللغوي :173/2.
[6] - الكتاب: 478/4.
[7] - النشر في القراءات العشر: 250/2.
[8] - المدخل في علم الأصوات المقارن لصلاح حسنين ص135.
[9] -المرجع نفسه ، ص135.

يلتقمهم، والصراط من قلب السين صادا لأجل الطاء كقوله:(مصيطر) في مسيطر. وقد تشم الصاد صوت الزاي وقرئ بهن جميعاً، وفصحاهن إخلاص الصاد، وهي لغة قريش وهـــي الثابتة في الإمام[1].

وتفخيم السين لا يقتصر على تأثرها بالطاء فقط، وإنما تفخم تحت تـــأثير الأصـــوات المفخمة التالية لها كلها. وقد خص السلف من بينها القاف والغين والخاء بالإضافة إلى الطاء، ولعل هذه الأصوات الأربعة هي التي تفخم معها السين باطراد تقريباً قال ابن جنـــي:« وإذا كان بعد السين غينٌ أو خاءٌ أو قافٌ أو طاءٌ جاز قبلها صادا وذلك قولـــه تعـــالى: ﴿كَأَنَمَـــا يُسَاقُونَ﴾[2]، ويصاقون ومسّ سقر وصقر، وسخر، وصخر وأسبغ علـــيكم نعمـــه وأصـــبغ، وسراط وصراط، وقالوا في سفقت، صفقت وفي سويق: صويق[3].

والحق أن سيبويه سبق أولائك العلماء إلى النص على هذا النوع من المماثلة بحيـــث عقد لذلك بابا في الكتاب أسماه "باب ما تقلب فيه السين صادا في بعض اللغات" فتحدث فيـــه عن قلب السين صادا إذا وليتها قاف أو غين أو خاء ولم ينص على قياسية ذلك[4]. وأما المبرد المبرد فقد حبذ أن لا تنقلب السين صادا من حيث المبدأ لأن السين هي الأصل، وإنما يحدث القلب لأجل التقريب أو المماثلة بالمصطلح الحديث قال: "وإنما تقلب للتقريب مما بعدها فإذا لقيها حرف من الحروف المستعلية قلبت معهُ ليكون تناولهما من وجه واحـــد، والحـــروف المستعلية: الصاد والضاد والطاء والظاء والخاء والغين والقاف، وإنما قيل لها مستعلية، لأنها حروف استعلت إلى الحنك الأعلى، وهي الحروف التي تمنع الإمالة...فإذا كانت السين مـــع حرف من هذه الحروف في كلمة جاز قلبها صادا، وكلما قرب منها كان أوجـــب، ويجـــوز القلب على التراخي بينهما، وكلما تراخى فترك القلب كان أجود[5]. وبمثل ما علل به المبـــرد من قلب السين صاداً أو تفخيمها علل ابن جني قلب السين صادا في سبقت في تحولها إلـــى

---

1 ـ الكشاف للزمخشري: 67/1،68.
2 ـ سورة الأنفال الآية 06.
3 ـ سر صناعة الإعراب: 1/ 220.
4 ـ، ينظر الكتاب: 479/4 ومابعدها.
5 ـ المقتضب للمبرد:مج 1/ 249.

صبقت حيث قال: "وذلك أن القاف حرف مستعل، والسين غير مستعل، إلا أنها أخت الصاد المستعلية، فقربوا السين من القاف بأن قلبوها إلى أقرب الحروف إلى القـــاف مـــن مخـــرج السين وهو الصاد"[1].

ــ تتأثر السين بالقاف بعدها فتجهر في مثل: سقر – زقر، ومس سقر – مس زقر، وقد نص اللغويون على أن جهر السين قبل القاف لغة لقبيلة "كلب" قال ابن جني:" وكلب تقلب الســـين مع القاف خاصة زايا فيقولون في: سقر، زقر، وفي مس سقر: مس زقر[2]. غير أن ما ينبغي ملاحظته هنا أن القاف القديمة حسب وصف اللغويين كانت صوتاً مجهوراً، فيمكن أن تؤثر في السين لينقلب إلى صوت مجهور وهو الزاي، وأما في النطق المعاصر فليســـت القـــاف كذلك، أي أنها صوت مهموس وبالتالي فإن التعليل الصوتي الذي ورد في كتب الأقدمين لا ينسجم مع طبيعة القاف بحسب النطق المسموع الآن، وإنمـــا ينبغـــي افتـــراض أن القـــاف الموصوفة لدى القدماء كانت قافا ربما تشبه الجيم القاهيرية في الأداء الصوتي المعاصر.

ــ تأثرت الصاد (أخت السين في المخرج) بالقاف بعدها هي أيضا فصارت مجهورة مثلهـــا مثل: الصقر– الزقر[3]. وكذلك جهرت الصاد قبل الراء في كلمات مثل: الصراط – الزراط[4]، بزاي خالصة بدل الصراط. أما حمزة فكان يشم الصاد صوت الزاي في جميع القرآن[5].

ــ تميل الراء إلى تفخيم الأصوات المجاورة لها. ومن هذا الأثر قول أهل مصر: "طور" في "ثور" المنقلبة عن "ثور" كما أطلقوا كلمة "الضرب" على "الدرب" بمعنى الطريق المسدود[6].

ــ وذكر ابن هشام اللخمي أن الناس في زمانه كانوا يقولون للسرداب وهـــو حفيـــر تحـــت الأرض زرداب، والصواب سرداب بالسين[7]، وهنا أثرت الـــراء المجهـــورة فـــي الســـين

---

[1] ـ سر صناعة الإعراب: 180/2.
[2] ـ نفسه: 208/1.
[3] ـ الخصائص لابن جني: 1/ 374.
[4] ـ السبعة في القراءات لابن مجاهد، ص 105.
[5] ـ النشر في القراءات العشر: 1/ 271.
[6] ـ التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه لرمضان عبد التواب،ص 48.
[7] ـ المدخل إلى تقويم اللسان، ص 145.

المهموسة لأنها لا تنسجم معها أداء إذ إن الأولى مجهورة يتذبذب معها الوتران في حين أن الثانية مهموسة لا يتذبذب معها الوتران، ومن ثم لابد من إبدال السين زايا فتتماثـل الـزاي والراء أداء، فيسفر ذلك عن بذل اقل مجهود عضلي ممكن في أداء هذه الكلمة.

9. المماثلة بين الحركات.

إن من مظاهر المماثلة بين الأصوات ما يكون بين الحركات من انسجام وتقريب بغية الأداء الصوتي المنسجم والسهل، ويتمثل ذلك في ظاهرتين عامتين كبريين وهما ظاهرتا الإمالة والإتباع.

أ- **الإمالة:** وهي تقريب الألف نحو الياء، والفتحة التي قبلها نحو الكسرة، ولهذا فهي من المظاهر الصوتية التي يدعو إليها تقريب الصوت من الصوت.

ومن أمثلة ذلك في الكشاف ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ﴾[1] قال الزمخشري: وقرا ابن أبي عبلة و(على أسماعهم) فإن قلت: هلا منع أبا عمرو والكسائي من إمالة أبصارهم ما فيه من حروف الاستعلاء وهو الصاد؟ قلت: لإن الراء المكسورة تجلب المستعلية لما فيها من التكرير كأن فيها كسرتين وذلك أعون شيء على الإمالة وأن يمال له ما لا يمال[2]. فقد أشار الزمخشري إلى أن من موانع الإمالة[3] وجود الحرف المستعلي قبل الألف (الفتحة الطويلة)، وهو هنا صوت الصاد لكنه بالرغم من ذلك أمال كل من أبي عمرو والكسائي الألف من (أبصارهم)، وقد علل الزمخشري لذلك بأن كسر الراء أقوى من استعلاء الصاد لما في الراء من التكرير، والتكرير صفة قوية، وهذا الاستنتاج على وجه العموم صحيح قال سيبويه: والراء إذا تكلمت بها خرجت كأنها مضاعفة، والوقف يزيدها إيضاحا، فلما كانت الراء كذلك قالوا هذا راشد،

---

[1] - سورة البقرة الآية 07.

[2] - الكشاف: 164/01.

[3] - قال سيبويه:" فالحروف التي تمنعها الإمالة هذه السبعة: الصاد والضاد والطاء والظاء والغين والقاف والخاء، إذا كان حرف منها قبل الألف والألف تليهِ وذلك قولك: قاعد وغائب وخامد وصاعد وطائف وضامن وظالم"، (الكتاب : 4/ 128).

وهذا فراش، فلم يميلوا، لأنهم كأنهم قد تكلموا برائين مفتوحتين، فلما كانت كذلك قويت على نصب الألفات وصارت بمنزلة القاف، حيث كانت بمنزلة حرفين مفتوحتين فلما كان الفـــتح كأنه مضاعف وإنما هو من الألف، كان العمل من وجه واحد أخف عليهم.. وإذا كانت الراء بعد ألف تمال لو كان بعدها غير الراء، لم تمل في الرفع والنصب، وذلك قولك: هذا حمـــار كأنك قلت هذا فِعالُل وكذلك في النصب كأنك قلت: فِعالَل، فغلبت هاهنا فنصبت كما فعلــت ذلك قبل الألف.

وأما في الجر فتميل الألف، كان أول الحرف مكسوراً أو مفتوحاً أو مضموناً لأنهـــا كأنها حرفان مكسوران، فتميل ههنا كما غلبت حيث كانت مفتوحة فنصـــبت الألـــف وذلـــك قولك: من حماركِ ومن عَوارهِ.. ومما تغلب فيه الراء قولك قارب وغـــارم، وهـــذا طـــارد وكذلك جميع المستعلية إذا كانت الراء مكسورة بعد الألف التي تليها، وذلك لأن الراء لمـــا كانت تقوى على كسر الألف في فِعال في الجر وفَعال، لما ذكرنا من التضعيف، قويت على هذه الألفات إذ كنت إنما تضع لسانك في موضع استعلاء ثم تنحدر، وصارت المستعلية ههنا بمنزلتها في قفاف[1].

هذا إذن هو مذهب النحاة في صفة التكرير في صوت الراء وهو مذهب طبقه القراء دون أن ينظروا إلى طريقتهم في الأداء ولا إلى الأصوات التي تسبق الألف، مستعلية كانت أو مستفلة، ومن ثم فقد أمال أبو عمرو والكسائي وهما من أعلام القراء كل ألف بعـــدها راء متطرفة مكسورة كما ذكر ذلك ابن الجزري وعقد له فصلا في النشر[2].

والذي نراه ــ من خلال كل ذلك ــ أن إمالة الألف مع وجود الحرف المستعلي فـــي (أبصارهم) ليس لأن الراء من القوة بحيث تغلب الاستعلاء كما نص على ذلك الزمخشـــري وإنما العلة في ذلك هو الكسرة، فقد ذكر القراء أن الإمالة ترجع إلى شيئين أحدهما الكســـرة وعددوا في ذلك عشرة أسباب وجميعها ترتد إلى ما كان قد قرره سيبويه في الكتـــاب فـــي

[1] ـ الكتاب : 136/4، 137.

[2] ـ ينظر النشر: 42/2 وما بعدها، وقد أسمى ابن الجزري هذا الفصل بفصل" في إمالة الألف التي بعدها راء متطرفة مكسورة " وذكر فيه اتفاق أبي عمر من روايتيهِ والكسائي من رواية الدوري على إمالة كل ألف بعدها راء متطرفة مجرورة، سواء كانت الألف أصلية أم زائدة عنه.

موضوع الإمالة وأسبابها، ومن ثم فإن الطبيعة الأدائية للكسرة وهي حركة أمامية جعل منها صوتا يجتذب إليه الألف لتحقيق الانسجام الصوتي.

ومن أمثلة ذلك ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ﴾[1]. حيث قال الزمخشري: وقرئ (ونـأى) بجانبه بإمالة الألف وكسر النون للإتباع[2]. فقد أميلت فتحة الهمزة إلى الياء لتحقيق الانسجام الصوتي بينهما، ثم أريد مزيد من التقريب والانسجام بين حركات التركيب، فكسرت النون للإتباع؛ أي إتباع حركة الهمزة بعدها، فيسفر النطق عن أداء صوت منسجم ومتوافق بين حركة الكسرة في النون والإمالة في الهمزة والياء أخيرا.

ـ ومن ذلك أيضا ما ورد في تفسير قوله تعالى:﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاء صَبًّا﴾[3] قال الزمخشري في ذلك: وقرأ الحسين ابن علي رضي الله عنهما (أني صببنا) بالإمالة على معنى: فلينظر الإنسان كيف صببنا الماء[4]. فأعتبر الزمخشري إذن أن هذا نوع من الإمالة ولعلها قريبة من قراءة الأعمش وعاصم بحيث يجعلانها في موضع خفض أي: فلينظر إلى صبنا الماء إلى أن صببنا وفعلنا وفعلنا. وقرأ أهل الحجاز والحسن البصري (إنا)[5].

ـ ومن ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ طَهَ ﴾[6]، قال الزمخشري: أبو عمرو فخم الطاء لاستعلائها، وأمال الهاء وفخمها ابن كثير وابن عامر على الأصل والباقون أمالوها"[7]. ويتضح من هذا الكلام أن إمالة الطاء ـ وعلى الحقيقة ـ إمالة فتحة الطاء مذهب القراء عدا أبي عمرو وابن كثير وابن عامر، وهو أن دل فإنما يدل على قوة الكسرة أو بعبارة أصح قوة إمالة الفتحة إلى الكسرة؛ فلأجل إحداث الانسجام الصوتي بين فتحة الهاء وفتحة الطاء

[1] ـ سورة فصلت الآية 51.
[2] ـ الكشاف : 458/3، 459.
[3] ـ سورة عبس الآية 25.
[4] ـ الكشاف: 219/4.
[5] ـ معاني القرآن للفراء: 238/3.
[6] ـ سورة طه الآية 01.
[7] ـ الكشاف : 528/2.

تتماثل الحركتان ــ حركة الطاء وحركة الهاء ــ فيسفر الأداء عن إمالتين من جنس واحد، وهو إمالة الفتحة إلى الكسرة، فيحدث التوافق الحركي بينهما، والذي يفسر ذلك هو قانون الجهد الأدنى، أو قانون السهولة واليسر، فيكون بذلك أداء الحركتين من طريق أخصر وأقصر وبمجهود أقل.

ب- الإتباع: يعد الإتباع من ظواهر المماثلة في الحركات في العربية وهو يهدف إلى نوع من التقريب بين الحركات أو الأصوات بعامة، وقد ذكر ابن جني في كتاب الخصائص وتحديداً في باب الإدغام الأصغر ألوانا من هذه المماثلة أو التقريب فمن ذلك (الحمدُ لُله) و(الحمدِ لِله) كما عد تقريب الصوت من الصوت مع حروف الحلق نحو شعير وبعير ورغيف[1].

ومما ورد من ذلك في تفسير الزمخشري ما جاء في تفسير الفاتحة بحيث قال الزمخشري: وقرأ الحسن البصري (الحمدِ لِله) بكسر الدال لإتباع اللام، وقرأ إبراهيم بن أبي عبلة (الحمدُ لُله) بضم اللام لإتباعها الدال، والذي جسرهما على ذلك والإتباع إنما يكون في كلمة واحدة كقولهم مُنحُدُر الجبل ومِغِيرة تنزل الكلمتين منزلة كلمة لكثرة استعمالها مقترنتين، وأشفُ القراءتين قراءة إبراهيم حيث جعل الحركة البنائية تابعة للإعرابية التي هي أقوى بخلاف قراءة الحسن[2]. وواضح من هذا الكلام أن الزمخشري وعي جيدا أن إتباع حركة لحركة أخرى أنما هو مذهب العرب في كلامها، والدليل على ذلك إيراده مثالين يردان في كلام العرب وهما (مُنحُدُر الجبل) و(مِغِيرة) قال ابن جني: "فأما مغيرة فليس إتباعه لأجل حرف الحلق إنما هو من باب مِنتِن ومن قولهم أنا أجؤك وأنبؤك والقرفصاء والسلطان وهو منحدر من الجبل.."[3] وإما تعليل ورود الإتباع في الحمد لله وهما كلمتان، وإنما يرد الإتباع أكثر ما يرد في كلمة واحدة، فقد علل ذلك بكثرة استعمال الكلمتين، وهي علة يلتقي فيها مع غيره من اللغويين والنحاة؛ فها هو الفراء يعلل لهذا الإتباع في (الحمدِ لِله) بتعليل لا يبتعد عن تعليل الزمخشري بل يزيد عنه وضوحا حيث يقول: " وأما من خفض الدال من الحمدِ

[1] - الخصائص : 1/ 497.
[2] - الكشاف : 1/ 51، 52.
[3] - الخصائص : 497/1.

فإنه قال: هذه كلمة[1] كثرت على السن العرب حتى صارت كالاسم الواحد فثقــل علــيهم أن يجتمع في اسم واحد من كلامهم ضمة بعدها كسرة أو كسرة بعدها ضمة، ووجدوا الكسرتين قد تجتمعان في الاسم الواحد مثل "إبل" فكسروا الدال ليكون على المثال من أسمائهم.

وأما الذين رفعوا اللام فإنهم أرادوا المثال الأكثر من أسماء العرب الذي يجتمع فيــه الضمتان مثل: الحُلُم والعُقُب.

ولا تنكرن أن يجعل الكلمتان كالواحدة إذا كثر بهما الكلام. ومن ذلك قول العــرب: (بأبا) وإنما هو (بأبي) الياء من المتكلم ليست من الأب فلما كثر بهما الكلام توهموا أنهمــا حرف واحد فصيروها ألفاً ليكون على مثال: حُبلى وسَكرى وما أشبه من كلام العرب[2].

ومن أمثلة الإتباع في تفسير الزمخشري ما ورد في تفسير قوله تعالى ﴿وَاتَّخَذَ قَــوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾[3]، بحيث ذكر الزمخشري أنها قرئت بالكســر في الحاء (حليهم) للإتباع[4]. وقد ذكر العكبري أن (حليهم) تقرأ بفتح الحاء وســكون الــلام وتخفيف الياء وهو واحد. ويقرأ بضم الحاء وكسر اللام وتشديد الياء وهو جمع أصله حلوى، فقلبت الواو ياء وأدغمت في الياء الأخرى ثم كسرت اللام إتباعاً لها ويقرأ بكسر الحاء واللام والتشديد على أن يكون أتبع الكسر الكسر[5].

ومن ذلك أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى ﴿بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[6] حيــث قــال الزمخشري: وقرأ أهل نجران(منِ الله) بكسر النون والوجه الفتح مع لام التعريف لكثرتــه[7]. وذكر ابن جني أن الذي حكى ذلك هو أبو عمرو بن العلاء كما نُقل ذلك أيضا عن ســيبويه وقال: هي أول القياس تكسرها لالتقاء الساكنين غير أنه كثر استعمال(من) مع لام المعرفــة

---

[1] - يقصد جملة (الحمدُ لله).
[2] - معاني القرآن للفراء: 3/1،4.
[3] - سورة الأعراف الآية 148.
[4] - الكشاف: 2/ 118..
[5] - إملاء ما من به الرحمن للعكبري: ص 292.
[6] - سورة التوبة الآية: 1
[7] - الكشاف : 172/2.

فهربوا من توالي كسرتين إلى الفتح، وإذا كانوا قد قالوا: (قم الليل) [سورة المزمل1] و(قل الحق) [سورة الكهف 29]، ففتحوا ولم تلتقِ هناك كسرتان فالفتح في (من الله) لتوالي الكسرتين أولى[1].

ومن شواهد الإتباع ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[2]، حيث ذكر الزمخشري قراءة (قِسِيّة) بكسر القاف للإتباع[3] أي لإتباع حركة حركة القاف لحركة السين، وفي ذلك تخفيف للأداء الصوتي الذي تسفر عنه عملية إتباع حركة القاف لحركة السين.

ولا شك أن في أداء كسرتين، يلزم اللسان معهما وضعاً واحداً لا يتحول عنه، وفي ذلك تقليل من الجهد العضلي.

وعلى العموم فان أمثلة الإتباع المذكورة كافية بإعطاء صورة واضحة عن وعي الزمخشري بقانون المماثلة في الحركات الذي يهدف إلى التقريب أو الانسجام بين الأصوات. وقد لاحظنا كيف أن العرب في كلامها كانت تميل إلى هذا النوع من التغير الصوتي الذي يسعى إلى التقليل من الجهد العضلي المبذول بتخفيف الأداء الصوتي بشتى الطرق، ولعل السر في ذلك يعود أساسا إلى أن اللغة العربية نشأت شفوية لم تقيد بقيود الكتابة، واكتفي فيها أول الأمر بالسماع والنطق، ومتى اقتصر أمر اللغة على السماع والنطق وعلى الإنشاد، فلا بد أن تُعنى كل العناية بهذا الانسجام والتوافق بين الأصوات الذي بيناه في الأمثلة السابقة عن المماثلة في الصوامت والصوائت.

1 ـ المحتسب لابن جني: 1/ 283.
2 ـ سورة المائدة الآية 13.
3 ـ الكشاف: 1/ 600.

المبحث الثاني: اتجاه المخالفة.

وهو يعني تغير أحد الصوتين المثلين في كلمة من الكلمات إلى صوت آخر مخالف، وهو قانون يسير في عكس اتجاه قانون المماثلة.. يعمد إلى صوتين متماثلين تماماً في كلمة من الكلمات، فيغير أحدهما إلى صوت آخر، يغلب أن يكون من أصوات العلة الطويلة أو من الأصوات المائعة المتوسطة المعروفة في اللاتينية باسم liquida وهي اللام والميم والنون والراء[1].

ومن الشواهد على هذا القانون في كشاف الزمخشري ما ورد في تفسير قوله تعالى: ﴿فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ﴾[2]، قال الزمخشري: (لم يتسنّه) لم يتغير والهاء أصلية أو هاء سكت واشتقاقه من السنه على الوجهين لأن لامها هاء أو هاء سكت واشتقاقه من السنة على الوجهين لأن لامها هاء أو واو، وذلك أن الشيء يتغير بمرور الزمن وقيل أصله يتسنّن من الحمأ المسنون فقلبت نونه حرف علة كتقضى البازي[3]، فيتسنه أي لم يتغير طعمه بمضي الزمن، وقال الفراء: ومن قال في تصغير السنة سنينة وإن كان ذلك قليلا جاز أن يكون تسنيت تفعّلت أبدلت النون بالياء لما كثرت النونات كما قالوا تظنيت وأصله الظن[4]. وقانون المخالفة هنا يبدو واضحاً لتوالي الأمثال الثلاثة والأصل فيها لم يتسنن، فالنونان المدغمتان تليهما نون ثالثة قلبت في الكتاب الكريم هاء مخالفة لتوالي الأصوات ثلاث مرات، سعيا للتقليل من الجهد لعضلي المبذول في الأداء الصوتي للكلمة.

ومن الشواهد على المخالفة أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى ﴾[5]، حيث أشار الزمخشري إلى أن يتمطى أصله يتمطط ، أي يتمدد لأن المتبختر يمد خطاه وقال ابن منظور:" يتمطى هو التبختر قال الفراء أي يتبختر لأن الظهر هو المطا

[1] ـ التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه، لرمضان عبد التواب ص 57.
[2] ـ سورة البقرة الآية 259.
[3] ـ الكشاف: 1/ 390.
[4] ـ معاني القرآن: 1/ 172.
[5] ـ سورة القيامة الآية 33.

فيلوي ظهره تبخترا...وقال أبو عبيد: من ذهب بالتمطي إلى المطيط فإنه يذهب به مــذهب تظنيت من الظن وتقضيت من التقضض .." [1]. والتخالف هنا هو إبدال صوت الطاء الثانيــة صوت لين طويل، فتكون في ذلك مخالفة للنطق بصوتين مثلين، ولا شك أن ذلك يعد مبعث ثقل في الأداء الصوتي، ثم إنه من المعروف المتداول أن أصوات اللين أو الحركات، طويلة كانت أم قصيرة أسهل أداء من الأصوات الصامتة، لأن تحقيقها لا تعترضه عــوارض فــي الجهاز الصوتي، كما يحدث في مخارج الأصوات الصامتة.

ومن الشواهد قوله تعالى:﴿ فَأَنتَ عَنْهُ تَلَهَّى﴾[2]، فقد أورد الزمخشري قراءة (تتلهــى) التي هي الأصل، غير أن ما ورد في الشاهد هو(تلهى) بتاء واحد وهذا يــدل علــى حــذف مقطع TA (تَ). وقد نص اللغويون المحدثون على أنه " أذا توالى مقطعــان، أصــواتهما الصامتة متماثلة أو متشابهة جداً، الواحد بعد الآخر في أول الكلمة، فإنه يكتفى بواحد منهما بسبب الارتباط الذهني بينهما"[3]، وهذا الحذف في واقع الأمر هو نوع مــن المخالفــة بــين الأصوات وإن كان هنا في المقاطع، وقد اصطلح عليه برجشتراسر بالترخيم قــال: " ومــن الترخيم ما هو جنس من التخالف وهو حذف أحد مقطعين متتاليين، أولهما حرفان مثلان أو شبهان "[4].

إن السبب الذي يقف وراء هذا الحذف هو صعوبة نطق المقاطع المتماثلة المتشابهة، فيلجأ إلى حذف أحد المقاطع تخفيفاً، وما دام التخفيف من غلواء التماثل هو الهدف، فإن هذا يمكن عده مخالفة، وإن كانت بين المقاطع، وقد حفل القرآن الكريم بهذه الظــاهرة، كمــا أن كلام العرب هو أيضا اشتمل على أمثلة كثيرة، تدل على ميل العرب إلى هذا النــوع مــن التخالف، إلى الحد الذي جعل العلماء يفردونها بمسمى خاص هو" كراهة تــوالي الأمثــال " ومرادفاتها .

ومن الشواهد على ظاهرة التخالف في تفسير الكشاف ما ورد في تفسير قوله تعالى:﴿ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا﴾[5]، قال الزمخشري:" التدسية: النقص والإخفاء بالفجور، وأصل دســي:

---

1 ـ لسان العرب: 4/ 812، (م ط ط).
2 ـ سورة عبس الآية 10.
3 ـ بحوث ومقالات في اللغة ، لرمضان عبد التواب، ص25.
4 ـ التطور النحوي للغة العربية، ص 70.
5 ـ سورة الشمس الآية 10.

دسس كما قيل في تقضض تقضى"[1]. وقال ابن منظور:" (دساها): أفلح من جعل نفسه زكية مؤمنة وخاب من دسّسها في أهل الخير وليس منهم، وقيل دسّاها جعلها خسيسة قليلة بالعمل الخبيث. قال ثعلب: سألت ابن الأعرابي عن تفسير قوله تعالى:(وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا) فقـال: معناه من دس نفسه مع الصالحين وليس منهم. وقال الفراء: خابت نفس دساها الله عز وجل .. ودسّاها من دسّستُ بُدّلت بعض سيناتها ياءً كما يقال تظنيت من الظن".[2]

ووجه المخالفة هنا هو أن توالي ثلاث سينات مبعث ثقل في الأداء الصـوتي فتبـدل السين الثالثة صائتا طويلا هو الفتحة، فيسفر النطق عن نطق سين مشددة وصـائت الفتحـة بعدهما ، وبذلك يتحقق التخالف بين الأمثال .

ومن أمثلة المخالفة ما ورد في تفسير قوله تعالى:﴿ وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْـتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً﴾[3]. إن الأصل في التصدية تصدّيا فتوالي صوت الدال مرتين وهـذا التـوالي للصوت الواحد يخالف الطبيعة الصوتية للعربية، فيأتي قـانون المخالفـة لمخالفـة الـدال المكررة، فالتصدية كما أشار الزمخشري من صدّ يصدّ[4].

هذه بعض الأمثلة المختارة من كتاب الكشاف من غير ترتيب أو تبويب حسب أنواع المخالفة، رأينا أن نبدأ بها الحديث عن هذا القانون(المخالفة)، وفيما يلي نتناولُ أنواع المخالفة في العربية مع عرض شواهد الزمخشري عليها ومناقشتِها.

تتحقق المخالفة بين الصوامت بطريقتين: الحذف والإبدال.

1. المخالفة بالحذف.

إن المخالفة بالحذف تكون بين المثلين وبين المتقاربين وبيان ذلك فيما يلي:

---

[1] ـ الكشاف : 259/4.
[2] ـ لسان العرب: 192/4 (د س س)، وينظر أيضاً معجم مفردات ألفاظ القرآن للأصفهاني ص129
[3] ـ سورة الأنفال الآية 35.
[4] ـ الكشاف: 2/ 156.

أ- المخالفة بالحذف بين المثلين:

إذا توالى مقطعان بهما صوتان صامتان مثلان في أول الكلمة أو في وسطها أو في آخرهـــا، يكتفى بواحد منهما فقط.

- المخالفة في بداية الكلمة .

تحذف إحدى الهمزتين في مضارع الثلاثي في المزيد بالهمزة أي في مضارع "أفعل" نحو أكرم وأخرج فالمضارع منه أأكرم وأأخرج ، وهنا اجتمعت همزتـــان: همـــزة المضـــارعة وهمزة " أفعل" فعمدت العربية إلى المخالفة بينهما اقتصاداً للجهد العضلي بحـــذف إحـــداهما وهي الهمزة الثانية، ومن ثم أصبح الفعلان: أُكرم أُخرج. فالعربية إذن تلتزم حـــذف إحـــدى الهمزتين إذا التقتا في مقطعين متواليين فليس من كلام العرب أن تلقي همزتان فتُحققا[1]. فهذا ما أجمع عليه العرب من اللغويين سوى أبي إسحاق الحضرمي فيما نقله عنه سيبويه من أنه كان يُحقق الهمزتين قال سيبويه: وزعموا أن ابن أبي إسحاق كان يحقق الهمزتين، وأنـــاس معه وقد تكلم ببعضه العرب وهو ردئ[2]

والحق أن ميل العرب إلى حذف إحدى الهمزتين راجع إلى ثقل تتابعهمـــا، وقـــد نـــص سيبويه على أن «التضعيف ثقيل على ألسنتهم، وأن اختلاف الحروف أخفّ علـــيهم مـــن أن يكون من موضع واحد»[3]. ومن ثم جاءت قراءة:﴿ أَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ﴾[4]، بهمـــزة واحـــدة على لفظ الخبر كما نص على ذلك العكبري، والهمزة على هـــذا مـــرادة ودل علـــى ذلـــك أمران[5]:أحدهما: تقدم سواء فإنها تقتضي شيئين فصاعداً. والثاني: "أم" وهي مقابلـــة لهمـــزة الاستفهام.

[1] - الكتاب سيبويه: 3/ 549.
[2] - نفسه: 4/ 443.
[3] - نفسه:417/4.
[4] - سورة البقرة الآية 06.
[5] - إعراب القراءات الشواذ: 1/ 57.

ولعل هذا الحذف للهمزة في الآية المذكورة هو ما قصد إليه الزمخشري[1]، في إشارته إلى أن حرف الاستفهام يحذف وبحذفه تصير عملية أداء همزة واحدة أخف من همزتين، فــراراً من ثقل النطق بهمزتين، كما أن توسيط الألف بين الهمزتين بغرض الفصل بينهما هــروب من تواليهما، ففي تواليهما ثقل ظاهر.

ومن أمثلة المخالفة حذف أحد المقطعين المثلين في أول الكلمة؛ حذف التاء في بداية صيغ (تتفعل) و(تتفاعل) و(تنفعل) من ذلك تلظّى والأصل فيها تتلظظ على مثال تتفعل فقد حذفت التاء الأولى للمخالفة بين المثلين وأشار الزمخشري إلى أن أبا الزبير قرأ تتلظى بغير مخالفة بالحذف، ولكنه قرأ بصيغة المخالفة بالإبدال أي إبدال الظاء الثانية ألف مد طويلة[2]. وقد ذكر الزمخشري صيغا أخرى بقيت على الأصل دون مخالفة مثل تتلهى، تتغشى[3].

ومن هذا القبيل أيضا (تصدّى) في قوله تعالى:﴿فَأَنتَ لَهُ تَصَدَّى ﴾[4] فالأصل في هذا الفعل تتصدّد ــ تتصدّى ــ تصدّى. والحق أن أمثلة حذف تاء المضارعة كثير في القرآن لا يسع المجال لذكره، وعلى سبيل المثال فقد وردت صيغة "تذكّرون" سبعة عشر مرة بحذف التــاء إلى جانب كثير من الكلمات الأخرى[5].

ــ المخالفة في وسط الكلمة.

تحذف اللام الأولى في "ظلِلت" عند بعض العرب فيقال: ظِلت وظَلــت وفــي ذلــك تخفيف للأداء النطقي لكلمة "ظللت" المشتملة على صوتين مثلين وهما اللام الأولى والثانية. وقد أشار[6] الزمخشري إلى أنه قرئ بكسر الظاء في ظلت كما قرئ بالأصل الذي هو ظلِلت، ظلِلت، وذلك في قوله تعالى:﴿ فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ ﴾[7]، غير أن هذا يعده سيبويه شــذوذاً حيــث

[1] ـ الكشاف: 1/ 154.
[2] ـ في تفسير الآية 14 من سورة الليل، (ينظر الكشاف: 4/ 261).
[3] ـ من الآية 10 من سورة عبس(الكشاف: 4/ 118)، من الآية 50 من سورة إبراهيم(الكشاف: 2/ 385).
[4] ـ سورة عبس الآية 06.
[5] ـ ينظر في تفصيل ذلك: بحوث ومقالات في اللغة لرمضان عبد التواب ص 28، وما بعدها.
[6] ـ الكشاف: 4/ 57.
[7] ـ سورة الواقعة الآية 65.

يقول:" ومن الشاذ قولهم: أحستُ، ومست وظلتُ كما كثر في كلامهم كرهــوا التضــعيف، وكرهوا تحريك هذا الحرف الذي لا تصل إليه الحركة في فعلتُ وفعلنَ، الــذي هــو غيــر مضاعف فحذفوا كما حذفوا كما حذفوا التاء من قولهم: يستطيع فقالوا: يسطيع حيث كثرت، كراهية تحريك السين، وكان هذا أحرى إذ كان زائدا، استثقلوا في يسطيع التاء مع الطــاء، وكرهوا أن يدغموا التاء مع الطاء فتحرك السين، وهي لا تحرك أبــدا، فحــذفوا التــاء"[1]. فكراهية التضعيف – حسب سيبويه – هي ما دعا العرب إلى حذف الصوت المثل الأول أو المتقارب الأول كما رأينا.

ومن صور المخالفة بالحذف في وسط الكلمة كلمة"استحيت" والأصل فيها اســتحييت، وقد ذكر الزمخشري قراءة ابن كثير من رواية شبــل في قــوله تعالى:﴿ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَسْتَحْيِي أَن يَضْرِبَ مَثَلاً مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ﴾[2]، ذكر أن "يستحي" قرأها بياء واحدة[3].

ومن ذلك حذف الراء الأولى في"واقررن" من قوله تعالى:﴿ وَقَرْنَ فِي بُيُــوتِكُنَّ ﴾[4]، قال الزمخشري: " ..وقرن بفتحها وأصله اقررن" فحذفت الراء وألقيت فتحتها على ما قبلها كقولك ظلن"[5]، وقال الفراء :"وقرأ عاصم وأهل المدينة (وقرن) بالفتح، ولا يكون ذلك مــن الوقار، ولكنا نرى أنهم أرادوا: "واقررن" في بيوتكن فحذفوا الراء الأولى فحولت فتحتها في القاف كما قالوا: هل أحَسْتَ صاحبك، وكما قال:(فظلتم) يريد: فظللتم"[6].

ومن المخالفة بين المثلين المتتابعين في حشو الكلمة حذف التنوين من اسم الفاعل في قوله تعالى: ﴿ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ ﴾[7]، قال الزمخشري" وقرئ سابق النهار على الأصل"[8]، الأصل"[8]، وقال ابن جني:" أخبرنا أبو علي عن أبي بكر عن أبي العباس قال: سمعت عمارة

[1] ـ الكتاب لسيبويه: 482/4، 483.
[2] ـ سورة البقرة الآية 26.
[3] ـ الكشاف: 1/ 264.
[4] ـ سورة الأحزاب الاية 33.
[5] ـ الكشاف: 3/ 260.
[6] ـ معاني القرآن : 2/ 342.
[7] ـ سورة يسن الآية 40.
[8] ـ الكشاف: 323/3.

عمارة يقرأ: ﴿و لا الليل سابقُ النهارَ﴾، فقال ما أردت فقال: أردت سابقٌ النهار، فقلت لـــه: فهلا قلته، فقال: لو قلته لكان أوزن، يريد أقوى وأقيس"[1].

فقراءة عمارة بها مخالفة صوتية بين الأمثال المتتابعة في حشو السلسلة الكلامية طلبا للخفة؛ فالقراءة بالتنوين ينشأ عنها توالي نونين أحدهما النون الأولى التي للتنـــوين والنـــون الثانية هي نون" النهار" المشددة، ففي اتصالها حال النطق ينشأ عن ذلك استثقال فلجأ القارئ إلى التخلص من التنوين بحذف النون الأولى طلبا"للخفة في الأداء الصـــوتي. وقـــد نـــص القارىء نفسه ــ كما نقل عنه أبو جعفر النحاس ــ على هذا القصد من حذف التنـــوين لمـــا سئل عن ذلك فقال" أردت (سابقٌ النهار) فحذفت التنوين، لأنه أخف"[2].

وقد وصف بعض أئمة العلم قراءة عمارة بالضعف منهم ابن جني[3] والعكبري حيـــث قال أبو البقاء:" قرأ بعضهم (سابقُ النهارَ) بالنصب وهو ضعيف، وجوازه علـــى أن يكـــون حذف التنوين لالتقاء الساكنين"[4].

ومن صور المخالفة بين الأمثال المتتالية في حشو الكلمة ما ورد في تفسير قوله تعـــالى: ﴿ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ﴾[5]، قال الزمخشري" وقرئ مَيْتا"[6]، وفي هذا هذا إشارة إلى تخفيف التشديد في أداء صوت الياء وحقيقة الأمر بحسب ما تقرره الدراسات الحديثة، بل حتى بحسب ما يشير إليه بعض علماء السلف أن الصوت المشدد ما هـــو فـــي الواقع إلا تطويل وتمديد لذلك الصوت وليس هنالك صوتان أدغم أحدهما في الآخر.

فمما ورد في الدراسات الوصفية الحديثة حول حقيقة التشديد ما أورده المستشرق الألماني براجشتراسر في محاضراتهِ قال:" وللمد موضع ثان في تركيب الأصوات غير مد الحركات، هو التشديد..فالتشديد مدٌ للحروف الصامت نظير لمد الحروف الصائتة أي الحركات وفـــي

[1] ـ المحتسب لابن جني: 81/2.
[2] ـ إعراب القرآن للنحاس:393/2.
[3] ـ في المحتسب: 81/2.
[4] ـ إملاء ما من به الرحمان, ص499.
[5] ـ سورة الحجرات الآية 12.
[6] ـ الكشاف: 568/3.

بعض تقتصر الحروف المشددة على كونها ممدودة وفي بعضـــها يحتـــوي التشـــديد علـــى خصائص أخرى غير المد "[1]. وقال العالم اللغوي الفرنسي فندريس:" ومن الخطأ أن يقـــال بأنه يوجد ساكنان في أتّا atta وساكن واحد في ata، فالعناصر المحصورة بين الحـــركتين في كلتا المجموعتين واحدة: عنصر انحباسي يتبعه عنصر انفجاري. ولكن بينما نجد العنصر الانحباسي في ata يتبعه العنصر الانفجاري مباشرة، نجده في atta ينفصل عنه بإمســـاك يطيل مدى الإغلاق"[2]، وقال العالم اللغوي الإيطالي ماريوباي:" وينبغي أن نذكر القارىء بأن اصطلاح: الساكن المضعفdouble consonant هو اصطلاح مضلل حقا؛ لإنه قد استعير من طريقة الكتابة. ففي النطق يمد الصوت الساكن بتطويل مدة النطق به إذا كان هذا المـــد ممكنا، ويكون هذا ممكنا إذ لم يكن الصوت الساكن انفجارياً. وبما أن الانفجاري لا يمكن مده عند نقطة مخرجه، فإن ما يسمى تطويلا بالنسبة له يكون عن طريق إطالة مدة قفل الطريق أمام الصوت قبل تفجيره"[3].

ويقول الدكتور رمضان عبد التواب:" وليس أمر الطول والقصـــر خاصـــاً بالأصـــوات المتحركة وحدها، بل إن الصوامت تطول وتقصر كذلك؛ وإن ما نعرفه باسم الحرف المشدد، أو الصوت المضعف، ليس في الحقيقة صوتين من جنس واحد، الأول ساكن والثاني متحرك ــ كما يقول نحاة العربية"ــ وإنما هو في الواقع صوت واحد طويل، يساوي زمنُـــهُ زمـــنَ صـوتين اثنين"[4].

ومما ورد في كتب السلف عن فكرة الصوت المشدد ما ذكره ابن جني في الخصـــائص، حيث قال:" الحرف لما كان مدغما خفي فنبا اللسان عنه وعن الآخر بعده نبوة واحدة، فجريا

---

1 ـ التطور النحوي للغة العربية, ص53.
2 ـ اللغة لفندريس, ص49.
3 ـ أسس علم اللغة لماريوباي, ص146.
4 ـ المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي لرمضان عبد التواب، ص97.

لذلك مجرى الحرف الواحد"[1]، ونقل بعضهم عن الزمخشري أنه عرف المدغم بأنـــه:"إلباث الحرف في مخرجه مقدار إلباث الحرفين في مخرجيهما".[2]

فالصوت المشدد – إذن– صامت طويل، فلا فرق بـــين الطـــاء في"قَطَـــعَ" والطـــاء في"قَطّعَ" إلا في أن الأولى أقل في الكمية من الثانية، أي في الزمن المستغرق في الإنتـــاج. وهذا الفرق في الكمية يشبه الفرق في كميتي الفتحة القصيرة والفتحة الطويلة بعد الطاء في كلمتي: "طَلَبَ" و "طَالبَ". و لا يخفى أن لهذا الطول وظيفة لغوية دلالية؛ فطلب فيها دلالـــة الطلب لمرة واحدة أو مرتين. أما "طالب" ففيها دلالة المطالبة مرة بعـــد أخـــرى أي دلالـــة المفاعلة. ومثل ذلك يمكن قوله عن "قَطَعَ" و"قَطّعَ"؛ فالأولى تحمل دلالة القطع لمرة واحدة أو مرتين، بينما تحمل الثانية شحنة دلالية أكبر في دلالتها على الكثرة والقوة في عملية القطع.

وبالعودة إلى الشاهد القرآني الذي أورده الزمخشري وهو لفظ ﴿ميّتا﴾ الذي أورد بشأنه قراءة ﴿مَيْتا﴾ بالتخفيف، أشار الأخفش الأوسط إلى مثل هذا النوع من المخالفة في تفسيره لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ ﴾[3]، قال: "وإنما هي الميّتة خففت وكذلك قوله تعالى: ﴿بلدة ميتا﴾[4] يريد ميّتا، ولكن يخففون الياء كما يقولون في "هيّن" و"ليّن": "هيْن و"ليْن" خفيفة"[5].

هذا وذكر العكبري أن ﴿سَائِغٌ شَرَابُهُ﴾[6]، تقرأ بالتخفيف مثل ميْت[7]، وتكون ﴿سَيْغٌ﴾، وقد وقد نسبت هذه القراءة لعيسى بن عمر الثقفي(149هـــ).

ـــ المخالفة في آخر الكلمة.

من صور المخالفة بين المثلين في آخر الكلمة حذف أحد النون المثلين المتتابعين في مثل" تأمرونني". قال ابن هشام:"ونحو تأمرونني، يجوز فيه الفك، والإدغام، والنطق بنون واحدة،

[1] - الخصائص: 2 /227.
[2]- الفلاح شرح المراح لابن كمال باشا, ص97.
[3]- سورة البقرة الآية 173.
[4]- سورة ق الآية 11.
[5]- معاني القرآن للأخفش:347/1.
[6]- سورة فاطر الآية 12.
[7]- إملاء ما من به الرحمان, ص497.

وقد قرئ بهن في السبعة، وعلى الأخيرة فقيل: النون الباقية نون الرفع، وقيل نون الوقايـــة، وهو الصحيح"[1].

ومن الشواهد على ذلك في كشاف الزمخشري ما ورد في تفسير قوله تعـــالى: ﴿ قَـالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ﴾[2]، حيث قال الزمخشري:"...وقرئ تبشـــرون بفتح النون وبكسرها على حذف نون الجمع والأصل تبشرونِن..."[3]، فقد حذف إحدى النونين استثقالا لاجتماعهما.

ومن ذلك حذف نون الأفعال الخمسة إذا اتصل بها نون التوكيد فقد قال سيبويه: "وإذا كان فعل الجميع مرفوعا، ثم أدخلت فيه النون الخفيفة أو الثقيلة، حذفت نون الرفع وذلك قولـــك: لتفعلُنّ ذلك؟، ولتذهبُنّ؛ لأنه اجتمعت فيه ثلاث نونات، فحذفوها استثقالا، وتقول: هل تفعلُـــنّ ذاك؟ تحذف نون الرفع، لأنك ضاعفت النون، وهم يستثقلون التضعيف، فحذفوها إذ كانـــت تحذف وهم في ذا الموضع أشد استثقالا للنونات، وقد حذفوها في ما هو أشد من ذا"[4].

ومن ذلك أيضا ما ورد في الكشاف في تفسير قوله تعالى: ﴿ قُلْ أَفَغَيْرَ اللَّهِ تَأْمُرُونِّي أَعْبُدُ أَيُّهَا الْجَاهِلُونَ ﴾[5]، حيث ذكر[6] الزمخشري أن (تأمروني) تقرأ على الأصل أي (تـــأمرونني) وتقرأ (تأمرونّي) و(تأمروني) على إدغام النون أو حذفها فحذف النون هنا هـــو نـــوع مـــن المخالفة بين الصوتين المثلين لما اجتمعا في موضع واحد.

وبعد... فإن ظاهرة المخالفة بين الصوتين المثلين سواء في أول الكلمة أو فـــي وســـط الكلمة أو في آخرها، عبر عنها القدماء بعبارات عدة منها كراهيـــة التضـــعيف أو كراهيـــة اجتماع حرفين من جنس واحد، أو اجتماع الأمثال مكروه، أو استثقال اجتماع المثلين. ومن

1- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب:344/2.
2- سورة الحجر الآية 54.
3- الكشاف : 393/2.
4- الكتاب لسيبويه:154/2.
5- سورة الزمر الآية :64.
6- الكشاف:407/3.

بين الطرق التي لجأ إليها العربي للتقليل من ثقل اجتماع المثلين طريق الحذف، التي تهدف حسب تعبير اللغويين إلى الخفة في الأداء الصوتي.

ب- المخالفة بالحذف بين المتقاربين.

لا تستسيغ العربية توالي المتقاربين تماما كما المثلين، والسبب هو تقارب المخـــارج بين المتقاربين، وهو الأمر الذي يجعل عملية الأداء تستهلك قدرا كبيرا من الجهد العضـــلي؛ فإذا اجتمع صوتان متقاربان في كلمة واحدة أو في سياق صوتي واحد، تخلصت منه العربية بطرق عدة منها المخالفة بالحذف بين المتقاربين .

ومن أمثلة ذلك حذف التاء من استطاع ، بقولهم : استطاع يستطيع قال تعالى:﴿ فَمَا اسْطَاعُوا أن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا﴾[1]، قال الزمخشري في تفسير الآية: "فما اسطاعوا" بحذف التاء للخفة لأن التاء قريبة المخرج من الطاء، وقرئ فما اصطاعوا بقلب السين صادا، وأما من قرأ بإدغام التاء في الطاء فملاق بين ساكنين على غير الحد[2]، فإشارته إلى حذف التاء للخفة هي مخالفة بين متقاربين هما التاء والطاء قال الأخفش: " لغة العرب تقول " اسطاع " " يسطيع " يريدون به " استطاع " " يستطيع " ولكن حذفوا التاء إذا جامعت الطاء لأن مخرجهما واحد "[3]، ولسيبويه تعليل آخر لحذف التاء هنا بحيث جعله هو والحذف في "أحست " سواء بسواء قال: " ... قولهم : أحستُ، ومستُ، وظلتُ، لما كثر في كلامهم كرهوا التضعيف وكرهوا تحريك هذا الحرف الذي لا تصل إليه الحركة في فَعلتُ وفعلنَ، الذي هو غير مضاعف، فحذفوا كما حذفوا التاء من قولهم: يستطيع فقالوا: يسطيع؛ حيث كثرت، كراهية تحريك السين، وكان هذا أن أحرى إذ كان زائداً، استثقلوا في يسطيع التاء مع الطاء، وكرهوا أن يدغموا التاء في الطاء فتحرك السين، وهي لا تحرك أبداً، فحذفوا التاء"[4].

---

[1] - سورة الكهف الآية 97
[2] - الكشاف : 2 /.499
[3] - معاني القرآن : 2 / 621.
[4] - الكتاب 4 / 482 ، 483.

ومن صور المخالفة بالحذف بين المتقاربين حذف النون في قولهم : بلعنبر، وبلعجـــلان، وبلهجيم، وبلحارث، في بني العنبر وبني العجلان، وبني الهجيم وبني الحارث وتنسب هـــذه اللغة إلى زبيد وختعم [1]، قال سيبويه: " ولا نعلم النون وقعت ساكنة في الكلام قبــل راء ولا لام لأنهم إن بيّنوا ثقل عليهم لقرب المخرجين ... وذلك ليس في الكلام مثل قِنر وعِنل ".[2]

2. المخالفة بالإبدال.

قد تكون المخالفة بين الصوتين بإبدال أحدهما صائتا طويلا سعيا للتقليــل مــن التتــابع الصوتي الذي يشكل لا محالة ثقلا في عملية الأداء الصوتي، وفيما يلي أمثلة عن ذلك.

في صيغة "أفْعل" من الأسماء، والأفعال المهموزة الفاء نحصل علـــى صـــيغة مبـــدوءة بهمزتين مثل "أأدم" من الأدمة، و"أأصل" من الأصل...فهنا تجتمع همزتان في بداية الكلمـــة وهذا لا تجيزه العربية قال الأخفش الأوسط:" إذا اجتمعت همزتان شتى ليس بينهما شيء فإن إحداهما تخفف في جميع كلام العرب إلا في هذه اللغة الشاذة القليلة، وذلك أنه إذا اجتمعـــت همزتان في كلمة واحدة أبدلوا الآخرة منهما أبداً فجعلوها إن كان ما قبلها مفتوحا ألفا ساكنة نحو "آدم" و"آخر"..."[3]. وفي هذه الحال تحذف الهمزة الثانية وتبدل بحركة الهمـــزة الأولـــى فتصبح الأسماء: آدم و آخر، ومثلها تماما تكسير (فَعَل) المهموز الفاء على أفعال نحو: أثـــر – أآثار، وأدب – أآداب، وأجل – أأجال– آجال.

وقريب من ذلك التقاء الحركتين القصيرتين بعد سقوط الهمزة وتشكيل حركة طويلـــة منهما في بعض السياقات مثل قراءة ورش ﴿آنذرتهم﴾ من قوله تعـــالى: ﴿سَــوَاءٌ عَلَــيْهِمْ أَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لاَ يُؤْمِنُونَ ﴾[4]، حيث علق الزمخشري على هذا الشاهد في الآية بقوله: "فإن قلت ما تقول فيمن يقلب الثانية ألفا قلت: هو لاحنٌ خارج عن كلام العرب خـــروجين:

[1] - اللهجات العربية في التراث لأحمد علم الدين الجندي : 1 / 92.
[2] - الكتاب : 2 / 416.
[3]- معاني القرآن للأخفش، ص168،169.(طبعة عالم الكتب:2003م).
[4]- سورة البقرة الآية 06.

أحدهما الإقدام على جمع الساكنين على غير حدّه، وحدّه أن يكون الأول حرف لين والثـاني حرفا مدغما نحو قوله: "الضالين"و"خويصة"، والثاني إخطاء طريق التخفيـف لأن طريـق تخفيف الهمزة المتحركة المفتوح ما قبلها أن تخرج بين بين، فأما القلب ألفا فهـو تخفيـف الهمزة الساكنة المفتوح ما قبلها كهمزة رأس"[1]. فواضح من هذا الكلام أن الزمخشري يلحن هذه القراءة وينكرها بالرغم من أنها قراءة لعلمين من أعلام القراء وهما أبـو عمـرو بـن العلاء ونافع، بحيث نُقل عن أبي حاتم أنه قال: ويجوز أن تدخل بينهما[الهمزتين] ألفا وتخفف الثانية[2].

والذي يظهر من وصف أداء الهمزتين أن القارىء يعمد إلى تشكيل مقطـع طويـل مغلق(س ع ع س)، بدلا من مقطعين أحدهما قصير (س ع)، والثاني متوسـط (س ع س)، فيحصل في النهاية على مقطع واحد متجنبا بذلك مشقة نطق الهمزة مرتين. وأما ما ذكـره الزمخشري في رده على القراءة من أن القارىء جمع بين ساكنين على غير حدّه كما قـال، فيبدو غير صحيح من وجهة النظر الصوتية الحديثة، لأن تسهيل الهمزة الثانية أو تخفيفهـا ينتج عنه حركة طويلة هي الألف، والألف صوت صائت ولـيس صـوتا صـامتا مشـكلاً بالسكون– كما في اعتقاد الزمخشري–، والذي دفعه إلى هذا الاعتقاد – هو وغيره من علماء السلف– أن الألف تُمثَّل في الكتابة العربية كما باقي الحروف الصامتة فعدها صوتا صامتا، ونظرا إلى عدم تقبلها للفتحة أو الحركة بوجه عامّ، اعتبرها ساكنة مثلها النون في (أنذرتهم).

وأما ما ذكره عن أن تخفيف الهمزة المتحركة يكون بجعلها "بين بين" فقد قال في هذا الشأن إبراهيم أنيس ما يلي:" وإذا صح النطق الذي سمعته من أفواه المعاصرين من القـراء

---

[1]- الكشاف: 154/1،155, وينظر المفصل للزمخشري, ص366.

[2]- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي:143/1، وأضاف أبو حاتم على كلامه هذا قوله: "وأبو عمرو ونافع يفعلان ذلك كثيرا" (في الصفحة ومن الجزء نفسه المذكورين وينظر في ذلك أيضا أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي لعبد الصبور شاهين, ص108،109).

تكون هذه الحالة عبارة عن سقوط الهمزة من الكلام، تاركة حركة وراءها، فالــذي نســمعه حينئذ لا يمت إلى الهمزة بصلة، بل هو صوت لين قصير يسمى عادة حركة الهمزة"[1].

ومن صور المخالفة بالإبدال اختزال المشدد بإبدال أحد المضعفين ياء في مثل دنّار ــــ دينار، وقرّاط ــــ قيراط قال ابن يعيش: يقولون: ديوان، قيل القلب هنا لثقل التضعيف، لا لسكونها وانكسار ما قبلها، فهو من قبيل دينار وقيراط في دنّار وقرّاط لا من قبيل: ميــزان وميعاد"[2].

وقال ابن منظور:" دينار أصله دنّار بالتشدد بدليل قولهم: دنانير ودنينير، فقلبت إحدى النونين ياء لئلا يلتبس بالمصادر التي تجيىء على فعّال...ومثله قِيراط وديباج وأصله: دبّاج. قال أبو منصور: دينار وقيراط وديباج أصلها أعجمية غير أن العرب تكلمت بها قــديما فصــارت عربية"[3].

وقال الراغب الأصفهاني في المفردات "دينار: أصله دنّار فأبدل من إحدى النونين يــاء، وقيل أصله بالفارسية دين آر، أي الشريعة جاءت به[4] هذا ولا يخفى أن في أداء تلك الألفاظ بإبدال أحد المضعفين ياء خفة وسهولة.

ومن صور الإبدال بالياء في مخالفة المثلين ما جاء في تظنيت والأصل تظنّنت وأصــله التظنّن قال سيبويه:" وذلك قولك: تسريت وتظنيت وتقصيت من القصة"[5]. وقد جعل سيبويه هذه الأمثلة تحت باب سماه "باب ما شذ فأبدل مكان اللام الياء لكراهية التضعيف".

ومن ذلك تلعيت وأصله: تلعّعت من اللعاعة فجيىء بالياء مكان العين قال ابــن جنــي: "وأخبرنا أبو علي بإسناده عن يعقوب قال: قال ابن الأعرابي: تلعيت من اللعاعة، واللعاعــة بقلة، وأصل تلعيت تلعّعت، فأبدلوا من العين الآخرة ياء كما قالوا: تقصيت وتظنيت"[6].

[1]- الأصوات اللغوية، ص 91.
[2]- شرح المفصل 32/10.
[3]- لسان العرب: 273/3(د ن ر).
[4] - معجم مفردات ألفاظ القرآن، ص131.
[5]- الكتاب:424/4، وسر صناعة الإعراب:384/2.
[6]- سر صناعة الإعراب: 388/2.

ومن ذلك قصّيت والأصل قصّصت قال ابن جني:" أخبرنا أبو علي بإسناده عن يعقـــوب قال اللحياني: قصيت أظفاري في معنى قصّصتها، فهذا مثل تظنيت أبدلت الصاد الثالثة ياء كراهية التضعيف"[1].

ومن ذلك تفضّيت من الفضة والأصل تفضّضت قال ابن جني: "وقـــالوا تفضـــيت مـــن الفضة"[2].

ومن ذلك تصدى والأصل تصدد قال تعالى: ﴿ أَمَّا مَنِ اسْتَغْنَى (5) فَأَنتَ لَهُ تَصَــدَّى ﴾[3]، قال ابن جني: ومنه قوله تعالى: ﴿إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصُدُّونَ ﴾[4]، أي يعجبون ويضجون، فحول إحدى الدالين ياء"[5].

ومن ذلك أيضا يتسنه قال ابن جني" وقرأت على أبي علي بإسناده عن أبي عبيدة، قـــال: سمعت أبا عمرو بن العلاء يقول: ﴿لَم يَتَسنّ ﴾[6]: لم يتغير هو من قوله تعالى: ﴿مـــن حمـــإ مسنون﴾[سورة الحجر/26] أي: متغير فقلت له: (لم يتسن) من ذوات الياء، و(مسنون) مـــن ذوات التضعيف، فقال: هل مثل: تظنيت. وهو من الظن وأصله على هذا القول (لم يتسنّن) ثم قلبت النون الآخرة ياء هربا من التضعيف، فصار (يتسنّيُ) ثم أبدلت الياء ألفـــا، فصـــار (يتسنّى) ثم حذفت الألف للجزم فصار (لم يتسنّ)[7].

قال الفراء: "وقد قالوا هو مأخوذ من قوله: ﴿حمإ مسنون ﴾، يريد متغير، فإن يكن كذلك فهو أيضا مما أبدلت نونه ياء"[8]، وقال الزمخشري: " ..وقيل أصله يتسنن من الحمأ المسنون المسنون فقلبت نونه حرف علة كتقضى البازي"[9].

---

[1]- سر صناعة الإعراب: 384/2.
[2]- نفســه:385/2.
[3]- سورة عبس الآية 06.
[4]- سورة الزخرف الآية 57.
[5]- سر الصناعة:387/2، وقد نسب ابن جني هذا الكلام إلى أبي عبيدة.
[6]- سورة البقرةالآية 259.
[7]- سر صناعة الإعراب: 384/2.
[8]- معاني القرآن: 172/1.
[9]- الكشاف: 390/1.

ومن شواهد المخالفة بالإبدال: أمليت الكتاب والأصل أمللت قال الله تعالى: ﴿فَلْيُمْلِلْ ولِيّهُ بِالعَدْلِ﴾[1]، وقال تعالى في موضع آخر من كتابه الكريم: ﴿ فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾[2]، ﴾[2]، ولتفسير ذلك نقول تحتاج صيغة أمللت إلى مجهود عضلي أكبر لوجود صوتين مثلين، وقانون المخالفة يبدل أحد اللامين المتجاورين إلى صوت لين، أو إلى أحد الأصوات الشبيهة بأصوات اللين وهي: النون واللام والميم والراء، وقد لحظ القدماء ما بين هذه الأصوات من علاقة حيث أطلقوا عليها الأحرف الذلقية[3].

ومن أمثلة المخالفة بالإبدال بين المثلين على رأي أبي عمرو بن العلاء والأخفش "ها أنتم" من قوله تعالى: ﴿ هَاأَنتُمْ أُوْلاء تُحِبُّونَهُمْ ﴾[4]، فقد ذهب أبو عمرو بن العلاء إلى أن "ها أنـــتم" أصلها "آأنتم" بهمزتين يفصل بينهما فتحة طويلة، قال أبو جعفر النحاس:" قال أبو عمرو بن العلاء الأصل "آأنتم" فأبدل من الهمزة الأولى ها لأنها أختها"[5]، وللفراء رأي مخالف بحيـــث يعتبر أن الأصل هو"أنتم هؤلاء" ثم فصل بالضمير بين الهاء وبين اسم الإشارة قال:" العرب إذا جاءت إلى اسم مكنى قد وصف بهذا وهذان وهؤلاء فرقوا بين(ها) وبـــين(ذا) وجعلـــوا المكنى بينهما، وذلك من جهة التقريب لا في غيرها فيقولون: أين أنت؟ فيقول القائل: هأنذا، ولا يكادون يقولون: هذا أنا، وكذلك التثنية والجمع، ومنه ﴿ها أنتم أولاء تحبونهم ﴾ وربمـــا أعادوا (ها) فوصلوها بذا وهذان وهؤلاء؛ فيقولون: ها أنت هذا، وها أنتم هؤلاء، وقال تعالى في سورة النساء:﴿ ها أنتم هؤلاء جادلتم عنهم ﴾[6]" [7].

إن المخالفة بالإبدال سواء في المشدد أو المكرر شائعة كثيرا في العربية وتعود بالأساس إلى صعوبة نطق الصوت المشدد أو المكرر نظرا إلى ما يسببه من ثقل ومشقة في عمليـــة الأداء الصوتي، ومن ثم وجدنا أن العربية تميل إلى التخلص من ذلك الثقل وتلـــك المشـــقة

[1]- سورة البقرة الآية 282.
[2]- سورة الفرقان الآية 5.
[3]- اللهجات العربية في التراث::350/1.
[4]- سورة أل عمران/119.
[5]- إعراب القرآن للنحاس194/1.
[6]- الآية 109.
[7]- معاني القرآن: 231/1، 232.

بإبدال أحد الصوتين المضعفين أو المكررين صوتاً شبيها بأصوات اللين أو صوتا مائعـا أو حتى صوتاً آخر ليس من هاتين المجموعتين. فالاقتصاد في الجهد العضلي وتأدية الأصوات من طريق أخصر وأقصر هو ما يقف وراء هذا النوع من الإبدال في الأصوات المشددة أو المضعفة والأصوات المكررة.

ويرى برجشتراسر أن اختزال الصوامت الطويلة بإبدالها أصواتا أخرى يرجع إلى علة نفسية قوامها أن المتكلم يرجو أن يؤثر في نفس السامع تأثيرا زائدا فلا يكتفي بالضغط على الصوت وتشديده بل يضيف إليه صوتا آخر لزيادة ذلك التأثير[1].

وتعد النون من أكثر الأصوات استخداما في مجال المخالفة بين الأصوات نظرا إلى الغنة الملازمة لها في النطق، ثم تليها الأصوات الأخرى. وعموما فالأصوات المائعة والحلقية وأشباه أصوات اللين، كانت من أكثر الصوامت دورانا في الاستخدام[2].

بقي أن نشير إلى طريقة أخرى تتبعها العربية في المخالفة بين الصوامت ولكنها طريقة قليلة الورود، وإن سجلنا حولها شواهد من القرآن وقراءاته، ومفاد هذه الطريقة أن يؤتى بحركة طويلة بعد الصامت الأول أو إطالة حركة الصامت الأول لتوفير فسحة زمنية تخفف من غلواء تتابع الصوتين المثلين وأمثلة ذلك فيما يلي:

تمد حركة همزة الاستفهام عندما تلتقي مع همزة الكلمة نحو: أأنت يقال فيها: آأنت قال سيبويه:"ومن العرب ناس يدخلون بين ألف الاستفهام وبين الهمزة ألفا إذا التقتا، وذلك أنهم كرهوا التقاء همزتين ففصلوا، كما قالوا: اخشينان ففصلوا بالألف كراهية التقاء هذه الحروف المضاعفة فهؤلاء أهل التحقيق. وأما أهل الحجاز فمنهم من يقول: آإنك وآأنت: وهي التي يختار أبو عمرو، وذلك لأنهم يخففون الهمزة كما يخفف بنوتميم في اجتماع الهمزتين،

[1]- التطور النحوي, ص35.
[2]- ظاهرة المخالفة الصوتية ودورها في نمو المعجم العربي لأحمد عبد المجيد هريدي, ص30.

فكرهوا التقاء الهمزة والذي هو بين بين فأدخلوا الألف كما أدخلته بنوتميم فـــي التحقيــق"[1]، وقال الزمخشري: " ومن العرب من يقحم بينهما[2] ألفا وهي قراءة ابن عامر"[3]. وفـــي ذلــك إشارة إلى قراءته في قوله تعالى: ﴿آأنذرتهم أم لم تنذرهم ﴾[4]، وقوله تعالى: ﴿آئنك لأنــت يوسف ﴾[5]، ففي الآية الأولى أقحم ألفا بين همزة الاستفهام وهمزة الفعل، وفي الآية الثانيــة أقحم ألفا بين همزة الاستفهام وهمزة "إن".

وقال الزمخشري في تفسير آية سورة البقرة: "وقرئ (آأنذرتهم): بتوسيط ألف بينهما (أي الهمزتين) محققتين وبتوسيطها والثانية بين بين"[6].

وفي قوله توسيط ألف بينهما، أي مد حركة الهمزة الأولى، ولا يكون ذلــك إلا بالإتيــان بألف بين الهمزتين.

وقد نسب الفراء مد حركة همزة الاستفهام لتميم إذا اجتمعت مع همزة أخرى، وذلك من أجل الفصل بينهما فقال في تفسير قوله تعالى: ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِــي السَّــمَاء أَن يَخْسِــفَ بِكُــمُ الأَرْضَ﴾[7]: "يجوز فيه أن تجعل بين الألفين ألفا غير مهموزة كما يقال: (آأنتم)، (آإذا متنا). كذلك فافعل بكل همزتين تحركتا فزد بينهما مدة، وهي من لغة بني تميم"[8].

إذا فصل بين الهمزتين فاصل من صامت آخر يمكن أن يزاد بينهما ألف مد وذلــك فــي حالة الضمير "أنا" إذا جاءت بعده همزة مثل: أنا آتيك، وأنا أول وعلى هذا قراءة نافع ﴿أَنَــا أُحْيِي وأُمِيتُ ﴾[9] بإثبات الفتحة الطويلة وهذه قراءته للضمير "أنا" كلما جاءت بعــده همــزة مضمومة أو مفتوحة، قال ابن الجزري:"واختلفوا في إثبات الألف من أنا وحذفها، إذا أتــى

1- الكتاب: 551/3, والمقتضب للمبرد: مج195/1.
2- أي الهمزتان إذا التقتا في كلمة واحدة.
3- المفصل للزمخشري، ص 367،وينظر التطور اللغوي لرمضان عبد التواب, ص68 وما بعدها.
4- سورة البقرة الآية 06..
5- سورة يوسف الآية 90.
6- الكشاف:154/1.
7- سورة الملك الآية 16.
8- معاني القرآن: 171/3.وينظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري:296/1.
9- سورة البقرة/258.

بعدها همزة مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة، فقرأ المـــدنيان بإثباتهـــا عنـــد المضـــمومة والمفتوحة "أنا أحي، أنا أول، أنا أنبئكم، أنا آتيك"، واختلف عن قالون عند المكسورة"[1].

وقد قرأ القراء السبعة الباقون بفتحة قصيرة في جميع السياقات سواء جاء بعدها همـــزة مضمومة أو مفتوحة أو مكسورة. على أن قواعد النحو تقتضى اختزال حركة الضمير فـــي حال الوصل وإثباتها في حال الوقف. لكن بالرغم من ذلك ففقد أجرى الأمام نـــافع الوصـــل مجرى الوقف، قال أبو البقاء العكبري في ذلك: "(أنا أحي) الاسم الهمزة والنون، وإنما زيدت الألف عليها في الوقف لبيان حركة النون، فإذا وصلته بما بعده، حذفت الألف للغنية عنهـــا، وقد قرأ نافع بإثبات الألف في الوصل، وذلك على إجراء الوصل مجرى الوقف؛ وقد جـــاء ذلك في الشعر[2] .

ويستخلص مما سبق أن الحركة الطويلة قد تستخدمها العربية للتخفيف من اجتماع المثلين وتتابعهما فيكون طول الحركة بمثابة فاصل بين الصوتين المثلين قال هنري فليش في ذلك: "... ويبدوا أن الذي حملهم على إطالة الصوت الثاني، إنما هو رغبتهم في إخفاء التكرار في الأول، وهو غير مرغوب فيه، فقد كان العرب يشعرون أن الصوت الطويل هو خير فاصل بين الأصوات المتماثلة"[3].

وبعد... فهذه هي أمثلة المخالفة في الشواهد القرآنية، بحسب ما وردت في كتاب الكشاف وغيره من كتب معاني القرآن والتفسير واللغة، وهي تشير إلى وقوع هذه الظاهرة في القرآن وإحساس اللغويين بها، ودراستهم لها انطلاقا من واقع اللغة وكلام العرب.

[1]- النشر في القراءات العشر:230/2.(ط المكتبة التجارية الكبرى القاهرة د. ت).
[2]- إملاء ما من به الرحمان, ص115.
[3]- العربية الفصحى-نحو بناء لغوي جديد- لهنري فليش, ص104.

3.المخالفة بين الحركات.

في ضوء المخالفة بين الحركات يمكن أن يفسر إعراب جمع المؤنث السالم بالكسر نيابة عن الفتح في حالة النصب كما في: إن المسلمات طائعات لأزواجهن، فالتحريك بالكسر في حالة النصب ليس إلا مخالفة صوتية مع الفتحة الطويلة قبلها[1].

فالأصل النصب والدليل على ذلك بقاء بعض الأمثلة مما يسميه الدكتور رمضان عبد التواب بالركام اللغوي فيما روي عن أبي خيرة الأعرابي أنه قال:" استأصل الله عرقاتَهم"[2].

ومن ذلك أيضا ما رواه الفراء في "المعاني" عن أبي الجراح قوله: "ما من قوم إلا وقد سمعنا لُغَاتَهم، قال: قال الفراء: رجع أبو الجراح في كلامه عن قول لغاتَهم، ولا يجوز ذلك في الصالحات والأخوات لأنها تامة لم ينقص من واحدها شيىء"[3].

ومن صور المخالفة بين الحركات تحريك نون المثنى بالكسر دائما رفعاً ونصباً وجراً نقول: جاء المسلمات ورأيت المسلمين ومررت بالمسلمين، والأصل في حركة نون المثنى هو الفتح، غير أن نون المثنى، قد كسرت في الفصحى، تبعا لهذا القانون بدليل أنه لا تزال مفتوحة في نظيرتها في جمع المذكر، وبدليل بعض الأمثلة التي بقيت على الأصل القديم وهي ما تسميه بالركام اللغوي[4].

وقد ذهب بعض علماء اللغة الأقدمين إلى أن الأصل في نون المثنى هو السكون، فحول الزيادة في التثنية قال أبو العباس المبرد:" والزائدة الثانية: النون وحركتها الكسر، وكان حقها أن تكون ساكنة، ولكنها حركت لالتقاء الساكنين، وكسرت على حقيقة ما يقع في الساكنين إذا التقيا وذلك قولك: هما المسلمان، ورأيت المسلمين"[5]. فيرى بعض السلف- إذن-

---

1- ينظر التطور اللغوي لرمضان عبد التواب, ص66, وبحوث ومقالات في اللغة له, 73.
2- الخصائص: 384/1.
3- معاني القرآن: 93/2.
4- التطور اللغوي لرمضان عبد التواب, ص65.
5- المقتضب للمبرد: 153/2.

أن نون التثنية ساكنة في الأصل وحركت بالكسر لالتقاء الساكنين، والصحيح فـي هـذا أن حركتها الأصلية هي الفتحة، بدليل لزوم الفتحة لها في جمع المذكر السالم في جميع الحالات الإعرابية، وبدليل وجود بعض الألفاظ التي تمثل الركام اللغوي للظواهر اللغوية المندثرة مثل شتّان في مثل قولهم: "شتّان أخوك وأبوك" أي هما مفترقان فهـو تثنيـة "شـتّ" و"الشـتّ": المتفرق. وبخصوص فتحة النون في شتّان فقد قال ابن منظور: "شتّان: مصروفة من شتُتَ، فالفتحة التي في النون هي الفتحة التي كانت في التاء، وتلك الفتحة تدل على أنه مصـروف عن الفعل الماضي...وقال أبو زيد: شتّان منصوب على كل حال لأنه ليس له واحد[1].

وقال ابن منظور أيضا " والشتّ": المتفرق وتثنيتهُ شتّان، وجمعه أشتات ومن قـال: شتّان ما بين أخيك وأبيك رفع ما بشتان على أنها بمعنى الذي وبين صلة ما، والمعنى شتّان الذي بين أخيك وأبيك"[2].

ويستفاد مما سبق أن شتّانِ صيغة متطورة عن شتّانَ، وكلاهما يفيد التثنية وإن كـان السلف- ومنهم ابن منظور- لم ينظروا إلى هذا التباين بين هاتين الصيغتين على أنه تطور، نظرا لانطلاقهم من أسس معيارية بحتة في الحكم على دلالة الصيغتين.

ومن صور المخالفة بين الحركات تحريك نون التوكيد الثقيلة بالكسـر بعـد الفتحـة الطويلة، بينما تكون محركة بالفتح بعد الضمة والكسرة. كما أن حركة نون جمـع المـذكر السالم مفتوحة على كل حال، ذلك أن هذه النون تكون مسبوقة دائما وأبدا إما بضمة طويلـة مثل: "مسلمون" أو بكسرة طويلة مثل "رأيت المسلمين"، و"مـررت بالمسـلمين" والكسـرة والضمة حركتان مقفلتان بينما الفتحة حركة مفتوحة فخولف إذن بين الكسرة والضـمة مـن جهة والفتحة من جهة ثانية تسهيلا لعملية الأداء وتقليلا من غلواء التماثل بين الحركات الذي يفضي عادة إلى بذل مجهود عضلي أكبر في الأداء الصوتي.

[1]- لسان العرب:782/1 (ش ت ت).
[2]- نفسه: 782/1،783 (ش ت ت).

وأما نون جمع المذكر السالم فقد اختلف فيها قدامى القوم من حيث أصلية السكون فيها من غيره. وأما كونها محركة بالفتح فقد ذهب بعضهم إلى أن ذلك من أجل التفريــق بينهـا وبين نون المثنى قال الأخفش: "وإنما صارت هذه مفتوحة ليفرق بينها وبين نــون الاثنــين، ذلك أن نون الإثنين مكسورة أبدا"[1]، وذهب آخرون إلى أن تحريك هذه النون بــالفتح كــان للتخلص من التقاء الساكنين، وخص الفتح بنون جمع المذكر السالم بسبب الضمة والكســرة قبلها قال الفراء:"...قالوا رجلان، فخفضوا النون من رجلان لأن قبلها ألفا، ونصبوا النــون في المسلمون والمسلمين لأن قبلها ياء وواوا"[2]. ويبدوا أن أبا البركات الأنباري كــان أكثــر وعياً بحصول تخالف بين الحركات في صيغة المذكر السالم، فعزا ذلك إلى توالي الأجنــاس أو إلى اجتماع حركتين مغلقتين هما الكسرة والضمة، وكل ذلك يؤدي حسبه – إلى الاستثقال قال: "...وأما نون الجمع فإنها تقع بعد واو مضموم ما قبلها، أو يــاء مكســور مــا قبلهــا فاختاروا لها الفتحة لتعادل خفة الفتحة ثقل الواو والضمة والياء والكسرة ولو عكسوا ذلــك لأدى ذلك إلى الاستثقال، إما لتوالي الأجناس وإما للخروج من ضم إلى كسر[3].

ومن المخالفة الصوتية بين الحركات ما ورد في قراءة عبد الله بن مسعود في قولــه تعالى: ﴿مِنَ الكِبَرِ عِتِيَا﴾[4]، بفتح العين وكذلك قوله تعالى: ﴿أولــى بهَــا صُــلِيّا﴾[5]، قــال الزمخشري:" وقرأ ابن وثاب وحمزة والكسائي بكسر العين وكذلك (صلِيا) وابــن مســعود بفتحهما فيها ..."[6]، والأصل في ذلك هو الضم، أي ضم العين من (عُتِيّا) وضم الصاد مــن (صُلِيا)، وفتحة الفاء في كل منهما إنما هي مخالفة صوتية من أجل الــتخلص مــن تتــابع الكسرات كما ورد في قراءات أبن وثاب وحمزة والكسائي وغيــرهم، لأن هــذه القــراءات

1- معاني القرآن للأخفش:13/1 (طبعة الكويت 81).
2- معاني القرآن للفراء: 10/1.
3- أسرار العربية, ص70.
4- سورة مريم الآية 08.
5- سورة مريم الآية 72.
6- الكشاف:503/2.

حدثت فيها مماثلة صوتية بين حركة الضمة الأصلية والكسرة التي تليها فتحولت الضمة إلى الكسرة بتأثير من الكسرة وهو تماثل رجعي.

وذكر ابن جني في "المحتسب" أن ابن مجاهد أنكر الفتح في الشاهدين السابقين بعدما عرض قراءة ابن مسعود قال:"ومن ذلك قراءة ابن مسعود (الكبر عَتيا) بفتح العين وكـــذلك قرأ أيضا (أولى بها صَلّيًا) بفتح الصاد. وقال ابن مجاهد: لا أعرف لهما أصلا، قـــال ابـــن مجاهد: ويقرأ مع ذلك (بُكيا)، بضم الباء[1].

وعلق ابن جني على ذلك بقوله:" لا وجه لإنكار ابن مجاهد ذلك لأن له في العربيـــة أصلا ماضيا وهو ما جاء من المصادر على فعِيل نحو: الحويـــل، والزويـــل، والشـــخير، والنخير"[2]. وبإغفال ابن مجاهد– في الحقيقة– لقراءة الفتح، وهي قراءة ابن مسعود فقد عـــد ذلك ابن جني إنكار لتلك القراءة، وإلا فإنه لم يرد عند ابن مجاهد ما يفيد الإنكار على وجـــه الدقة، وحاصل كلامه هو "واختلفوا في قوله: "عِتيا" و"بُكيا"و "صِلياً" و"جِثيا" في كسر أوائلها وضمها، فقد قرأ ابن كثير ونافع وأبو عمرو وابن عامر وعاصم في رواية أبي بكر: بضـــم أوائل هذه الحروف وقرأ حمزة والكسائي بكسر أوائل هذه الحروف كلهـــا، وحفـــص عـــن عاصم: بكسر أوائل هذه الحروف كلها إلا بُكيا فإنه يضم أوله"[3].

ومن صور المخالفة الصوتية بين الحركات ما حدث في اسم العلم "إبراهيم" بحيث أن هذا الاسم المنقول عن العبرية[4] كان ينطق إلى جانب إبراهيم، أبراهام. وهنا حدثت مخالفـــة صوتية بين فتحتي الراء والهاء، فصارت فتحة الهاء كسرة لأجل المخالفة. ويروى عن ابن عامر قارىء أهل الشام، أنه كان يقرأ "أبراهام" في جميع القرآن[5].

1- المحتسب: 39/2.
2- نفسه: 39/2.
3- السبعة في القراءات لابن مجاهد, ص407.
4- المعرب والدخيل لمحمد التونجي, ص80.
5- النشر في القراءات العشر, 222/2.

ومن ذلك أيضا همزة أيان في قراءة أبي عبد الرحمان السلمي (74هــ) فهي من قبيل المخالفة بين الحركات قال الزمخشري:"...وقرأ السلمي إيان بكسر الهمزة"[1]، وذلك في قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا﴾[2]، فقد كسر السلمي همزة إيان للمخالفة بينها وبين فتحة الياء، فيسفر الأداء عن كسرة فضمة بدلا من فتحة ثم تليها فتحة. وقد عد بعض علماء السلف أن الكسر في "أيان" لغة لبعض العرب قال ابن جني:"...ومن ذلك قراءة السلمي ﴿إِيّانَ يُبْعَثُونَ ﴾[3]...فيه لغتان: أيان، وإيان، بالفتح والكسر"[4]، وقال الفراء: "وقرأ عبد الرحمان السلمي (إيان يبعثون) بكسر ألف (إيان) وهي لغة لسليم وقد سمعت بعض العرب يقول: متى إيوان ذلك والكلام أوان ذلك"[5].

ويرى ابن قتيبة الدينوري أن أصل "أيان" هو: أيّ أوان، فحذفت الهمزة والألف وجعل الحرفان واحدا"[6].

ومن ذلك أيضا كلمة "فواق" بضم الفاء كما في قراءة الكسائي وحمزة وخلف[7] في قوله تعالى: ﴿مَا لهَا مِنْ فَوَاق ﴾[8]. وقد أشار الزمخشري إلى قراءة الضم ولم ينسبها لأحد[9]. ونقل ونقل الراغب الأصفهاني عن أبي عبيدة أن من قرأ (من فُواق) بالضم فهو من فواق الناقة أي ما بين الحلبتين، وقيل هما واحد نحو جَمَام، جُمام، وقيل: استفق ناقتك: أي اتركها حتى يفوّق لبنها، وفَوّق فصيلك: أي اسقه ساعة بعد ساعة[10]. فقراءة (فُواق) بالضم هي مخالفة صوتية تهدف إلى التقليل من تماثل الفتحتين المتواليتين؛ فتحة الفاء وفتحة الواو. وبالتالي فإن هذه المخالفة تعد تطورا صوتيا للحالة الأولى.

[1]- الكشاف: 134/2, والمحتسب:268/1.
[2]- سورة الأعراف الاية 187.
[3]- سورة النحل الآية 21.
[4]- المحتسب: 09/2.
[5]- معاني القرآن: 99/2.
[6]- تأويل مشكل القرآن, ص522.
[7]- الكنز في القراءات العشر لابن الوجيه الواسطي, ص 227.
[8]- سورة ص الآية 15.
[9]- الكشاف: 363/3.
[10]- معجم مفردات ألفاظ القرآن, ص293.

ومن صور المخالفة ما ورد في مثلث زَجاجة، زُجاجة، زِجاجة؛ ففي قوله تعـالى: ﴿ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ﴾[1]، قرأ نصر بن عاصم بفتح الزاي قال ابن جني: "فيه ثلاث لغات: زَجاجة، وزُجاجة، وزِجاجة بالفتح والضم والكسر، وفي الجمع زَجاج وزُجاج، وزِجاج"[2].

وقال الفراء: "...اجتمع القراء على ضم (الزُّجاجة). وقد يقال زَجاجـة وزِجاجـة"[3]. وإشارة الفراء هذه إلى جواز جميع تلك الوجوه، يدل على أن العرب نطقت بالفتح- على أنه الأصل-، و نطقت بالضم والكسر لتخالف بين الفتحتين؛ فتحة الزاي وفتحة الجيم.

المبحث الثالث: اتجـاه السهولة واليسر.

يعد قانون السهولة واليسر من أهم القوانين التي تفسر كثيرا من التغيرات الصـوتية وربما النحوية والصرفية في ألفاظ اللغة؛ فاللغة في تطورها تميل نحو السهولة واليسر في أداء ملفوظاتها فتنتقل من الأصعب إلى الأيسر سعيا للتقليل من المجهود العضلي المبـذول. وقد عبر كثير من علماء العربية عن هذا القانون بمصطلح التخفيف الذي يشمل كثيرا من ظواهر التطور الصوتي والنحوي والصرفي في العربية مثل سقوط الهمز أو تسهيله والإبدال والإدغام والإعلال وطرائق التخلص من التقاء الساكنين، يضاف إلى ذلك سُبل التخلص من التضعيف والتكرار، وكذا الإسكان الذي هو ضد التحريك.

وممن نادوا بهذا القانون من المحدثين (Curtius)...وقد كان قدماء العرب من علماء اللغة يشيرون إلى هذه النظرية في ثنايا كتبهم... حين عزوا كثيرا من التطورات الصـوتية في اللغة العربية، إلى ما سموه ثقل الصوت أو خفته[4]. فالتخفيف الصوتي- إذن- في مدلوله العام عبارة عن تغيرات صوتية تمس بنى الكلمات من غير مساس بدلالتها، وهو لا يصيب

1- سورة النور الآية 35.
2- المحتسب:109/2.
3- معاني القرآن: 252/2.
4- الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس, ص235 وما بعدها, وينظر التطور اللغوي لرمضان عبد التواب، ص 75 وما بعدها.

إلا الألفاظ التي يحمل أداؤها استثقالا، وسر العربية في العدول عن الثقيل إلى الخفيف أن العربية تميل إلى الخفة وتكره الاستثقال.

وفي هذا المطلب نحاول أن نقف على مظاهر قانون السهولة واليسر في مساهمات الزمخشري، من خلال ما أشار إليه في الكشاف من صور تدل على وعي علماء اللغة والتفسير بهذا القانون، وإن عبروا عنه بلفظ التخفيف[1]. الذي يدل – في نظرنا– على هذا القانون أو الاتجاه دلالة كافية مقنعة.

فمما ورد في تفسير الكشاف من شواهد هذا القانون ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾[2] قال الزمخشري: "وقرىء وعازني من المعازّة وهي المغالبة. وقرأ أبو حيوة وعزَني بتخفيف الزاي طلبا للخفة وهو تخفيف غريب وكأنه قاسه على نحو: ظلت ومست"[3]. فواضح– إذن من خلال هذا الكلام– أن التخفيف الذي أشار إليه الزمخشري ووصفه بالغرابة إنما هو في التخلص من التشديد الذي هو مبعث ثقل على اللسان، ولذلك ذهب أبو حيوة مذهب التقليل من الجهد العضلي المبذول، وذلك بالتخلص من التشديد، والتخلص من التشديد هنا، مثل التخلص من التكرير في مست وظلت.

ومن أمثلة ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ عُرُبًا أَتْرَابًا﴾[4] قال الزمخشري: " وقرئ عُرْبا بالتخفيف جمع عروب، وهي المتحببة إلى زوجها الحسنة التبعل"[5] قال الفراء: " حدثني شيخ عن الأعمش قال: كُنت أسمعهم يقرءون: "عُرْبا أترابا بالتخفيف، وهو مثل قولك: الرّسْل والكُتْب في لغة تميم وبكر بالتخفيف"[6]. ويتضح من ذلك أن التخفيف المقصود هنا هو

[1]- ينظر مثلا ما جاء في الكتاب لسيبويه في باب "دخول فعّلت على فعَلت" يقول سيبويه "واعلم أن التخفيف في هذا جائز كله عربي, إلا أن فعّلت إدخالها ههنا لتبيين الكثير. وقد يدخل في هذا التخفيف". (الكتاب: 64/4).
[2]- سورة ص الآية 23.
[3] - الكشاف: 3/ 369.
[4]- سورة الواقعة الآية 37.
[5]- الكشاف:55/4.
[6]- معاني القرآن: 125/3.

هو تسكين الثاني للتقليل من أثر توالي حركتي الضم تيسيرا للجهد العضلي وتحقيقاً لليسـر والسهولة في الأداء.

ومن أمثلة ذلك أيضا ما ذكره الزمخشري في قراءة (نُزْلهم) في قوله تعالى: ﴿هَـذَا نُزُلُهُمْ يَوْمَ الدِّينِ﴾[1] حيث أشار إلى أنها قرئت بالتخفيف[2].

ومن ذلك قراءة الحسن (نُسْك) في (نُسُك) من قوله تعالى: ﴿فِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[3]، حيث أشار الزمخشري إلى أنها قرئت بالتخفيف[4] ومعناه تسكين الثاني من أجـل التقليل من تتابع الحركتين؛ حركتي الضم ومثل ذلك ذكره الزمخشري في غير ما موضع من الكشاف[5] وكله يدل على وعيهِ بهذا القانون الصوتي الفريد الذي اشتهرت به قبائـل الباديـة كتيم وأسد و بكر، بين القبائل العربية الأخرى.

ومما ورد في العربية القديمة حول هذا القانون ما ذكره ابن الأنباري في الأضداد حيث قال: " .. ويقال أردأتُ الرجل وأرداتُه وأرديتُه، فمن قال: أرداته، لين الهمزة، ومن قال: أرديتُه، انتقل عن الهمزة، وشبه أرديت بأرضيت، ومثل هذا قول العرب: قـرأت بتحقيـق الهمـز، وقرات بتليين الهمزة وقريت بترك الهمز والانتقال عنه إلى التشبيه بقضيت ورميت، وكذلك يقال: اقرأ رقعتي بالتحقيق، واقرا رقعتي بالتليين، واقرَ رقعتي بالترك، وهو أقل الثلاثة.

وكذلك لم يجئ فلان ولم يجي بتسكين الياء، ولم يجِ بحذف الياء وهي أقلها. ويقال صـحيفة مقروءة، وامرأة مشنوءة على التحقيق. وصحيفة مقروءة وامرأة مشـنوّه، علـى التليـين، وصحيفة مقريّة وامرأة مشنيّة على الانتقال عن الهمز، والتشبيه بمقضية ومرميّة"[6].

---

[1]- سورة الواقعة الآية 56.
[2]- الكشاف 56/4.
[3]- سورة البقرة الآية 196.
[4]- الكشاف: 345/1.
[5]- ينظر الكشاف: 54/4، و 60/4، و85/4، و 188/4 و 582/2، و 412/3 وغيرها.
[6]- الأضداد لابن الأنباري ن ص 133.

فسقوط الهمز إذن يعد ظاهرة من الظواهر التي تشهد على هذا القانون الصوتي، وقد عرف ذلك عن قبائل الحجاز، كما تخلصت منه العديد من اللهجات الحديثـــة، لأن صـــوت الهمزة صوت عسير النطق وذلك بسبب انحباس الهواء خلف الأوتار الصوتية ثم انفراج هذه الأوتار فجأة، وهذه عملية تحتاج إلى جهد عضلي غير يسير.

وقد أشار الزمخشري في تفسيره لقوله تعالى:﴿وَغَلَّقَتِ الأَبْوَابَ وَقَالَتْ هَيْتَ لَكَ﴾[1] إلى تسهيل الهمز حيث قال: " قرئ هيت بفتح الهاء وكسرها مع فتح التاء وبناؤه كبناء أين وعيط وهيت.. وهئت بمعنى تهيأت، يقال: هاء يهئ كجاء يجيئ: إذا تهيأ"[2].

وقراءة التسهيل هذه التي أشار إليها الزمخشري هي لجملة من مشاهير وكبار القراء، فقد وصفها بعض المفسرين حسب ما نقله القرطبي عنهم، أنها هي القراء الصـــحيحة مـــن قراءة ابن عباس وسعيد بن جبير والحسن ومجاهد وعكرمة وبها قرأ أبو عمرو بن العـــلاء وعاصم والأعمش وحمزة والكسائي[3] مع اختلاف بين بعض القراء في فتح الهاء وكسرها.

وأما قراءة التحقيق فقد عُزيت إلى ابن عامر وأهل الشام[4].

ومما يعد من شواهد قانون السهولة واليسر انكماش الأصوات المركبة Diphthong فيتحول الصوت المركب (aw) إلى ضمة طويلة ممالة (ô) في مثل نطقنا لكلمة "يُوم" بـــدلا من يَوْم. وكذلك تحول الصوت المركب (AY) إلى كسرة طويلة ممالة (ê) في مثـــل نطقنـــا لكلمة "بيت" بدل "بَيْت" كل ذلك بسبب ميل اللغة إلى تحقيق الأيسر والأسهل من الأصوات.

ومن ذلك أيضا اندثار الأصوات الأسنانية في اللهجات الحديثة. والأصوات الأسنانية هي الذال والثاء والظاء، ونطق هذه الأصوات يتطلب وضع طرف اللسان بين الثنايا العليـــا والسفلى مع إخراجه قليلا، وهذه الوضعية تحتاج إلى مجهود عضلي لا بأس به، فتخلصـــت

---

[1]- سورة يوسف/23.
[2]- الكشاف: 310/2.
[3]- الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 98/5، 99.
[4]- نفسه: 99/5.

لغة الكلام من هذه الأداء واستعاضت عنه إلى إخراج تلك الأصوات من مخــرج مــا وراء الأسنان وهو المخرج الأسناني اللثوي[1]. فالذال حل محلها الدال مثل "دكر" بدلا من "ذكر" أو الزاي " زكر"، وأما الثاء فحلت محلها التاء مثل " ثمار" صارت " تمار" أو حلت محلها السين "سابت" صارت بدلا عن " ثابت"، وأما الظاء فقد حل محلها الضاد مثل " ضلام" بــدلا مــن ظلام" أو الزاي المفخمة في مثل "زلام" بتفخيم الزاي بدلا من "ظلام".

ومما سبق يتضح أن مخرج هذه الأصوات رجع إلى الخلف مــع احتفاظهــا بصــفة الرخاوة تارة أو تحولها إلى صفة الشدة تارة أخرى، ويذكر الدكتور إبراهيم أنيس أن هــذه الأصوات "أصبحت في لغة الكلام أصواتا شديدة، هي الدال والتاء والضاد لأنه قد يسهل على المرء وهو يجري بأقصى سرعته، أن يصطدم بحائط أمامه، من أن يحاول الوقــوف قبــل الحائط بمسافة قصيرة.

وكذلك اللسان قد يسهل عليه الاصدام بالحنك، والالتقاء به التقاء محكما، ينحبس معه النفس، وهو ما يكون مع الأصوات الشديدة، من أن تقف حركته عند مســافة قصــيرة مــن الحنك، ليكون بينهما مجرى يتسرب منه الهواء كما يحدث في الأصوات الرخوة"[2].

ومما يشهد لهذا القانون أيضا القضاء على التفريعات الكثيــرة والأنــواع المختلفــة للظاهرة الواحدة في داخل اللغة، وقد حدث ذلك في اللهجات العربية الحديثة بالنسبة لعلامات التأنيث في العربية؛ فالمعروف أن العربية الفصحى تملك ثلاث علامات للتأنيث، هي: التاء، والألف المقصورة، والألف الممدودة، كما نلاحظ أن العلامتين الثانية والثالثة قد ضاعتا في اللهجات الحديثة وحلت محلهما العلامة الأولى وهي التاء فنحن نقول في حمــراء وبيضــاء وصحراء، وعمياء.. نقول جمرة، بيضة، صحره وعمية وغيرها[3].

---

[1] - ينظر الأصوات اللغوية لزين كامل الخويسكي، ص 211.

[2]- الأصوات اللغوية، ص 237.

[3]- ينظر: لحن العامة والتطور اللغوي لرمضان عبد التواب، ص 47.

فالميل إلى السهولة والتيسير هو ما يقف وراء زوال علامتي التأنيث وحلول واحـدة فقط محلهما.

والقلب المكاني بما هو ظاهرة صوتية شائعة في العربية والتي يكون فيها تقديم بعض أصوات الكلمة على بعضها الآخر لصعوبة تتابعها، يعد هو أيضا من مظاهر التيسـير فـي الأداء الصوتي، ومن ثم فهو من مظاهر قانون السهولة واليسر في العربية قـال فنـدريس: "الانتقال المكاني، يصدر عن نفس الأصل الذي صدر عنه التشابه، إذ أن مردّ الأمـر فـي كليهما إلى الخطأ، ونقص الالتفات. ولكن النتيجة مختلفة كل الاختلاف، فبدلا مـن تكـرار الحركة النطقية مرتين، يُقتصر على تغيير مكان حركتين، وأخيرا يبدو الانتقال المكاني، كما لو أن جزئين في كلمة واحدة، قد تبادلا أحد العناصر فبدلا من فِسترا FESTRA ، يقـال فـي البرتغالية FRESTA فرستا"[1].

وقد تناول علماء العربية قديما القلب المكاني وأقروا بوجودهِ في اللغة فيما فيه الهمزة كثيرا ومنه: طأمن: طمأن، أيس: يئس، وقد تقدمت اللام على الفاء في أشياء، قيل أصلها شـيئاء، وزن فعلاء هروبا من تكرار الهمزة آخراً.

ووقع الصحيح السالم نحو: غرضوف، والأصل غضروف، وأكثر مـا يقـع القلـب المكاني في الجمع لكثرة حروفه، ويكثر فيما تكررت فيه الهمزة نحو: آرام، آبار، آماق وهو المشهور فيها، والأصل: أرئام، أبئار، أمئاق، جمع: رئم، بئر مؤق. وقد وقع قلب مكاني، ثم خففت الهمزة لشدتها.

وتقول العرب: ما أطيبه وما أيطبه، وأنبض القوس وأنضب(حرك وترها) وطريـق طامس وطاسم، وشرخ الشباب وشخر (أوله) وخزن وخنز، وعاث يعيث وعثـا يعثـي (إذا فسد)، ولفحه ولحفه (ضربه)، وبطّيخ و طبّيخ، وماء سلسال ولسلاس ومسلسل وملسلس (إذا كان صافيا) وكبكبت الشيىء و بكبكته (إذا طرحت بعضه على بعـض)، واعتاقـه الأمـر

[1]- اللغة لفندريس، ص 94.

واعتقاه، واعتام، واعتمى، وكعبره بالسيف وبعكره(ضربه)، ورجل خنافر وفناخر (عظـيم الأنف)، وطرشم الليل وطرمش (أظلم)...وجذب وجبذ وبئر عميقة ومعيقة، وأحجمت عـن الأمر وأجحمت، وبتلت الشيىء أي قطعته وبلته، ورجل أغرل وأرغل.[1]

ويلحظ أن هذه الظاهرة الصوتية تشيع في لغة العوام لعدم تقيد الخطاب العامي بنص وتحرره من بعض قيود اللغة وسرعته وميله إلى التيسير والتخلص من المخـارج الصـعبة لسرعة الأداء أو للبدء بالأسهل مثل: سمش (شمس) حلت السين مكان الشين وانتقلت الشين إلى موضع السين، ومثل ذلك: أنارب في أرانب ومعالق في ملاعق، ورعبون في عربـون، وخرزانة في خزرانة وغرضوف في غضروف ولطم وملط، وسبك وكـبس، زوج جـوز، وزحالف وزلاحف والأصل سلاحف[2].

ومن شواهد هذا الظاهرة في كتاب الكشاف ما جاء في تفسير قوله تعـالى:﴿ هُـوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاء ﴾[3] حيث قال الزمخشري: "(ضياء) منقلبة عن واو ضوء لكسرة ما قبلها. وقرىء ضئاء بهمزتين بينهما ألف على القلب بتقديم اللام على العين كما قيل في عاق عقا"[4]. وقراءة ضئاء هي لابن كثير وقراءته هذه من القراءات السبعية التي حملت على القلب المكاني قال القرطبي:"...قال المهدوي: ومن قرأ ضئاء بالهمز فهو مقلوب، قدمت الهمـزة التي بعد الألف فصارت قبل الألف فصار ضئايا، ثم قلبت الياء همزة لوقوعها بعـد ألـف زائدة".[5]

ومن أمثلة ذلك أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ يَجْعَلُونَ أَصْابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم مِّنَ الصَّوَاعِقِ ﴾[6] حيث قال الزمخشري: "...وقرأ الحسن (من الصواقع) وليس بقلب للصواعق

[1]- تأويل مشكل القرآن, ص304.
[2]- التطور الصوتي في الألفاظ لمحمود عكاشة, ص100.
[3]- سورة يونس الآية 05
[4]- الكشاف: 225/2.
[5]- الجامع لأحكام القرآن: 156/4.و إملاء ما من به الرحمن للعكبري, ص320.
[6]- سورة البقرة الآية 19.

لأن كلا البنائين سواء في التصرف، وإذا استويا كان كل واحد بناء على حياله...ونظيره جبذ في جذب ليس بقلبه لاستوائهما في التصرف"[1].

ونقل صاحب الجامع عن النحاس أن الصواقع بتقديم القاف لغة تميم وبعض بني ربيعة[2]. كما ذكر ابن منظور في اللسان أن في لفظ الصواعق ثلاث لغات: صاعقة، وصَعِقة وصاقعة[3].

ومن أمثلة ذلك أيضا كلمة "حِجر" في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُواْ هَـذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ﴾[4]، قال الزمخشري: "وقرأ ابن عباس (حرج) وهو من الضيق"[5]، وهي أيضا قراءة لأبي بن كعب وابن مسعود وابن الزبير والأعمش وعكرمة وعمرو بن دينار كما ذكر ابن جني في المحتسب، ثم يشرح لنا ابن جني المراد بالتضييق في كلام الزمخشري فيقول: "وإنها مع التأمل لها ولين معطف الفكر إليها آيلة إلى موضع واحد ومترامية نحو غرض غير مختلف يقال: ح ج ر، ج ر ح، ح ر ج، رج ح، ج ح ر. وأما ر ح ج فمهمل فيما علمنا، فالتقاء معانيها كلها إلى الشدة والضيق والاجتماع، من ذلك الحِجْر وما تصرف منه، نحو: انحجر، واستحجر الطين، والحُجرة وبقيته، وكله إلى التماسك في الضيق ومنه الحرج: الضيق والحِرْج مثله، والحرجة ما التف من الشجر فلم يمكن دخوله، ومنه الجُحر وبابه لضيقه، ومنه الجَرح لمخالطة الحديد للحم وتلاحمه عليه، ومنه رجح الميزان، لأنه مال أحد شقيه نحو الأرض فقرب منها، وضاق ما كان واسعا بينه وبينها، فإن قلت: فإنه إذا مال أحدهما إلى الأرض فقد بعد الآخر منها، قيل: كلامنا على الراجح، والراجح هو الداني إلى الأرض. فأما الآخر فلا يقال له: راجح فيلزم ما ألزمته. وإذا ثبت ذلك – وقد ثبت- فكذلك قوله تعالى: ﴿حِرْث حِرْج﴾ في معنى حِجر، معناه عندهم أنها ممنوعة محجورة أن يطعمها

[1]- الكشاف: 1/217-218.
[2] - الجامع لأحكام القرآن: 1/ 164.
[3]- ينظر اللسان (صقع, صعق).
[4]- سورة الأنعام الآية 138.
[5]- الكشاف: 2/54.

إلا من يشاءون أن يطعموه أياها بزعمهم[1]. فـ" حِجر" و "حِرج" بمعنى واحد، والفرق بينهما في النقل المكاني لكل من الراء والجيم لا غير.

ومن ذلك أيضا ما ورد في تفسير قوله تعالى:﴿ إِلاَّ مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ ﴾[2]، حيث قال الزمخشري: "...وقرأ الحسن (صالُ الجحيم) بضم اللام؛ وفيه ثلاثة أوجه: أحدهما: أن يكون جمعا وسقوط واوه لالتقاء الساكنين هي ولام التعريف...والثاني: أن يكون أصله صائل على القلب ثم يقال صال في صائل كقولهم شاك في شائك..."[3]. وقال الفراء معلقا علـــى قـــراءة الحسن: "...وإن يكن عرف[4] فيها لغة مقلوبة مثل عاث وعثا فهو صواب. قد قالت العـــرب: جُرُف هارٌ وهارٍ وهو شاكُ السلاح وشاكي السلاح وأنشدني بعضهم:

فلـــو أنـــّي رميتك مـــن بعـــيد *** لعاقك عن دعاء الذئـــب عاقـــي

يريد: عائق، فهذا مما قلب".[5] وشبيه بهذا ما قاله أبو البقاء العكبري تعليقا على قراءة الحسن حيث قال: ""(صالِ) يقرأ شاذا بضم اللام، فيجوز أن يكون جمعا على معنى من، وأن يكون قلب فصار صايلا ثم حذفت الياء فبقي صال"[6].

ومن ذلك أيضا ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾[7] حيـــث قال الزمخشري: "وقرىء(ولا تَقُفُ)، يقال: قفا أثره وقافه ومنه القافه"[8]. ففي "قفا" و "قـــاف" قلب الأول للثاني، ونص ابن منظور على أن (قاف) مثل (قفا)[9].

1- المحتسب: 1/231-232.
2- سورة الصافات الآية 163.
3- الكشاف: 3/356.
4- يقصد الحسن صاحب القراءة.
5- معاني القرآن: 2/394.
6- إملاء ما من به الرحمن, ص504.
7- سورة الإسراء الآية 36.
8- الكشاف: 2/449.
9- لسان العرب: (ف و ق).

وبعد.. فتلك أمثلة القلب المكاني مما ورد في الكشاف وبعض كتب اللغة والتفســير، وهي تفسر بحق وتبرر لنظرية السهولة وقانون التيسير، وقد خلص بعض البــاحثين[1] بعــد حصره لثروة ثرّة من الألفاظ المقلوبة في القرآن وقراءته وفي الشعر والنثر وكلام العامــة والخاصة مما يعد لحنا وغير لحن.. خلص إلى أن التخلص من صعوبة النطق والأداء يلعب دورا رئيسا في شيوع هذه الظاهرة اللغوية الهامة. ونستطيع وفقاً لنظرية السهولة والتيســير أن نعلل لفيض غزير مما عُدّ مقلوبا في لغتنا العربية، وليس بمستنكَر أن مقياس الصـــعوبة هذا يختلف من قبيلة لأخرى أحيانا، ولذلك تطالعنا تميم بـــ"رعملي" و "جبذ" في "لعمـــري" و "جذب"، وغير ذلك من الألفاظ الذي يمكن عدها من باب اللغات. كما يظهر أيضاً أن القلـــب وقع في كثير من الألفاظ الغريبة، وهي مسألة تعززُ كون هذه الظاهرة من وســـائل هجـــر التكلف وقصد التيسير والسهولة في الخطاب الشفوي.

[1]- ينظر ظاهرة القلب المكاني في العربية لعبد الفتاح الحموز, ص 47 وما بعدها.

الفصــل الرابع

الجـوانب التشكيليـة في الكشّـاف

المبحث الأول: الظواهر التشكيلية في الصوائت.

المبحث الثاني: الظواهر التشكيلية في الصوامت.

المبحث الثالث: ظواهر صوتيــة أخرى.

يتناول هذا الفصل التأثير والتأثر بين الأصوات سواء بين الصوائت أو الصوامت، من خلال الوقوف على جوانب التشكيل الصوتي بين الأصوات والذي يرتدّ إلى ذلك التباين والتخالف الموجود بين الأصوات من حيث خصائصها وسماتها التمييزية، ومن ثم فإن هذه الأصوات تميل إلى التماثل والتقارب من أجل تحقيق الانسجام الصوتي والتقليل من حدة التنافر، وهو ما يجعل عملية الأداء تتم بصورة أسهل وأيسر.

إن تناول الجوانب التشكيلية في الأصوات من خلال الكشاف يشمل الحديث عن الجوانب التشكيلية في الصوائت والصوامت، إضافة إلى تغيرات صوتية أخرى مثل الإبدال والقلب اللغويين، وفيما يلي تفصيل ذلك.

المبحث الأول: الظواهر التشكيلية في الصوائت.

تتفاوت القبائل العربية في مسألة الضم والكسر بين مؤثر للضم ومؤثر للكسر، كما تتفاوت تلك القبائل في إيثار الضم على الفتح من جهة أو إيثار الفتح على الضم من جهة أخرى، وكذلك في إيثار الكسر على الفتح أو العكس، غير أنه في العديد من الحالات يمكن تفسير هذا الميل أو ذلك، في ضوء عامل الانسجام بين الأصوات.

مالت القبائل البدوية بوجه عام إلى مقياس اللين الخلفي المسمى بالضم لأنه مظهر من مظاهر الخشونة البدوية، فحيث كسرت القبائل المتحضرة وجدنا القبائل البدوية تضم، والكسر والضم من الناحية الصوتية متشابهان، لأنهما من أصوات اللين الضيقة، ولأجل ذلك تحل إحداهما محل الأخرى في كثير من الظواهر اللغوية، غير أن الكسر دليل التحضر والرقة في معظم البيئات اللغوية[1].

كما أنه لا يقتصر أمر اللهجات على الضم والكسر، بل قد تروى الكلمة بصيغتين تشتمل إحداهما على الضم والأخرى على الفتح، أو إحداهما على الكسر والأخرى على الفتح، وفي مثل هذه الرواية يجب أن نلجأ في تفسيرها إلى ذلك القانون العام أو الظاهرة

[1] - ينظر في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس، ص 81.

العامة التي نسميها بانسجام أصوات اللين في الكلمة الواحدة "Vowel – Harmony "، وهي ظاهرة من ظواهر التطور في حركات الكلمات[1].

فمن أمثلة ما ورد في كتاب الكشاف ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿ إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ﴾[2]، حيث قال الزمخشري:«وقُرِئ غَرفة بالفتح بمعنى المصدر وبالضم بمعنى المغروف»[3]. إن اختيار الفتح هنا ــ حسب ما ذكر الزمخشري ــ اختيار مبنى على قانون الانسجام الشائع في لهجات البدو الذي يظهر فيه انسجام الحركات المشهور عن تميم، لأنهم أهل بداوة ينزعون إلى إحداث هذا الانسجام في أصوات اللين[4].

ومن أمثلة التشكيل الصوتي في الصوائت ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا﴾[5]، حيث ذكر الزمخشري أنها قرئت بالحركات الثلاث[6]، ولا شك في أن من اختار الكسر في الميم مال إلى تحقيق الانسجام الصوتي بين فتحة الميم وفتحة الكاف.

ومن ذلك الفعل « نعم» من قوله تعالي:﴿ سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾[7]، حيث قال الزمخشري:« وقرئ (فَنَعم) بفتح النون والأصل فَنِعْمَ»[8]، والواضح هنا أن التشاكل الصوتي حدث بين كسرة النون وكسرة الميم من أجل إحداث الانسجام الصوتي بينهما، وذكر ابن جني أن (نِعْم) مما ثانيه حرف حلقي وهو على مثل (فَعِل)، ومن ثم فإن للعرب فيه أربع لغات، وذلك نحو فَخِذ ومَحِك ونَغِر، بفتح الأول وكسر الثاني على الأصل، وإن شئت أسكنت الثاني وأقررت الأول على فتحه فقلت: فَخْذ، ومَحْك، ونَغْر، وإن شئت أسكنت ونقلت الكسرة إلى الأول فقلت: فِخْذ، ومِحْك، ونِغْر، وإن شئت أتبعت الكسر الكسر فقلت: فِخِذ، ومِحِك، ونِغِر. وكذلك الفعل نحو ضَحِك، وإن شئت ضَحْك وإن شئت ضِحْك، وأن شئت ضِحِك، فعلى هذا القول: نَعِمَ الرجل وإن شئت نَعْم وإن شئت نِعْم، وإن شئت نِعِم، فعليه جاء ﴿ فَنَعْمَ

---

[1]- ينظر في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس، ص 86.
[2] - سورة البقرة الآية 249.
[3] - الكشاف: 381/1.
[4] - ينظر أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي لعبد الصبور شاهين، ص 313.
[5] - سورة طه الآية 87.
[6] - الكشاف: 550/2.
[7] - سورة الرعد الآية: 24.
[8] - الكشاف : 358/2.

عُقْبَى الدار﴾...وروينا عن قطرب: نعيم الرجل زيد، بإشباع كسرة العين وإنشاء ياء بعدها كالمطافيل والمساجيد[1].

وإشارة ابن جني إلى إتباع الكسر الكسر في قوله السابق في: فِخِذ ومِحِك ونِغِر هو من قبيل التشاكل بين حركتي الكسرة في تلك الأبنية.

و(نعم) كما ذكر ابن منظور أن فيه أربع لغات هي:[2].

أ- نَعِم: بفتح أوله و كسر ثانيه.

ب- نِعِم: بكسر النون إتباعاً لكسرة العين.

ت- نِعْم: بكسر النون وإسكان العين تخفيفاً.

ث- نَعْم: بفتح النون وإسكان العين تخفيفاً.

وقد تقدم أن ابن جني في المحتسب عَد(فَعِل) ــ وهي الصيغة الأولى ــ هي الأصل كَعَلِمَ[3]، ويستفاد من ذلك أن كتب اللغة والنحو والصرف تشير إلى أن الأصل هو هذا الذي ذكره ابن جني، ولم يرد عنها ما يكون على (فَعَل) بفتح الفاء مع فتح العين أو كسرها أو ضمها، فتعين أن يكون فتح الفاء مع كسر العين هو الصيغة الأصلية.

وأما الصيغة الثانية بكسر النون والعين(نِعِم) فهـــي متفرعة عـــن الصيغة الأولى الأصلية، وهذه الفرعية هي خاصة بما هو حلقي العين قال سيبويه في باب الحروف الستــة (أي الحلقية) إذا كان واحد منها عينا وكانت الفاء قبلها مفتوحة، وكان فَعِلاً قال:«...إذا كانت كذلك كسرت الفاء في لغة تميم، وذلك قولك:...لِعِب وضِحِك، ونِغِل، ووخم، فيما كان على فَعِل إذا كان صفة أو فعلاً أو اسماً.. فكسرت ما قبل العين حيث لزمها الكسر، وكان ذلك

[1] - المحتسب لابن جني : 356/1، 357.
[2] - ينظر لسان العرب: 534/7، وما بعدها (ن ع م).
[3] - ينظر المحتسب: 356/1.

أخف عليهم.. فأرادوا أن يكون العمل من وجه واحد، كما أنهم إذا أدغموا فإنما أرادوا أن يرفعوا ألسنتهم من وضع واحد... وأما أهل الحجاز فيجرون جميع هذا على القياس»[1].

وإذا كان المتقدمون قد سجلوا أن التشاكل وقع بين الفتحة وما كان عينهُ أو لامه من حروف الحلق(الهمزة، هـ،ع، ح، غ، خ)، عند القدماء، نحو: سأل، يسأل، قرأ يقرأ، سعر يسعر، وقرع يقرع، وسحل يسحل، وسَبَح يسبَح. وعللوا ذلك بأن العرب ضارعوا بفتحة العين في المضارع جنس حرف الحلق لما كان موضعاً منه مخرج الألف التي منها الفتحة[2]، إذا كانوا قد لاحظوا ذلك فإنهم أيضاً قد لا حظوا تعطل هــذه الظاهرة لدى بعض قبائل العرب كتميم التي تكسر النون من (نَعِم) فتصير (نِعِم) بكسرتين كما قالوا: لئيم وشهيد ونحيف ورغيف[3].

فإذن قبيلة تميم تؤثر الكسرة في النون على سبيل الإتباع لكسرة العين، وهذا النوع من المشاكلة يعني تأثر حركة النون بحركة العين بعدها فتحولت الفتحة إلى الكسرة وهو تأثر رجعي. فالكسرة في العين أقوى بحكم تكوينها الصوتي في مقدم الفم، مع ضيق في الآلة المصوتة الأمر الذي يجعل النفس معها أقوى اندفاعاً. وأما الفتحة فهي على خلاف ذلك لأنها تتكون في وسط الفم والآلة المصوتة معها تكون في حال اتساع.

وعلى الرغم من إشارة الزمخشري في نصه السابق إلى أن الأصل في صيغة(نَعْمَ)، بفتح النون ــ هو (نِعْمَ)، إلا أنه في المفصل ذكر أن الأصل في (نِعْمَ) هو (نَعِمَ) بفتح النون وكسر العين حيث قال:«..نِعْم وبئس وضعا للمدح والذم، وفيهما أربع لغات: فَعِلَ بوزن حَمِدِ وهو أصلهما...»[4]، وهو بهذا يوافق ابن جني وغيره من اللغويين في اعتبار أن الأصل في هذه الصيغة هو نَعِمَ بوزن حَمِد.

ويبدو أن الزمخشري إنما عد (نِعْم) هي الأصل في معرض تفسيره للآية السابقة بسبب شيوعها في الفصحى؛ فكتب اللغة والنحو والصرف عندما عرضت لصيغتي المدح

[1]- الكتاب: 107/4 ، 108 (بتصرف)
[2] - الخصائص: 1/ 497.
[3] - ينظر لهجة قبيلة تميم وأثرها في الجزيرة العربية لغالب فاضل المطلبي، ص 163.
[4] - المفصل للزمخشري، ص، 272،273.

والذم القياسيتين آثرت هذه الصيغة المكسورة الأول الساكنة الوسط في عنوان الباب(باب نعم وبئس)، كما أن الأمثلة الموضحة لأحوال هذا الفعل واستعمالاته تكاد تستأثر بها تلك الصيغة. أما بقية الصيغ ــ ومنها الأصلية حسب ما ذكره الزمخشري في المفصل ــ فلم تذكر إلا للتنبيه على أنها كانت موجودة في اللغة المحفوظة عن العرب.

ولعل ما يشهد أيضاً على كثرة شيوع هذه الصيغة أيضاً كثرة القراء الذين قرأوا بها؛ فقد قرأ المدنيان إلا ورشا، وأبو عمرو، وأبو بكر قوله تعالى:﴿ نِعِمَا هي﴾[1]، وكذلك قوله تعالى:﴿ نِعِمّا يَعِظُكُمْ بهِ﴾[2]، قرؤوا صيغة (نِعْما) بكسر النون وسكون العين[3]، كما أن ما يدل على كثرة استعمالها أن المراجع العربية ــ على كثرتها ــ لا تنسب هذه الصيغة إلى قبيلة أو جهة بعينها، وإنما ترد في تلك المراجع من غير عزو، ما يدل على دورانها على ألسنة العرب بوصفها واحدة من الصيغ المستعملة والمقبولة، ربما لخفتها وسهولة نطقها في الفصحى وحتى في اللهجات المحكية.

ومن أمثلة المشاكلة الصوتية في شواهد الزمخشري ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ اذْهَبْ أَنتَ وَأَخُوكَ بِآيَاتِي وَلا تَنِيَا فِي ذِكْرِي﴾[4]، حيث قال الزمخشري« وقرئ (تِنيا) بكسر حرف المضارعة للإتباع»[5]. ويتضح من ذلك أن المشاكلة حدثت بين فتحة التاء وكسرة النون فتحولت بموجبها فتحة التاء إلى كسرة لإحداث الانسجام الصوتي؛ فالكسرة صائت قصير، وهي أثقل من الفتحة وأخف من الضمة، ومعلوم في العربية أن حرف المضارعة يحرك بالفتحة إلا إذا كان الماضي رباعياً فإنه يضم، غير أن بعض القبائل كانت تجنح إلى تحريك حرف المضارعة بالكسرة دائماً[6].

---

1 - سورة البقرة الآية 271.
2 - سورة النساء الآية 58.
3 - ينظر الكنز في القراءات العشر لا بن الوجيه الو اسطي ص 137، وينظر أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي لعبد الصبور شاهين ص 398.
4 - سورة طه الآية 42.
5 - الكشاف: 538/2.
6 - ينظر اللهجات العربية في القراءات القرآنية لعبده ألراجحي، ص 135.

ومثل الشاهد السابق ما جاء في المحتسب لابن جني حين علق على قوله تعـالى:﴿ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[1]، قال ابن جني:« هذه لغة تميم، أن تكسر أول مضارع ما ثاني ماضيه مكسور نحو، علمت، تِعلم، وأنا إعلم وهي تِعلم، ونحن نِركب، وثقل الكسرة في الياء، نحو يعَلم، ويركب استثقالاً للكسرة في الياء، وكذلك ما في أول ماضيه همزة وصل مكسورة نحو: تِنطلق، وَيومَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ[2]، فكذلك (فتِمسكم النار)»[3].

وقد ذهب بعض[4] الدارسين إلى أن تفسير مثل هذه المشاكلة في الحركات، خاصة تلك تلك التي يكون فيها التأثير من الثاني على الأول أي التأثير الرجعي..ذهب إلى تفسيره بأن الإسراع بالحركات في النطق هو ما يسبب هذه الظاهرة ويبررها من الناحية النفسية العضوية. وهذه الإسراع هو واحد من خصائص النطق عند قبائل البادية، وتميم هي واحدة من هذه القبائل التي آثرت كسر أول المضارع لإحداث الانسجام بينه وبين ما يليه، لأن ذلك هو ما يناسب الإسراع في الأداء، وكأن العلة في الانسجام عندهم أن اللسان يعمل في الحرفين عملاً واحداً، فلهجة البدو متطورة وفي تطورها تجنح إلى الانسجام بينما نجد القبائل المتحضرة كالحجاز ومن سار سيرها قد بالغوا مبالغة شديدة في عدم تقريب الحركات بعضها من بعض، لأن لهجاتهم محافظة وعوامل التطور عندهم ليست لها نفس المبررات التي لدى البدويين، يضاف إلى ذلك أن الطابع العام لمناطق الحضر هو الاستقرار والدعة وهو ما ينعكس على أدائهم المتأني لأصوات اللغة وحركاتها.

ومن الشواهد على المشاكلة بين الحركات في الكشاف ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴾[5]، حيث ذكر الزمخشري أن زر بن حبيش قرأ (نِستعين) بكسر النون[6]، وفي هذا الشاهد نلحظ كيف أن الفتحة تقدمت في الموضع عن الكسرة الطويلة(الياء المدية) ولكنها لم تقوَ على التأثير فيها، وأن الذي حدث هو العكس حيث أثرت

---

[1] - سورة هود الآية 113.
[2] - من قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ ﴾ سورة آل عمران الآية 106.
[3] المحتسب: 330/01.
[4] - ينظر أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي، ص 232.
[5] - سورة الفاتحة الآية .5.
[6] - ينظر الكشاف:66/1، قال العكبري:« أصلها نستعون نستفعل من العون فاستثقلت الكسرة على الواو فنقلت إلى العين ثم قلبت ياء لسكونها وانكسار وانكسار ما قبلها»[الإملاء، ص 137.].

الكسرة المتأخرة على الفتحة فجذبتها إليها، لأن الكسرة أقوى بحكم التكوين والتشكّل في الجهاز النطقي من الفتحة[1].

وعلى صعيد من كان من قبائل العربية يكسر حرف المضارعة أو يفتحه فإن بعض الباحثين يقسمون ــ إزاء هذا الموضوع ــ قبائل العربية قسمين؛ فحروف المضارعة تفتح في لهجات الحجاز مع بعض أعجاز هوازن، وأزد السراه، وبعض هُذيل بينما كانت لهجات قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب تكسر حروف المضارعة...ولا تقتصر كسر حروف المضارعة على بعض لهجات العرب بل حتى في لغات سامية مثل العبرية والآرامية الغربية و الأوغاريتية وفي لهجات قضاعة التي تقع على تخوم الكنعانية.[2]

وأما من حيث أصالة الفتح أو الكسر في أوائل حروف المضارعة في العربية فقد ساق بعض الباحثين أدلة تفيد ــ في نظره ــ بأصالة الكسر في العربية القديمة بدليل عدم وجوده في اللغات السامية الأخرى غير العبرية والسريانية والحبشية، وبدليل ما بقي من الكسرة في بعض اللهجات العربية القديمة[3]. وبالمقابل فإن فتح أوائل الأفعال المضارعة ربما هو الحالة المتطورة على ألسنة بعض العرب وهم أهل الحجاز ومن وافقهم، وأما بقية العرب ممن يكسرون فقد حافظوا على الصورة الأصل..فالتلتلة ــ كسر أوائل حرف المضارعة ــ قد تكون هي الأصل، وفتح أوائل الأفعال المضارعة هو الحالة المتطورة التي أنزل بها القرآن الكريم[4].

وبالرغم من أن فتح أوائل حروف المضارعة ظاهرة متطورة وهي السمة الأصلية لنطق الفصحى إلا أن بعض المصادر اللغوية تشير إلى أن التلتلة معروفة في الفصحى ويستشهدون لذلك بالفعل"إخال" الذي يعزى إلى قبيلة أسد بوصفها القبيلة الوحيدة التي

1 - ينظر الحركات في اللغة العربية لزيد خليل القرالة، ص 18.
2 - اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية لشام رابين، ص 137/136.
3 - ينظر فصول في فقه العربية لرمضان عبد التواب، ص 125.
4 - ينظر محاضرات في فقه اللغة لعصام نور الدين،ص128.

استعملت تلك الصيغة، الأمر الذي جعل بعض الباحثين يرى أنه من المحتمل أن لا يكون "إخال" من قبيل التلتلة، بل إن لها أصلاً آخر[1].

ومن شواهد التشكيل الصوتي في الصوائت ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ﴾[2]، قال الزمخشري« وقرأ يحي بن وثاب (إلى النَّحَل) بفتحتين»[3]، وقال القرطبي:« وسمي نحلاً لأن الله عز وجل نحله العسل الذي يخرج منه، قال الزجاج الجوهري: والنحل والنحلة الدّبر يقع على الذكر والأنثى، حتى يقال يعسوب والنحل يؤنث في لغة أهل الحجاز»[4]، ويؤخذ من ذلك أن صيغة (النحل) في اللغة تكون على (فَعْل) و(فَعَل) بسكون العين وفتحها والمعنى واحد.

ويمكننا هنا أن نجرى مقارنة بين السكون والحركة وأيهما أخف من الأخر، ولئن كانت للحركات وظيفة في النظام الصائتي من منطلق أن لها وجودا في التركيب اللغوي، فإن الحديث عن وظيفة السكون من عدمها محل خلاف بين الباحثين، ويمكن في هذا الموضع أن نورد ما عدّه أحد الباحثين المعاصرين خصائص للسكون في النظام الصائتي العربي، وهذه الخصائص هي[5].

1) إن الحرف قد يتبع بفتحة أو ضمة أو كسرة أو سكون (لاشيء)، فالسكون في هذه الحالة يميز الحرف المتحرك عن الحرف اللامتحرك.

2) للسكون وظيفة في التركيب المقطعي في اللغة العربية، فهو يميز بين المقطع المغلق CVC والمقطع المفتوحCV.

3) له وظيفة موسيقية عبّر عنها في باب الوقف.

1 - ينظر اللهجات العربية القديمة لشام رابين، ص 137.
2 - سورة النحل الآية 68.
3 - الكشاف : 417/2.
4 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 84/5.
5 - مقال:« السكون في اللغة العربية، للدكتور كمال بشر، مجلة مجمع اللغة العربية، 1969 نقلاً عن حركات العربية لعبد الحميد زاهيد، المطبعة الوطنية مراكش ط1، 2005،ص 171.

ويضيف هذا الباحث أن السكون يعدّ حركة من زاوية القيمة والوظيفة لا من زاوية النطق ..فهو حركة سالبة نطقاً إيجابية قيمة ووظيفة، إنه يتبادل المواقع والوظائف مع الحركات المعروفة، له دور في بناء الصيغ، وله دور مهم في الإعراب، ففي الصيغ هناك فعل(بفتح العين أو كسرها أو ضمها) و(فَعْل) بسكونها ــ كما في شاهد(النحْل) ــ كما أن الكلمات بعضها مبني على الضم أو الكسر أو الفتح وبعضها مبني على السكون[1] .

كما يرى ذات الباحث أن السكون يعد فونيماً فوق مقطعي والفونيمات فوق المقطعية لا يمكن عزلها، وهذا ينطبق أيضاً على السكون لأنه لا يتحقق وجوده إلا بوجود التركيب نفسه، وليس جزءاً من مكونات هذا التركيب الأساسية[2].

ومن هذا العرض نخرج بملحوظة مفادها أن المقابلة بين السكون والحركة في تركيب بعض صيغ العربية واستعمالاتها، أمر واضح عند علماء العربية، فقد سجلوا في مناقشاتهم أن العرب جعلوا السكون أصلاً فيما جاء في عينه الحركة والسكون كلفظة (النحل) السابقة والسبب هو أن الألفاظ التي جاءت على(فَعْل) بسكــون العين أكثر بكثير مما جاء علــى(فَعَل) بفتح العين، ولأجل ذلك كان العدول عن أخف الأبنية إلى ما دونه في الخفة. إن ما يبرر من الناحية الصوتية اللجوء إلى المشاكلة الصوتية بين فتحة الحاء وفتحة النون بتأثير من فتحة النون هو أن الفتحة من الناحية الصوتية أقوى من السكون لكونها ذات وظيفة ايجابية بعكس السكون الذي يمكن عده حركة ذات وظيفة سالبة أي أنه غير منطوق وهذه هي السلبية في وظيفته، بينما الحركة منطوقة وهذه هي الايجابية في وظيفتها[3].

ويضاف إلى ما يمكن عده مبرراً صوتياً لهذا التشاكل موقعية الفتحة المتقدمة عن السكون وهو أمر يجعل من الفتحة أقوى من الناحية الصوتية وأقدر على التأثير في السكون الموالى لها فتحدث المشاكلة.

---

1 - علم الأصوات لكمال بشر، ص 456، 457.

2 - نفســه، ص 172.

3 - ينظر أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي لعبد الصبور شاهين، ص 377.

ولعل مما يمكن ذكره هنا أن هذه المشاكلة بين حركة الفاء وحركة العين في صيغة (فَعْل) تطّرد حتى في تلك الشواهد العربية مما كانت العين فيها حرفاً من حروف الحلق قال ابن جني:« مذهب أصحابنا في كل شيء من هذا النحو مما فيه حرف حلقي ساكن بعد حرف مفتوح أنه لا يحرك إلا على أنه لغة فيه، كالزهْرة والزهَرة، والنهْر والنهَر، والشعْر والشعَر، فهذه لغات عندهم: كالنشْز والنشَز، والحلْب و الحلَب والطرْدُ والطرَد »[1].

فمذهب البغداديين، ومنهم ابن جني، أن تحريك العين من (فَعْل) هو من باب تعدد اللغات أو اللهجـــات لا غير، وهـــذا يعني أنهم لا يعترفون إلا بسكون العين أصلاً في هذه الصيغ، وما عداها لغة أو تنوع صوتي بالمصطلح المعاصر. وأما مذهب الكوفيين، بحسب ما نقله عنهم ابن جني نفسه، فهو أنهم يحركون الثاني لعلة كونه حرفاً حلقياً فيجيزون« فيه الفتح وإن لم يسمعوه، كالبَحْر والبَحَر، والصَخْر والصَخَر»[2]، وأضاف ابن جني معلقاً على ذلك بقولهِ:« وما أرى القول من بعد إلا معهم والحق إلا في أيديهم»[3].

إن التفسير الصوتي لمشاكلة الفتحة لحروف الحلق في الأمثلة السابقة يمكن النظر إليه من زاوية وضع اللسان والشفتين عند بناء حروف الحلق؛ فبناء هذه الأخيرة يتشابه من حيث وضع اللسان والشفتين مع ما يتطلبه نطق الفتحة، وربما هذا هو الأمر الذي عناه إبراهيم أنيس حين تحدث عن عوامل صوتية في بنية الفعل دعَت إلى فتح عين(يفعَل)، وذكر أن حروف الحلق في كل اللغات السامية تؤثر الفتحة على أخواتها، وقد فطن علماء العربية إلى هذا الميل وأقرهم على ذلك المستشرقون من علماء اللغة حديثاً[4].

إن ميل أصوات الحلق إلى الفتحة يظهر بوضوح في اللغة العبرية والسر وراءه هو أن كل أصوات الحلق بعد صدورها من مخرجها تحتاج إلى اتساع في مجراها في الفم،

---

1 - المحتسب: 1/ 84.
2 - نفســه: 1/ 84.
3 - المحتسب: 84/1، أقول: « يدل هذا على تأييده المطلق لمذهب الكوفيين، وقد ساق شواهد ترجح مذهبهم، وهذا إن دل فإنما يدل على شخصية ابن جني المتجردة التي تنقاد إلى الدليل وتترفع عن المذهبية فلله درّه».
4 - في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس: ص 148.

وليس هناك من يعوق هذا المجرى في زوايا الفم ولهذا فإن ما يناسبها من الصوائت هو أكثرها اتساعاً، وهي الفتحة[1].

وبالعودة إلى الشاهد السابق فقد ذكر الزمخشري أن كلمة (بُيُوتاً) قرئت بكسر الباء لأجل الياء[2]، وفي هذا مشاكلة واضحة بين الكسرة (الحركة القصيرة) وبين الياء (الساكنة) وهي من جنس الكسرة، لأن موضعها في آلة التصويت أو بعبارة أخرى وضع اللسان معها يكاد يكون شبيها بوضعه مع الكسرة فعندما يرفع الإنسان لسانه إلى الأعلى قدر المستطاع، ويدفعه إلى الأمام قدر الإمكان دون أن يضيق المجرى الهوائي بحيث لا يسبب إحداث حفيف ما، ويبسط شفتيه في الوقت نفسه فإنه يصدر صوت(i) أو صوت (آ)، وهما يقابلان: الكسرة أي الصائت القصير، وياء المد (لياء الساكنة المكسور ما قبلها). أما إذا ارتفع اللسان وضيق المجري الهوائي فإن الصوت يتجاوز منطقة الصوائت إلى الصوامت فينطق بالياء أي الصوت الشبيه بالصائت في العربية أو نصف الصائت[3].

وقولنا بأن الياء الساكنة من جنس الكسرة مرده إلى أن الياء الساكنة مع الواو الساكنة تسميان أو يطلق عليهما مصطلح "أشباه الصوائت"، وحين النطق بالياء الساكنة يسمع لها حفيف سببه ضيق ما بين اللسان ووسط الحنك[4].

ومن شواهد المشاكلة في تفسير الكشاف قوله تعالى: ﴿ فَقُلْنَا اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْناً﴾[5]، حيث قال بشأن ذلك الزمخشري:« وقُرِئ (عشِرة) بكسر الشين وبفتحها»[6]، ومثل الشاهد السابق شاهد قوله تعالى:﴿ وَقَطَّعْنَاهُمُ اثْنَتَيْ عَشْرَةَ أَسْبَاطًا﴾[7]، حيث ذكر الزمخشري قراءة كسر الشين في هذه الآية دون عزو[8]، وواضح في

[1] - في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس، ص 148.
[2] - ينظر الكشاف:417/2.
[3] - ينظر مبادئ اللسانيات لأحمد محمد قدور، ص 89.
[4] - ينظر أصوات اللغة العربية لعبد الغفار حامد هلال، ص 119.
[5] - سورة البقرة الآية 60.
[6] - الكشاف : 1/ 284.
[7] - سورة الأعراف الآية 160
[8] - الكشاف : 2/ 124.

الشاهدين أن المشاكلة تمت بين حركة الشين وحركة الراء، أي سكون الشين ــ وهو أصل في هذا التركيب ــ تحول إلى فتحة من أجل مشاكلة الفتحة الموالية لها.

وحول أصلية السكون، فإن علماء العربية ينسبونه إلى أهل الحجاز ــ كما أشرنا ــ قال ابن جني:« أما (عشِرة) بكسر الشين فتميمية، وأما إسكانها فحجازية»[1]. غير أن ابن جني عقب على ذلك بقوله:«..اعلم أن هذا موضع طريف، وذلك أن المشهور عن الحجازيين تحريك الثاني من الثلاثي إذا كان مضموماً أو مكسوراً، نحو الرسُل، الطُّب، والكبِد، والفخِذ، ونحو: ظَرُف، وشرُف، وعَلِم وقدِم، وأما بنو تميم فيسكنون الثاني من هذا ونحوه، فيقولون: رُسْل وكتْب وكبْد وفخْذ، وقد ظَرف وقد عَلمَ، لكن القبيلتين جميعاً فارقتا في هذا الموضع من العدد معتاد لغتهما، وأخذت كل واحدة منهما لغة صاحبتها، وتركت مألوف اللغة السائرة عنها فقال أهل الحجاز: اثنتا عشْرة بالإسكان، والتميميون عشِرة بالكسر»[2].

وقال سيبويه:«.. وإن جاوز المؤنث العشر فزاد واحداً قلت: إحدى عَشَرة بلغة بني تميم، كأنما قلت إحدى نبقة، وبلغة أهل الحجاز إحدى عَشْرة، كأنما قلت إحدى تمرة»[3].

وذهب الأزهري أبعد من ذلك حين نفى ورود الفتح في التركيب(عَشْر) ــ وهو ممن يدعم القول بأصليه السكون ــ حيث نقل عنه ابن منظور قوله:« وأهل اللغة والنحو لا يعرفون فتح الشين في هذا الموضع.. وقد قرأ القراء بفتح الشين وكسرها، وأهل اللغة لا يعرفونه»[4].

ولعل الذي يقصد إليه الأزهري ليس نفي ورود فتح الشين في المركب العددي للمؤنث بالمطلق، وإنما نفي شيوعه وانتشاره، وعبارة « وأهل اللغة لا يعرفونه» أي ليس مشتهراً معروفاً بينهم، وإنما هو من قبيل الشاذ النادر، وإن كانوا لا يردونه لأن اللغة تثبت بالقراءة الشاذة كما تثبت بالقراءة المشهورة.

---

1 - المحتسب: 1/ 261.
2 - نفسه: 261/1، 262.
3 - الكتاب لسيبويه: 3/ 557.
4 - لسان العرب :3/ 529(ع ش ر).

وذكر بعض الباحثين المحدثين أن المقارنة مع بقية اللغات السامية في لفظ (عشرة) أثبتت أن اللفظ في اللغة السامية الأم لم يكن فيه حركة بعد العين، ومعنى هذا أن لهجة الحجاز على الأصل[1]، ويمكن تفسير عشِرة بكسر الشين التي هي لفظ تميم على أنها من قبيل اجتلاب الحركة وهو ما يسمي بالتفخيم[2]، لدى بعض الدارسين .

ويبدو أن الأدلة والنقول حول أصلية السكون في هذه الصيغة متكاثرة، الأمر الذي يجعلنا نذهب إلى أن الأصل في لفظ(عشرة) هو بالسكون وليس بالحركة، ويؤيد ذلك طبيعة نطق السكون التي تتسم بالخفة مقارنة بصيغ التحريك(بالكسر أو الفتح)، وأمر آخر هو شيوع هذه الصيغة (صيغة الإسكان) أكثر من أخواتها ومن ثم فالتحول من السكون إلى الفتح في الشين يمكن اعتباره مشاكلة صوتية غايتها الانسجام بين حركة الشين وحركة العين، وبما أن السكون وحدة في النظام الصوتي للغة العربية يقف في مقابل الحركة سواء أكانت فتحة أم كسرة أم ضمة، فمعنى هذا أن بينهما قيمة خلافية تسوغ لأحدهما(السكون والحركات الثلاث) تبادل المواقع مع الآخر في الصيغ[3].

وأما (عَشِرة) بكسر الشين فيمكن تفسيره على أنه في الاتجاه المعاكس للفظ (عَشَرة) بالفتح، ومعنى ذلك أنه حصل له تغير صوتي بالمخالفة بدلاً من المشاكلة، أي مخالفة حركة الشين (الفتحة) لحركة العين (الفتحة) بتحولها (حركة الشين)، إلى كسرة.

والمخالفة ظاهرة صوتية تحدث« إذا تتابعت حروف شبيهة بعضها ببعض، لأن النفس يوجد فيها قبل النطق بكلمة، تصورات الحركات اللازمة على ترتيبها، ويصعب عليها إعادة تصور بعينة بعد حصوله بمدة قصيرة»[4]، ومن ثم فإن الجهاز النطقي وبما تفرضه

---

[1] - ينظر اللهجات العربية في التراث لأحمد علم الدين الجندي: 1/ 248.

[2] - التفخيم في هذا الموضع يعني التحريك أي تحريك أوساط الكلم بالضم والكسر دون الإسكان وهـذا المصطلح (التفخيم) من وضـع شـام رابين (ينظر كتابه اللهجات العربية القديمة ، ص 197).

[3] - ينظر اللغة العربية معناها ومبناها لتمام حسان ص 295.

[4] - التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر ص 34.

ضرورات السياق الكلامي، يميل إلى تجنب النطق بمجموعة مصوتات متحدة الطابع متواصلة سعياً إلى التقليل من صور التشاكل[1].

ومن صور المشاكلة الصوتية ما ورد في صيغة(فعْل)، وشواهدها ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ قَالَ لا تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلا تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْرًا﴾[2]، وكـذلك قـوله تعالى:﴿ وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاء الْحُسْنَى وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾[3]، وأيضاً قوله تعالى:﴿ قَالَ رَبِّ اجْعَل لِّيَ آيَةً قَالَ آيَتُكَ أَلاَّ تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلاَثَةَ أَيَّامٍ إِلاَّ رَمْزًا﴾[4].

وقد ذكر[5] الزمخشري أن كلمتي(عُسْراً) و(يُسْراً) فقرأ بضمتين من غير أن ينسب القراءة إلى أحد، بينما قال بشأن كلمة(رَمْزاً):« وقرأ يحي بن وثاب(إلا رُمُزاً) بضمتين جمع رموز كرسول ورسُل، وقرأ (رَمَزا) بفتحتين جمع رامز كخادم وخدَم»[6].

ويبدو من خـلال ما تناقلتـه بعض كتب التفسيـر أن الأصـل في الكلمتين السابقتين (عُسْراً) و(يُسْراً) هو السكون في السين بدليل أن الكلمات على شاكلتها وصفت بأنها من اختيار قراءة الجمهور مثل ما ذكره القرطبي حول لفظ (عُذْراً) من قوله تعالى:﴿ قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْرًا﴾[7]، حيث قال:« وقرأ الجمهور(عُذْراً)، وقرأ عيسى عُذُراً»[8]، وإذا ثبت هذا فمعناه أن قراءة(عُسُراً) و (يُسُراً) كما أشار الزمخشري، و(عُذُراً) كما ذكر القرطبي.. هي من قبيل المشاكلة الصوتية التي حدثت بين الضمة في فاء (فُعْل) والسكون الذي يليها فتحول إلى ضمة من أجل تحقيق الانسجام الصوتي. ويظهر أن هذه المشاكلة لم تكن مقتصرة على قراءات القرآن فقط، وإنما جاءت شواهد في العربية تشهد على وقوعها في كلام العرب من مثل ما ذكره ابن منظور في اللسان من إنشاد ابن الأعرابي والشاهد هو:

أبي تذكّرُنيه كل نائبة *** والخير والشر والإيسار والعُسُر

[1] - العربية الفصحى ـ نحو بناء لغوي جديد ـ لهنري فليش، ص 48.
[2] - سورة الكهف الآية 73.
[3] - سورة الكهف الآية 88.
[4] - سورة آل عمران الآية 41.
[5] - الكشاف: 2/ 493 وأيضاً: 498/2.
[6] - الكشاف : 429/1.
[7] - سورة الكهف الآية 76.
[8] - الجامع لأحكام القرآن: 5/ 274.

قال ابن منظور معقباً على الشاهد:« ويجوز أن يكون العُسُر لغة في العُسْر، كما قالوا: القُفُل في القُفل والقُبُل في القُبْل ويجوز أن يكون احتاج فثقّل، وحسّن له ذلك إتباع الضم الضم»[1].

وأما في الكلمة الثالثة (رُمُزا) بضمتين والتي نسبها الزمخشري إلى يحي بن وثاب فإن المشاكلة الصوتية تمت بين ضمة الراء وسكون الميم، لأن سكون الميم أصل على ما ذكرنا سابقاً وبينا، فيما هو على مثال (فُعْل) من الكلمات.

على أن الزمخشري ذكر أيضاً أن القراءة[2]، جاءت أيضاً بلفظ (رَمَزاً) بفتحتين، فتحة الراء وفتحة الميم، وهنا لا بد من افتراض أن التشاكل تمّ بين فتحة الراء وسكون الميم، فتحول السكون بموجب عامل الانسجام الصوتي إلى فتحة من أجل مشاكلة الفتحتين لبعضهما لتيسير الجهد المبذول في الأداء.

هذا وقد نص العكبري[3]، على أن قراءة الجمهور هي بفتح الراء وإسكان الميم وعلى هذا فإن تحريك الميم بالفتح تطور صوتي للصيغة الأصل (فَعْل) بالفتح (أي فتح الفاء)، وليس لصيغة (فُعْل) كما رأينا مع أختيها السابقتين (عُسْراً) و(يُسْراً).

إن هذا النوع من المشاكلة في صيغة (فُعْل) له شواهد عديدة في القرأءات القرآنية وخاصة الشاذة منها، وقد أورد الزمخشري كثيراً منها نذكر من ذلك قوله تعالى:﴿ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾، [سورة البقرة الآية185]، وقوله أيضا ﴿ فَإِنْ آنَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا﴾،[سورة النساء ألآية 06]، وقوله:﴿ الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ ﴾ [سورة النساء الآية 37]، وقوله تعالى:﴿ قَالَ لَوْ أَنَّ لِي بِكُمْ قُوَّةً أَوْ آوِي إِلَى رُكْنٍ شَدِيدٍ ﴾ [سورة هود الآية 80]، وقوله تعالى:﴿ أَصَابَهُمْ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ الصُّبْحُ أَلَيْسَ الصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴾ [سورة هود الآية 81]، وقوله تعالى:﴿ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [سورة الكهف الآية 66]، وقوله تعالى:﴿ عُسْرًا ـــ نُكْرًا ﴾ [سورة الكهف الآيتين 73- 74]، وقوله تعالى:﴿ بِنُصبِ وَ عَذَابٍ﴾

[1] - لسان العرب: 3/ 524 (ع ش ر) وأيضا: 857/3 (ي س ر).
[2] - ينظر أيضاً الجامع لأحكام القرآن : 53/2.
[3] - ينظر إملاء ما من به الرحمان، ص 140.

[سورة ص الآية 41]، وقوله تعالى:﴿ عَلَى رَفْرَفٍ خُضْرٍ﴾ [سورة الرحمان الآية 76]، وقوله تعالى:﴿ و المُرسْلاتِ عُرْفاً﴾ [سورة المرسلات الآية 01]، وقوله تعالى:﴿ إِنَّهَا تَرْمِي بِشَرَرٍ كَالقَصْرِ﴾ [سورة المرسلات الآية 32]، وهذه الأمثلة تشتمل على مشاكلة الضمة للضمة أو الفتحة للفتحة حيث عبر عن ذلك الزمخشري[1]، بقوله: « بضمتين أو بفتحتين».

ومن الشواهد الواردة في الكشاف للمشاكلة الصوتية بين الحركات ما ورد في تفسير قوله تعالى:﴿ والمُحْصَنَاتِ من النَسَاءِ﴾[2]، حيث قال الزمخشري:« القراءة بفتح الصاد، وعن طلحة بن مصرف أنه قرأ بكسر الصاد»[3]، قال ابن منظور:« المحصنة: التي أحصنت زوجها وهن المحصنات..والمحصنات العفائف من النساء، وروى الأزهري عن ابن الأعرابي أنه قال: كلام العرب كله على أفعَل، فهو مُفْعِل إلا ثلاثة أحرف: أحصن فهو مُحصَن وألفج فهو مُلْفَج وأسهب في كلامه فهو مسهب وزاد ابن سيدة: أَسْهَمَ فهو مُسهَم .. والمرأة تكون محصنة بالإسلام والعفاف والحرية والتزويج يقال: أحصنت المرأة فهي محصَنة ومحصِنة، وكذلك الرجل، والمحصنة بالفتح: يكون بمعنى الفاعل والمفعول .. وقال أبو عبيد: أجمع القراء على نصب الصاد في الحرف الأول من النساء، فلم يختلوا في فتح هذه لأن تأويلها ذوات الأزواج يُسْبَيْنْ فيُحلُهُنَ السباء لمن وطئها من المالكين لها، وتنقطع العصمة بينهن وبين أزواجهن بأن يحضن حيضه ويطهرن منها »[4].

والحق أن المشاكلة الصوتية بين حركة الميم وحركة الصاد في الشاهد السابق حدثت بين الضمة والكسرة (ضمة الميم وكسرة الصاد)، لأن الأصل في الكلمة هو بفتح الصاد، كما ورد في كلام أبي عبيد الذي نقله عنه ابن منظور. وأما كيف يمكن تفسير هذا التشاكل من الناحية الصوتية فإن كلا من الضمة والكسرة قريبتان من بعضهما من حيث الطبيعة الصوتية الأدائية؛ فكل منهما حركة ضيقة ومغلقة وهما بهذه الصفة تقابلان الفتحة الواسعة، ومعنى ذلك أن الآلة المصوتة مع كل من الكسرة والضمة تكون أقل انفتاحا منها مع الفتحة، وهما

[1] - ينظر في ذلك الكشاف: 1/ 336 و 1/ 502 و 1/ 526 و 284/2 و 492/2 و 2/ 493 و376/3 و50/4 و202/4 و 204/4 على هذا الترتيب، وفقاً لترتيب الآيات في المتن.
[2] - سورة النساء الآية 24.
[3] - الكشاف 518/1.
[4] - لسان العرب: 9/ 713، (ح ص ن).

(الكسرة والضمة) بهذا حركتان ضيقتان. وقد عدهما براجشتراسر حركة واحدة في الأصل ليس بينهما فرق معلوم ثابت[1].

وبناءً على ما سبق فقد نص ابن منظور على أن من القراء في غير الشاهد السابق من قرأ (المحصنات) بفتح الصاد ومنهم من قرأها بكسرها، وقد نسب الزمخشري الكسر، ــ كما مر ــ إلى طلحة بن مصرف، في حين أن الفراء نقل عن علقمة الكسر في(المحصنات) في جميع القرآن إلا في حرف واحد وهو الشاهد السابق[2].

وإذا كانت قراءة الجمهور بالفتح في الشاهد السابق ــ كما نص على ذلك العكبري ــ فإنه في غير هذا الشاهد من القرآن يتداول الكسر والفتح[3] المواضع من الصاد، وعلى ذلك فالتشاكل الصوتي بين الكسرة والفتحة في بقية الشواهد قد أخذ طريق المخالفة باعتبارها ظاهرة تشكيلية تقلل من حدة التشاكل الصوتي بين الكسرة والضمة، كما أوردنا فيما سبق.

فليس هنالك تعارض بين الظاهرتين، بقدر ما هنالك تكامل يحقق التوازن في النظام الصوتي.

على أن العكبري في "إعراب الشواذّ ذكر قراءة (المُحصُنات) بضم الصّاد من غير عزو، وعلق عليها بقوله:«...بضم الصّاد إتباعاً لضمة الميم»[4]. ولا شك هنا أن المشاكلة تمت بين حركة الميم وحركة الصاد، تحولت بموجبها فتحة الصاد إلى ضمة، من أجل حصول الانسجام الصوتي بين الحركتين.

ومثل ما حصل من مشاكلة صوتية في (المحُصُنات) بين الضمتين، حصل ذلك بينهما في (مُرُدِّفين)، أو بين الكسرتين في (مُرِدِّفين) من قوله تعالى:﴿ بِأَلْفٍ مِنَ الملائِكةِ مُرْدَفِين﴾[5] قال الزمخشري:« وقرئ مُرُدِّفِين وأصله: مرتدفين: أي مترادفين أو متبعين من ارتدفه،

[1] - ينظر التطور النحوي للغة العربية لبرجشراسر ص 56، و ينظر الأصوات اللغوية لعبد القادر عبد الجليل ، ص 210.

[2] - ينظر السابق : 713/9 (ح ص ن).

[3] - ذكر العكبري أن الكسر والفتح في غير الموضع المذكور كلاهما مشهور فالكسر على أن النساء أحصن فروجهن أو أزواجهن، والفتح على أنهن أحصن بالأزواج أو بالإسلام، (الإملاء ص 181)..

[4] - إعراب القراءات الشواذ: 190/1.

[5] - سورة الأنفال الآية 09.

فأدغمت تاء الافتعال في الدال، فالتقى ساكنان فحركت الراء بالكسر على الأصل، أو على إتباع الدال، وبالضمّ على إتباع الميم»[1].

ويمكن تسجيل ثلاث ملحوظات على هذا الكلام:

1) إدغام التاء في الدال من قبيل المشاكلة في الصوامت. لأن التاء مهموسة والدال مجهورة فحصل عدم انسجام بين صوتين متجاورين فضلاً عن جهر الراء أيضاً، ولتحقيق المشاكلة أدغمت التاء في الدال.

2) تحريك الراء بالضم من أجل مشاكلة حركة الميم (وهي الضمة أيضاً) والأصل في الراء ــ كما هو واضح ــ السكون، كما يظهر في صيغة(مرتدفين).

3) تحريك الراء بالكسر من أجل مشاكلة حركة الدال هذه المرة وحركة الدال هي الكسر، فيحصل انسجام صوتي بين الكسرتين يسفر عن أداء أسهل وأيسر ومجهود أقل.

ومن شواهد المشاكلة في الصوائت ما جاء في تفسير قوله:﴿ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا﴾[2] فقد قال الزمخشري:« عن طلحة بن سليمان (جِنّياً) بكسر الجيم للإتباع»[3]، وواضح أن المشاكلة في لفظ (جِنِياً) تمّت بين حركة الجيم وحركة النون، وذلك من أجل حصول الانسجام الصوتي بينهما.

غير أن لابن جني تفسيراً آخر لهذه المشاكلة حين عدّ كسر الجيم هنا هو بسبب وجود صوت النون بعده، تماماً مثل ما يشكّل وجود صوت الحلق في مثل شِعير، وبِعير ورِغِيف، وزئير ووعيد[4]، سبباً في كسر أوائل تلك الكلمات أو سبباً في تقريب حركة الصوت الأول من أصوات الحلق. بيد أن أصوات الحلق ــ في نظر ابن جني ــ تتناهى في القرب من الكسرة وعلى العكس من ذلك يتناهى صوت النون في البعد عنها، قال ابن جني:«..وله[5]،

[1]- الكشاف: 2/ 146.
[2] - سورة مريم الآية 25.
[3] - الكشاف: 507/2، وأيضاً إعراب القراءات الشواذ للعكبري: 9/2.
[4] - ينظر الخصائص: 497/1.
[5] - يقصد صاحب القراءة وهو طلحة بن سليمان.

في تشبيهه النون بالحرف الحلقي عذر ما، وذلك لتفاوتهما، فالنون متعالية، كما أنّهن سوافل فكل في شِقّه مضاد لصاحبه، ألا ترى أن أبا العباس قال في همزة صحراء وبطحاء ونحوهما: صحراوان وبطحاوان، وصحراوات وبطحاوات شبهت الهمزة بالواو، لأن كل واحدة منهما طارفة من جهتها، فجعل تناهيهما في البعد طريقاً إلى تلاقيهما في الحكم»[1].

ومع أن هذا التفسير الذي أورده ابن جني له وجاهته من الناحية اللغوية بوجه عام، لكنه بالمقابل يحتاج إلى قاعدة من الشواهد الكثيرة حتى يتمكن، ونحن نرى أن الشاهد السابق (جنياً) لا يمكن أن يفسر إلا في ضوء ما ذكره الزمخشري والعكبري من أنه إتباع لا غير، مع ما يمكن إضافته من معطيات وحقائق صوتية حول طبيعة الحركات، على النحو الذي أوردناه في غير موضع من قبل.

وأما ما يبرر قوة كسرة النون حين أثرت في فتحة الجيم وحولتها إلى كسرة من أجل المشاكلة، فهو وجود الياء المشددة بعد كسرة النون وهي من جنسها، وهو ما يجعلها أقوى، بحيث تقوى على التأثير فيما يجاورها من حركات، تحقيقاً للانسجام الصوتي بينها وبين تلك الحركات.

ومن شواهد المشاكلة الصوتية ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾[2]، حيث قال الزمخشري في ذلك:« وقُرِئ عُلياً وعِلياً بالضم والكسر»[3]، ويتضح من ذلك أن هاتين الصورتين للقراءة تطورتا عن قراءة الجمهور وهي (عُلُوا) بضمتين وهي على وزن(فُعُول)، وأصلها قبل الإعلال(عُلُوو) ثم أدغمت الواو في الواو فصارت (عُلُوا).

وأما ما ذكره الزمخشري من قراءة(عُلِياً) بضم ثم كسر فقد تطورت عن قراءة الجمهور بطريق المخالفة الصوتية لأنه قد توالى مثلان وهما الضمة في العين والضمة في اللام، ومن ثم سعوا إلى التقليل من هذه المشاكلة بكسر اللام لإحداث التباين بين الصائتين.

---

[1] - المحتسب: 41/2.
[2] - سورة النمل الآية 14.
[3] - الكشاف: 139/3.

ثم أن هذه المخالفة لعلها تطورت إلى مشاكلة من جديد حينما كسرت العرب العين بتحويل ضمتها إلى كسرة وهو ما أشار إليه الزمخشري في الشاهد الثاني (عِلِيا) بكسر العين واللام معاً، وذلك من أجل إحداث الانسجام الصوتي بين حركة العين، التي هي الضمة، وكسرة اللام. ولا شك أن الانسجام وتمامه يكون باتحاد الحركتين حركة واحدة أي من جنس واحد ليعمل اللسان عملاً واحداً عندما ينطق بكسرتين متجاورتين.

ومما جاء على وزن(فُعُول) من شواهد المشاكلة الصوتية في الكشاف قوله تعالى:﴿ وَاتَّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِن بَعْدِهِ مِنْ حُلِيِّهِمْ عِجْلاً جَسَدًا لَّهُ خُوَارٌ﴾[1]، حيث قال الزمخشري بشأن ذلك:« وقُرئ(من حِلِيهم) بالكسر للإتباع»[2] وقال القرطبي «(من حُلِيهم) قراءة أهل المدينة وأهل البصرة وقرأ أهل الكوفة إلا عاصماً (مِن حِلِيهِمْ) بكسر الحاء. قال النحاس: جمع حَلْي وحُلْيٌ وحِلِي مثل: ثدي وثُدِيْ وثِدِي، والأصل (حُلُوى) ثم أدغمت الواو في الياء فانكسرت اللام لمجاورتها الياء، وتكسر الحاء لكسرة اللام، وضمها على الأصل»[3].

ويتضح مما سبق أن المشاكلة تمت على مرحلتين؛ المرحلة الأولى بين الياء وحركة اللام، التي هي الضمة في الأصل، فنتج عن ذلك كسر اللام[4]، فصارت (حَلِيهم)، ثم المرحلة الثانية تماثلت فيها حركتا الحاء واللام واللتان هما: الضمة والكسرة ــ على الترتيب ــ فنتج عن ذلك تأثر حركة الحاء بحركة اللام، فكسرت حركة الحاء فتوالت كسرتان وهذا الأمر يعد أدعى للانسجام الصوتي بين الحركتين نظراً إلى أن عمل اللسان سيكون واحداً.

ومن الشواهد أيضاً قوله تعالى:﴿ بَرَاءةٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾[5]، والشاهد هنا هو كسر نون (مِن) عند ما كسر، قال الزمخشري:« وقرأ أهل نجران (من الله) بكسر النون والوجه الفتح

[1] - سورة الأعراف الآية 148.
[2] - الكشاف: 118/2.
[3] - الجامع لأحكام القرآن : 172/4 – 173.
[4] - ينظر معاني القرآن للأخفش: : ص 448(طبعة عالم الكتب 2003).
[5] - سورة التوبة الآية 01.

مع لام التعريف لكثرته»[1]، وقد اختلف علماء العربية في التعليل لكسر النون في (من) على ثلاثة آراء:

الأول: أن الكسر في النون جاء على الأصل والقياس، قال سيبويه:« وزعموا أن ناساً من العرب يقولون: من الله فيكسرونه ويجرونه على القياس»[2]، والقياس الذي يتحدث عنه سيبويه إنما هو الكسر لأجل التقاء الساكنين قال ابن جني معلقاً على كلام سيبويه:« حكاها[3]، سيبويه، وهي أول القياس، تكسرها لالتقاء الساكنين»[4].

الثاني: هو أن الكسر في النون قد يكون للتخلص من التقاء الساكنين أو لأجل الإتباع ويمثل لهاذا الرأي أبو البقاء العكبري الذي وجدناه في "الإملاء" يتبنى هذا الرأي على الرغم من أنه يصف قراءة من قرأ بالكسر بالشذوذ[5]، وأما في إعراب القراءات الشواذ فيقول:«(مِنِ الله) بكسر النون والميم على الإتباع وكذلك ما أشبهه»[6].

الثالث: وهو الرأي الذي يتخذ من الضرورة الصوتية الأدائية سبباً مباشراً وربما وحيداً، بخلاف الرأي السابق، لحدوث هذا الكسر في النون، ونحن نرى أن أبا البقاء العكبري هو من يمثل لهذا الرأي على الرغم مما ورد عنه في الإملاء من إشارة إلى علة التقاء الساكنين، ودليلنا على ذلك هو إيراده لعبارة «ما أشبهه» في القول السابق، وهذا يعني أن نظائر الشاهد السابق﴿ مِنِ الله﴾، وهي التي تحوي الحرف(من) يمكن أن تعلل في ضوء ما عُلل به، ووجه التعليل هذا هو إتباع الكسر الكسر، أي إتباع حركة النون لحركة الميم.

على أننا نسارع إلى القول، بعد الذي سبق، بأن تلك الآراء جميعها لا يتعارض بعضها مع بعض، بل هي آراء متكاملة، وإن كانت في الجملة ترتد إلى أمرين:

أ- الكسر لأجل التقاء الساكنين.

---

[1] - الكشاف: 2/ 172.
[2] - الكتاب: 154/4.
[3] - أي كسر الميم والنون معاً.
[4] - المحتسب لابن جني: 1/ 283.
[5] - إملاء ما من به الرحمن ص 307.
[6] - إعراب القراءات الشواذ: 316/1.

ب- الكسر لأجل الإتباع.

ونحن نرى أن كلا الأمرين له ما يسنده من واقع اللغة والاستخدام؛ فالأول يرتكز على فرضية أن النون في الأصل ساكنة في حال الوقف، وفي حال الوصل لا بد من تحريكها، وإذا تحركت تحركت بالكسر، فإذا التقت كسرتان ثقل ذلك في الأداء لدى بعض الناطقين، فيحركون النون بالفتح لأجل التخلص من الكسرتين ـ كسرة الميم وكسرة النون ـ خاصة وأن الحرف (من) مما يكثر استعماله في الكلام كما نص على ذلك الزمخشري في قوله السابق.

وأما الأمر الثاني وهو الكسر للإتباع ففيه ميل إلى السهولة واليسر في الأداء الصوتي حيث أثرت كسرة الميم في حركة النون وهي الفتحة، فحولتها إلى كسرة مماثلة وهذا ما يحقق في الأداء نوعاً من الانسجام بين الحركات.

ومما يدعم الأمر الثاني هذا هو أن بعض قبائل نجد كثر في كلامها كسر النون من الحرف(من) فقد نقل ابن منظور أنه « حكي عن طيء وكلب: اطلبوا من الرحمن»[1]

ومن شواهد المشاكلة الصوتية في الكشاف قوله تعالى:﴿ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِ﴾[2]، قال الزمخشري:« وقرأ عبد الله (قَسِيَةً) أي رديه مغشوشة من قولهم درهم قَسي وهو من القسوة لأن الذهب والفضة الخالصين فيهما لين والمغشوشة فيه يبس وصلابة، وقرئ (قِسِيّة) بكسر القاف للإتباع»[3]، و(قسية) اللفظ الذي ورد في القراءة بمعنى ردية أي ليست قلوبهم بخالصة من قولهم درهم قَسَي وهو جنس من الفضة المغشوشة فيه قسوة أي صلابة[4]، قال أبو زبيد يذكر المساحي:

لها صواهل في صُم السلام كما *** صاح القَسِياتُ في أيدي الصياريف

ومنه قوله مُزَرّد بن ضرار.

[1] - لسان العرب: 1003/7 (منن).
[2] - سورة المائدة الآية 13.
[3] - الكشاف: 600/1.
[4] - معجم مفردات ألفاظ القرآن للراغب الأصفهاني،ص 305.

وما زَوَدُوني غَيْر سَحْقِ عِمَامَةٍ *** وخَمْسِميءٍ منها قَسِيٌّ وزائف.

وفي خطبة الصديق رضي الله عنه: فهو كالدرهم القسي والسراب الخادع[1].

وقد عدّ الزمخشري ــ كما مر في النص السابق ــ لفظ (قَسِيَة) مشتق من القسوة وهي في هذا مثل لفظ (قاسية) على صيغة اسم الفاعل والتي وردت بها قرأ الجمهور من القــراء و(قسية) جاءت على صيغة المبالغة(فعيل) مثل "علية ""وقوية"[2].

وأما القراءة الثانية التي أشار إليها الزمخشري وهي قراءة (قِسية) بكسر القاف فأصلها (قَسية) بفتح القاف، وكسرها جاء لإحداث المشاكلة الصوتية بين حركتي القاف والسين؛ ولما كانت السين محركة بالكسر أثرت حركتها وهي الكسرة في حركة القاف فحولتها إلى كسرة مثلها، لأجل إحداث الانسجام الصوتي بينهما على جهة الإتباع. ومما يقوى هذه المشاكلة وجود الياء بعد السين، وهو ما يجعل كسرة السين أقوى[3]، من فتحة القاف فتجتذبها إليها بموجب قانون الأقوى.

هذا وقد سجل الزمخشري في الأساس: « درهم قسي، ودرهم قَسية وقِسِيَة»[4] بفتح القاف وكسرها، وهو أمر يدل على أن وصف القلوب بأنها(قِسِية) بكسر القاف جاء قياساً على وصف الدراهم بذلك في الاستعمال اللغوي. كما يدل أيضاً على أن كسر القاف كان أمراً فاشياً في نطق قبائل العرب، بوصفه تطوراً صوتياً للأصل وهو (قَسية) بفتح القاف.

ومن الشواهد أيضاً ما يدخل تحت ظاهرة ما يسمى بالتلتلة وهي عبارة عن كسر حرف المضارعة فيقال: أنا إعلم، نحن نِعلم، وأنت تِعلم، وهو يعلم وما إلى ذلك وهي لقب لقبيلة بهراء.. وهذه الظاهرة سامية قديمة توجد في العبرانية والسريانية والحبشية[5]، ويعتبر بعض الدارسين المحدثين أن فتح حروف المضارعة موروث في العربية منذ القدم، وأن

[1] - لسان العرب لابن منظور: 617/8، (قسا) والمساحي التي ذكرها وتحدث عنها أبو زبيد هي المساحي التي حفر بها قبر عثمان رضي الله عنه (الأساس الزمخشري ص 607).
[2] - إعراب القراءات الشواذ للعكبري : 1/ 219، والإملاء له ، ص 218.
[3] - لعل مما يستأنس به هنا أن القوة التي نتحدث عنها هي أقرب ما تكون إلى مفهوم القوة الموقعية للصوت في التركيب، وفقاً لما أشار إليه بعض المحدثين، وهنا ينطبق الأمر على الكسرة في السين فموقعها المجاور للياء المشددة يجعل منها صوتاً أقدر على التأثير في ما يجاورها (ينظر حول مفهوم القوة الموقعية: أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي لعبد الصبور شاهين، ص 238).
[4] - الأساس، ص 507.
[5] - فصول في فقه العربية لرمضان عبد التواب، 124 ، 125.

احتفاظ لهجة الأزد به يدل على قدمها، ولا يدل بالضرورة على أصلها باعتبارها من لهجات غرب الجزيرة العربية. كما أن عدم ورود اسم اليمن فيمن كان يفتح، ربما يشير إلى أنها كانت تكسر حرف المضارعة لكن لا دليل على ذلك، وربما أيضاً يدل على أنها كانت تفتح باعتبار أنها محسوبة على لهجات غرب الجزيرة العربية[1].

ويؤخذ مما سبق أن الكسر في أوائل حروف المضارعة أصيل في مجمل اللغات السامية، مما يدل على أنه ظاهرة لغوية سامية قديمة و به أخذت معظم قبائل العرب.

ومن أجل ذلك وجدنا ابن منظور في اللسان ينص على أن« تِعْلَم بالكسر لغة قيس وتميم وأسد وربيعة وعامة العرب، وأما أهل الحجاز وقوم من أعجاز هوازن وأزد السراة وبعض هذيل فيقولون: تَعلم، والقرآن عليها، قال: وزعم الأخفش أن كل من ورد علينا من الأعراب لم يقل إلا تِعلم بالكسر»[2].

والحق أن سيبويه في الكتاب عقد باباً سماه« هذا بابا ما تكسر فيه أوائل الأفعال المضارعة للأسماء كما كسرت ثاني الحرف حين قلت فَعِلَ» ثم أعقب كلامه هذا بقوله:« وذلك في لغة جميع العرب إلا أهل الحجاز، وذلك قولهم: أنت تِعَلَم ذاك وأنا إعلم، وهي تِعلم، ونحن نِعلم ذاك وكذلك كل شيء فيه فَعِلَ من بنات الياء والواو.. وإنما كسروا هذه الأوائل لأنهم أرادوا أن تكون أوائلها كثواني فَعِل كما ألزموا الفتح ما كان ثانيه مفتوحاً في فَعَلْ، وكان البناء عندهم على هذا أن يجروا أوائلها على ثواني فَعِل منها»[3].

إن هذا الذي يقرره سيبويه هنا حول تعليل كسر أوائل حروف المضارعة يُشير إلى أن هذا الكسر كان لأجل الإتباع[4]، فكسر أول المضارع يكون تبعاً لحركة الكسر في الماضي (فَعِل) وهو كسر العين، وإذا كان الأمر كذلك فلا تعدو أن تكون شواهد هذه الظاهرة (التلتلة) في مجملها إلا صورة من صور المشاكلة الصوتية بين الصوائت.

---

[1] - ينظر اللهجات العربية القديمة لشيم رابين ص 137.
[2] - لسان العرب: 8/ 819 (وقي).
[3] - الكتاب: 110/4.
[4] - ينظر لهجة قبيلة تميم وأثرها في الجزيرة العربية لغالب فاضل ألمطلبي ، ص 135.

وأما الحالات التي يكسر فيها أول المضارع فهي الأفعال المضارعة التي جاءت على مثال(يَفْعَل) بفتح العين، وكان الماضي منها على (فَعِل) بكسر العين، ما لم يكن حرف المضارعة ياء، فغير أهل الحجاز يقولون: تِعجب وتِعلم و تِركب، وأنا إعجب وأنت تِعلم، ونحن نِركب.

وأما المبدوء بالياء من هذا النوع فقد استثقلوا أو كرهوا ــ بعبارة سيبويه ــ الكسرة في الياء، فألزموها الفتح، ولم يخافوا انتقاض معنى، قال سيبويه:« وجميع هذا إذا قلت فيه يَفْعَلُ فأدخلت الياء فتحتَ، وذلك أنهم كرهوا الكسرة في الياء حيث لم يخافوا انتقاض معنى، فيحتمل ذلك، كما يكرهون الياءات والواوات مع الياء وأشباه ذلك..ولا يكسر في هذا الباب شيء كان ثانيه مفتوحاً، نحو ضَرَب وذهَبَ وأشباهها»[1] .

ومن شواهد هذه الظاهرة في الكشاف قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَقْرَبَا هَــذِهِ الشَّجَرَةَ وَلاَ تَقْرَبَا هَــذِهِ الشَّجَرَةَ ﴾[2]، قال الزمخشري:« وقرئ(ولا تِقربا) بكسر التاء و(الشِجرة) بكسر الشين و(الشِيرة) بكسر الشين والياء، وعن أبي عمرو أنه كرهها وقال: يقرأ بها برابرة مكة وسودانها»[3]، جاء في اللسان:« قَربَ الشيء بالكسر يقربه قُرباً وقِرباناً: أتاه، فقرب ودنا منه وقربتُه تقريباً: أدنيتُهُ»[4].

ويبدو أن قراءة (تِقربا) بكسر التاء محمولة على هذا المعنى، فقد جاءت كسرة أول المضارع مشاكلة لحركة الحرف الثاني في الماضي (قَرب)، وهذه المشاكلة الصوتية في الصوائت سرت وعملت حتى في لفظ الشجرة من الآية السابقة ــ على ما ذكره الزمخشري ــ فقد جاءت الشين مكسورة وهي لغة[5] للعرب في لفظ (الشَجَرة) بفتح الشين والجيم، وهذا

---

[1] - الكتاب: 110/4.
[2] - سورة البقرة الآية 35.
[3] - الكشاف : 273/1.
[4] لسان العرب : 612/1. (ق ر ب).
[5] - ينظر اللسان 3/ 368 (ش ج ر)، والجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 1/ 219.

يعني أن صاحب القراءة اختار لقراءته ما يتفق مع ميله إلى الكسر في أوائل المضارع، بل وبالغ في ذلك لما جاء يلفظ(شِيِرة) بكسر الشين والياء ــ بعد إبدال الجيم ياء ــ وهي لغة[1] ثالثة في لفظ (الشَجَرَةَ)، وإن كانت الياء فيها ــ أي اللغة الثالثة ــ تفتح وتكسر.

والذي يظهر بعد النظر والبحث أن الكسر ليس أصلاً في ياء لفظ(الشيرة)، وهي اللغة الثالثة المذكورة..، بدليل عدم الإشارة في المصادر إلى هذا الكسر في الياء، وإنما كانت الإشارة إلى إبدال الجيم ياء لا غير، وربما كان الكسر في الياء لأجل المشاكلة الصوتية بين حركتي الشين والياء ومن ثم يحدث انسجام صوتي بين الصائتين المتجاورين، على أن هذا الإجراء يصطدم بقانون عام ذكره علماء العربية وهو كراهة كسر الياء كما نص على ذلك سيبويه[2].

وأما إبدال الجيم ياء ــ في الشجرة وغيرها من الألفاظ ــ فقد عرف ذلك عن قبيلة تميم؛ فهي تقول في الصهريج: الصهريّ، وفي شجرة شيرة وهي عكس الظاهرة المسماة بالعجعجة وهي إبدال الياء جيما وقد عرفت بها قبيلة قضاعة ونسبت في اللسان إلى بني سعد[3] .

وأما التعليل الصوتي لإبدال الجيم ياء في(الشجرة) بحيث صارت (الشيرة) فقد برر له القدماء بأن الجيم والياء من مخرج واحد وأن الجيم إذا أُضعفت صارت ياء[4] .

وهذا صحيح، وقد أقره المحدثون وأضافوا عليه اشتراك الجيم والياء في صفة الجهر أي اهتزاز الوترين معهما، وليس من فارق بينهما سوى كون الجيم صوتاً مزدوجاً أو مركباً،

[1] - الأصل في هذه اللغة الثالثة أن تكون الياء مفتوحة ولكنها وردت في هذه القراءة مكسورة على ما ذكره الزمخشري، والعرب تكره الكسر في الياء بوجه عام.

[2] - ينظر الكتاب: 110/4

[3] - لسان العرب : 368/3.

[4] - إعراب القراءات الشواذ للعكبري: 77/1، وفي الإملاء له: « . أبدلت الجيم ياء لقربها منها في المخرج» (الإملاء ص 38) أقول: والأقرب إلى الصواب هو أن الجيم والياء من مخرج واحد، كما ذكر في المصدر السابق (الإعراب) وقد أثبتناه في المتن.

يجمع بين الشدة والرخاوة أو بين الانفجار والاحتكاك ــ بالمصطلح المعاصر ــ، على حين أن الياء رخوة أو احتكاكية[1].

ومن الشواهد أيضا قوله تعالى: ﴿ وَمِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مَنْ إِن تَأْمَنْهُ بِقِنطَارٍ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ وَمِنْهُم مَّنْ إِن تَأْمَنْهُ بِدِينَارٍ لاَّ يُؤَدِّهِ إِلَيْكَ إِلاَّ مَا دُمْتَ عَلَيْهِ قَآئِمًا ﴾ [2]، حيث قال الزمخشري:« وقرأ يحي بن وثاب(تِئمَنْه) بكسر التاء و(دِمتَ) بكسر الدال من دام يدام»[3]، والفعل(تأمنه) في الآية من (أمِن) في الماضي بكسر الميم، والأمان والأمانة بمعنى، وقد أمنت فأنا أَمِنٌ[4]، والقراءة التي ذكرها الزمخشري وقد عزاها ليحي بن وثاب محمولة على هذا. وقال العكبري في الإملاء: «.. وقرأ أبو الأشهب العقلي(تأمنه) بكسر حرف المضارعة»[5]. ويتضح من ذلك أن المشاكلة تمت بين حركة الأول في المضارع (تَأمن) بحيث تحولت إلى كسرة وبين حركة الثاني في الماضي وهي الكسرة فنتج عن ذلك كسر حرف المضارعة.

كما ذكر الزمخشري لفظ(دِمتَ) بكسر الدال على أنه من قبيل كسر حرف المضارعة، وهو عنده من دام يدام جاء في اللسان: « قال أبو الحسن: في هذه الكلمة نظر، ذهب أهل اللغة في قولهم دِمتَ تدام إلى أنها نادرة كمِتّ تموت..وذهب أبو بكر إلى أنها متركبة فقال: دُمَتَ تَدُوم كقُلْتَ تَقُولَ ودِمتَ تدام كخِفتَ تخاف ثم تركبت لغتان فظن قوم أن تدوم على دُمَتُ، ذهاباً إلى الشذوذ وإيثار له، والوجه ما تقدم من أن تدام على دِمْتَ، وتدوُم على دُمتَ»[6] .

والذي يظهر من هذا الكلام أن دِمتَ بكسر الدال من (يدام) ليست لغة في (دُمتَ) بضم الدال، وإنما هي استعمال مستقل، لأن دُمتَ ــ بضم الدال ــ من(يدوم) ونحن نرى ــ بعد كل ذلك ــ أن كسر الدال في (دِمتَ) ليس من قبيل كسر حرف المضارعة.

---

[1] - ينظر فصول في فقه العربية لرمضان عبد التواب، ص 132.
[2] - سورة آل عمران الآية 75.
[3] - الكشاف: 1/ 438.
[4] - لسان العرب: 7/ 620 (أ م ن).
[5] - الإملاء، ص 147: والإعراب: 1/ 167.
[6] - اللسان: 194/7 (د و م) .

ومن الشواهد أيضاً ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾[1]، حيث أشار الزمخشري إلى كسر النون من (نِستعين) ونسب ذلك إلى ابن حبيش[2]، غير أن غيره أشار إلى كسر حرف المضارعة في (نَعبُدُ) وليس في نستعين، حيث قال أبو البقاء:« (نعْبُدُ) يُقرأ بكسر النون وهي لغة فاشية في العرب يكسرون أول حرف المضارعة إلا الياء، لثقل الكسرة عليها ومنهم من يكسر الياء أيضاً، وهو قليل، والوجه في كسرها أن حرف المضارعة أول، زائد وبعده ساكن، فيكسر الأول، كما يكسر، لالتقاء الساكنين ولذلك كسرت همزة الوصل وغيرها مما حُرِّك لالتقاء الساكنين»[3] .

وأما القرطبي فقد ذكر ما ذكره الزمخشري من لفظ(نِستَعِين) بكسر النون وقال:« هي لغة تميم وأسد وقيس وربيعة، ليدل على أنه من استعان، فكسرت النون كما تكسر ألف الوصل، وأصل(نستعين) نستعون، قلبت حركة الواو إلى العين فصارت ياء، والمصدر استعانة، والأصل استعوان قلبت حركة الواو إلى العين فانقلبت ألفاً ولا يلتقي ساكنان فحذفت الألف الثانية لأنها زائدة..»[4].

ولئن استطاع المرء أن يعلل صوتياً لكسر نون(نِستعين)، وذلك بسبب وجود الياء المدية وهي بلا شك صائت قوي في هذا الموقع، نظراً إلى زمنه النطقي الممتدّ أو كميته، فإنه من الصعوبة بمكان التعليل لكسر النون في (نِعبد)، لأنه ليس في التركيب ــ أي تركيب (نعبد) ــ ما يدعو إلى المشاكلة الصوتية كما رأينا في حالة(نستعين) وهو من (عَونَ)[5]، غير أننا يمكن أن نعلل لذلك بأن من قرأ (نِعبُد) بكسر النون أجراها مجرى (نِستعين) بكسر النون، من أجل تحقيق المشاكلة الصوتية في مستوى الجملة بأكملها.

وأما تعليل العكبري لكسر نون (نِعبد)، واعتباره أن النون زائدة وبعدها ساكن وكسرها في هذه الحال شبيه بكسر همزة الوصل لالتقاء الساكنين، فيمكن للمرء أن يتساءل:

[1] - سورة الفاتحة الآية 05.
[2] - ينظر الكشاف: 66/1.
[3] - إعراب القراءات الشواذ: 44/1.
[4] - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 115/1.
[5] - لسان العرب: 882/7، (ع و ن).

أين هو الساكن الآخر إذا كانت العين هي إحدى الساكنين؟ ومن ثم فإن هذا التعليل لا يقوم على ساق ولا يسنده دليل من واقع النطق.

ويمكننا القول بعد ذلك إن ما يعتبره قدامى العربية من كسر همزة الوصل ينبني على تصور غير واقعي من الناحية النطقية، إذا إن همزة الوصل هذه ليس لها وجود إلا في واقع الكتابة، حيث ابتدع القدماء لها رمزاً كتابياً هو الألف، وأما واقع النطق والأداء فيعتبرها حركة أو صائتاً قصيراً لا غير، قد يكون كسرة أو ضمة، وعليه؛ فإن الابتداء بهمزة الوصل المكسورة أو المضمومة ــ في اصطلاح القدماء ــ ما هو قي واقع الأداء النطقي في العربية إلا اتكاء على حركة عند البدء، تجنباً للنطق بالساكن، حيث ليس إلى ذلك سبيل من الناحية الأدائية في العربية الفصحى، نظراً إلى طبيعتها المقطعية التي لا تسمح بذلك.

ومن شواهد ظاهرة كسر حروف المضارعة قوله تعالى:﴿ وَلاَ تَرْكَنُواْ إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ﴾[1]، بكسر التاء في (تِركنوا) و(تِمَسَّكُمُ) حيث قال الزمخشري:«..قرئ ولا تركنوا بفتح الكاف وضمها مع فتح التاء، وعن أبي عمرو بكسر التاء، وفتح الكاف على لغة تميم كسرهم حروف المضارعة إلا الياء في كل ما كان من باب عَلِمَ يَعْلَم، ونحوه قراءة من قرأ(فِتمَسَّكم النّار) بكسر التاء»[2]. فالفعل الأول(تركنوا) من الآية هو من« رَكِنَ إلى الشيء ورَكَن يَرْكن ويركُنُ ركناً وركوناً.. أي مال إليه وسكن، وقال بعضهم: رَكَن بفتح الكاف في الماضي والآتي..وقال الجوهري: وهو على الجمع بين اللغتين..وفي التنزيل﴿ وَلاَ تَرْكَنُوا﴾ قُرِئ بفتح الكاف من رَكِنَ يَركَنُ ركوناً إذا مال إلى الشيء واطمأن إليه، ولغة أخرى رَكَن يركَنُ، وليست بفصيحة»[3].

ويظهر مما سبق أن اللغة التي حُملت عليها القراءة هي لغة رَكِنَ يركَن والمقصود هنا قراءة (تِركنوا) بكسر التاء ــ حرف المضارعة ــ حتى تكون المشاكلة بين الثاني في

[1] - سورة هود الآية 113.
[2] - الكشاف: 296/2.
[3] - لسان العرب: 775/7. (ر ك ن).

الماضي من يركَن وهو(رَكِن) منسجمة مع الأول من المضارع، وحركته الكسر بعد حصول المشاكلة الصوتية، وقد أوضح ذلك الزمخشري لما أورد فعلاً من الباب نفسه وهو عَلِمَ يعلمَ.

هذا وأعتبر الراغب الأصفهاني أن الصحيح أن يقال: رَكَنَ يَرْكُنُ ورَكِنَ يركَنُ[1].

وأما لفظ(تِمسكم) في الشواهد الزمخشري فقد لمح إلى أنها مثل(تِركَنُوا) وتجري مجراها مادامت قد كسرت التاء فيها، وهي قراءة نسبها ابن جني إلى يحي بن وثاب والأعمش وطلحة وغيره وقال:« هذه لغة تميم أن تكسر أول مضارع ما ثاني ماضيه مكسور، نحو علمتَ تِعلَمْ، وأنا إعلم وهي تِعلَمْ، ونحن نِركَب، وتقل الكسرة في الياء، نحو يعلم، ويركب استثقالا للكسرة في الياء، وكذلك ما في أول ماضيه همزة وصل مكسورة، نحو تِنطلِق، ويوم تِسْوَدُّ وجوه وتِبيض وُجُوه[2]، فكذلك (فتَمِسَّكُمْ النّار)»[3] .

ومن اشواهد أيضاً قوله تعالى:﴿ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ﴾[4]، قال الزمخشري:« وقُرئ إعهد، بكسر الهمزة وباب فَعِلِ كله يجوز في حروف مضارعته الكسر إلا في الياء، و(إعهد) بكسر الهاء..»[5]، وجاء في اللسان:« يقال: عهد إلىّ في كذا أي أوصاني، والعهد: الوصية»[6]، وذكر العكبري أن كسر الهمزة في(إعهد) لغة من كسر حرف المضارعة[7]، ووجه المشاكلة الصوتية هنا أن كسر أول المضارع في (إعهد) جاء مشاكلاً لكسر الثاني في الماضي منه وهو(عَهد)، ومن ثم يمكن اعتبار ذلك نوعاً من الإتباع الحركي، وإن كان بين صيغتين.

وقد حدثت المشاكلة الصوتية في مستوى لفظ(إعهد) بكسر الهاء وهي مشاكلة موقعية عملت فيها كسرة بتأثير تقدمي على تحويل فتحة الهاء إلى كسرة فأسفر الأداء عن كسرتين، ولا شك أن في ذلك انسجام صوتي تنحسر معه درجة التخالف بين الصائتين (الكسرة والفتحة).

[1] - معجم مفردات ألفاظ القرآن ، ص 154.
[2] - من قوله تعالى:﴿ يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾، [سورة آل عمران الآية 106].
[3] - المحتسب لابن جني: 1/ 330.
[4] - سورة يس الآية 60.
[5] - الكشاف: 3/ 327.
[6] - لسان العرب: 697/2، وينظر الجامع لأحكام القرآن: 31/8.
[7] - إعراب القراءات الشواذ: 180/2.

ومن الأمثلة أيضاً القراءة التي أشار إليها العكبري في قوله تعالى:﴿ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[1]، وقال بشأنها:« يقرأ بكسر الهمزة على لغة كنانة فإنهم يكسرون حرف المضارعة، إلا الياء»[2]، والمقصود هنا هو همزة(أعلم)، فتصير(إعلَمْ)، وقد نسبها الزمخشري إلى عبد الله بن مسعود[3]، على حين أن غير الزمخشري نسب لعبد الله بن مسعود قراءة (اعلم) على جزم الأمر كما يقول: اعلم أنّه قد كان كذّا وكذا[4].

ومن المشاكلة الصوتية في الصوائت لجوء النظام اللغوي أحياناً إلى التقليل من درجة التماثل بين الحركتين سعياً إلى التخفيف في عملية الأداء، وهذا يحدث بطريق حذف الصائت، وهذا يعنى تحوله إلى السكون، أو يحدث بطريق تقصير الصائت الطويل، ولا شك أن الصائت القصير أخفُّ أداء من الصائت الطويل.

فمن أمثلة ذلك في كشاف الزمخشري ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ﴾[5]، قال الزمخشري:«.. والمُثْلاتَ بضم الميم وسكون الثاء (تخفيف المَثُلات)، والمُثُلاَت جمع مُثْلة كركْبة ورُكْباتَ»[6]، وقال ابن منظور:«.. والعرب تقول للعقوبة مَثُلة ومُثْلَة، فمن قال مَثُلَة جمعها على مَثُلات، ومن قال مُثْلَة جمعها على مُثُلاتْ ومُثْلات ومُثَلاتَ، بإسكان الثاء»[7]، وقال العكبري في الإعراب: «..(المثلات) يقرأ بسكون الثاء على على التخفيف مثل(عَضُد = عَضْد)، ويقرأ بضم الميم والثاء جمع مُثْلة وهي العقوبة ويُقرأ بضمّ الميم وإسكان الثاء وهو من تخفيف المضموم واحدها مَثُلة.»[8]. ويتضح مما سبق أن مصطلح التخفيف يدل على ما يلجأ إليه الناطق من إيثار السكون، لأنه أخف على تتابع حركتين، و بذلك يتخلص من الثقل الناتج عن تتابع حركتين؛ وهما هنا ضمة الثاء وضمة الميم قال ابن جني: « ومن قال(المُثْلات)، بضم الميم وسكون الثاء احتمل عندنا أمرين: أحدهما أن يكون أراد: المَثُلات، ثم آثر إسكان الثاء استثقالاً للضمة ففعل ذلك، إلا أنه نقل

[1] - سورة البقرة الآية 259.
[2] - إعراب القراءات الشواذ: 138/1.
[3] - الكشاف: 391/1.
[4] - معاني القرآن للأخفش،ص 321، (الهامش03) ط عالم الكتب 2003.
[5] - سورة الرعد الآية 06.
[6] - الكشاف: 350/2.
[7] - لسان العرب: 6/ 684. (م ث ل).
[8] - إعراب القراءات الشواذ: 383/1.

الضمة إلى الميم فقال المُثْلات، كما قالوا: في عَضُد: عُضْد، وفي عَجُز: عُجْز، والآخر أن يكون خفف في الواحد فصار مَثْلة، ثم جمع على ذلك فقال المُثْلات..»[1]، وعبر العكبري هو أيضاً ــ في الإملاء ــ عن هذا التغير الصوتي الموقعي بقوله:« ويقرأ بإسكان الثاء وفيه وجهان: أحدهما أنها مخفّفة من الجمع المضموم فراراً من ثقل الضمة مع توالى الحركات والثاني أن الواحد خُفّف ثم جمع على ذلك؛ ويقرأ بضمتين، وبضم الأول وإسكان الثاني، وضم الميم فيه لغة، فأما ضمّ الثاء فيجوز أن يكون لغة في الواحد، وأن يكون إتباعاً في الجمع..»[2] .

وفي موضوع ربط الخفة أو التخفيف بالسكون عند القراء واللغويين وعلماء القراءات على نحو ما رأينا مع ابن جني والعكبري وغيرهما، نجد أن علامة السكون ــ في الكتابة عند بعض علماء اللغة ــ هي خاء، يريدون بذلك أول كلمة(خفيف)، قال سيبويه:« وللذي أُجريَ مجرى الجزم والإسكان الخاء»[3]، وشرح ذلك السيرافي بقوله:« أما جعله الخاء لما أجري مجرى الجزم والإسكان فلأن الخاء أول قولك خفيف، فدل به على السكون لأنه تخفيف »[4].

ومن ذلك القبيل أيضا قوله تعالى:﴿ في شُغْل فَاكِهُونَ ﴾[5]، قال الزمخشري:« قرئ في في (شُغُل) بضمتين، وضمة وسكون وفتحتين وفتحة وسكون»[6]، وقال القرطبي:«..(شُغُل) و(شُغْل) لغتان قرئ بهما، مثل الرُّعُب والرُّعْبَ، والسُّحُت والسُحْت..»[7]، وقال صاحب المصباح المنير:« (الشُغُل) بضمّ الشين وتُضمُّ الغين وتُسكّن للتخفيف»[8]، وقد اعتبر العكبري العكبري هاتين اللغتين بالإضافة إلى لغة (شَغَل) بفتح الشين والغين، و(شَغْل) بفتح الشين

---

[1] - المحتسب: 354/1.
[2] - إملاء ما من به الرحمن 357.
[3] - الكتاب: 169/4.
[4] - نفسه: 4 /169، (الهامش رقم 01)، ويراجع علم الكتابة العربية لغانم قدوري الحمد،ص 85 وأيضاً مصطلحات علم القراءات القرآنية للدكتور عبد عبد العلى المسئول ص 231 ، 232.
[5] - سورة يس الآية 55.
[6] - الكشاف: 327/3.
[7] - الجامع لأحكام القرآن: 8/ 29.
[8] - المصباح المنير للفيومي، ص 316.

وسكون الغين.. اعتبرها جميعاً لغات مسموعة[1]، وهذا الكلام يدل على أن لها بيئات نطقية بين القبائل المنتشرة في ربوع جزيرة العرب.

ومن قبيل المشاكلة بالحذف في الصوائت ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ فَرِهَانٌ مَّقْبُوضَةٌ﴾[2]، قال الزمخشري:« قُرِئ (فَرُهُن) و(فَرُهْنٌ)، بضمّ الهاء وسكونها وهو جمع رهن»[3]، وقد نسب صاحب الجامع ضمّ الهاء وسكونها ــ معاً ــ إلى أبي عمرو بن العلاء وابن كثير، كما نقل عن غيره نسبة التخفيف إلى عاصم قال:« قال النحاس: وقرأ عاصم بن أبي النجود(فرُهْنٌ) بإسكان الهاء ويروى عن أهل مكة، والباب في هذا رهان؛ كما يقال بَغْل وبغال، وكبش وكباش، ورُهُن سبيله أن يكون جمع رهان، مثل كتاب وكُتبْ، وقيل هو جمع رهن، مثل سَقْف وسُقُف..و(رُهْن) بإسكان الهاء سبيله أن تكون الضمة حذفت لثقلها وقال الأخفش: فَعْل على فُعُل قبيح وهو قليل شاذ»[4]، وهذا الذي نسبه القرطبي إلى الأخفش ــ من تقبيحه جمع (فَعْل) على(فُعُل) ــ هو على الحقيقة نسبه صاحب المعاني إلى أبي عمرو بن العلاء[5].

ومن أمثلة ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿ عُرُباً أتْراباً﴾[6]، قال الزمخشري:« وقرئ عُرباً بالتخفيف جمع عروب، وهي المتحبّبة إلى زوجها الحسنة التبعُّل»[7]، وقد نسب صاحب الجامع إسكان العين إلى عاصم، بينما ضمّ الباقون وعلّق على ذلك بقوله: « وهما ــ أي القراءتان ــ جائزتان»[8]، واعتبر العكبري أن (عُرْبا) ــ بسكون الراء ــ هو من تخفيف المضموم[9].

---

[1] - إعراب القراءات الشواذ: 180/2.
[2] - سورة البقرة الآية 283.
[3] - الكشاف: 404/1.
[4] - الجامع لأحكام القرآن : 266/2.
[5] - ينظر معاني القرآن للفراء ،ص 328(طبعة عالم الكتب 2003).
[6] - سورة الواقعة الآية 37.
[7] - الكشاف: 55/4.
[8] - الجامع لأحكام القرآن: 133/9.
[9] -إعراب القراءات الشواذ: 280/2.

وذكر الفراء أن الأعمش حدثه فقال: « كنت أسْعُهم يقرءون (عُرْباً أتراباً) بالتخفيف، وهو مثل قولك: الرُّسْل و الكُتْب في لغة تميم وبكر بالتخفيف»[1]. ويؤخذ من هذا أن التخفيف هو خاصية من خواصّ البيئة النجدية أو البدوية وفي ذلك إشارة إلى طبيعة النطق البدوي المعتمد على السرعة في الأداء؛ فتميم وبكر بن وائل وقبائل ربيعة، وأكثر قبائل أسد، وعامّة قبائل قيس المتاخمة لتميم، كانت جميعاً تجنح إلى حذف الحركات القصيرة[2].

ومن ذلك أيضاً قوله تعالى:﴿ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ﴾[3]، قال الزمخشري:« وقرأ الحسن أو نُسْك بالتخفيف»[4]، وجاء في اللسان، النُّسْك والنُّسُك العبادة والطاعة وكل ما تُقُرِّب به إلى الله تعالى»، فدلّ ذك على أن إسكان السين أو تحريكها بالضم كلاهما جائز، ويدل على ذلك وصفهما باللغتين عند بعض علماء القراءات[5].

وإذا كان الزمخشري وغيره من علماء القراءة واللغة يعتبرون أن الأصل هو(نُسُك) بضمتين والفرع عنه هو نُسْك بالتخفيف، فإن بعض المعاصرين يعتبر أن صيغة التخفيف هي الأصل وصيغة التثقيل هي الفرع عنها، كما يعتبر تحريك عين (فُعْل) هو من باب زيادة الحركة، فقد ذكر أن أكثر الأسماء التي وزنها (فُعْل) قد تكون على (فُعُلْ) مثل أُذْن= أُذُن، ورأى أن (أُذْن) بالذال الساكنة هي الأصل، وأن (أُذُن) المتحركة مقلوبة عنها[6]، وإن كان هذا هذا مخالف لما وقر لدى بعض علماء القراءة؛ فقد جعل العكبري الأصل هو(الأُذُن) المضمومة وأن (الأُذْن) بإسكان الذال هي قبيل تخفيف المضموم[7]. والذي أراه بعد كل ذلك أن (فُعْل) و(فُعُل) كلاهما أصل في العربية، وكلاهما له قاعدته الأدائية بين قبائل العرب ولا مجال للقول بأصلية أحدهما دون الآخر، وهذا الذي يمكن فهمه من كلام الأخفش الذي حكاه عن عيسى بن عمران أنه قال: « ما سُمِع، أو ما سمعنا(فُعْل) إلا وقد سمعنا فيه (فُعُل)[8].

---

[1] - معاني القرآن للفراء: 3/ 125.
[2] - ينظر اللهجات العربية في التراث (القسم الأول) لأحمد علم الدين الجندي ص 251.
[3] - سورة البقرة الآية 196.
[4] - الكشاف : 345/1
[5] - إعراب القراءات الشواذ: 121/1، وينظر اللسان : 106/06(ن س ك).
[6] - التطور النحوي للغة العربية لبراجشتراسر ص 69.
[7] - الإعراب: 224/1ن وينظر المحتسب: 2/ 137و 170.
[8] - ينظر المحتسب: 170/2

ومن هذا القبيل قراءة مسلمة بن محارب والأعمش (نُزْلاً) في قوله تعالى:﴿ نُزْلاً مِنْ عِنْدِ اللهِ﴾ [1]، قرءاها بالسكون[2]، كما قرئ بالتخفيف[3]، وقوله تعالى:﴿ فَنُزْلٌ مِّنْ حَمِيمٍ﴾[4]، ومن ومن ذلك قوله تعالى:﴿ أَوْ مِنْ وَرَاءِ جُدُرٍ﴾[5]، حيث ذكر الزمخشري أن (جُدُر) قرئ بالتخفيف[6]، وقد نسب ابن جني قراءة التخفيف هذا أبي رجاء وأبي حيّة وقال:« هذه مخفّفة من جُدُر، جمع جدار»[7].

ومن شواهد المشاكلة بحذف الصائت ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿إِذَا نُودِي لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ﴾[8]، قال الزمخشري:« ويوم الجُمُعة تثقيل للجُمْعَة كما قيل في عُسْرَة عُسُرة، وقرئ بهن جمعياً»[9]. وقال الفراء:« خفّفها الأعمش فقال: الجُمْعة، وثقلها عاصم وأهل الحجاز»[10].

وفي الجمعة ثلاث لغات أفصحهن الجُمُعة بضمّ الجيم والميم والجُمْعة بضمّ الجيم وتسكين الميم، والجُمُعة بضمّ الجيم وفتح الميم قال صاحب اللسان:«..الأصل فيها التخفيف جُمْعَة، فمن ثقل أتبع الضمة الضمة، ومن خفّف فعلى الأصل والقراء قرؤوها بالتثقيل، ويقال يوم الجُمْعة لغة بني عقيل، ولو قرئ بها كان صواباً قال والذين قالوا: الجُمُعة ذهبوا بها إلى صفة اليوم أنه يجمع الناس... وهو الجُمْعَة والجُمُعة والجُمَعة، وهو يوم العَرُوبَة سمى بذلك لاجتماع الناس فيه.. وقيل الجُمْعة على تخفيف الجُمُعة والجُمَعة»[11].

وإشارة صاحب اللسان إلى أن الجُمْعة بالتخفيف لغة لبني عقيل، دلّ ذلك على أن قبائل البادية هي من كانت تجنح إلى الإسكان، في مقابل أهل الحجاز الذين يثقلون كما نصّ على ذلك الفراء في قوله السابق، ومن ثم يمكن القول بأن السبب الذي يقف وراء اللجوء إلى

[1] - سورة آل عمران ألآية 198.
[2] - الكشاف: 1/ 491، وإعراب القراءات الشواذ: 182/1.
[3] - الكشاف: 60/4.
[4] -سورة الواقعة ألآية 93.
[5] - سورة الحشر الآية 14.
[6] - الكشاف : 85/4.
[7] - المحتسب: 2/ 316.
[8] - سورة الجمعة الآية 09
[9] - الكشاف: 4/ 104.
[10] - معاني القرآن: 156/3.
[11] - اللسان: 53/5، (ج م ع).

الإسكان، هو أن قبائل البدو كانت تميل إلى اختصار الجهد العضلي وهذا لا يناسب النطق بحركتين متتابعتين، وهما هنا الضّمتان، فاختارت تلك القبائل اللجوء إلى الإسكان، وهو أخف من الحركة بوجه عامّ.

❖ المبحث الثاني: الظواهر التشكيلية في الصوامت.

يتناول هذا المبحث الظواهر السياقية في قسم الصوامت وهي تشمل الإدغام أو المماثلة الكاملة بالإضافة إلى الترخيم اللغوي، وهما في الواقع يشيران إلى ما يقتضيه الكلام في بعض الأحيان من تغير صوتي قد يكون بالاختزال كما في الإدغام وقد يكون بالحذف كما في الترخيم، وكل ذلك يهدف إلى أداء أيسر وأسهل، وهذا لا يتمّ إلا في درج الكلام، وبالتالي يمكن القول إن الإدغام والترخيم ظاهرتان وظيفيتان تشكيليتان، وإن اختلفت طرائق وقوعهما في الكلام، وفيما يلي بيان ذلك.

1) الإدغـــــــــام

الإدغام هو اللفظ بحرفين حرفاً كالثاني مشدّداً، وينقسم إلى كبير وصغير: فالكبير ما كان الأول من حرفين فيه متحركاً، سواء كانا مثلين أو جنسين أم متقاربين، وسمي كبيراً لكثرة وقوعه إذ الحركة أكثر من السكون. وقيل لتأثيره في إسكان المتحرك قبل إدغامه، وقيل لما فيه من الصعوبة، وقيل لشموله نوعي المثلين والجنسين والمتقاربين[1] .

وأما الصغير فهو الذي يكون الأول منهما ساكناً.. ووجهه طلب التخفيف قال أبو عمرو بن العلاء: الإدغام كلام العرب الذي يجري على ألسنتها ولا يحسنون غيره[2].

ومعنى الإدغام في كلام النحويين الإدخال ويريدون به إدخال الحرف في الحرف يقال: أدغمت الحرف وأدّغمته، وهو مأخوذ ــ كما قال الجوهري ــ من إدخال اللجام في أفواه الدواب[3]، وقال الزمخشري:« ثقل التقاء المتجانسين على ألسنتهم فعمدوا بالإدغام إلى ضرب

---

1 - النشر في القراءات العشر لابن الجزري: 215/1.
2 - نفسه: 216/1.
3 - لسان العرب : 9/ 185 (د غ م) (بتصرف).

ضرب من الخفّة، والتقاؤهما على ثلاثة أضرب: أحدهما أن يسكّن الأول ويتحرك الثاني فيجب الإدغام ضرورة..»[1].

ويفهم مما سبق أن الإدغام نوع من التخفيف، كما أشار إلى ذلك الزمخشري في قوله السابق، يهدف إلى السهولة في الأداء، والاقتصاد في الجهد العضلي المبذول.

وقد عرض لموضوع الإدغام كل من اللغويين والنحويين والقراء، وتناوله كل فريق بما سمحت له به مادته، وقد سجل كل فريق من الظواهر ما أعانهم عليه مستوى بحثهم، وزاوية معالجتهم[2] .

وقد كان سيبويه[3] سباقاً إلى تقرير ذلك التصور اللغوي للإدغام حينما تحدث عنه في "باب الإدغام في الحروف المتقاربة" و"باب الإدغام في الحرفين الذين تضع لسانك لهما موضعاً، واحداً لا يزول عنه" وغيرها من الأبواب.

سبق الحديث عن أن الإدغام ينقسم قسمين كبير وصغير، وهذا بالنظر إلى طبيعة الحرفين المراد إدغامهما من حيث التحريك والإسكان، وأما ما سنتحدث عنه الآن فهو التقسيم المتصل بأنواع الأصوات المتجاورة من حيث التماثل أو التقارب أو التجانس ودرجات التقريب في تاء الافتعال، وكل ذلك سنعرض له من خلال كتاب سيبويه.

أ- إدغام المتماثلين.

1)إذا كانا صحيحين في كلمة واحدة، ولم يكن أحدهما تاء " افتعل" فلهما عدة حالات.

أ- إذا كان الثاني منهما متحركاً: أجمع العرب في هذه الحالة على الإدغام، يقول سيبويه[4]، «والتضعيف أن يكون آخر الفعل حرفان من موضع واحد، وذلك(رددت) و(وددت)...فإذا تحرك الحرف الآخر، فالعرب مجمعون على الإدغام، وذلك فيما زعم (الخليل) أولى، لأنه لما كانا من موضع واحد ثقل عليهم أن يرفعوا ألسنتهم من موضع ثم يعيدوها إلى ذلك الموضع للحرف الآخر فلما ثقل عليهم ذلك، أرادوا أن يرفعوا رفعة واحدة وذلك قولهم: ردي، واجترا، وانقدوا.».

---

[1] - المفصل للزمخشري، ص 418، أقول اقتصرنا على هذا الضرب الأول لأنه هو ما نحن بصدد الحديث عنه فهو الشائع في الكلام.
[2] - ينظر أثر القراءات في الأصوات والنحو العربي،ص 128.
[3] - ينظر الكتاب: 437/4، وما بعدها.
[4] - في باب" هذا باب مضاعف الفعل واختلاف العرب فيه". الكتاب: 529/3.

ب- إذا كان الثاني من المثلين ساكنا، لاتصاله بتاء المتكلم أو تاء الفاعلين أو نون النسوة: فالعرب مجمعون على الفك، إلا ناسا من بكر بن وائل يقول سيبويه:« وأهل الحجاز وغيرهم، مجتمعون على أنهم يقولون للنساء: (ارددن)، وذلك لأن الدال لم تسكن هنا لأمر ولا لنهي ألا ترى أن السكون لازم له في حال النصب والرفع وذلك قولك: رددن، وهن(يرددن)، و(على أن يرددن)، ومثل ذلك قولهم: (رددت) و(مددت)، لأن الحرف بني على هذه التاء[1]، كما بني على النون[2]، وصار السكون فيه بمنزلته فيما فيه نون النساء.

وزعم (الخليل) أن ناساً من بكر بن وائل يقولوا: (ردن) و(مدن) و(ردت) جعلوه بمنزلة (رد) و(مد)»[3].

ت- إذا كان الثاني من المثلين ساكنا لأمر أو حرف، أو جزم ففيه مذهبان:

1. **فك الإدغام:** وهو مذهب الحجازيين[4] يقول سيبويه:« فإذا كان حرف من هذه الحروف [أي الأفعال المضعفة] في موضع تسكن فيه لام الفعل، فإن أهل الحجاز يضاعفون، لأنهم أسكنوا الآخر، فلم يكن بد من تحريك الذي قبله؛ لأنه لا يلتقي ساكنان، وذلك قولك: اردد واجترر..»[5].

2. **الإدغـــام:** وقد نسبه سيبويه إلى تميم وغيرهم من العرب فقال:« وأما بنو تميم، فيدغمون المجزوم، كما أدغموا إذ كان الحرفان متحركين، لما ذكرنا[6]، من المتحركين، فيسكنون الأول ويحركون الآخر، لأنهما لا يسكنان جميعاً وهو قول غيرهم من العرب وهم كثير»[7].

فهو إذن أشرك مع تميم غيرها من العرب، وقوله:« وهم كثير» هذا لا يعني أن هذا العدد مطلق دون تحديد، فإذا عرفنا أن قبيلة تميم تنتمي إلى القبائل البدوية التي استوطنت وسط الجزيرة العربية وشرقيها، أمكننا أن نعرف أن هذه القبائل كانت تميل إلى السرعة في نطق الكلمات، ومزج بعضها ببعض، وتلك طبيعة البدو التي لا تستقر على حال. وأهم القبائل

---

1 - أي تاء المتكلم .
2 - أي نون النسوة.
3 - الكتاب: 3/ 534 – 535.
4 - ينظر الخصائص، 270/1.
5 - الكتاب: 530/3.
6 - أي لعلة أنهم أرادوا أن يرفعوا ألسنتهم بالصوتين رفعة واحدة، وهي العلة نفسها التي ذكرها في إدغام المتحركين.
7 - الكتاب: 530/4.

التي استوطنت وسط الجزيرة العربية وشرقيها هي: طئ، أسد، بكر بن وائل، تغلب، وعبد قيس، إضافة إلى قيس وكنانة.

ولذا فإن ذكر سيبويه لقبيلة تميم دون غيرها من القبائل يمكن تفسيره بأن تميما تعد أشهر القبائل البدوية لهجة ومكانة، ولهذا وجدنا أن من اللغويين من ينسب هذه الظاهرة إلى تميم وحدها دون ذكر لغيرها[1].

على أن المبرد[2]، حدد هؤلاء المشاركين لتميم في الإدغام بأنهم " قيس" و"أسد"، ولا ندري كيف أن استقراء المبرد أوصله إلى أن قبيلتين فقط شاركتا تميما في الإدغام، إذ أن الأمر أوسع مما ذكر كما رأينا.

وفي محاولة لتفسير ظاهرتي الفك والإدغام عند العرب نورد رأيا لإبراهيم أنيس يقول فيه:« أما السر في التزام الحجازيين فك الإدغام، فهو أن يترتب على الجزم عادة نقل النبر[3] من موضعه إلى المقطع الذي قبله.. وعلى هذا كان من الواجب في حالة جزم الفعل (يرد) أن ينتقل النبر من المقطع(رد) إلى المقطع (يــ) لتصبح الكلمة (لم يرد)، ولكن التباس هذا الوضع بوضع الفعل المعتل العين، والحرص على إظهار التضعيف، جعل العرب من الحجازيين يفكون الإدغام ليجمعوا بين أمرين: نقل النبر إلى الوراء بسبب الجزم، وإظهار تضعيف الفعل....

« أما بنو تميم فلم ينقل النبر في لهجتهم بسبب الجزم، وبهذا بقي الإدغام، فكانوا يقولون في الوقف(لم يرد)، أما في الوصل فكانوا يحركون الدال الثانية بحركة لالتقاء الساكنين»[4] .

كما يمكن تفسير ذلك أيضاً بما سبق وأشرنا إليه من أن القبائل البدوية، كانت تميل إلى السرعة في نطقها[5]، فلا تتريث فتنطق الصوت لتعطيه حقه من الآداء، فإذا كان الصوتان

---

[1] - ينظر مثلا المحتسب: 1/ 148..

[2]- ينظر الكامل في اللغة والأدب: 199/1.

[3] - النبر - في اصطلاح المحدثين من اللغويين ، هو الضغط على مقطع خاص من كل كلمة، لجعله بارزاً أوضح في السمع من غيره من مقاطع الكلمة وهو ظاهرة موجودة في جميع اللغات. (ينظر إبراهيم أنيس الأصوات اللغوية، ص 171 وما بعدها)، و(في اللهجات له أيضاً ،ص 145).

[4] - ينظر إبراهيم أنيس في اللهجات العربية، ص 150

[5] - ينظر نفسه، ص 71و115.

متماثلين مزجتهما، في حين أن القبائل الحضرية تميل إلى التأني وإعطاء كل صوت حقه من الآداء[1]، فتُظهر الصوتين المتماثلين كلا على حدة.

هذا ويعتبر سيبويه اللهجات الحجازية بأنها العربية القديمة، في الوقت الذي يجد للهجة التميمية مبررا في العربية، يقول[2]، « ودعاهم سكون الآخر في المثلين أن بين أهل الحجاز في الجزم فقالوا: (اردد) و (لا تردد). وهي اللغة العربية القديمة الجيدة، ولكن بني تميم أدغموا ولم يشبهوها برددت، لأنه يدركها التثنية، والنون الخفيفة والثقيلة، و الألف واللام و[ألف الوصل] فتحرك لهن».

2)إذا كان المتماثلان صحيحين، في كلمة واحدة أحدهما تاء " افتعل".

يقول سيبويه:« ومما يجري مجرى المنفصلين قولك (اقتتلوا) و(يقتتلون)، إن شئت أظهرت وبينت، وإن شئت أخفيت وكانت الزنة على حالها، كما تفعل بالمنفصلين في قولك (اسم موسى) و (قوم مالك)، لا تدغم...

« وقد أدغم بعض العرب فأسكن لما الحرفان في كلمة واحدة، ولم يكونا منفصلين، وذلك قولك : (يقتلون) و (قد قتلوا)، وكسروا القاف، لأنهما التقيا[3]، فشبهت بقولهم:(رد يا فتى).

« وقال آخرون: قتلوا، ألقوا حركة المتحرك على الساكن»[4].

فنحن إذن حيال ثلاث لهجات في تاء (اقتتل):

ـــ لهجة تظهرها، والظن الغالب أنها للقبائل الحضرية المتأنية في أدائها للكلمات.

ـــ لهجة تخفيها، ويقصد بذلك سيبويه أن تجعلها وسطا بين الإدغام والفك، وهي أيضاً تلائم القبائل الحضرية، أو من امتزج بها من البدو، فتجانس بين الإدغام وفكه بالإخفاء.

ـــ لهجة تدغمها في التاء والتي بعدها. والظن الغالب أنها للقبائل البدوية التي شبهتها بالإدغام في (رد) ونحوها، لما في توالي المتماثلين من جهد عضلي يعوق سرعتها في الأداء.

---

[1] - إبراهيم أنيس في اللهجات العربية، ص 71/ 115
[2] - الكتاب: 4/ 473.
[3] - أي التقت القاف وهي ساكنة مع الصوت المدغم الساكن.
[4] - الكتاب: 443/4.

هذا إلى أن هؤلاء المتكلمين بهذه اللهجات اختلفوا في حركة فاء المدغم فيه كما اختلفوا من قبل في حركة لامه، وذلك على النحو الآتي:

ــ بعضهم كسر الفاء وأتبعها بكسر الصوت المدغم فقالوا(قد قتلوا) وهم: بكر بن وائل وتميم بن مرة.

ــ بعضهم الآخر فتح الفاء إتباعاً للصوت المدغم، فقالوا: قد قتلوا ولعلهم من أولئك الذين فتحوا لام المدغم فيه مطلقاً، وهم بعض أسد، أو لعلهم غير بكر بن وائل وتميم بن مرة من القبائل البدوية.

3)إذا كان المثلان معتلين.

يقول سيبويه:« واعلم أن آخر المضاعف من بنات الياء يجري مجرى ما ليس فيه تضعيف من بنات الياء، ولا تجعل بمنزلة المضاعف من غير الياء، لأنها إذا كانت وحدها لاما لم تكن بمنزلة اللام من غير الياء، فكذلك إذا كانت مضاعفة، وذلك نحو: " يعيا"...و(يعيي) اجريت ذلك مجرى (يخشى) و(يخشي).

ثم يقول: « فإذا وقع شيء من التضعيف بالياء في موضع تلزم ياء (يخشى) فيه الحركة، وياء (يرمي)، لا تفارقها، فإن الإدغام جائز، لأن اللام من (يرمي) و(يخشى) قد صارتا بمنزلة غير المعتل، فلما ضاعفت صرت كأنك ضاعفت في غير بنات الياء...وذلك قولك:(قد حي في هذا المكان)، و(قد عي بأمره). وإن شئت قلت: (قد حيي في هذا المكان)، و(قد عيي بأمره) والإدغام أكثر، والآخرة عربية كثيرة»[1].

وعلى هذا ففي (حي) ونحوها لهجتان :

الإدغام: نحو (قد حيّ في هذا المكان)، وأغلب الظن أن هذه اللهجة للقبائل البدوية مثل بكر وائل وغيرها. ولا يخفى أن في توالى المثلين ثقلا لا يسهله إلا الإدغام.

[1] - الكتاب: 395/4.

فك الإدغام: نحو (قد حيي في هذا المكان)، ويبدو أن هذه اللهجة للقبائل الحضرية التي تراعى التؤدة في نطقها وإعطاء كل صوت حقه من الأداء.

ب.إدغام المتجانسين.

ــ إدغام التاء في الدال:

أ- (وتد) و(ودّ):

يقول سيبويه[1]، في باب « ما كان شاذا مما خففوا على ألسنتهم وليس بمطرد»، ومن ذلك قولهم (ودّ)، وإنما أصله (وتد)، وهي الحجازية الجيدة، ولكن بني تميم أسكنوا التاء كما قالوا في (فَخِذ): (فَخْذ)، فأدغموا».

فتجاور التاء والدال في (وتد)، وهما من مخرج واحد (أسنانيان لثويان)، وهما أيضا من مجموعة الأصوات (الحروف) النطعية لخروجها من نطع غار الحنك الأعلى وهو سقفه، فلما تجاورا تأثر الأول بالثاني، والأول لتتحقق المماثلة بالجهر، وهو تأثر رجعي.

وفي ذكر سيبويه أن (وتد) حجازية ووصفها " بالجيدة " إشارة إلى أنها الأفصح، غير أن بني تميم أسكنوا التاء فقالوا(وَتْد) وشبهوها بـــ (فَخْذ) في (فَخِذ)، ويشير سيبويه إلى أن هذا ــ أي ما ذهبت إليه تميم من إدغام ــ غير مطرد وأن فيه التباسا بالمضعف.

والذي يبدو أن ليس هناك التباس بين(ودّ) المدغمة و(ودّ) المضعفة لإمكانية التفريق بينهما، إذ الأولى اسم والثانية فعل، والسياق كفيل بتبين المراد.

هذا ويعلل ابن جني لتسكين حرف التاء ــ عند تميم ــ بقوله: « ألا ترى أنك إنما أسكنته لتخلطه بالثاني، وتجذبه إلى مضامته و مماسة لفظه بلفظه بزوال الحركة التي كانت حائزة بينه وبينه »[2].

ومع أن سيبويه يصف (وتد) الحجازية بأنها " الجيدة"، فإننا نجد اطرادا غير قليل لما ذهبت إليه تميم في كتب اللغة[3]، مما يدل على أن الإدغام كان يسيطر على مناطق شاسعة من الجزيرة العربية[4]، وامتد منها إلى الكوفة وهي من أعمال العراق، والقبائل العراقية

[1] - الكتاب: 481/4.
[2] - الخصائص: 2/ 140، وهو عنده يدخل في باب الإدغام الأكبر (تنظر الصفحة التي بعدها).
[3] - ينظر مثلا الزجاجي الجمل في النحو ص 380، وشرح الشافية: 368/3، وشرح ابن يعيش 152/10، واللسان (ودد) .
[4] - ينظر أحمد علم الدين الجندي، اللهجات العربية في التراث(القسم الأول)ص 297،298.

تأثرت بالبادية، لما كانت تميل إليه هذه الأخيرة من تحري السرعة في النطق اقتصاداً للجهد واستجابة لطبيعتها المتحولة التي لا تستقر على حال.

ب- : (عدته) و(عدّه):

ويقول سيبويه:« وقال بعضهم: (عدّه)، يريد: عدته...وقالوا:(نقدّه) يريدون(نقدته)»[1]، وقد شبه سيبويه ما حدث هنا، بما حدث في (إدّان)، وما حدث من تشبيه الصاد وأخواتها بهن في " افتعل "، بمعنى أن أصل إدان (إدتان) فلما كانت الدال مجهورة والتاء مهموسة، أدغمت في نظيرها ومماثلها المجهور فصارت "إدان" كما أن في صيغة افتعل في مثل قولنا(اصتبر) تقلب التاء إلى نظيرها المستعلي المجانس للصاد في إطباقها وهو الطاء، ثم الطاء في الصاد، لأنها تماثلها استعلاء وإطباقاً فتصير "اصّبر"، ولا يحدث العكس[2]، وهذا تأثر تقدمي.

ولئن لم يعز سيبويه (عدّه) و(عدته) لأحد الفريقين، الحجاز أو تميم فإن الظن الغالب هو أن (عدّه) بالإدغام هي لتميم ومن تابعها، في حين أن (عدته) للحجازيين لما ذكرنا من العلل.

ـــ إدغام التاء في الطاء.

يقول سيبويه:« ومما يدغم إذا كان الحرفان من مخرج واحد... قولهم: (يطّوعون) في(يتطوعون)... والإدغام في هذا أقوى... والبيان فيهما عربي حسن، لأنهما متحركان.. وتصديق الإدغام قوله تعالى: ﴿يَطّيراً بِمُوسَى﴾[3]" [4].

---

[1] - الكتاب: 472/4..

[2] - يرى سيبويه أنه يمتنع أن تدغم الصاد في الطاء لأن الصاد من حروف الصفير، ومعلوم أن حروف الصفير أندى (أي أرفع وأعلى) في السمع من غيرها، ولذا فإن في إدغامها ذهاب لهذه الصفة فامتنعت، كما امتنعت الراء (المكررة) من الإدغام في اللام والنون، (ينظر الكتاب: 664/4،665)، ونحن نقول:إن عدم جواز إدغام حروف الصفير في غيرها أمر يؤيده المنطق اللغوي، ذلك أن في أصوات الصفير مثل الصاد صفيراً وهي صفة اختصت بها، ففي إدغامها ذهاب لهذه الخاصية بقول ابن جني معللا عدم جواز(اطّبر) في (اصطبر)، وجواز اصّبر: " لأن في الصاد صفيراً، وتمام صوت فلو أدغمتها لسلبتها ذلك، ومتي كان الإدغام ينقص الأول شيئا لم يجز". (المنصف: 328/2)، وهناك أصوات أخرى لها صفات اختصت بها مثل (الشين) التي لها فضلية التفشي والضاد التي لها فضيلة الاستطالة و (الراء) التي لها فضليه التكرار، فلا يجوز أن تدغم هذه الأصوات في غيرها لئلا يذهب الإدغام بصفات امتازات بها.

وملخص هذا المبدأ فيما قاله ابن جني " وإنما المذهب أن تدغم الأضعف في الأقوى" (المنصف 328/2)، وحروف الصفير على رأس الحروف القوية، لأنها تمتاز بقوة الوضوح السمعي.

ومن العجيب إن نجد لهذه الفكرة تأبيدا في الدراسات الصوتية الحديثة، فقد صاغ اللغوي الفرنسي جرامون قانونا صوتيا سماه (قانون الجهد الأقوى)، وهو قانون حقق شهرة مفاده: أنه حين يؤثر صوت في آخر، فالأضعف بموقعه في النطق أو بامتداده النطقي هو الذي يكون عرضة للتأثر بالآخر، (ينظر أحمد مختار عمر، دراسة الصوت اللغوي ص 319)، و (الأصوات اللغوية لعبد القادر عبدالجليل ص 268). بيد أن أبا عمرو بن العلاء وكبار الكوفيين مثل الفراء وثعلب أجازوا إدغام الراء (المكررة) في اللام لما في الراء من تكرير ثم إن محيء اللام بعدها ـ وهي مقاربة لها في المخرج ـ مبعث ثقل وصعوبة في النطق لأنه يصير كالنطق بثلاثة أحرف من مخرج واحد فطلب التخفيف بالإدغام.

وإدغام الراء في اللام أمر أيدته الدراسات الصوتية الحديثة (ينظر إبراهيم أنيس، الأصوات اللغوية ص 199).

[3]- سورة الأعراف الآية131.

[4] - الكتاب: 474/4 ، 475.

والذي يبدو أن الذين جنحوا إلى الإدغام في (يطّوعون) إنما هي القبائل البدوية التي يشق عليها الانتقال من مرقق مستفل وهو التاء، إلى مفخم مطبق مستعل وهو الطاء فآثرت المطبق المستعلي، لما فيه من وضوح في السمع، ونبر عال عند العملية التمفصلية.

ويقول سيبويه:« وقد شبه بعض العرب ممن ترضى عربيته هذه الحروف الأربعة: الصاد والضاد والطاء والظاء في " فعلت"، بهن في "افتعل"، لأنه يبني الفعل على التاء، ويغير الفعل، فتسكن اللام، كما أسكن الفاء في افتعل ــ وذلك قولهم: فحصط برجلي وحصَطُ عنه، وخبطه.. يريدون:حصت عنه و(خبطته)..وسمعناهم ينشدون هذا البيت لعلقمة بن (عبدة):

وفي كل حي قد خبط بنعمة *** فحق لشأس من نداك ذنوب[1]

«وأعرب اللغتين وأجودهما أن لا تقلبها طاء، لأن هذه التاء علامة الإضمار وإنما تجيء لمعنى[2].

فلما تجاورت الطاء المطبقة المفخمة مع التاء المستفلة المرققة، أثرت قوة الأطباق في الطاء فاجتذبت إليها صوت التاء المرققة فأدغمت فيها.

وقد عزا سيبويه هذه اللهجة لتميم[3].

ــ إدغام الطاء في التاء.

يقول سيبويه« ومما أخلصت فيه الطاء تاء سماعا من العرب قولهم: (حتّهم) يريدون: حطتهم»[4].

والذي حدث هنا أن تجاورت طاء مجهورة مع تاء مرققة، ولا يخفى أنه من الصعب الانتقال من صوت مطبق إلى مرقق، فتحولت الطاء إلى تاء لتدغم في التاء التي تليها تحقيقا للانسجام ومراعاة لصفة الترقيق.

وأغلب الظن أن أصحاب الإدغام هنا إنما هم القبائل التي طبعتها البداوة بطابع السرعة حتى في أداء كلماتها .

---

[1] - أمالي ابن الشجري: 181/2، والمنصف:332/2، وابن يعيش: 48/5.
[2] - الكتاب: 471/4، 472.
[3] الكتاب : 240/4.
[4] - نفسه: 240/4.

أما اللهجة الأخرى فهي لقبائل ذات استقرار معيشي يفرض عليها تؤدة في النطق وأناة في تحقيق الأصوات كلا حدة.

ت. إدغام المتقاربين.

ــ إدغام الذال في الزاي أو السين.

يقول سيبويه:« وسمعناهم يقولون (مزّمان) فيدغمون الذال في الزاي، و(مسّاعة)، فيدغمونها في السين والبيان فيها أمثل، لأنها أبعد من الصاد وأختيها»[1] "[2].

فــ (مزّمان) أصلها: (مذزمان)، تجاورت فيها الذال والزاي وهما صوتان مجهوران مصمتان، رخوان، غير أن الأول أسناني والثاني أسناني لثوي، فقرب بينهما فأدغما .

كما أن (مسّاعة) أصلها (مذساعة)، تجاورت فيها الذال والسين، وهما صوتان مصمتان، رخوان مستفلان، إلا أن الأول أسناني والثاني أسناني لثوي فأدغما.

والذي يبدو أن أصحاب الإدغام هنا هم أصحابه في المتماثلين والمتجانسين، لأن المتعجل يصعب ويشق عليه النطق بالذال ثم الزاي أو السين كما يصعب عليه النطق بالمتماثلين أو المتجانسين، ولعل ما يدعم هذا ما عزي إلى تميم من قولهم : (مدّ) في(منذ)[3].

ــ العين مع الهاء.

يقول سيبويه:« العين مع الهاء: كقولك (اقطع هلالا)، البيان أحسن فإن أدغمت لقرب المخرجين حولت الهاء حاء والعين حاء ثم أدغمت الحاء في الحاء، لأن الأقرب[4] إلى الفم لا يدغم في الذي قبله[5]، فأبدلت مكانها أشبه الحرفين بها، ثم أدغمته فيه، كي لا يكون الإدغام في الذي فوقه، ولكن ليكون في الذي هو من مخرجه ولم يدغموها في العين إذ كانتا من حروف الحلق، لأنها خالفتها في الهمس والرخاوة، فوقع الإدغام لقرب المخرجين، ولم تقو عليها العين إذ خالفتها فيما ذكرت لك.

[1] - أي السين والزاي.
[2] - الكتاب: 464/4.
[3] - السيوطي المزهر: 276/2.
[4] يريد الحاء لأن مخرجها من الحلق.
[5] يريد الهاء لأن مخرجها من الحنجرة فهي أبعد من الحاء بالنسبة للفم.

ولم تكن حروف الحلق أصلا للإدغام، ومع هذا فإن التقاء الحائيين أخف في الكلام من التقاء العينين...ومما قالت العرب تصديقاً لهذا في الإدغام قول(بني تميم):(محّم) يريدون (معهم)و(محّاؤلاء) يريدون (مع هؤلاء)»[1].

لقد أشار سيبويه ـــ في هذا النص ـــ إلى ظاهرة تأثر الأصوات بعضها ببعض كما أشار إلى صفات بعض الأصوات، وتنبه إلى صعوبة تآلف أصوات الحلق بعضها وبعض.

والذي حدث في (محّاؤلاء) و(محّم)، هو أن العين والهاء ـــ وهما صوتان حلقيان باصطلاح القدماء ـــ، فالعين صوت حلقي مجهور، والهاء صوت حلقي مهموس، فثقل النطق بهما لعدم تجانسهما في صفتي الجهر والهمس، فلم يمكن إدغامهما فقلبت العين المجهورة إلى نظيرها المهموس، وهو الحاء، لمجاورته لصوت الهاء المهموس، ولم يمكن أيضاً إدغام الحاء في الهاء لأنهما ليستا من مخرج واحد، لأن الحاء حلقي والهاء حنجري ـــ في عرف الدراسات الصوتية الحديثة ـــ فالحاء إذن، أقرب إلى الفم من الهاء فتأثرت هذه الأخيرة بالحاء فأدغمت فيها، فقيل: (محّاؤلاء) و(محّم)، وهو تأثر تقدمي.

هذا وقد عزا سيبويه[2]، هذه اللهجة إلى(تميم)، ويستغرب دكتورعبده الراجحي في ها العزو، لأنه يرى أن الميل إلى الهمس مناقض لنظيره وهو الميل إلى الجهر الذي اشتهرت به تميم بين سائر القبائل حتى نسبوا إليها ما يسمونه بالعنعنة[3] .

ويذكر بعض الدارسين أنه لا تزال تسمع هذه اللهجة في بعض مناطق(نجد) إذ يقولون (محّم)، و(محّد)، ويريدون(معهم)، و(معهد)، ولا يزال يسمع بعض الحجازيين أيضاً يقولون، (محّد)، ويفسر هذه الصورة اللهجية الحديثة بأنها تعود إلى هجرة القبائل البدوية إلى المدن والحواضر الحجازية، أو إلى عامل السرعة الذي فرضته الحياة، حتى في مجال النطق بأصواته اللغة[4].

[1] - الكتاب: 450/4.

[2] - الكتاب: 450/4.، وتابعه في ذلك المبرد المقتضب:208/1، وابن عصفور الممتع : 681/2، وشرح الشافية للرضي: 266/3. والمزهر للسيوطي: 194/1.

[3] - العنعنة قلب الهمزة عينا إذا اجتمعت مع همزة ثانية أو مع نون، ويستشهدون على ذلك بقول ذي الرمة:
أعن ترممت من خرقاء منزلة *** ماء الصبابة من عينيك مسجوم(ابن جني: سر الصناعة 234/1).

[4] - ينظر ، اللهجات في كتاب سيبويه لصالحة راشد غنيم آل غنيم، ص 207.

هذا إلى أن بعض اللهجات الحجازية الحديثة تجنبت هذا الإدغام بأن فصلت بين الصوتين بألف، فيقال(معاهم) و(معاه) بدل (معهم) و(معه)[1].

ـ إدغام لام "هل"و"بل":

في التاء.

قال سيبويه: وقد قرئ:« ﴿ بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾[2]، بإدغام اللام في التاء وقال مزاحم العقيلي:

فدع ذا، ولكن هتّعين متيما *** على ضوء برق آخر الليل ناصب.

يريد هل تعين؟»[3].

فإدغام اللام في التاء جائز، لأن مخرج اللام قريب من مخرج التاء، وقد جاء على

قراءة الإدغام قوله تعالى:﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ هَلْ تَنقِمُونَ مِنَّا إِلاَّ أَنْ آمَنَّا بِاللَّهِ﴾[4]، فقد قرئ «هتّنقمون»، وقوله تعالى:﴿ هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾[5]، فقد قرئ "هتّعلم".

وقد ترددت أسماء مثل الكسائي وحمزة في هذا الإدغام وهما كوفيان، والكوفة متأثرة بالقبائل التي آثرت الإدغام كتميم وأسد اللتين سكنتا شرق الجزيرة العربية، وهما بلا شك من القبائل البدوية التي آثرت الإدغام خفة منها في تحقيق أصواتها.

وعلى ما أنشده سيبويه لمزاحم العقيلي، فإن بني عقيل هي أيضاً من القبائل البدوية التي استوطنت صحراء نجد، وقد كانت على صلة قوية بالقبائل المدغمة كتميم وأسد.

فالشاهد في البيت أصله ـ على الإظهار ـ(هل تعين) فإدغام اللام في التاء واللام قريبة من التاء ـ كما سبق ـ لأن تحقيق الصوتين في وقت واحد بالإدغام، أخف من تحقيقها منفردين.

[1] - ينظر اللهجات في كتاب سيبويه لصالحة راشد غنيم آل غنيم، ص 207.
[2] - سورة الأعلى الآية 16.
[3] - الكتاب 459/4.
[4] - سورة المائدة الآية59.
[5] - سورة مريم الآية 65.

في الـــــــــــــراء.

يقول سيبويه:«...فإذا كانت غير لام المعرفة، نحو لام (هل) و(بل)، فإن الإدغام في بعضها أحسن، وذلك قولك:(هرأيت؟)، لأنهما أقرب الحروف إلى اللام، وأشبهها بها فضارعتا الحرفين اللذين يكونان من مخرج واحد..وأن لم تدغم قلت:(هل رأيت؟) فهي لغة لأهل الحجاز، وهي عربية جائزة»[1].

ويظهر مما سبق أن أكثر القبائل العربية مالت إلى الإدغام، وحسبنا أن سيبويه يقول عنه: إنه أحسن، في حين يقول عن لغة الفك: هي عربية جائزة، ومن هنا فإن إدغام اللام في الراء كثير في العربية، ويرجع ذلك إلى أن الراء "أقرب الحروف إلى اللام ــ كما يقول سيبويه ــ وأشبهها بها فضارعتا الحرفين الذين يكونان من مخرج واحد».

هذا إلى أن كلا من اللام والراء من مجموعة الأصوات المتوسطة أو المائعة المعروفة في اللاتينية(Liquida)، وسميت متوسطة لأنها متوسطة بين الشدة والرخاوة، إضافة إلى أنها شبيهة بأصوات اللين (العلة) الألف والواو والياء.

وإنما مالت اللام إلى الفناء والإدغام في الراء، لأنهما مجهورتان والراء أقرب الحروف إلى اللام، وإن اختصت الراء بصفة التكرير، مما يجعلها صوتا مركبا بالنسبة إلى اللام.

وقد ذكر الدكتور أنيس بأن الأصوات الأكثر شيوعاً في العربية تعد أكثرها عرضة للتطور من غيرها[2]، ولذلك وجد أن اللام تردد في القرآن الكريم وحده ــ حسب إحصائية ذكرها دكتور أنيس ــ 127 مرة في كل ألف من الأصوات الساكنة مما لا يدع مجالا للشك بأن اللام هي أكثر الأصوات العربية عرضة للتطور، فلا غرابة إذن إن وجدناها أميل الحروف إلى الذوبان والفناء فيما بعدها، وهذا ما تقول به نظرية الشيوع الحديثة التي نادي بها Wilhem Thomsen، كما قد يتعرض الصوت كثير الاستعمال ــ وفي ضوء هذه

---

[1] - الكتاب: 457/4.

[2] - ينظر الأصوات اللغوية ص 238.

النظرية ــ أيضا إلى السقوط من الكلام[1] وبالإدغام قرأ جمهور القراء ﴿ كَلاَّ بَلْ رَانَ﴾[2]، إلا حفصا فقد قرأ بالفك.

في الشين.

قال سيبويه:« وهي (أي اللام) مع الضاد والشين أضعف، لأن الضاد مخرجها من أول حافة اللسان، والشين من وسطه، ولكنه يجوز إدغام اللام فيهما لما ذكرت[3]، لك من اتصال مخرجهما.

قال (طريف) بن(تميم) العنبري[4].

تقول إذا استهلكــت مالا لـــــلذة *** فكيهة هشّــيء بكفيك لائـــــق؟

يريد: هل شيء؟ فأدغم اللام في الشين"[5].

فبالرغم من قول سيبويه السابق« وهي (أي اللام) مع الضاد والشين أضعف » إلا أنه جاز إدغام اللام ــ من هل وبل ــ في الشين، لاتساع مخرج الشين، وذلك لتفشيها حتى خالطت حافة اللسان أو طرفه، واللام من حروف طرف اللسان، فلذلك جاز الإدغام.

درجات التقريب في تاء " افتعل".

تتأثر تاء "الافتعال" بالأصوات المجاورة لها، ويهدف هذا التأثير إلى تيسير عملية النطق بالصوتين المتماثلين في صفتي الجهر والهمس أو الشدة والرخاوة، وأحياناً يصل فيه التأثير إلى حد فناء الصوت في غيره، وهي أقصى درجات التأثر. وعملية التأثير هذه تختلف من قبيلة عربية لأخرى، ونعرض الآن لدراسة هذه الصيغة مبينين درجات التقريب بين القبائل العربية.

---

[1] - يرى دكتور أحمد علم الدين الجندي أن ما ذكره الفراء في تعليل حذف الألف من البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) دون حذفها في غير البسملة مثل باسم ربك ومفاده: أن الألف لا تلزم اسما من أسماء الله تعالى كلزومها مع الله تبارك وتعالى، ولا تكثر مع اسم ككثرتها مع الله تبارك وتعالى يقول الفراء: ألا ترى أنك تقول بسم الله عند ابتداء كل فعل تأخذه فيه.(معاني القرآن: 2/1) قلت: يرى د/ الجندي أن هذا شاهدا من شواهد نظرية الشيوع الحديثة في التراث القديم (ينظر اللهجات العربية في التراث،ج1 ص 300).

[2] - سورة المطففين الآية 14.

[3] - يريد قوله: واللذان خالطاها: الضاد والشين لأن الضاد استطالت لرخاوتها حتى اتصلت بمخرج اللام والشين كذلك حتى اتصلت بمخرج الطاء(الكتاب 457/4).

[4] - نسبة إلى بلعنبر وهي من قبائل عمرو بن تميم وقد نسب إليها سيبويه فيما سبق قلب الصاد سينا دون غيرها من العرب. (ينظر الكتاب: 480/4) والبيت في الممتع: 694/2، واللسان: 334/10.

[5] - الكتاب : 458/4.

ـ تاء افتعل مع الثاء.

يقول سيبويه:« وإذا كانت هذه الحروف المتقاربة في حرف واحد ولم يكن الحرفان منفصلين، ازداد ثقلا واعتلالا، كما كان المثلان، إذ لم يكونا منفصلين أثقل..فمن ذلك قولهم في (مثترد):(مثّرد)، لأنهما متقاربان مهموسان، والبيان حسن،وبعضهم يقول:(متترد)، وهي عربية جيدة، والقياس:(مثّرد)، لأن أصل الإدغام أن يدغم الأول في الآخر»[1].

وذكر سيبويه أن هناك ثلاث لهجات وردت في تقريب التاء من الثاء هي:

مثترد ـ مثّرد ـ ومتّرد.

فتجاور الثاء والتاء في (مثترد)، وهما صوتان مهموسان، وقريبان من بعضهما مخرجاً، يجعل النطق بهما يحتاج إلى جهد عضلي غير يسير، وهو بلا شك نطق يُعزى إلى الحضر لما يعرفه من أناة وتؤده، في أداء الأصوات تفرضه الحياة المستقرة.

وأما لهجة(متّرد)، فيغلب على الظن أنها لقبائل بدوية اعتادت السرعة والخفة في نطقها، فآثرت صوت التاء لما فيه من انفجارية تنسجم وسرعة الأداء النطقي، وقد عرفت بذلك من قبائل العرب قبيلة أسد التي سكنت نجدا، فهي بدوية.

ومما يدعم هذا ما أورده الفراء من أنه سمع بعض بني أسد يقول: « قد اتغر، وهذه اللغة كثيرة فيهم خاصة، وغيرهم قد اثغر»[2].

وإذا أردنا أن نفسر ذلك صوتيا نقول: إن التاء والثاء صوتان مهموسان والثاء صوت رخو، بينما صوت التاء شديد، وقد سبق القول بأن الانتقال من صوت الثاء إلى التاء ثقيل ويحتاج إلى مجهود عضلي، لأن النطق بالثاء يقتضي الصفير وبالتاء يقتضي الانفجار، ووضع اللسان مختلف في الحالتين ولهذا انتقل مخرج الثاء إلى التاء فصارت الثاء شديدة بعد أن كانت رخوة فتماثل الصوتان واتحدا في الشدة والمخرج والهمس، فحدثت المماثلة الكاملة وهي الإدغام، وأما من قال من العرب: "مثّرد" فيغلب أنها للقبائل حضرية آثرت الأصوات الرخوة لما فيها من تؤدة في النطق.

1 - الكتاب: 467/4 و468.
2 - معاني القرآن: 215/1.

ـ تاء افتعل" مع الــذال.

يقول سيبويه:« وكذلك تبدل للذال من مكان التاء أشبه الحروف بها، لأنهما إذا كانتا في حرف واحد لزم أن يبينا إذ كانا يدغمان منفصلين، فكرهوا هذا الإجحاف، وليكون الإدغام في حرف مثله في الجهر، وذلك قولك(مُدَّكِرٌ) كقولك (مُطَّلِمٌ)، ومن قال:(مُطَّعِنٌ)، قال(مُدّكِر)، وقد سمعناهم يقولون ذلك والأخرى في القرآن، في قوله تعالى:﴿ فَهَلْ مِنَ مُدَّكِر﴾[1]»[2].

لقد أشار سيبويه ــ في هذا النص ــ إلى أن هناك لهجتين هما:
مُدَّكِر ومُدَّكِرٌ.

أما اللهجة الأولى فإن أصحابها آثروا الصوت الرخو وهو(الذال)، فأبدلت تاء الافتعال دالا وهو نظيرها المجهور، ثم أثر(الذال) في (الدال) فتحول(ذالاً)، فتماثل الصوتان كل المماثلة فتم الإدغام.

وقد عزا الفراء هذه اللهجة إلى أسد قال " وبعض بني أسد يقول: مذّكر فيغلبون الذّال فتصير ذالاً مشدّدة[3] .

على أن دكتور أنيس يرى أن هذا العزو إلى أسد "من الأمور التي يصعب تعليلها" وذلك لأن أسداً من القبائل البدوية المغلة في البداوة، ومعلوم أن البدو يؤثرون الأصوات الشديدة ــ كما سبق القول ــ بخلاف القبائل الحضرية التي تؤثر الأصوات الرخوة.

وانطلاقاً مما سبق فإنه كان حق أسد أن تؤثر الدّال بدل الذال لأن الدّال شديد يناسب سرعة الأداء عند قبائل البدو، على خلاف الذّال وهو النظير الرخو للدّال.

ويرى بعض[4] الدارسين أن ما يعلل هذا العزو ويدفع غرابته أن الفراء نسب ذلك إلى بعض أسد وليس إلى أسد قاطبة، ويذهب ــ هذا الدارس ــ إلى أن بعض أسد المعزو إليهم ربما يكونون ممن اتصل بالبيئات الحضرية فآثروا الصوت الرخو مع تركهم الإدغام.

[1] - سورة القمر الآية 15، 17، 22، 32، 40، 51.
[2] -الكتاب: 469/4.
[3] - معاني القرآن : 107/3.
[4] - ينظر اللهجات في الكتاب لصالحة راشد غنيم آل غنيم ، ص 214.

والذي يبدو أن نسبة الفراء إلى بعض أسد قد تعني واحدا من أسد أو جماعة من أسد، لأن بعض تقع على الواحد كما تقع على الجماعة، ولن يتسنى للفراء أن يسمع من قبيلة أسد برمتها، بل سيسمع من بعضها، وهذا البعض قد يكون واحد أو جماعة بحسب ما يتسنى لجامع اللغة من فرص للسماع من الأعراب. وقد يدعم هذا ما يريده بعض اللغويين والنحاة من مثل قولهم " وقال بعضهم "، و " سمعت بعضهم" وغيرها، بحيث يريدون عموم القبيلة أو مجموعة القبائل، من ذلك ما أورد في " تقريب التاء من الثاء" بحيث يقول سيبويه :« وبعضهم يقول مثترد ــ وهي عربية جيدة»[1]، وبعضهم هنا، يقصد بها مجموعة القبائل الحضرية التي عرفت بتحقيق الأصوات وتمييز بعضها عن بعض.

ومن هنا فإننا ننضم إلى الدكتور إبراهيم أنيس في استغرابه لهذا العزو وأنه من الصعب تعليله، إلا أن يكون ذلك دليلا على فساد ألسنة البدو نتيجة الاختلاط بالحضر، لأن كثرة إقامة الحضري في البدو تجعله يتأثر بلغة البداوة، وكذا إقامة البدوي في الحضر ولو لوقت غير طويل، تجعله أيضاً يتأثر بلغة الحضر، ولسنا بحاجة إلى ذكر دواعي انتقال البدو إلى الحضر والعكس، فهي كثيرة.

وأما اللهجة الثانية فإن أصحابها آثروا الصوت الشديد فصارت الذال الرخوة ــ كما يقول برجشتراسر ــ "دالا، والتاء المهموسة أصبحت مجهورة أي دالا أيضاً[2]، ولذا يغلب على الظن أن هذه اللهجة لقبائل موغلة في البداوة لما في صوت الدال من انفجارية، تتسق وميل البدو إلى السرعة في أداء الأصوات.

ــ تاء افتعل مع الظاء.

يقول سيبويه " وكذلك الظاء، لأنهما إذا كان منفصلين، يعني الظاء وبعدها التاء، جاز البيان، ويترك الأطباق على حاله إن أدغمت، فلما صار في حرف واحد ازدادا ثقلاً، وإذ كان يستثقلان منفصلين، فألزموها ما ألزموا الصاد والتاء، فأبدلوا مكانها أشبه الحروف بالظاء، وهي الظاء ليكون العمل من وجه واحد...وذلك قولهم: " مظطعن" و" مظطلم"، وإن شئت

[1] - الكتاب: 464/4، ورد ذلك في عنصر تقريب تاء (افتعل) من الثاء، ويقول الفراء في العنصر نفسه :" وسمعت بعض بني أسد يقول: قد اثغر، وهذه اللغة كثيرة فيهم خاصة" ، فدل على أن بعض هنا هي عموم بني أسد .

[2] - التطور النحوي للغة العربية ، ص 31.

قلت: مطّعن" و"مطّلم".. ومن قال: (مثّرد) و(مصّبر)، قال "مطّعن ومطّلم ومن قال مظّعن قال (مذّكر)"[1].

وتجنبا للتكرار وقياسا على مقالة سيبويه: « ومن قال (مظّعن)،قال (مدّكر)» نقول: إن ما قيل في (مدّكر) يقال في (مظّعن)، وما قيل في (مدّكر) يقال في (مظّهن).

ـ تاء افتعل مع الضاد.

يقول سيبويه:« وقالوا في (اضطجر): (اضّجر)، كقولهم: مصّبر»[2]، أن أصل الفعل (اضطجر) هو (اضتجر)، فتجاورت الضاد والتاء، وهما من مخرج واحد، إلا أن الضاد صوت مجهور مطبق والتاء مهموس منفتح، فتأثرت التاء المهموسة المنفتحة بالضاد المجهورة المطبقة، لأن الأقوى يؤثر في الأضعف ثم تحول التاء إلى نظيره المجهور وهو الطاء، وهذا النوع من التأثر تقدمي.

ويقول سيبويه :« والضاد في ذلك[3]، بمنزلة الصاد لما ذكرت لك من استطالتها كالشين، وذلك قولك(مضطجع)، وأن شئت قلت "مضّجع"، وقد قال بعضهم: ومطّجع" حيث كانت مطبقة، ولم تكن في السمع كالضاد وقربت[4]منها وصارت في كلمة واحدة، فلما اجتمعت هذه الأشياء، وكان وقوعها معها في الكلمة الواحدة أكثر من وقوعها معها في الانفصال، اعتقدوا ذلك وأدغموها".

هذا ونشير إلى أن (اضّجر) لهجة في (اضطجر)، ويغلب على الظن أنها لقبائل بدوية آثرت إدغام المتقاربين (الضاد والطاء) سعياً إلى تسهيل عملية أدائهما.

وما قيل في(اضّجر) و(اضطجر) يقال في(مضّجع) و(مضطجع). أما من آثر(مطّجع)، فيغلب أنه من أهل البداوة لما في الطاء من انفجارية، تتناسب وسرعة تحقيق الأصوات.

---

[1] - الكتاب:468/4 ، 469.
[2] - نفسه: 468/4.
[3] - أي في عدم إدغامها في غيرها.
[4] أي في المخرج وهو طرف اللسان و حافته.

ــ تاء افتعل مع الصاد.

يقول سيبويه:« وقالوا في مفتعل من صبرت مصطبر، أرادوا التخفيف حين تقاربا، ولم يكن بينهما إلا ما ذكرت لك، يعنى قرب الحرف[1]، وصارا في حرف واحد[2]، ولم يجز إدخال الصاد فيها، لما ذكرنا في المنفصلين[3]، فأبدلوا أشبه الحروف بالصاد وهي الطاء ليستعملوا ألسنتهم في ضرب واحد من الحروف وليكون عملهم من وجه واحد إذ لم يصلوا إلى الإدغام».

وأراد بعضهم الإدغام حيث اجتمعت الصاد والطاء، فلما امتنعت الصاد أن تدخل في الطاء قلبوا الطاء صاداً فقالوا (مصّبر)[4].

وحدثنا هارون(بن موسى القارئ) أن بعضهم[5]، قرأ(..فلا جناح عليهما أن يصّلحا بينهما صلحاً)[6] "[7].

فتجاور الصاد والتاء في (اصتبر)، وهما من مخرج واحد(الأسنان واللثة)، والصاد صوت مطبق، والتاء صوت مستفل، وللمطبق قوة التأثير في المستفل حسب قانون الجهد الأقوى، فأدى ذلك إلى قلب التاء إلى نظيره المطبق وهو الطاء ليجانس الصاد المطبقة فصارت (اصطبر) فهو (مصطبر).

أما (مصّبر) فهي لهجة في(مصطبر)، ويغلب على الظن أنها لقبائل موغلة في البداوة لأنه من الصعب على المتحضر أن ينطق بحرفين متقاربين بل متحدين في المخرج وصفة الإطباق، فأبدلت الطاء صادا ثم أدغمت في الصاد الأخرى وهي فاء الفعل، ولم يحدث العكس لما في الصاد من امتداد الصفير، ألا ترى أن كل واحد من الطاء وأختيها[8]، والظاء

---

[1] - أي المخرج.
[2] - أي كلمة واحدة .
[3] - يقصد قوله: وأما الصاد والسين والزاي فلا تدغمن في هذه الحروف التي أدغمت فيهن لأنهن حروف الصفير، وهن اندى في السمع وهؤلاء الحروف إنما هي شديد ورخو، ليس في السمع كهذه الحروف لخفائها(الكتاب: 464/4،465.).
[4] - سبق الحديث عن سبب عدم جواز إدغام حروف الصفير في غيرها.
[5] - هو عاصم الجحدري، (ينظر المحتسب: 201/1) وهي أيضاً قراءة عثمان (ينظر معاني القرآن للأخفش: 366/2).
[6] -سورة النساء الآية 128.
[7] - الكتاب: 467/4.
[8] - أي الدال والتاء وتسمى الأحرف النطعية .

وأختيها[1]، ويدغمن في الصاد وأختيها[2]، ولا يدغم واحدة منهن في واحدة منهن! فلذلك لم يجز يجز " إلا أن يطّلحا" وجاز يصّلحا"[3].

ويشبه ما حدث في " اصبّر" ما حدث فيما رواه الفراء من أنه " سمع بعض بني عقيل: عليك بأبوال الظباء فاصّعطها، فإنها شفاء للطحل"[4].

ولشرح هذه الظاهرة يمكن القول: " إن أصل الصيغة افتعل،اصتعط وقد اجتمع في تلك الصيغة صوتان مهموسان: الصاد والتاء غير أن أحدهما مطبق والآخر مستفل فقلبت التاء إلى نظيرها المطبق وهو الطاء فصارت الكلمة اصطعط ثم زاد تأثر الطاء بالصاد فصارت (اطّعط)، ولهجة عقيل فيها تيسير للمجهود العضلي لأن عمل اللسان فيها من وجه واحد، وعقيل بن قيس ـ وهي ضاربة في البداوة ـ، والبدو حريصون على أن تتأثر الأصوات المتجاورة وتتفاعل حتى لا ينتقل اللسان من علو إلى استفال أو عكسه، ولا شك أن هذا التفاعل أدى أخيرا إلى خلق صيغة أيسر، وذلك ما تهدف إليه القبائل البدوية وخير من يمثلها عقيل[5].

ـ تاء افتعل مع الواو والياء.

مع الــــــــواو.

يقول سيبويه:« وذلك في الافتعال، وذلك قولك(متّقد)، و(متّعد) و(اتّعد)، و(اتّقد)..في الاتعاد والاتقاد، من قبل أن هذا الواو تضعف ههنا، فتبدل إذا كان قبلها كسرة، وتقع بعد مضموم وتقع بعد الياء، فلما كانت هذه الأشياء تكنفها مع الضعف الذي ذكرت لك صارت بمنزلة الواو في أول الكلمة وبعدها واو في لزوم البدل لما اجتمع فيها، فأبدلوا حرفا أجلد منها لا يزول، وهذا كان أخف عليهم.

---

1 - أي الذال والثاء وتسمى الأحرف اللثوية .
2 - أي السين و الزاي، وتسمى الأحرف الأسلية.
3 - المحتسب لابن جني: 306/1.
4 - معاني القرآن : 216/1.
5 - اللهجات العربية في التراث لأحمد علم الدين الجندي،ج1 ص 305.

وأما ناس من العرب جعلوها بمنزلة واو(قال)، فجعلوها تابعة حيث كانت ساكنة كسكونها وكانت معتلة، فقالوا: (أيتعد) كما قالوا: قيل، وقالوا: يا تعد كما قالوا (قال) وقالوا: (مُوتعد)، كما قالوا: (قول)[1].

مع اليـــــاء.

يقول سيبويه: والياء توافق الواو في (افتعل) في أنك تقلب الياء تاء في (افتعل) من اليبس تقول:(اتّبس) و(متّبس) و(يتّبس)، لأنها قد تقلب تاء، ولأنها قد تضعف ههنا فتقلب واوا لو جاء بها على الأصل في مفتعل و(افتعل)، وهي في موضع الواو، وهي أختها في الاعتلال، فأبدلوا مكانها حرفا هو أجلد منها حيث كانت فاء وكانت أختها فيما ذكرنا ذلك، فشبهوها بها..

وقد قالوا: (ياتئس)، و(ياتبس)، فجعلوها بمنزلتها إذ صارت بمنزلتها في التاء فليست تطرد العلة إلا فيما ذكرت لك[2].

ويتضح من النصين السابقين أن تطوراً حدث في صيغة الافتعال، وذلك فيما إذا كانت فاء الافتعال واوا أو ياء أصلية، بحيث آثرت بعض القبائل قلب الواو أو الياء تاء، لأن في النطق بالواو أو الياء على الأصل ثقلا ومشقة، ثم تدغم التاء المنقلبة عن فاء الافتعال في تاء الافتعال فيقولون: (اتّعد) و(متّعد) بدلا من: (اوتعد) و(مُوتعد) تيسيراً لعملية أداء الأصوات واقتصادا في الجهد العضلي.

ويغلب على الظنّ أن هذه اللهجة لقبائل بدوية آثرت صوت التاء لما فيه من انفجارية تناسب سرعة تحقيق الأصوات، وقد وصفها ابن جني بأنها الأكثر والأقيس، وهي لغة الحجاز[3]. والذي يبدو أن عزو ابن جني هذه اللهجة لأهل الحجاز يحتاج إلى تدقيق، إذ إن الحجاز بيئة حضرية وهي بذلك لا تناسب هذا النوع من النطق السريع في الأداء، أضف إلى ذلك أن ما يظهر من استقراء الدارسين لمظاهر لهجة الحجازيين أنها كانت لا تبدل الواو

[1] - الكتاب: 338/4 ، 339.
[2] - نفســه ج، والصفحتان.
[3] سر صناعة الإعراب: 165/1.

والياء تاء ــ كما لا حظنا فيما سبق ــ بل كان لهم مذهب آخر وهو إبدال الواو والياء من جنس حركة ما قبلها، فيقولون مثلا في يتّصل، متّصل، اتّسر، متّسر يقولون: يا تصل، موتصل، ايتسر، موتسر[1] .

ومما يقوي ما ذكرنا أن السيوطي عز(اتّخذت) إلى تميم و(وخذت) إلى(أهل الحجاز)[2].

وأما أمثلة الإدغام في كشاف الزمخشري فنعرض له الآن مبينين طبيعته وما يمكن أن يبرر به في ضوء المعطيات الصوتية المعاصرة .

فمن أمثلة ذلك ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ ﴾[3]، حيث قال الزمخشري:«(ادّكر) بالدال وهو الفصيح، وعن الحسن(واذّكر) بالذال المجمعة والأصل تذكر»[4]. وادّكر على وزن(افتعل) وكذلك (اذّكر)، وبما أن الأصل كما ذكر الزمخشري هو تذكر، فقد حصل هنالك تفاعل بين الأصوات نتج عنه تأثر بعضها ببعض نتيجة للتنافر الصوتي الموجود بينها، والتغير هذا حصل كما يلي:

- افتعـــــل – ذكر – اذتكر – اذْدَكــــــــر – اذذكر – ادَّكـــــــــر.
- افتعـــــل – ذكر – اذتكـــــر – اذدَكــــــر – ادْدَكر– ادّكـــــــــــر.

ففي المثال الأول تجاورت تاء الافتعال مع فاء الفعل التي هي الذال فنتج عن ذلك تنافر صوتي بينهما سببه جهر الذال وهمس التاء، فأبدلت تاء الافتعال دالا حتى يجتمع صوتان مجهوران فيتحقق الانسجام، هذا هو التأثر الأول وقد حصل في مستوى الصفات، ثم تماثل الذال مع الدّال من حيث المخرج فأسفر ذلك عن إبدال الدّال ذالاً من أجل أن يجتمع ذالان، فتتحقق المماثلة في المخارج، ثم يدغم الذال في الذال فينبو اللسان عنهما نبوة واحدة كما يعبّر بذلك القدماء.

[1] - ينظر اللهجات العربية في التراث لأحمد علم الدين الجندي ،ج1 ص 307، و 308، وقد لا حظ د الجندي أن هذه اللهجة ترد كثيرا في أسلوب الشافعي (رحمه الله) وهو بلا شك قرشي حجازي.(تنظرج1 ص 308).

[2] - ينظر المزهر: 1/ 276.

[3] - سورة يوسف الآية 45.

[4] - الكشاف: 324/2.

وأما المثال الثاني فإنه لما قلبت تاء الافتعال دالا أثرت هذه المرة الدال في الذال فأجتمع دالان ثم أدغمت واحدة في الأخرى.

وأما اعتبار الزمخشري للفظ(ادّكر) ــ بالدال ــ فصيحاً، فربما بسبب أنه الأشيع في القراءة، وهو ــ على الحقيقة ــ يمثل تطوراً للفظ (ادّكر) باعتباره الأصل لأنه من (ذكر) والسبب الذي جعل(ادّكر) أشيع في الكلام هو طبيعة كل من صوتي الذال والدال؛ فالذال أسنانية أو بين أسنانية، تحتاج إلى مجهود أكبر مما تحتاجه الدال، لأن نطق الذال يحتاج إلى إخراج طرف اللسان قليلاً ووضعه بين أطراف الأسنان العليا والسفلى، بينما لا يحتاج الدال سوى إلى اتصاله بأصول الثنايا أو اللثة[1]، ولا شك أن عملية نطق الدال أسهل من عملية نطق الذال لأن الجهد العضلي المبذول في نطق الدال يعد أقل من ذلك الذي مع الذال. وقد شعر القدماء بهذه الصعوبة في نطق الذال وأختيها ــ الثاء والظاء ــ فعبروا عنها بالثقل قال الفراء:« والثاء والذال مخرجهما ثقيل..ألا ترى أن مخرجهما من طرف اللسان، و كذلك الظاء تشاركهن في الثقل»[2].إنه بسبب تلك الصعوبة تعرضت هذه الأصوات الثلاثة في العربية قديماً وحديثا وفي لهجات الكلام إلى التغير، بحيث انقلبت إلى نظائرها من أصوات اللثة والأسنان، وأطلق المحدثون على ذلك مصطلح "اندثار الأصوات الأسنانية " وجعلوا منه قانوناً عاماً يسري على العربية وغيرها وهو مظهر من مظاهر السهولة واليسر في أداء الأصوات[3].

ويمكن أن يشهد لذلك قراءة ابن مسعود والأعمش، وقد ذكرها الزمخشري في الكشاف وهي قراءة:﴿ فَشَرِّذْبِهِم﴾[4] بالذال المعجمة بدلاً من الدّال، وهنا حدث إبدال للدال ذالاً، ولكن إذا ذهبنا مع الزمخشري[5]، في افتراضه أن شرّذ ــ بمعنى فرّق ــ ربما هي مقلوب شذّر، وعلى ذلك تكون الذال ــ إذا ــ أصلية، ومعنى ذلك أن تكون الدّال في (شرّدْ)ــ في القراءات الأخرى ــ عبارة عن تطور صوتي للذال، تخلصت فيه لغة الكلام من صعوبة

[1] - ينظر دراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر 315 وما بعدها، والتطور اللغوي مظاهر وعلله وقوانينه لرمضان عبد التواب ، ص 83 وما بعدها.
[2] - معاني القرآن للفراء : 172/1..
[3] - ينظر التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه لرمضان عبد التواب ص 84 وما بعدها.
[4] - سورة الأنفال الآية 57.
[5] الكشاف : 165/2.

نطق الذال لصالح نطق الدال، لأن من المعهود في لغة العرب إبدال الدّال دالاً للأسباب التي ذكرناها سابقاً.

هذا ويبدو أن تركيب (شرّذ) مهمل في اللغة، قال ابن جني: لم يمرّ بنا في اللغة تركيب (ش ر ذ)، وأوجه ما يصرف إليه ذلك أن الذال بدلاً من الدال، كما قالوا: لحم خرادل و خَراذل والأمر الجامع بينهما أنهما مجهوران ومتقاربان»[1].

والحق أنني عدت إلى لسان العرب ولم أعثر على هذه المادة، وقد يكون ذلك دليلاً على إهمالها .

ومن شواهد الإدغام في الكشاف ما جاء في تفسير قوله تعالى:﴿ وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[2]، حيث قال الزمخشري: « وقرأ الحسن (يخِصّفان) بتشديد الخاء وتشديد الصَّاد و أصله يختصفان»[3]، وقال القرطبي:« وقرأ الحسن بكسر الخاء وشدّ الصّاد، والأصل يختصفان فأدغم، وكسر الخاء الالتقاء السّاكنين وقرأ ابن بريدة ويعقوب بفتح الخاء ألقيا حركة التاء عليها»[4].

وقد حاول ابن جني أن يبرّر لهذه القراءة كما برّر لأخواتها فقال: « وأما قراءة الحسن (يخِصّفان) فإنه أراد يختصفان يفتعلان من خصفت، كقولهم قرأت الكتاب واقترأته، وسمعت الحديث واستمعته، فآثر إدغام التاء في الصاد فأسكنها والخاء قبلها ساكنة، فكسرها لالتقاء الساكنين فصارت (يخِصّفان)»[5].

وملخّص هذا الكلام أن الأصل هو (يختصفان) تأثر الصوت الأول (التاء) بالصوت الثاني (الصاد)، لأن الثاني أقوى بما فيه من الاستعلاء والإطباق والتفخيم والصفير، بينما تتّصف التاء بضدّ تلك الصفات من غير الصفير، وصفة الصفير ليس لها ضدّ، فلما كان ذلك، وقد جاورت الصاد التاء لزم أن تصير التاء إلى مخرج الصاد، من أجل المحافظة على

---

[1] - المحتسيب : 280/1
[2] - سورة الأعراف الآية 22
[3] - الكشاف: 73/2
[4] -الجامع لأحكام القرآن 111/4.
[5] - المحتسب: 245/1.

تلك الصفات المميزة للصّاد، ولزم الإدغام لما اجتمع المثلان، ولزم إسكان الأول ليتم الإدغام ولزم كسر الخاء لئلاّ يلتقي الساكنان فصارت الصيغة (يَخِصّفان).

وجاء في تفسير (يخْصفان)، أي يطبقان على أبدانهما ورقة ورقة ليسترا عورتهما ومنه يقال: خصف نعله، وهو إطباق طاق على طاق، والمخصف: الإشفى والمخرز[1]، وقال ابن منظور:«..(يخصفان) يلزقان بعضه على بعض ليسترا به عورتهما أي يطابقان بعض الورق على بعض وكذلك الاختصاف..والاختصاف أن يأخذ العريان ورقاً عراضا فيخصف بعضهما على بعض ويستتر بها يقال خصف واختصف يَخْصِف إذا فعل ذلك»[2].

وقال الراغب الأصفهاني في مفرداته: (يخصفان عليهما) أي يجعلان عليهما خصَفَة، وهي أوراق، ومنه قيل لجلّة التمر خَصَفة وللثياب الغليظة،جمعُه خَصَفٌ..»[3].

ومن شواهد الإدغام أيضاً قوله تعالى:﴿ ألمْ أعْهَدْ إليْكُمْ ﴾[4]، قال الزمخشري:« وقد جوّز الزجاج أن يكون من باب نعم ينعم وضرب يضربُ وأَحْهد بالحاء، وأحّد وهي لغة تميم ومنه قولهم: دحّا محّا »[5]. فالأصل في (أحْهد) أو(أحّد) هو (أعهد)، ثم تطورت هذه الصيغة الصيغة بفعل المشاكلة الصوتية على مرحلتين :

الأولى حدث فيها تأثر صوت العين بصوت الهاء بسبب جهر العين وهمس الهاء، وهنا نلحظ كيف أن الأضعف أثر في الأقوى بخلاف القاعدة الكلية، فتحولت العين بموجب ذلك إلى الحاء فصارت الصيغة (أحهد) بإبدال العين حاء. وقد قرر اللغويون هذا الإبدال في لغة تميم، فذكروا مثلا أن العَرجلة من الخيل: القطيع، وهي بلغة تميم الحَرَجلة[6]، وقال الجوهري: أمّا عبشمس بن زيد مناه بن تميم فإن أبا عمرو بن العلاء يقول: أصله عبّ شمس كما تقول حَبُّ شمسْ وهو ضوؤها، والعين مبدلة من الحاء[7].

1 - من أسرار اللغة في الكتاب والسنة لمحمود محمد الطناحي: 512/2.
2 - لسان العرب: 486/5 (خ ص ف).
3 - معجم مفردات ألفاظ القرآن ، ص 114.
4 - سورة يسن الآية 60.
5 - الكشاف: 327/3.
6 - اللسان: 521/6. (ع ر ج ل).
7 - اللسان 222/4 (ش م س).

وأما المرحلة الثانية فقد تطورت فيها صيغة (أحهد) إلى (أحّد)، أي أن التميميين لم يكتفوا بإبدال العين حاء فقط، بل عمدوا أيضاً إلى إبدال الهاء حاء من جديد، فاجتمع صوتان مثلان وأدغم الأول في الثاني، وفي هذه الحال حدث تأثير من الحاء في الهاء من أجل التشاكل التامّ في المخرج، خاصّة وأن الهاء تتصف بصفة الضعف والخفاء[1]، لأنها من الناحية النطقية أشبه بالنفس مع بعض الاحتكاك للهواء بالمخرج، وهو الوتران الصوتيان.

وقد لخصّ لنا سيبويه هاتين المرحلتين من التغير الصوتي بين العين والهاء في كلام العرب إبدالاً وإدغاماً فقال:« العين مع الهاء: كقولك اقطع هلالاً، البيان أحسن فإن أدغمت لقرب المخرجين حوّلت الهاء حاءً والعين حاءً، ثم أدغمت الحاء في الحاء، لأن الأقرب إلى الفمّ لا يدغم في الذي قبله، فأبدلت مكانها ــ أي الهاء ــ أشبه الحرفين بها ثم أدغمته فيه كي لا يكون الإدغام في الذي فوقه، ولكن ليكون في الذي هو من مخرجه، ولم يدغموها في العين إذا كانتا من حروف الحلق، لأنها خالفتها في الهمس والرخاوة، فوقع الإدغام لقرب المخرجين، ولم تقوَ عليها العين إذ خالفتها فيما ذكرت لك. ولم تكن حروف الحلق أصلاً للإدغام، ومع هذا فإن التقاء الحائيين أخفّ في الكلام من التقاء العينين»[2].

وأما ما ذكره الزمخشري من قول تميم: "دحّا محّا" فأصلهما: "دعها معها" أبدلت العين حاء في كلا التركيبين فصارتا: دحها محها ثم أبدلت الهاء حاء من جديد، فاجتمعت حاءان، وأدغمت الأولى في الثانية. ومثل ذلك ما أضافه سيبويه أيضاً حين قال: « ومما قالت العرب تصديقاً لهذا الإدغام قول بني تميم: مَحُّمْ يريدون: معهم، وَمَحَّاؤلاءِ، يريدون: مع هؤلاء»[3]. وقد علق الدكتور أنيس على قول بني تميم في: معهم: محّم بأن العين المجهورة قلبت إلى نظيرها المهموس وهو الحاء لمجاورتها لصوت مهموس وهو الهاء، ثم أدغمت الهاء في الحاء إدغاماً تقدمياً ــ أي من الأول في الثاني ــ على غير العادة والشائع في الكلام

[1] - ينظر مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية لمحمد يحي الجبوري، ص 89.
[2] - الكتاب: 449/4، 450.
[3] - نفســه: 450/4.

العربي[1]، لأن الشائع في الكلام العربي هو الإدغام الرجعي، ويكون فيه التأثير من الثاني على الأول من الأصوات.

ويرى بعض الدارسين أن مثل هذا من الإدغام حصل في قراءة ابن محيصن في قوله تعالى:﴿ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِّنْ أَثَرِ الرَّسُولِ﴾[2]، حيث قرأ ابن محيصن (فقبطُّ) بالطاء المشدّدة وتخريجها إدغام الضاد المفخمة في تاء المتكلم مع بقاء الإطباق أو التفخيم، والتأثير هنا لم يسر مفعوله في اتجاه واحد، وإنما أخذ طريقه في اتجاهين متقابلين؛ من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، فكل من الضاد والتاء في (قبضت) قد حصل بينهما بحكم التجاور تبادل للتأثير والتأثر فأثرت الضاد المفخمة في التاء المرققة بعدها فجعلتها مفخمة مثلها، والتاء إذا فخمت صارت طاء. ثم أثرت التاء بدورها في الضاد قبلها مباشرة فصيرتها صوتاً مهموساً مثلها، وإذا همست الضاد صارت طاءً، ثم أدغمت الطاء في الطاء[3].

ثم إن التكافؤ في القوة بين الطاء والتاء أفرز التأثر والتأثير بينهما فالضاد في(قبضت) صوت مفخم، ويقع في نهاية مقطع، ولكنه مقطع منبور، وهذا عنصر قوة لها؛ إذ إن المقطع المنبور أقوى من غيره، وأما التاء فتقع في بداية مقطع وهذا عنصر قوة أيضاً، لأن الصوت الذي يقع في بداية المقطع أقوى من ذلك الذي يقع في نهايته، ومن هنا تعادلت الضاد والتاء في القوة، فأثرت كل منها في الأخرى تأثيراً متبادلاً[4]. وإن كنت أرى أن التعادل هنا لا يكون بين الضاد والتاء نظراً إلى قوة الضاد، وإنما يكون بين الضاد والطاء فكلاهما مطبق مفخم.

2. الترخيم اللغوي.

جاء في لسان العرب:« الترخيم: التليين، ومنه الترخيم في الأسماء لأنهم إنما يحذفون أواخرها ليسهلوا النطق بها وقيل الترخيم الحذف، ومنه ترخيم الاسم في النداء، وهو أن يحذف من آخره حرفٌ أو أكثر، كقولك إذا ناديت حارثاً: يا حارِ ومالكاً: يا مالِ، سمي

---

[1] - في اللهجات العربية لإبراهيم أنيس ص 64 ،65
[2] - سورة طه الآية 96.
[3] - ينظر قراءات وأصوات لفوزي حسن الشايب ص 79 ،80.
[4] - نفسه ص 80.

ترخيماً لتليين المنادي صوته بحذف الحرف قال الأصمعي: أخذ عنّي الخليل معنى الترخيم وذلك أنه لقيني فقال لي: ما تسمي العرب السهل من الكلام؟ فقلت له: العرب تقول جارية رخيمة إذا كانت سهلة المنطق؛ فعمل باب الترخيم على هذا»[1].

فالترخيم ــ من وجهة نظر لغوية ــ هو التليين أو التخفيف، أي التماس طريق أيسر وأسهل في أداء الكلمات، وقد يكون من صور هذا التسهيل في النطق حذف حرف أو أكثر اقتصاداً للجهد العضلي المبذول.

وقد سجل السياق القرآني هذه الظاهرة ولجأ إليها، وإن كان ذلك في بعض القراءات الشاذّة قال الزمخشري:« وقرأ علي وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهما:(يا مالِ) بحذف الكاف للترخيم»[2]، وذلك في قوله تعالى:﴿ وَنَادَوْا يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ﴾[3]، وقال القرطبي:«.. قال أبو الدرداء وابن مسعود : قرأ النبي صلى الله عليه وسلم (ونادوا يامالِ) باللام خاصة، يعني رخم الاسم وحذف الكاف، والترخيم الحذف، ومنه ترخيم الاسم في النداء، وهو أن يحذف من آخره حرف أو أكثر فتقول في مالك: يا مالِ، وفي حارث : ياحارِ وفي فاطمة يا فاطمُ، وفي عائشة: يا عائشُ...»[4].

وحذف الحرف الواحد أو الحرفين في أواخر الكلم عادة نطقية عند العرب، وإن كان بعض اللغويين ينسبونها إلى قبيلة طيء وأطلقوا عليها مصطلح (القُطعة)، قال صاحب اللسان: « والقطعة في طيء كالعنعنة في تميم، وهو أن يقول: يا أبا الحكا، يريد: ياأبا الحَكم، فيقطع كلامه..»[5]، ويرد بعض الدارسين على هذا العزو إلى طيء دون غيرها بأنه غير صحيح، بدليل وجود أشعار حفلت بهذه الظاهرة وهي لغيرها من القبائل، بل ذهب أبعد من

---

[1] - لسان العرب: 214/7 (ر خ م).
[2] - الكشاف: 496/3، وإعراب القراءات الشواذ للعكبري: 225/2 والإملاء له ص 524.
[3] - سورة الزخرف الآية 77.
[4] - الجامع لأحكام القرآن: 72/8 ، 73.
[5] - لسان العرب : 261/5(ق ط ع).

ذلك حينما نفى وجود هذه الظاهرة في شعر أي من شعراء طيء على الأقل عن طريق اللغويين، وكذلك في غير النداء على حدّ تعبيره[1].

وبالعودة إلى قراءة علي ابن أبي طالب وابن مسعود(يامالِ) فإن المرجح أنها قراءة الحجازيين بدليل ما أوردناه في السابق عن أنها قراءة للنبي صلى الله عليه وسلم حسب ما رواه عنه أبو الدرداء وابن مسعود، وقد آثروا ــ بعد الحذف ــ أن تبقى الكسرة بعد اللام دالة على حذف الحرف، لأن في بقائها مساعدة للسامع على إدراك المحذوف القائم في وعي المتكلم وإن لم ينطق به، فيهتدي السامع بذلك إلى معرفة تمام الكلمة فيتحقق التفاهم والتواصل.

ثم إن عبد الله بن مسعود وإن كان هذلياً ــ وهذيل كما هو معروف جغرافياً تقع بين شمال اليمن والحجاز[2]ــ فقد أخذ القراءة عن النبي صلى الله عليه وسلم، ومعنى هذا أنه تأثر بواحدة من خصائص أداء أهل الحجاز الذي يشتركون فيه مع غيرهم من قبائل العرب وهو الترخيم في الأسماء، على النحو الذي ناقشناه من قبل.

بقي أن نشير إلى أن الزمخشري نقل في الكشاف خبرا يفيد بردّ ابن عباس لقراءة الترخيم هذه قال:« .. وقيل لابن عباس: إن ابن مسعود قرأ (ونادوا يا مالِ)، فقال ما أشغل أهل النار عن الترخيم»[3]، وقد ألمح الزمخشري إلى أن في هذه القراءة نوعاً من الدلالة الصوتية للفظ الترخيم (يا مالِ) على حال أهل النار، حين قال:« وعن بعضهم حسُن الترخيم أنهم يقتطعون بعض الاسم لضعفهم وعظم ما هم فيه»[4]، فالمقام إذاً مقام ضعف وهوان وأفزاع، وأهل النار هم أضعف ما يكونون في مثل هذه الحال، فيصغر كلامهم وتحذف بعض ألفاظهم، أو بعض حروفها، دلالة على اليأس و الهوان والضعف والخسران. قال ابن جني معلقاً على هذه القراءة :«..إن في هذا الموضع سراً جديداً، وذلك أنهم – لعظم ماهم عليه – ضعفت قواهم، وذلت أنفسهم وصغر كلامهم، فكان هذا من مواضع الاختصار

[1] - ينظر اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية لشيم رابين ص 359.
[2] - نفســه، ص 163.
[3] - الكشاف: 496/3.
[4] - نفسه: 496/3.

ضرورة عليه، ووقوفاً دون تجاوزه إلى ما يستعمله المالك لقوله، القادر على التصرف في منطقه»[1].

إن مقام الضعف والهوان لحال أهل النار، يناسبه تماماً حذف بعض مقاطع الكلام. كما أن مقام استغاثة ومناداة أهل النار لربهم حين يرون العذاب فيدركون صواب طريق ربهم ويعرفون عظمته..إن هذا المقام يجعل من أهل النار ينطقون لفظ السبيل بالمد (السبيلا) في قوله تعالى: ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا﴾[2]، فهو مدّ على سبيل التعظيم[3].

المبحث الثالث : ظواهر صوتية أخرى .

يتناول هذا المبحث ظاهرتين صوتيتين رأينا إضافتهما، وقد سجلتا حضوراً في الكشاف، وإن كان بعض الدارسين – في ظني – لا يرون أنهما من ظواهر التشكيل الصوتي على الإطلاق، بل تعودان إلى اختلاف الطبيعة الاجتماعية للناطقين، وتؤشران الموقع الجغرافي للجماعة الناطقة، وقد تكونان بالإضافة إلى ذالك، مظهراً من مظاهر التوسع اللغوي بالاشتقاق أو غيره .

والظاهرتان هما الإبدال الصوتي والقلب المكاني، وقد حاولنا تناولهما من وجهة نظر تشكيلية بحتة، بعيدا عن وجهة النظر اللغوية العامة، وبمعنى آخر حاولنا أن ندرس الظاهرتين من الناحية الصوتية مع ربطها بالسياق الدلالي الاستعمالي، ومن ثم فإن اختيارنا لشواهد الإبدال مثلا ، يجب أن يراعي مسألة إحلال صوت محل صوت آخر متقارب معه أو مجانس له، مع وجود الاختلاف الدلالي لهذا الإحلال. أما إذا لم يكن لذالك الإحلال أي اختلاف في الدلالة، فمعناه أنه يعود إلى اختلاف لهجي أو توسع في التعبير لا غير وليس ذالك من شأننا. وأما ظاهرة القلب فسنحاول قراءتها في ضوء قوانين الأداء الصوتي التشكيلي، في العربية وفي غيرها من اللغات .

[1] - المحتسب: 257/2.
[2] - سورة الأحزاب الآية 67.
[3] - ينظر دلالة الظاهرة الصوتية في القرآن لخالد بني دومي ص 215.

1.**الإبدال الصوتي***: إن من أمثلة ذالك ما جاء في الكشاف حول قوله تعالى :﴿ وَانظُرْ إِلَى العِظَامِ كيْفَ نُنْشِزُهَا ﴾[1].

قال الزمخشري: « الحسن قرأ (ننشرها) من نشر الله الموتى بمعنى أنشرهم فَنْشِرُوا، وقرئ بالزاي بمعنى نحركها ونرفع بعضها إلى بعض في التركيب »[2].

ويظهر من كلام الزمخشري أن وجود صوت الراء في تركيب (ننشرها) يفيد معنى نشر الموتى ببلاء عظامهم، وأما وجود صوت الزاي في تركيب (ننشزها) يفيد معنى تركيب العظام وبعث وإحياء أصحابها من جديد، وقال الفراء :« وقوله (ننشزها) – بالزاي – قرأها زيد بن ثابت كذلك، والإنشاز نقلها إلى موضعها وقرأها ابن عباس (ننشرها) – بالراء – إنشارها: إحياؤها »[3] .

وإبدال الزاي راءً أو العكس مستساغ من الناحية الصوتية؛ فهما مجهوران ومن مخرج واحد.

ومن ذلك قوله تعالى:﴿وَإِن يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ﴾[4]. حيث قال الزمخشري: « وقرئ ليزلقونك بضم الياء وفتحها، وزلقه وأزلقه بمعنى، ويقال: زلق الرأس وأزلقه: حلقه، وقرئ ليزهقونك من زهقت نفسه وأزهقها يعني أنهم من شدة تحديقهم ونظرهم إليك شزراً بعيون العداوة والبغضاء يكادون يزلون قدمك أو يهلكونك من قولهم: نظر إليّ نظراً يكاد يصرعني ويكاد يأكلني: أي لو أمكنه بنظره الصرع أو الأكل لفعله ...»[5].

فقد أشار الزمخشري إلى أن هنالك معنيين مختلفين يرتدان إلى الاختلاف في حلول صوتي اللام والهاء محل بعضهما فــ (يزلقونك) تركيب يفيد معنى الحلق من زلق أو أزلق بينما تركيب (يزهقونك) يفيد معنى الإهلاك. وذكر[6] الفراء أن عاصما والأعمش قرءا

* ـ نريد بالإبدال الصوتي هنا إقامة حرف مكان حرف في بعض الكلمات ، مع بقاء الحروف الأخرى ، ومع ما يمكن أن يكون بين الحروف المبدلة من تقارب أو تباعد، وشرط هذا الإبدال أن تكون الكلمتان مختلفتين في الدلالة ما أمكن.

[1] سورة البقرة الآية 259 .

[2]ـ الكشاف : 391/1 .

[3]ـ معاني القرآن : 173/1 . والإملاء للعكبري . ص117 .

[4] ـ سورة القلم الآية 51 .

[5]ـ الكشاف : 148/4 .

[6]ـ معاني القرآن للفراء : 179/3 بتصرف يسير .

(ليُزلقونك) بضم الياء. وقرأ أهل المدينة (ليَزلقونك) بفتح الياء .ولكنهما يعودان جميعا إلى معنى الحلق فالعرب تقول للذي يحلق الرأس : قد زلقه وأزلقه .

كما ذكر[1] الفراء أن ابن عباس قرأ(ليزهقونك) وكذلك فعل ابن مسعود.و(يزهقونك) بمعنى: ليلقونك بأبصارهم، وذلك أن العرب كان أحدهم إذ أراد أن يعتان المال: أي يصيبه بالعين تجوع ثلاثا، ثم يتعرض لذلك المال فيقول: تالله مالا أكثر ولا أحسن، فتسقط منه الأباعر ،فأرادوا برسول الله صلى الله عليه وسلم مثل ذلك ، فنجّاه الله منهم .

وقد نقل القرطبي أقوالاً لطائفة من الصحابة والتابعين وأعلام التفسير حول معنى (ليزلقونك)، وإن كانت جميعها –في نظره –ترتد إلى معنى جامع هو الإصابة بالعين و نحو ذلك[2].

وأما على صعيد العلاقة بين اللام والهاء من الناحية الصوتية، فمن الصعب أن نبرر لهذا الإبدال بينهما، نظرا لاختلافهما اختلافا بيّنا، لا من حيث المخرج، ولا من حيث الصفات؛ فصوت اللام من المخرج اللثوي، وهو صوت متوسط (مائع) مجهور مذلق، بينما صوت الهاء يتعمق بمخرجه في جهاز النطق، فهو من بين الوترين الصوتيين (أي أنه صوت حنجري)، وهو صوت رخو مهموس مصمت .

وقد يواجه المرء مثل هذه الصعوبة في تفسير العلاقة بين صوتين أبدل أحدهما من الآخر – حسب الاعتقاد السائد في كتب اللغة – في كلمات مثل (الغمس) و(الغطس) و(الفودج) و (الهودج)، والإبدال هنا هو بين الميم والطاء، وبين الفاء والهاء[3] .

ومن أمثلة ذالك لفظا (سبحاً) و(سبخاً)، وقد اختلفت القراءة بهما في قوله تعالى:﴿ إِنَّ لَكَ فِي اَلنَّهَارِ سَبْحًا طَوِيلاً﴾[4]، قال الزمخشري: « (سبحاً) تصرفاً وتقلباً في مهماتك وشواغلك وشواغلك ولا تفرغ إلا بالليل، فعليك بمناجاة الله التي تقتضي فراغ البال وانتفاء الشواغل.

[1] ـ معاني القرآن للفراء: 179/3 بتصرف يسير.
[2] ـ الجامع لأحكام القرآن: 163/9.
[3] ـ ينظر من أسرار اللغة لإبراهيم أنيس، ص 69،70.
[4] سورة المزمل الآية 7.

وأما القراءة بالخاء فاستعارة من سبخ الصوف وهو نفشه ونشر أجزائه لانتشار الهمّ وتفرق القلب بالشواغل »[1].

ويظهر من كلام الزمخشري أن (السبح) هو التقلب والتصرف في شواغل النهار من طلب للرزق وغيره، وأما (السبخ) فهو انتشار الهمّ وتفرق القلب، وقريب من هذا ما ذكره القرطبي من أن (سبحا) أي تصرفا في حوائجك إقبالا وإدبارا، وذهابا ومجيئا. وأما (سبخا) – بالخاء – فبمعنى التفرق والاضطراب والتردد كما ورد ذالك عن ثعلب[2] .

وأما من الناحية الصوتية فالعلاقة بين الحاء والخاء هي علاقة قرب المخارج؛ فالحاء من المخرج الحلقي والخاء من المخرج الطبقي أو الحنكي، وإن كان قدماء العربية يصنفانهما ضمن الأصوات الحلقية والمخرج الحلقي وإن اختلفت أحيازيهما، يضاف إلى ذالك اشتراكهما في صفات الرخاوة والهمس والإصمات.

ومن الشواهد على الإبدال الصوتي ما ذكره الزمخشري حين فسرقوله تعالى:﴿ وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾[3]. فقد قرأهما بعضهم (بظنين) وهي بمعنى« بمتّهم من الظنّة وهي التهمة، وقرئ بضنين من الضنّ وهو البخل: أي لا يبخل بالوحي فيزوي بعضه غير مبلغه، أو يسأل تعليمه فلا يُعلّمه »[4] .

فـــ (ظنين) – إذاً – من الظنّ، و (ضنين) من الضنّ، ولا شك أن معنييهما يفترقان، على النحو الذي أوضحه الزمخشري. وقد شددّ – رحمه الله – على ضرورة إتقان الفصل بين صوتي الظاء والضاد نطقا، فقد يكون رأى خلطاً وتداخلاً في نطقهما عند أهل عصره، لأن إتقان الفصل بينهما يجعل كل من اللفظتين تستقل بمعنى خاص يختلف عن معنى الأخرى، ولأجل ذلك وجدناه يوصّف مخرج كل من الظاء والضاد، توصيفا فيزيولوجياً لا يدع لبساً في الفرق بينهما، وأضاف: « لو استوى الحرفان لما ثبتت في هذه الكلمة قراءتان

[1] - الكشاف: 176/4، ومعاني القرآن للفراء، 197/3.
[2] -الجامع لأحكام القرآن: 10/ 30، ومفردات القرآن لعبد الحميد الفراهي ص 282.
[3] - سورة التكوير الآية 24.
[4] - الكشاف : 4/ 225، ومعاني القرآن للفراء: 242/3، 243، والجامع للقرطبي: 10 /144.

اثنتان واختلاف بين جبلين[1] من جبال العلم والقراءة، ولما اختلف المعنى والاشتقاق والتركيب »[2].

2.القلب المكاني .

القلب المكاني هو عبارة عن تقديم بعض أصوات الكلمة على بعض لصعوبة تتابعها الأصلي على الذوق اللغوي، وهو ظاهرة يمكن تعليلها بنظرية السهولة والتيسير[3].

ويعرفه بعضهم الآخر بأنه « تبدل صوتي يقع على الكلمة. بإبدال مواقع الأصوات أو الحروف فيها مثل: يئس وأيس وجذب وجبذ، وهو أقل من الإبدال عدداً وأندر وقوعا، وأقل شأنا في مباحث اللغة»[4] .

على أن القلب المكاني وإن كان يعد صورة من صور التيسير يعرض أيضا في لغة الأطفال بوصفه عيباً من عيوب التعبير، وخطأ في النطق، يتخلصون منه كلما تقدموا في السن وأدركوا لغة الراشدين[5].

فالقلب المكاني ظاهرة لغوية واقعة وموجودة في اللغة العربية وفي القراءات القرآنية، و يمكننا الإشارة إلى بعض ما جاء منها في القراءات القرآنية مما ورد في الكشاف .

فمن أمثلة ذالك ما جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾[6] قال الزمخشري:«...العميق البعيد. وقرأ ابن مسعود(معيق)، يقال بئر بعيدة العمق والمعق»[7]، وجاء في اللسان «المَعْق والمُعْق .كالعمق، .كالعمق، بئر معيقة كعميقة..وإنها لبعيدة العمق والمعق وفج معيق وقلما يقولونه إنما

1 - يريد بذلك: عبد الله بن مسعود وأبي بن كعب ـ رضي الله عنهما ـ صاحبا القراءتين.
2 - الكشاف: 225/4
3– التطور اللغوي مظاهره وعلله وقوانينه لرمضان عبد التواب ص 88، 89.
4 - فقه اللغة وخصائص العربية لمحمد المبارك، ص68.
5 - ينظر التطور اللغوي التاريخي لإبراهيم السامرائي ص 120.
6 - سورة الحج الآية 27.
7- الكشاف 11/3 .

المعروف عميق، وحكى الأزهري عند ذكر قوله تعالى: ﴿ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ﴾ عن الفراء[1] قال: لغة أهل الحجاز : عميق وبنو تميم يقولون: معيق»[2].

ويبدو أن عبارة صاحب اللسان"وقلما يقولونه"، تدل على أن تركيب (معيق) قليل التداول في اللغة، ويمكن أن نفسر ذلك من الناحية الصوتية بأن البدء بالميم ــ وإن كان صوتا مجهورا مثل العين تماماً ــ قد تكون فيه بعض المشقة وعدم اليسر، لأن الهدف من القلب هو تخير التتابع الأيسر على الذوق اللغوي، ووجه هذه المشقة هو البدء بصوت الميم الأقل وضوحا، والانتقال بعده إلى صوت العين الأقوى وضوحاً في السمع، مما يسبب بذل مجهود عضلي أكبر لا يتناسب مع ما يتطلبه نطق الكسرة بوصفها صائتا مغلقاً تقل معها درجة انفتاح الآلة المصوتة .

وأما معنى أن العين أوضح في السمع، أي أنها أكثر جهرا من الميم، فهي أحد صوتين يتّسمان ــ عند الخليل ــ بالطلاقة والضخامة وهما العين والقاف، وذكر أنهما لا تدخلان في بناء إلا حسّنتاه، لأنهما أطلق الحروف وأضخمهما جرساً، وقد تكون في عبارة الخليل هذه.. إشارة إلى صفات القوة جميعها في هذين الصوتين[3].

وعلى ذالك يمكن القول إن القلب عميق إلى معيق، هو ربما من قبيل الخطأ في النطق ونقص الالتفات كما يرى فندريس[4].

ومن أمثلة القلب ما جاء في الكشاف في موضع تفسير قوله تعالى:﴿ وَإِذَآ أَنْعَمْنَا عَلَى الإِنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ ﴾[5]، قال الزمخشري:«.. وقرئ (ونأي) بإمالة الألف وكسر النون للإتباع، و (وناء) على القلب كما قالوا: راء في رأى »[6].

1 - حول ماحكاه الأزهري أقول : لم نعثر على قول الفراء في المعاني (ينظر المعاني 224/2).
2 - لسان العرب: 1071/5 (م ع ق).
3 - ينظر مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية لمحمد يحي الجبوري ص 42-43.
4 - ينظر اللغة لفندريس ص 94.
5 - سورة فصلت الآية 51.
6 - الكشاف : 3/ 457 ، 458.

و قرأ يزيد بن القعقاع (وناء بجانبهِ) بالألف قبل الهمزة ، فيجوز أن يكون من ناء إذا نهض1 .

وتبرير هذا القلب من الناحية الصوتية سهل يسير، وذالك أن النطق بالهمزة في نهاية التركيب يعد أسهل من نطقها في وسط التركيب نظرا لما تتصف به الهمزة من عسر في الأداء، بسبب الحبسة الصدرية وانقطاع للنفس معها، ومن ثم أطلق القدماء عليها صفة الهتّ « والهتّ شبه العصر للصوت ..وهتهته، وطئه وطئاً شديداً »[2]. والصوت المهتوف هو الهمزة سمي بذالك لشدة الصوت بها وقوته، والسبب في ذالك كما قال سيبويه هو « بُعد مخرجها، ولأنها نبرة في الصدر تخرج باجتهاد، وهي أبعد الحروف مخرجا، فثقل عليهم ذالك ، لأنه كالتهوّع»[3].

ومن أمثلة ذلك أيضا في الكشاف قوله تعالى:﴿وَاللَّيْلِ إِذَا عَسْعَسَ﴾[4]، فقد ذكر الزمخشري أن عسعس الليل وسعسع إذا أدبر[5]، ونقل القرطبي عن الفراء قوله: «العرب تقول عسعس وسعسع إذا لم يبق منه إلا اليسير »[6].

هذا وقد وافق الزمخشري الفراء في أن معنى عسعس هو أدبر، بل وذهب الفراء إلى أن هذا المعنى هو لجمهور المفسرين[7].

ويبدو أن من لجأ ــ من العرب ــ إلى هذا القلب، إنما أراد التخلص من البدء بصوت مجهور وهو العين لصالح صوت مهموس وهو السين، تيسيراً للأداء، واقتصادا للجهد.

---

1 - الجامع لأحكام القرآن للقرطبي: 8/ 229.
2 - اللسان: 828/1 (ه ت ت).
3 - الكتاب : 548/3.
4 - سورة التكوير الآية 17.
5 - الكشاف : 224/4.
6 - الجامع لأحكام القرآن 142/10.
7 - ينظر المعاني: 242/3.

خاتمـــــة

استوفيت في الفصول الأربعة التي يتألف منها هذا البحث الكلام عن قضايا الصوت اللغوي في كتاب الزمخشري " الكشاف"، فقد عرضت في الفصل الأول إلى المنهج الصوتي للزمخشري من حيث تناول مصادر المادة الصوتية وطرق نقلها، وكذا موقف الزمخشري من موضوع أصل اللغة. ثم تناولت في الفصل الثاني الجوانب النطقية التي تندرج ضمن علم الفونيتيك، وذلك بعرض ما يتعلق بمخارج الأصوات وصفاتها، والصوت اللغوي في فواتح السور(الحروف المقطعة)، وكذا الدلالة الصوتية.

وأما الفصل الثالث فقد عالجت فيه موضوع الاتجاهات الصوتية (القوانين الصوتية) التي توافرت شواهدها في الكشاف، وهي المماثلة والمخالفة والسهولة والتخفيف. وتناولت في الفصل الرابع الجوانب التشكيلية الناشئة عن التركيب والتفاعل بين الأصوات، في قسمي الصوائت والصوامت. كما تناولت في هذا الفصل ظواهر تعاملية أخرى رأيت إضافتها، مثل الإبدال الصوتي والقلب المكاني.

إن أهم نتائج هذا البحث تقوم على اعتبار تفسير "الكشاف" تفسيراً حفل بالمادة الصوتية ــ كما حفل بغيرها من مواد اللغة ــ انطلاقاً من أهميتها وخطرها في وصف تآلف وحدات التركيب، والوقوف على أسرار ذلك التآلف، واستنتاج القوانين اللغوية المفسرة له .

وأما ما خلص إليه البحث من نتائج فنوجزه في الآتي:

1.ــ تبيّن من خلال مباحث الفصل الأول أن الزمخشري خطّ لنفسه منهجاً صوتياً فريداً يقوم على التنويع بين مصادر مادته الصوتية، بين علماء اللغة وعلماء القراءة، انطلاقاً من حاجة المفسر إلى الوقوف على خصائص التركيب القرآني، ومن ثم لابد له من أن يأخذ عن أهل القواعد والتأصيل وهم النحاة واللغويون، يأخذ عنهم آراءهم في وصف شواهد كلام العرب وكذا وصف شواهد القرآن والقراءات. هذا إلى جانب حاجة المفسر إلى معرفة الجانب الأدائي في نطق هذا الشاهد أو ذلك من القرآن، وهو ما توفره كتب التجويد والقراءات فضلاً عن قدرة تلك الكتب وأعلامها على التفريق بين ما هو شاذ من القراءة وما هو مشهور منها.

وإن كان منهج الزمخشري في هذا الموضوع هو الأخذ بالشاذ والمشهور معاً، بل نجد أن الشاذ غلب على المشهور في كثير من المواضع.

وليس الأخذ بالشاذ من القراءة فيما قام به الزمخشري يعدّ عيباً منهجياً، بل هو الأقرب إلى الموضوعية العلمية أثناء التعامل مع ألوان النطق العربي، وكأنني به يردّد مع ابن جني قالته الشهيرة " إن لغات العرب كلها حجّة".

كما حرص الزمخشري في كشافه على عزو الأقوال والآراء إلى قائليها من علماء لغة وقراءات. وهو المنهج العلمي الصحيح، ولكنه في عديد الأحيان يهمل ذلك العزو، وقد يكون ذلك الإهمال ناتجاً عن ضياع اسم العَلم أو صاحب الرأي، أو يكون قصد به معرفة القارئ لصاحب الرأي أو القول لاشتهار الشاهد،و كثرة دورانه بين أهل التفسير واللغة، فلا يحتاج في كل مرة إلى التنبيه على القائل وذكر اسمه.

وأما الشواهد الصوتية الواردة في الكشاف فقد تنوعت بين أوجه القراءات أو الشواهد القرآنية، وبين شواهد من لغات العرب أو لهجاتهم. ويبدو وأن لجوء الزمخشري إلى لغات القبائل هو وعي منه لأهمية الجانب الاجتماعي في وصف وتفسير الشواهد اللغوية.

2.ـ تبين من خلال مباحث الفصل الثاني أن الزمخشري وظف قضايا علم الأصوات النطقي من معرفة المخارج والصفات في وصف بعض الاختلافات الصوتية بين شواهد القراءة. كما وظف الزمخشري مبادئ علم الأصوات النطقي في الوقوف على أسرار وفلسفة التركيب الصوتي في فواتح السور (الحروف المقطعة)، وكذا الربط بين الدلالة والجرس الصوتي لبعض التراكيب اللغوية الواردة في القرآن، وكيف أحدثت تلك الخصائص الصوتية النطقية الأدائية انسجاماً وتلاؤما مع الدلالة المراد تقريرها، من خلال استخدام هذه اللفظة أو تلك في التركيب القرآني.

3.ـ أظهر الفصل الثالث أنّه كان للزمخشري وعي بالاتجاهات الصوتية الكبرى مثل المماثلة والمخالفة واتجاه السهولة والتخفيف، وهي اتجاهات أو قوانين تفسر كثيراً من ألوان التطور الصوتي التركيبي في الصوائت والصوامت على السواء، فيميل بعض الأصوات

المتجاورة في التركيب إلى التماثل والتشابه تسهيلا للأداء النطقي وتحقيقاً للانسجام الصوتي..هو قانون عامّ في العربية وغيرها. كما أن التقليل من حدّة التماثل والتشابه في بعض التراكيب، هو ما يهدف إليه قانون المخالفة الصوتية.

وأما قانون السهولة والتخفيف فيقف وراء كثير من حالات الحذف والإسكان والإبدال والقلب، وغيرها من أساليب الانحراف الصوتي في الصوائت والصوامت في العربية.

4.ـ أوضح الفصل الرابع أن كثيراً من التغيرات الصوتية التي طرأت على صيغ الأسماء والأفعال من حيث التحريك والإسكان والإتباع وكسر أول حروف المضارعة..وغيرها من التغيرات،هي في الواقع صور للتشكيل الصوتي بين الحركات. كما أن التشكيل الصوتي بين الصوامت، وظواهره كالإدغام بأنواعه المختلفة، والإبدال والقلب الصوتيين.. كل ذلك تناوله الزمخشري بكثير من التحليل يسفر وعي بالجانب الوظيفي للصوت اللغوي، يرفده تذوق للعربية رفيع، وعلم بأساليبها المختلفة في الإبانة عن المعاني المقصودة والدلالات المرومة.

ختاما آمل أن تكون هذه الدراسة المتواضعة ضميمة إلى أخواتها من الدراسات الهادفة إلى خدمة لغة القرآن الكريم، كما أرجو أن يتحقق لها الأثر الطيب والوقع الحسن في نفوس الدارسين.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الفهـــــــارس

- فهـــرس الأعــلام .
- فهـــرس القبائـــل .
- ثبت بمراجع البحث .
- فهـــرس الموضوعــات.

1 ـ فهرس الأعـــــــلام[1]

- إبراهيـــــم أنيس(دكتور): 71، 131، 140، 163، 179، 195، 224، 233، 237، 246.
- إبراهيـــم بن أبي عبلــــــــة: 24، 27، 34، 38، 39، 50، 145، 148.
- أبـــي بن كعــب: 32، 68، 182.
- ابن الأثيـــــر: 137.
- أحمد جمعـــة الهيـــتي: 10.
- الأخفش الأوسط (سعيد بن مسعـــدة): 23، 125.
- إخــــوان الصفا: 15.
- الأزهـــــري (أبو منصور محمد بن أحمــد): 197، 201.
- الأشمـــــوني: 14.
- أبو الأشهب العقيلي: 212.
- الأصبهاني (محمود بن جرير): 7.
- الأصمعي (عبد الملك بن قريب): 248.
- ابن الأعرابي (محمد بن زياد): 125، 153، 164، 199، 201.

[1] - جعلت هذا الفهرس للأعلام الواردة أسماؤهم في متن البحث، وقد رتبت تلك الأسماء من غير التفات إلى: ال، وابن، وأبو ونحوها.

- الأعمــش (سليمان بن مهران): 24، 26، 27، 32، 36، 46، 53،147، 176، 178، 182، 215، 219، 220، 243، 251.
- أميــة بن أبي الصلت: 137.
- الأنبـــاري (كمال الدين أبو البركات): 58، 114، 115، 172.
- ابن الأنبـــاري (محمد بن القاسم): 177.
- برجشتراسر (مستشرق): 135، 157، 202، 237.
- ابن بريدة : 244.
- بـــروكلمـــان: 9.
- الباقـــلاني (أبو بكر): 17، 85، 86، 87.
- البلقيـــني (عمــر بن عبد الرحمان): 10.
- التحــتاني الرازي (محمد بن محمد): 9.
- ابن تيميـــة: 84.
- ثعلـــب: 23، 153، 253.
- أبو الجراح: 170.
- ابن جريج: 56.
- ابن الجزري: 142، 146، 168.
- جعفــر بن محمد: 115.

- ابن جنّي: 14، 25، 35، 60، 61، 64، 103، 111، 126، 129، 132، 133، 136، 137، 140، 143، 144، 148، 150، 156، 157، 158، 164، 165، 173، 175، 182، 191، 195، 197، 203، 206، 215، 216، 217، 227، 241، 249.

- أبو حاتم السجستاني: 33، 163.

- حمزة بن حبيب الزيات: 24، 26، 32، 40، 172، 173، 174، 178، 232.

- ابن حمزة (عبد الله بن عبد الهادي): 10.

- الحسن البصري: 24، 28، 39، 49، 56، 147، 148، 177، 178، 181، 183، 219، 242، 244، 251.

- الحسين بن علي: 46، 47، 147.

- حفــــص: 26، 32، 173.

- حكيـــم بن حزام : 112.

- أبــو حيـــوة (شريح بن يزيد الحضرمي): 24، 27، 29، 54، 176،.

- أبــو حيّـــة: 220.

- ابــن خلـــدون: 9.

- خلــف (القــارئ): 174.

- الخليل بن أحمد: 13، 23، 52، 73، 104، 111، 121، 222، 223، 248، 255.

- أبـــو خيـــرة الأعـــرابي: 170.

- أبــو الـــــدرداء: 248، 249.
- ابن دريـــد: 121.
- ابن ذكـــوان: 40.
- الرضـــي الاستـــرباذي: 14، 141.
- رمضـــان عبد التواب (دكتور): 158، 170.
- الراغب الأصفهـــاني: 119، 164، 174، 215، 245.
- الرمـــاني (علي بن عيسى): 17.
- زر بن حبيـــش: 26، 191، 213.
- أبــو زبيد يذكــر المساحي (الشاعر): 207.
- ابــن الزبيـــر: 104.
- الــزجـــاج: 14، 23، 25، 104، 115، 193، 245.
- الــزجــاجــي: 14.
- الـــزركشي: 92، 93، 94، 95.
- الزمخشري: 7، 8، 9، 14، 23،24، 25، 26، 27، 28، 29، 30، 31، 32، 33، 34، 35، 36، 37، 38، 39، 42، 43، 44، 45، 46، 48، 49، 50، 51، 52، 53، 54، 55، 56، 57، 58، 59، 63، 64، 67، 69، 70، 71، 72، 73، 75، 76، 77، 79، 80، 81، 82، 83، 84،89، 90، 91، 95، 96، 97، 98، 99، 100، 101، 103، 104، 106، 108،110، 111، 112، 114، 115، 116،

117، 118، 119، 120، 121، 122، 125، 126، 128، 129، 133، 134، 135، 142، 145، 147، 148، 149، 150، 151،152، 155، 156، 157، 159، 160، 161، 162، 163، 165، 168، 174، 176، 177، 178، 181، 182، 183، 187، 207، 208، 210، 212، 214، 215، 216، 217، 218، 219، 220، 221، 222، 242، 243، 244، 245، 246، 248، 249، 251، 252، 253، 254، 255، 256.

- أبـــو زيد الأنصـــــاري: 33.
- الســـــدّي: 57.
- ابن الســـــراج: 14.
- السكـــــاكي (أبو يعقوب): 17.
- ابن السكيت: 114.
- سعيد بن جبير: 24.
- أبـــو سفيان: 137.
- السلمي (أبو عبد الرحمان): 174.
- ابن سنـــــان الخفاجي: 16.
- سلمان العـــــاني (دكتور): 44.
- سيبويه: 13، 14، 23، 35، 40، 41، 69، 70، 76، 80، 81، 82، 83، 87، 118، 129، 131، 140، 142، 146، 147، 154، 155، 156، 160، 161،

162، 164، 167، 189، 206، 209، 210، 222، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 230، 231، 232، 233، 234، 235، 236، 237، 238، 239، 240، 241، 256.

- السيرافي(أبو سعيد): 217.
- السيوطي: 14، 242.
- ابن سيده: 104، 201.
- ابن سينا: 15، 16.
- الشجري: 136.
- الشفاني(أبو سعيد): 7.
- الشّقار(محمود بن مسعود): 10.
- الشيرازي(محمود بن مسعود): 9.
- الشيرازي(ابن أمّ مريم): 40.
- الصديق (أبو بكر): 207.
- الصوري: 40.
- طريف بن تميم: 234.
- طلحة بن مصرف: 215.
- أبو الطيب اللغوي: 138.

- الطيبي(أبو الحسن بن محمد): 9.
- عبد الله بن أبي إسحـــاق: 24، 28، 154.
- عبد الـــرحمان بن زيد: 109.
- عبد الله بن مسعود: 25، 30، 32، 36، 68، 172، 173، 182، 207، 216، 243، 248، 249، 252، 254..
- عبد الله بن الزبير: 182.
- ابن عباس: 23، 28، 32، 36، 115، 178، 182، 249، 251، 252.
- أبو عبيد (القاسم بن سلام): 112، 201.
- أبو عبيدة: 57، 121، 174.
- العجاج: 51، 112.
- ابن عصفور: 14.
- عاصم بن أبي النجود: 24، 46، 134، 147، 156، 173، 178، 205، 218، 251.
- عكرمة: 178، 182.
- العكبـــــري (أبو البقاء): 53، 149، 157، 159، 169، 183، 200، 202، 204، 216، 217.
- عمـــر الملا حـــــويش (دكتور): 10.

- أبو علي الفارسي: 14، 60، 164، 165.
- علي بن الحسين: 115.
- علي بن أبي طالب: 248، 249.
- علقمـــة بن عبده (الشاعر): 202، 229.
- عمـــر بن الخطاب: 25، 69، 138.
- عمـــرو بن دينـــــار: 182.
- ابن عـــامر: 28، 134، 147، 148، 168، 173، 178.
- أبـــو عمرو بن العـــلاء: 23، 24، 27، 39، 40، 146، 147، 148، 163، 165، 166، 173، 174، 178، 190، 210، 214، 218، 221، 245.
- عمـــارة (القارئ): 156، 157.
- أبو عمـــرو الشيباني: 58، 59.
- عيسى بن عمـــر: 24، 28، 159، 199.
- عيسى بن عمران: 219.
- الفخر الـــــرازي: 17، 84.
- الفـــــارابـــــي: 15.
- فندريس: 63، 158، 180، 255.
- الفراهي (عبد الحميد): 114.

- قتـــــادة: 23.

- ابن قتيبة: 47، 101، 174.

- القرطبي: 54، 56، 57، 84، 104، 106، 107، 108، 109، 110، 116، 117، 124، 134، 135، 178، 181، 193، 199، 205، 213، 217، 244، 248، 252، 256.

- القزويني(أبو حفص عمر بن عبد الرحمان): 09.

- قطرب (محمد بن المستنير): 84، 85، 188.

- ابن قيـــــم الجوزية: 88، 124.

- ابن كثير : 28، 84، 134، 147، 148، 156، 173، 181، 218.

- الكســائي: 24، 39، 40، 125، 146، 172، 173، 174، 178، 232.

- كمــال محمد بشر (دكتور): 17، 18.

- الكنـــــدي : 15.

- كورتيوس: 175.

- اللحياني: 165.

- الليث: 40، 114.

- المبرد: 14، 84، 143، 170، 224.

- مجاهد: 23، 36، 121، 178.

- ابن مجاهد:173.
- محمود الطناحي: 112، 113.
- مـــــاريو باي: 67، 158.
- مزاحم العقيلي (الشاعر): 232.
- مزرد بن ضرار (الشاعر): 207.
- المصري (شمس الدين محمد بن عبد الله): 9.
- مصطفى الصاوي الجويني (دكتور): 10.
- مضرس بن ربعي الفزاري: 140.
- مكي بن أبي طالب القيسي: 75، 81.
- ابن منظور: 36، 51، 58، 107، 108، 110، 111، 113، 114، 115، 116، 117، 119، 120، 123، 124، 125، 126، 130، 151، 153، 164، 171، 197، 199، 200، 201، 206، 207، 212، 213، 215، 216، 217، 218، 245.
- مها إبراهيم عبيد: 10.
- المهدوي : 181.
- موريس جرامون: 133.
- ميثم البحراني (كمال الدين): 17.

- النحـــــاس(أبو جعفر): 136، 166، 182، 205، 218.
- نصر بن عـــــاصم: 175.
- نافع (القارئ): 46، 134، 142، 163، 168، 169، 173.
- النيســـــابوري (علي بن المظفرّ): 07.
- هـــــارون بن موسى (القـــــارئ): 239.
- هنري فليش::169.
- ابن هشام اللخمـــــي: 135، 145، 159.
- ورش: 162، 190.
- وليـــــام طومسون: 233.
- ابن وهـــــاس (علي بن حمزة): 8.
- أبو وائـــــل: 36.
- يحي بن وثاب: 24، 26، 32، 172، 193، 199، 200، 212، 215.
- يزيد بن القعقاع: 255.
- يعقوب: 134، 244.
- ابن يعيش: 14، 164.

2 ـ فهرس القبـــــائـــــل

– أزد السراة: 48، 192، 209.

– أســــــد: 48، 53، 54، 136، 177، 192، 209، 213، 244، 225، 232، 235، 236.

– بكـــــر: 176، 177، 223، 224، 226.

– بهـــــراء: 48، 208.

– تميــــم : 30، 37، 47، 48، 49، 52، 53، 136، 168، 176، 177، 182، 187، 188، 189، 191، 192، 197، 209، 211، 213، 214، 215، 223، 224، 225، 226، 227، 228، 230، 231، 232، 242، 245، 246، 255.

– الحجــاز: 37، 48، 53، 136، 147، 178، 189، 192، 193، 197، 198، 209، 210، 223، 225، 233، 241، 242.

– خثعـــم: 162.

– ربيعـــة: 48، 136، 182، 192، 209، 213.

– زبيــــد : 162.

– الســروات: 47.

– بنو سعد: 211.

– سليــــم: 174.

– طــــيء: 207، 224، 248.

– بنو عقيل: 52، 220، 240.

– قـــريش: 25، 47، 143.

– قضـــاعة: 48، 192، 211.

– قيــــس: 48، 136، 192، 209، 213، 224.

– كلـــب: 144، 207.

– كنـــانة: 216.

– أهــــل نجران: 26، 149، 205.

– نجـــــد: 207.

– هــذيــل: 25، 28، 48، 192، 209.

– هــــوزان: 48، 192، 209.

3 ـ ثبت بمراجـــع البحث

*** القــــرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.**

- آليات النطق في رسالة أسباب حدوث الحروف لابن سينا للدكتور أحمد محمد قدور، دار الرفاعي/ دار القلم العربي، ط 1. 2010م/ 1431هـ.
- أبحاث في علم أصوات اللغة العربية للدكتور أحمد عبد التواب الفيومي، مطبعة السعادة، ط1، 1412هـ/ 1991م.
- الإبدال لأبي الطيب اللغوي، تحقيق وشرح: عزّ الذين التنوخي، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، سورياً. د ط. 1960م.
- أثر القــراءات فــي الأصــوات والنحــو العــربي للدكتور عبــد الصبــور شاهين، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط1، 1408هـ / 1987م.
- أسس علم اللغة لماريو باي، ترجمة: دكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب ـ القاهرة ط8، 1419هـ / 1998م.
- أساس البلاغة للزمخشري، دار الفكر، د ط، 1420هـ /2000م.
- الأساس في فقه اللغة للدكتور هادي نهر، دار الأمــل، إربد ـ الأردن ط2، 2005م.
- أسرار العربية للإمــام أبي البركــات الأنباري، تحقيق: الدكتور فخر صالح قداره، دار الجيل ـ بيروت لبنان ط1، 1415هـ/ 1995م.
- الأصوات اللغوية للدكتــور إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية، ط4، 1971م.
- الأصوات اللغوية للدكتور زين كامل الخويسكي، دار المعرفة الجامعية د. ط، د. ت.
- أصــالة علم الأصوات عند الخليل من خلال مقدمة كتاب العين للدكتور أحمد محمد قدور، دار الفكر، ط2، 1424هـ/ 2003م.
- أصوات اللغة العربية للعبد الغفار حامد هلال، مكتبة وهبة، ط3، 1416هـ/1996م.
- الأصوات اللغوية للدكتور عبد القادر عبد الجليل، دار صفاء ط1، 1418هـ/1998م.

- الأضداد لمحمد بن القاسم الأنباري، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ــ بيروت د. ط، 1432هــ/2011.
- إعراب القراءات الشواذ للإمام أبي البقاء العكبري، تحقيق: الدكتور عبد الحميد السيد محمد عبد الحميد، المكتبة الأزهــــرية للتراث، ط1، 1424هــ / 2003م.
- إعجاز القرآن للباقلاني، تحقيق: سيد أحمد صقر، دار المعارف ــ مصر 1954م.
- الإعجاز الصرفي في القرآن الكريم للدكتور عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية، بيروت د. ط، 1423هــ /2002م.
- إعراب القرآن لأبي جعفر النحاس، دار الضياء / دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ط1، 1425هــ /2005م.
- إملاء ما من به الرحمان من وجوه الإعراب والقراءات في جميع القرآن لأبي البقاء العكبري، دار الفكر د. ط، 1414هــ /1993م.
- الأمالي لابن الشجري، دار المعرفة للطباعة والنشر، د. ط، د. ت.
- البحث اللغوي عند إخوان الصفا للدكتور أبي السعود أحمد الفخراني مطبعة الأمانة ــ مصر ط1، 1411هــ /1991م.
- بحوث منهجية في علوم القرآن لموسى إبراهيــم الإبراهيم، دار عمار، ط2، 1416هــ/1996م.
- بحوث ومقالات في اللغة للدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ــ القاهرة، ط3، 1415هــ/1995م.
- بدائع الفوائد للإمام ابن قيم الجوزية، ضبط وتخريج: أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية ــ بيروت ط1، 1414هــ/1994م.
- البداية والنهاية للإمام ابن كثير تحقيق: أحمد أبو ملحم وآخرين، دار الكتب العلمية ــ بيروت ط3، 1987م.

- البرهـــان في علـــوم القرآن لبدر الدين الزركشي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية ــ بيروت د. ط، 1427هـــ /2006م.
- بغية الوعـــاة في طبقات اللغويين والنحاة للإمام السيوطي تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الفكر، ط2، 1399هـــ / 1979م.
- البلغة في تاريخ أئمة اللغة للإمام مجد الدين الفيروزآبادي، اعتناء ومراجعة: بركات يوسف هبّود، المكتبة العصرية ــ بيروت ط1، 1422هــ/ 2001م.
- تأويل مشكل القرآن لابن قتيبة، شرح ونشر: السيد أحمد صقر، المكتبة العلمية، د. ط، د. ت.
- التحليل اللغوي في ضوء علم الدلالة للدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات ــ مصر، ط1، 1426هـــ /2005 م.
- التحول و الثبات في أصوات العربية للدكتور حسام سعيد النعيمي، مجلة المجمع العلمي العراقي ج1، المجلد السابع والثلاثون، بغداد 1986م.
- تاريخ الأدب العربي لكارل بروكلـــمان، طبعة ليدن.
- التشكيل الصوتي في اللغة العربية للدكتور سلمان العاني، ترجمة: الدكتور ياسر الملاح، ومراجعة: الدكتور محمد محمود غالي، النادي الأدبي الثقافي ــ جدة ط1، 1403هــ/1983م.
- التصور اللغوي في الفكر الاعتزالي ــ مقاربة تأويلية في مشكلات المعرفة ــ للدكتور مختار لزعر، دار الأديب، د. ط، د. ت.
- التطور الصوتي في الألفاظ ــ أسبابه وظواهره ــ للدكتور محمود عكاشة، دار النشر للجامعات ــ القاهرة ط1، 2009م.
- التطور اللغوي التاريخي للدكتور إبراهيم السامرائي، دار الأندلس ــ بيروت، د. ط، 1418هـــ / 1997م.
- التطور اللغوي ــ مظاهره وعلله وقوانينه ــ للدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ــ القاهرة ط2، 1410هــ/ 1990م.

- التطور النحوي للغة العربية لبرجشتراسر، إخراج وتصحيح وتعليق: الدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ــ القاهرة/ دار الرفاعي ــ الرياض، د.ط، 1402هـ/1982م.
- تفسير القرآن العظيم للحفاظ ابن كثير، تحقيق: أنس محمد الشامي ومحمد سعيد محمد، دار البيان العربي ــ مصر، د. ط، د. ت.
- الجامع لأحكام القرآن للإمام القرطبي، ضبط ومراجعة: محمد صدقي العطار، دار الفكر ط1، 1428هـ/ 2008م.
- الجمل في النحو للزجاجي، تحقيق: الشيخ ابن أبي شنبْ، الجزائر 1926م.
- الجمهرة لابن دريد، مطبعة مجلس دائرة المعارف ــ حيدر آباد الدكن، ط1، 1344هـ.
- جهد المقلّ لمحمد بن أبي بكر المرعشي الملقب بساجِقلي زاده دراسة وتحقيق: الدكتور سالم قدوري الحمد، دار عمار ط2، 1469هـ/ 2008م.
- الحركات في اللغة العربية ــ دراسة في التشكيل الصوتي ــ للدكتور زيد خليل القرالة، عالم الكتب الحديث ــ إربد (الأردن) ط1، 1425هـ/2004م.
- حركات العربية ــ دراسة صوتية في التراث الصوتي العربي ــ لعبد الحميد زاهيد، المطبعة والوراقة الوطنية ــ مراكش، د. ط، د. ت.
- الخصائص لابن جني، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية ط2، 1424هـ/ 2003م.
- الدراسات الصوتية عند علماء التجويد للدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار ــ الأردن ط2، 1428هـ /2007 م.
- الدراسات النحوية واللغوية عند الزمخشري للدكتور فاضل صالح السامرائي، دار عمار ــ الأردن ط2، 1430هـ/ 2009م.
- دراسة الصوت اللغوي للدكتور أحمد مختار عمر، عالم الكتب ــ القاهرة ط4، 1427هـ/2006 م.

- دروس في علـــم أصوات العربية لجان كانتينو، ترجمـــة: صالح القرمادي، الجامعة التونسية 1966 م.
- الـــدلالة الصوتيـــة في اللغـــة العربيـــة لصالح سليم عبد القـــادر، منشورات جامعة سبها 1988 م.
- دلالات الظـــــاهرة الصوتيـــة في القرآن الكريم للدكتور خالد قاسم بني دومي، عالم الكتب الحديث / جدارا للكتاب العالمي ــ عمان (الأردن) ط1، 2006م.
- رسالة الأضداد للمنشي دراسة وتحقيق: الدكتور محمد حسين آل ياسين، دار عمار، ط1، 2008م.
- الرعاية لتجويد القراءة وتحقيق لفظ التلاوة لمكي بن أبي طالب القيسي، تحقيق: الدكتور أحمد حسن فرحات، دار عمار ــ الأردن 1393هـ/1973م.
- السبعة في القراءات لابن مجاهد، تحقيق: الدكتور شوقي ضيف، دار المعارف ــ مصر 1972 م.
- سر صناعة الإعراب لابن جنيّ، تحقيق: محمد حسن محمد حسن إسماعيل بمشاركة أحمد رشدي شحاتة عامر، دار الكتب العلمية ــ بيروت ط1، 1421هـ/ 2000م.
- شرح المفصل لابن يعيش، عالم الكتب ــ بيروت/ مكتبة المتنبي ــ القاهرة، د. ط، د. ت.
- شرح شافية ابن الحاجب لرضي الدين الاستراباذي، تحقيق: محمد الزفزاف وآخرين، مطبعة حجازي ــ القاهرة، د. ط، د. ت.
- الصحاح للجوهري، تقديم: أحمد عبد الغفـــور عطار، مطـــابع دار الكتـــاب العربي ــ مصر، د. ط، د. ت.
- الصوت اللغوي في القرآن للدكتور محمد حسين علي الصغير، دار المؤرخ العربي ــ بيروت ط1، 2000م
- ضاد العربية في ضوء القراءات القرآنية للدكتور عبد اللطيف محمد الخطيب، عـــالم الكتب ط1، 1422هـ/2001م.

- ظاهرة القلب المكاني في العربية للدكتور عبد الفتاح الحموز، دار عمار/ مؤسسة الرسالة ط1، 1406هـ / 1986 م.
- ظاهرة المخالفة الصوتية ودورها في نمو المعجم العربي للدكتور أحمد عبد المجيد هريدي، مكتبة الزهراء، د. ط، د. ت.
- علـم الأصوات للدكتور كمال محمد بشر، دار غريب ـ القاهرة، د. ط، د. ت.
- العربية الفصحى ـ نحو بناء لغوي جديد ـ للأب هنري فليش اليسوعي تعريب وتحقيق: الدكتور عبد الصبور شاهين، المطبعة الكاثوليكية ـ بيروت ط1، 1966م.
- علم الصوتيات للدكتور عبد العزيز أحمد علام والدكتور عبد الله ربيع محمود، مكتبة الرشد، د. ط، 1425هـ / 2004م.
- علم الكتابة العربية للدكتـور غانم قدوري الحمد، دار عمار ـ الأردن، ط1، 1425هـ/2004م.
- علم اللغة ـ مقدمة للقارئ العربي ـ للدكتور محمود السعران، دار النهضة العربية ـ بيروت، د. ط، د. ت.
- علوم اللغة العربية في الآيات المعجزات ـ علم أصوات اللسان العربي ـ للدكتورة نشأة محمد رضا ظبيان، الجفان والجابي/ دار ابن حزم ط1، 1418هـ /1997م.
- علم اللغة العامّ ـ الأصوات العربية ـ للدكتور كمال محمد بشر، مكتبة الشباب ـ القاهرة، د. ط، د. ت.
- العين للخليل بن أحمد الفراهيدي، تحقيق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، دار الهجرة ـ إيران (قم) ط1، 1405هـ.
- الفائق في غريب الحديث والأثر للزمخشري، تحقيق: علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، مطبعة البابي الحلبي ـ القاهرة، ط2، 1971م.
- فصول في فقه العربية للدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط6، 1420هـ/1999م.
- فقه اللغة وخصائص العربية لمحمد المبارك، دار الفكر، د. ط، 1425هـ/ 2005م.

- الفلاح شرح مراح الأرواح، لديكنقور، القاهرة، 1937م.
- في الأصوات اللغوية ـــ دراسة في أصوات المد العربية ـــ للدكتور غالب فاضل المطلبي، د. دار، د. ط، د. ت.
- في صوتيـــات العربية للدكتور محي الديـــن رمضان، مكتبة الرسالة الحديثة ـــ عمّان د. ط، د. ت.
- في علم اللغة العامّ لعبد الصبور شاهين، القاهرة، 1974م.
- في علم اللغة للدكتور غازي مختار طليمات، دار طلاس ـــ دمشق، ط3، 2007.
- في اللهجات العربية للدكتور إبراهيم أنيس مكتبة الأنجلو المصرية، د. ط، د. ت.
- قراءات وأصوات للدكتور فوزي حسن الشايب، عالم الكتب الحديث ـــ إربد(الأردن) ط1، 2012م.
- الكتاب لأبي بشر عمرو بن عثمان سيبويه، تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار الجيل ـــ بيروت ط1، د. ت.
- الكامل في اللغة والأدب لأبي العباس المبرد، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم والسيد شحاته، القاهرة 1956م.
- الكشـــاف عن حقـــائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل لأبي القاسم الزمخشري، دار الفكر، د. ط، 1428هـــ/2008م.
- الكنز في القراءات العشر للإمام ابن الوجيه الواسطي، تحقيق: هناء الحمصي، دار الكتب العلمية ـــ بيروت ط1، 1419هـــ/1998م.
- لحن العامة والتطور اللغوي للدكتور رمضان عبد التواب، مطابع البلاغ ـــ القاهرة ط1، 1967م.
- لسان العرب للإمام جمال الدين ابن منظور، تحقيق وتعليق عامر أحمد حيدر، مراجعة: عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية ـــ بيروت ط1، 1426هـــ /2005م.
- لغة الحيوان ـــ دراسة في أنظمة علامات التواصل وآليات التعبير ـــ للدكتور محمد كشاش، المكتبة العصرية ـــ بيروت ط1، 1424هـــ/ 2003م.

- اللغة لجان فندريس، تعريب: عبد الحميد الدواخلي و محمد القصاص، د. ط، د. ت.
- اللغة العربية معناها ومبناها للدكتور تمام حسان، عالـــم الكتب ــ القــاهرة ط5، 1427هــ/2006م.
- اللهجات العربية في التراث للدكتور أحمد علم الدين الجندي، الدار العربية للكتاب، د. ط، 1983م.
- اللهجات العربية نشأة وتطوراً للدكتور عبد الغفار حامد هلال، دار الفكر العربي، د. ط، 1418هــ/1998م.
- اللهجات العربية في القراءات القرآنية للدكتور عبــده الراجحي، مكتبة المعارف ــ الرياض، ط1، 1420هــ/1999م.
- اللهجات في كتاب سيبويه لصالحة راشد غنيم آل غنيم، دار المدني للطباعة والنشر، ط1، 1405هــ/ 1985م.
- اللهجات العربية القديمة في غرب الجزيرة العربية لشام رابين ترجمة وتقديم: الدكتور عبد الكريم مجاهد، المؤسسة العربية للدراسات، ط1، 2002م.
- لهجة قبيلة تميم وأثرها في الجزيرة العربية للدكتور غالب فاضل المطلبي، الدار العربية للموسوعات ط1، 1427هــ/ 2007م.
- مبـــادئ اللسانيـــات للدكتور أحمد محمد قـــدور، دار الفكـــر ــ دمشق ط2، 1419هــ/1999م.
- المحتسب في تبين وجوه شواذّ القراءات والإيضاح عنها لأبي الفتح ابن جني تحقيق: على النجدي ناصف، والدكتور عبد الحليم النجار، والدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ــ القاهرة، 1386هــ.
- المدخل إلى علم أصوات العربية للدكتور غانم قدوري الحمد، منشورات المجمع العلمي، مطبعة المجمع العلمي ــ بغداد 1323هــ/ 2002م.
- المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان لابن هشام اللخمي دراسة وتحقيق: مأمون بن محي الدين الجنان، دار الكتب العلمية ــ بيروت، د.ط، د.ت.

- المدخل في علم الأصوات المقارن للدكتور صلاح حسنين، مكتبة الآداب، 2006/2005م.
- المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي للدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي، ط3، 1417هـ / 1997م.
- المدارس الصوتية عند العرب للدكتور علاء جبر محمد، دار الكتب العلمية، ط1، 1427هـ/2006م.
- ما ذكره الكوفيون من الإدغام لأبي سعيد السيرافي، تحقيق: الدكتور صبيح التميمي، دار الشهاب، د. ط، د. ت.
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها، شرح وضبط: محمد أحمد جاد المولى، وعلي محمد البجاوي، ومحمد أبي الفضل إبراهيم، دار الفكر، د. ط، د. ت.
- مشكلة الهمزة العربية للدكتور رمضان عبد التواب، مكتبة الخانجي ـ القاهرة ط1، 1417هـ/1996م.
- المصباح المنير للفيومي، دار الفكر، د. ط، د. ت.
- المصطلح الصوتي في الدراسات العربية للدكتور عبد العزيز الصيغ، دار الفكر المعاصر ـ بيروت / دار الفكر ـ دمشق ط1، 1421هـ/2000م.
- المعرب والدخيل في اللغة العربية وآدابها للدكتور محمد التونجي، دار المعرفة ـ بيروت ط1، 1426هـ/ 2005م.
- معجم الصوتيات للدكتور رشيد عبد الرحمان العبيدي، مركز البحوث والدراسات الإسلامية، ط1، 1428هـ/2007م.
- معجم مصطلحات علم القراءة القرآنية للدكتور عبد العلي المسؤول، دار السلام ط1، 1428هـ/ 2007م.
- معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم للعلامة الراغب الأصفهاني، تحقيق، يوسف الشيخ محمد البقاعي، دار الفكر، د.ت 1431 ـ 1432هـ/2010م.

- المعجم الوصفي لمباحث علم الدلالة العام للدكتور عبد القادر عبد الجليـل، دار صفـا ط1، 1426هـ/2006م.
- معاني القرآن للأخفش (سعيد بن مسعدة)، دراسة وتحقيق: عبد الأمير محمد أمين الورد، عالم الكتب ط1 1424هـ /2003م.
- معاني القرآن للفراء (يحي بن زياد)، عالم الكتب ط3 1403هـ/1983م.
- مغني اللبيب عن كتب الأعاريب لابن هشام، تحقيق: الدكتور مازن المبارك ومحمد علي حمد الله، دار الفكر ـ دمشق ط2 1969م.
- مفردات القرآن ـ نظرات جديدة في تفسير ألفاظ قرآنية ـ للإمام عبد الحميد الفراهي، تحقيق: الدكتور محمد أجمل أيوب الإصلاحي، دار الغرب الإسلامي ط1، 2002م.
- المفصل في علم العربية لأبي القاسم الزمخشري، دراسة وتحقيق: الدكتور فخر صالح قداره، دار عمار ط1، 1425هـ/2004م.
- مفهوم القوة والضعف في أصوات العربية للدكتور محمد يحي سالم الجبوري، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط1، 1427هـ /2006م.
- المقتضب للمبرد، تحقيق: حسن حمد، ومراجعة: الدكتور إميل يعقوب، دار الكتب العلمية ـ بيروت ط1، 1420هـ/1999م.
- الممتع في التصريف لابن عصفور، تحقيق: فخر الدين قباوة، المطبعة العربية ـ حلب 1390هـ/1970م.
- من أسرار اللغة العربية للدكتور إبراهيم أنيس، مكتبة الانجلو المصرية ط8، د. ت.
- من أسرار اللغة في الكتاب والسنة ـ معجم لغوي ثقافي ـ للعلامة الدكتور محمود محمـد الطنـاحي، المكتبـة المكيـة ـ مكة المكـرمـة/ دار الفتـح ـ الأردن ط1، 1428هـ/2008م.
- مناهج البحث في اللغة للدكتور تمام حسان، مكتبة الانجلو المصرية، القاهرة، د. ط، 1990م.

- الموضح في وجوه القراءات وعللها لابن أم مريم الشيرازي، تحقيق: عمر حمدان الكبيسي، مكتبة التوعية الإسلامية، مصر ط 2، 2001.
- نزهة القلوب في غريب القرآن لأبي بكر السجستاني، د. دار، د. ط، د. ت.
- النشر في القراءات العشر للإمام ابن الجزري، تقديم: على محمد الضباع، تخريج الآيات: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية ــ بيروت ط1، 1418هــ/1998م.
- همع الهوامع شرح جمع الجوامع في علم العربية للإمام السيوطي، دار المعرفة ــ بيروت، د. ط، د. ت.

4 ــ فهرس الموضوعات.

إهـــــــــداء.

شكـــر واجب.

مقـــــدمـــة.. أ

التمهيـــــد 6

أ- الزمخشـــــــري 7

ب- الكشـــــــاف 8

ت- الصوت اللغوي.. 10

ث- موجز حول الجهود الصوتية عند العرب........................ 13

ج- قيمة الدراسة الصوتية.. 17

الفصـــــــــل الأول

المنهج الصوتي للزمخشري في الكشّاف وموقفه من أصل اللغة

المبحث الأول: مصادر المـــادة الصوتية.............................23

1. الأعـــلام في المجال اللغوي.. 23
2. الأعـــلام في مجال القراءات.....................................23
3. الكتب..24

المبحث الثاني: طرق نقل المادة الصوتية...............................26

1. نقـــل المـــادة الصوتيـــة مع عزوهـــا...................................... 26
2. نقـــل المـــادة الصوتيـــة من غير عزو...................................... 29

المبحث الثالث: مصادر الاستشهاد الصوتي.............................. 38

1. القراءات القرآنيـــة.. 38
2. لغـــات العرب وأقوالهم.. 47

الأول: لغـــات العرب.. 47

الثاني: أقوال العرب... 49

المبحث الرابع: موقف الزمخشري من أصل اللغــة 59

1. نظريات أصـــل اللغــة.. 60

2. موقف الزمخشري من أصـــل اللغــة.................................. 63

الفصـــــل الثاني

الجــوانب النطقيـــة في الكشّـــاف

المبحث الأول : مخارج الأصوات وصفاتها.. 67

1. مخـــارج الأصـــوات.. 67

2. صفـــات الأصوات.. 74

أولاً: الأصـــوات المجهـــورة والمهموسة.................................... 76

1.الأصـــوات المجهورة... 76

2.الأصـــوات المهموسة.. 77

ثانياً: الأصوات الشديدة والرخوة... 78

3.الأصـــوات الشديدة.. 78

4.الأصـــوات الرخوة... 79

ثالثاً: الأصـــوات المطبقة والمنفتحة... 80

5.الأصـــوات المطبقـــة... 81

6.الأصـــوات المنفتحـــة.. 82

رابعاً: الأصـــوات المستعلية والمنخفضة.................................. 82

7.الأصـــوات المستعلية 82

8.الأصـــوات المنخفضة.. 83

خامساً: أصوات القلقلـــة.. 83

المبحث الثاني: الصوت اللغوي في فواتح السور (الحروف المقطّعة)............. 84

1. التصنيف الصوتي في الفواتح.. 85
2. فلسفـــة التركيب الصوتي في الفواتح................................. 91

المبحث الثالث: الـــدلالة الصوتية.. 95

1. دلالة الخـــوف الهـــادر... 96
2. دلالة النـــدى الصارخ... 99
3. دلالة الاستغراق في المدّ الصوتي..................................... 102
4. سيـــادة القالب الواحـــد... 105
5. مصاقبـــة اللفظ للمعنى... 110
6. اللفظ المناسب للصوت المناسب.. 122

الفصـــــــــل الثالث

الاتجاهات الصوتية في الكشّاف

المبحث الأول: اتجاه الممـــاثلة 128
1. المماثلة الكلية المقبلة المتصلـــة................................... 129
2. المماثلة الكلية المقبلة المنفصلـــة.................................. 130
3. المماثلة الكلية المدبرة المتصلـــة.................................. 131
4. المماثلة الكلية المدبرة المنفصلـــة................................. 135
5. المماثلة الجزئية المقبلة المتصلـــة................................. 136
6. المماثلة الجزئية المقبلة المنفصلـــة 137
7. المماثلة الجزئية المدبرة المتصلـــة................................. 139
8. المماثلة الجزئية المدبرة المنفصلـــة................................ 142
9. المماثلة بين الحركـــات 145
أ- الإمـــالـــــة 145
ب- الإتبــــــاع.. 148

المبحث الثاني: اتجـــاه المخـــالفة.. 151

1. المخالفة بالحذف.. 153
أ- المخالفة بالحذف بين المثلين...................................... 154
ب- المخالفة بالحذف بين المتقاربين.................................. 161
2. المخالفة بالإبـــدال 162

3. المخالفة بين الحركات.. 170

المبحث الثالث: اتجاه السهولة واليسر.. 175

الفصل الرابع
الجوانب التشكيلية في الكشّـــاف

المبحث الأول: الظواهر التشكيلية في الصوائت........................ 186

المبحث الثاني: الظواهر التشكيلية في الصوامت........................ 221

1. الإدغـــــام.. 221

أ- إدغـــام المتماثلين.. 220

ب- إدغـــام المتجانسين.. 227

ت- إدغـــام المتقاربين.. 230

2. الترخيم اللغــوي 247

المبحث الثالث: ظواهر صوتية أخرى.. 250

1. الإبــدال الصوتي.. 251

2. القلب المكاني.. 254

خاتمـــــة.. 257

الفهـــــارس.. 261

1.فهرس الأعـــلام.. 262

2.فهرس القبـــائل.. 273

3.ثبت بمراجع البحث.. 274

4.فهرس الموضوعات.. 285

ملخص :

تندرج هذه الدراسة في إطار البحوث الصوتية التأصيلية، الهادفة إلى تأصيل مبادئ ومناهج دراسة الصوت اللغوي في التراث، فاتّخذت من منهجي الفونيتيك والفونولوجيا ومعطياتهما طريقاً لوصف وتحليل الشواهد الصوتية، كما اتّخذت من تفسير الكشاف موضوعاً للدراسة والإجراء.

وخلصت الدراسة إلى أن الكشاف وظّف منهجا صوتياً يتّسم بالموضوعية والعلمية. كما عالج قضايا الصوت اللغوي من الجانبين النطقي والتشكيلي، وأحسن توظيفهما في الكشف عن أسرار وخصائص التركيب اللغوي في القرآن والعربية .

الكلمات المفتاحية:

علم الأصوات - الأصوات - الكتابة – الكلمات - اللسانيات – اللغة العربية - القرآن - التفسير.

Résumé :

Cette étude s'inscrit dans le cadre des recherches phonétiques, visant à consolider les principes et méthodes employés dans l'étude du son linguistique dans le patrimoine arabe. Elle s'appuie sur les méthodologies phonétique et phonologique et leurs données comme voie pour décrire et analyser les éléments des exemples sonores, comme elle prend le livre 'd'Al-Kashaf' un objet d'étude et d'expérimentation.

L'étude a conclu que l'approche employée dans 'Al- Kashaf' est caractérisée par l'objectivité et la scientificité. D'autre part, elle a abordé les questions de son linguistique dans deux aspects : articulatoire et formatif. 'Al-Kashaf' a savamment utilisé ces deux aspects pour révéler les secrets et les caractéristiques de la syntaxe dans le Coran et l'arabe.

Mots -clés

Phonétique – écriture – les mots – la linguistique – langue arabe – Le Coran – l'explication du Coran.

Summary :

This study is part of a phonetic research, aiming to strengthen the principles and methods used in the study of the linguistic sound in the Arabic language heritage. It uses, as tools, phonetic and phonological methodologies and their data as a way to describe and analyze the elements of sound evidence examples, and it takes the book *'Al-Kashaf'* as an object of study and experimentation.

The study concluded that the approach used in *Al-Kashaf* is characterized by objectivity and scientificity, and that '*Al –Kashaf'* had investigated the linguistic sounds issues from two aspects: articulatory and formative, and had used these two aspects expertly to reveal the secrets and features of the syntax in the Koran and Arabic.

Key-words

Phonetics - writing – words - linguistics - Arabic - Koran - Koran's explanation.

Introduction

The phonetic study in Arabic has been the object of significant interest in the past and present, due to its importance and its role in understanding the structure of language and deducing its rules. Thus, we found that a great number of Arab scholars, in all fields of scientific research, had examined it either separately in their books or researched it mixed with other issues. This interest has been distributed between linguistics and rhetorics, critique, Koranic exegesis , philosophy, sociology and others.

The Koranic exegesis has given remarkable interest to the employment of phonetics and the use of its data and truths in the bringing into evidence of meanings and connotations of the Koran. Hence, we have noticed the great interest in analyzing the multiple phonological phenomena in the books of Koranic exegesis, through the review of the various Koranic readings. We have also noticed for a quite long time, that some commentators of the Koran employed some phonetic issues and linked them to semantic issues. It might also be that the the interest was focused on the aspects of sound, without taking into account the impact of this on meaning.

. One of the exegesis books that drew my attention in this regard was the book entitled ‘Al-Kashaf’ by Zemakhshari which could be considered the firstof its kind in terms of its interest in language issues at various levels, and what struck me also is his massive employment of phonological data like Koranic readings and comments of the scholars, and perhaps personal ideas of Zemekhshari himself. This is why we made our choice to examine those aspects

independently. Those aspects in Al-Kashaf were split among the scopes of phonology and phonetics, or issues of the linguistic sound according to place and manner of articulation and other characteristics of speech as well as the issues of handling the sound and its formation in the strucutre.

Hence, we chose the title of 'The Phonological Aspects of the Exegesis Book by Zemakhshari', without examining the other aspects, save when they are needed to contribute to a better understanding of the phonological aspect.

Objectives of the research

This study aims to uncover the phonological aspects in 'Al-Kashaf' by means of examination and deduction through the following:

1. The examination of the approach used to study the material, and the characteristics of that approach.

2. Knowledge of the sources of this material and discussion of the evidence examples in the light of modern phonological data.

3. Theo identification of the method by which Zemakhshari employed the phonological materials in the aspects of Koranic exegesis.

4. The clarification of the value of the sound in his Koranic exegesis

The methodology employed is an analytical one that is based primarily on description, but without neglecting sociological interpretation because of the spread of some phenomena in certain environments and not the others.

Research outline

Based on the material under scrutiny, the theme's outline came as such:

The present research work starts with and introduction and then a foreword on a short biographical glimpse on Zemakhshari and his book ' Al-Kashaf' as well as a definition of the

language sound , then an overview of phonological studies realized by Arabs. It also contains a summary about the importance of phonological studies and their advantages in scientific research and social application.

The foreword is followed by four chapters,and in in the first one we examined the phonological methodology employed by Zemakhshari in ‘ Al-Kashaf’. Chapter one is divided into three sections:

1.1. Phonological materials sources, and deals with :
1.2. The most distinguished language scholars whose views and sayings are authoritative,
1.3. The most distinguished Koran readers whose readings are authoritative,
1.4. The language books and Koran reading quoted in ‘Al-Kashaf’

2. The methods used in the citation of the phonological materials
2.1. The books on Koranic readings quoted in Al-Kashaf
2.2. The quotation of the phonological materials such as sayings and illustrations by referring them to their authors
2.3. The quotation of phonological materials without referring them to their authors

3. The sources of phonological citings
3.1. Koranic readings, the most famous as well as the odd ones
3.2. Arab speechways and sayings

4. **Articulatory aspects in Al-Kashaf**
4.1. Places of articulation of the sounds cited in Al-Kashaf
4.2. Manners of articulation of these sounds
5. **Language sound in the Koranic surats’ initial letters**
5.1. Sound classification in the Koranic surats’ initial letters
5.2. The philosophy of sound combination in the initials
6. The sound significance in Al-Kashaf
6.1. The significance of roaring fear
6.2. The significance of crying dew
6.3. The significance of immersion (استغراق in the sound elongation
6.4. The dominance of the unique type القالب الواحد
6.5. The concordance between the word and the meaning مصاقبة اللفظ للمعنى
6.6. The right word for the right sound

The next section is devoted to phonological tendencies in Al-Kashaf, and it contains three subsections which are as follows :

7. Assimilation direction

7.1. Assimilation and its types among silent sounds

7.2. Assimilation between Harakaatالحركات

7.3. Ittiba3 الاتباع

8. Dissimilation′s direction

8.1. Dissimilation among consonants

8.2. Dissimilation ways among consonants (by omission, by commutation)

8.3. Dissimilation among vowels

9. Facilitating direction

10. The phonological aspects in Al-Kashaf

10.1. The phonological phenomena in vowels

10.2. The phonological phenomena in consonants

10.3. Other phonological phenomena (sound commutation, metathesis)

Conclusion

The conclusion contains the most important results of this research. In this research, we referred to ancient and modern linguistic and koranic sources such as Al-Kashaf by Zemakhshari and ‵The Koranic Meanings′ by Al-Farraa, ‵The Meanings of Koran′ by Al-Akhfash, some koranic exegesis books such as ‵At-Tafsir′ by Al-Kortobi, some books on Koranic readings – these wre the main sources used in the research. Other books are listed below :

- الأصوات اللغوية، أحمد أنيس
- دراسة الصوت اللغوي، أحمد مختار عمر
- علم الأصوات، كمال بشر
- اللهجات العربية القديمة، شام رابين
- العربية الفصحى ، هنري فلايش
- اللهجات العربية في التراث، أحمد علم الدين الجندي

These were the modern sources upon which we relied most in conducting this doctoral dissertation.

We have done our best in this research for the sake of Koran, Arabic and the studies conducted by the ancient scholars of this nation. I would like to thank my supervisor, Pr. Reteri Sidi Mohammed for his insightful guidance and comments.

Conclusion

In the four chapters of this dissertation, I dealt extensively with the linguistic sound issues in the book entitled Al-Kashaf by Zemakhshari. In the first chapter I examined Zemakhshari's sound methodology in terms of the way he used the sources of his materials and how he quoted them as well as his position of the subject of the origin of language. In the second chapter, I dealt with the articulatory aspects within the framework of phonetics, through a study of the sounds' places and manners of articulation . In the same chapter I dealt also with the sounds of the Koranic verses' initial letters (فواتح الصور) and sound significance. The third chapter dealt with the subject of the phonetic sounds trends (phonetic rules) whose language evidence was cited in Al-Kashaf such as assimilation, dissimilation, easiness, etc. The fourth chapter examined the composition aspects arising from the combination and interaction between sounds as well as vowels and consonants. Also in this chapter, I dealt with other phenomena such as commutation.

The most important results of this research are based on considering Al-Kashaf as containing a great amount of phonological materials- as it does with other language materials- on the basis of its paramount importance in describing the harmony of the syntactic units, and the understanding of the secrets of that harmony as well as the deduction of language rules providing its comprehension.

The main results of this dissertation can be summed up in the following:

It becomes apparent from the first chapter that Zemakhshari had traced for himself a unique phonological methodology based on the diversification of the sources of his phonological materials between the language scholars as well as the koranic readings' scholars. He does so due to the need of the koranic commentators to understand the specificities of the syntax of the Koran.The latter need to be guided by language scholars and grammarians to understand the Arabic language, the Koran and koranic evidence examples. In addition, the koranic commentators need to know the pronunciation of the koranic evidence examples. This aspect can be provided by the books of koranic recitations and readings. Moreover, these books and the field scholars can distinguish between the regular koranic evidence examples as well as the odd ones out. In fact, Zemakhshari relies on both types of evidence examples, and sometimes the odd ones dominate his texts in most instances.

Relying mostly on the odd evidence examples cannot be considered a fault on the part of Zemakhshari; it is rather close to objectivity when one has to deal with the rainbow of Arabic pronunciations. He certainly agrees in this with the quotation of Ibn Jinney that all Arab sayings can be used as authoritative illustrations or evidence examples.

Zemakhshari was also loyal to referring each saying to its authors among the scholars of the koranic readings and the Arabic language. However, he sometimes neglects to refer his quotations to their authors, a fact that might be due to the loss of the author of the source or that the reader already knows the author, as it might be due to the popularity of the saying under consideration.

The sound evidence examples occurring in Al-Kashaf came in a variety of ways between the Koran and the koranic readings on one hand and the sayings in the Arab dialects, on the other.

It seems that Zemakhshari made extensive use of the dialects of the Arab tribes, for he was aware of the importance of the social aspect in describing and explaining the language evidence examples.

And our final prayer is praise be to Allah, Lord of the Worlds.

وزارة التعليـــــم العـــالي والبحث العلمـــــي
جامعة أبي بكر بلقـايد ــ تلمسان
كليــــة الآداب واللغـات
قسم اللغة والأدب العربي

ملخص موضوع :

الجوانب الصّوتية في تفسير الكشّاف للزمخشري

بحث مقدم لنيل درجة الدكتوراه في تخصص: الصوتيات

إعــــداد:
مبــارك بــلالي

إشـــــراف:
أ.د سيدي محمد غيثري

السنــــة الجامعـــيـــة

1432/1433هـ ـــــ 2011/2012م

ديبـــــاجـــة البحث .

حظيت الدراسة الصوتية في العربية قديماً وحديثاً بنصيب وافرمن الاهتمام والتقعيد، نظراً إلى خطرها ودورها في فهم التركيب اللغوي وكشف قوانينه، ومن ثم وجدنا طائفة كبيرة من علماء العرب في شتى مناحي النظر العلمي.. وجدناهم أفردوا لها في مؤلفاتهم بحوثا أو تناولوها مختلطة مع باقي قضايا النظر، وقد توزع هذا الاهتمام بين اللغة والنقد والبلاغة والتفسير والفلسفة والاجتماع وغيرها.

وقد كان لعلم التفسير تفرّد لافت في توظيفه للدراسة الصوتية واستخدام معطياتها وحقائقها في كشف المعاني والدلالات التي يهدف إليها البيان القرآني، ومن هنا رأينا ذلك الاهتمام بتحليل الظواهر الصوتية المتعددة في كتب التفسير، من خلال إيراد صور القراءات مشهورها وشاذّها. وقد كنت لاحظت منذ فترة ليست بالقصيرة، توظيف بعض المفسرين للقضايا الصوتية وربطها بالقضايا الدلالية، وقد يكون ذلك الاهتمام منصباً على الجوانب الصوتية دون مراعاة لأثر ذلك في الدلالة. وكان من بين التفاسير التي لفتت انتباهي في هذا الصدد تفسير الكشاف، هذا التفسير الذي يمكن عده التفسير الأول من حيث احتفاؤه بالقضايا اللغويةِ بمختلف مستوياتها، ومما استوقفني هو توظيفه الهائل للمعطيات الصوتية من قراءات وأقوال علماء وربما نظرات خاصة تعود للزمخشري نفسه، ومن ثم وقع اختياري على هذا التفسير هادفاً إلى الوقوف أكثر على تلك الجوانب ودراستها بشكل مستقل.

وقد كانت تلك الجوانب في كتاب الكشاف متوزعة بين مجالي الفوناتيك والفونولوجيا؛ أو بين قضايا الصوت اللغوي من حيث المخرج والصفة وخصائص النطق الأخرى، وبين قضايا التعامل والتشكيل الصوتي في التركيب.

فكان عنوان البحث: "الجوانب الصوتية في تفسير الكشاف للزمخشري" ولم أشر إلى غيرها من الجوانب إلا من حيث خدمتها(أي الجوانب الأخرى) للجانب الصوتي من قريب أو بعيد.

أهداف البحث.

تهدف هذه الدراسة إلى كشف الجوانب الصوتية في الكشاف استقراء ودراسة من خلال :

1) النظر في منهج تناول المادة الصوتية، وخصائص ذلك المنهج.
2) التعرف إلى مصادر هذه المادة، ومناقشة شواهدها في ضوء المعطيات الصوتية المعاصرة.
3) التعرف إلى طريقة توظيف الزمخشري للمادة الصوتية في وجوه التفسير.
4) استجلاء قيمة المستوى الصوتي ــ بين باقي المستويات اللغوية ــ في التفسير.

منهج البحث.

يقوم منهج هذه الدراسة على تحليل الموضوعات والقضايا الصوتية ومناقشتها، ويعتمد هذا التحليل المنهج الوصفي الذي يقوم على عرض المسائل ومناقشتها، واصفاً الظاهرة الصوتية كما وردت في الشاهد وعرضها على قوانين اللغة، والاستفادة في ذلك من آراء المفسرين واللغويين وكذا الدراسات الحديثة.

فالمنهج ــ إذن ــ تحليلي ينهض على الوصف ابتداءً، ولكنه لا يغفل أحياناً اللجوء إلى التفسير الاجتماعي لشيوع بعض الظواهر في بيئات دون بيئات أخرى.

خطة البحث.

جاءت خطة الموضوع بناء على المادة المستقرأة كما يلي:

بدأنا البحث بمقدمة يليها تمهيد تضمن نبذة عن الزمخشري وتفسيره الكشاف، وكذا بياناً لمفهوم الصوت اللغوي، ولمحة عن تاريخ الدراسة الصوتية عند العرب، وملخّصاً حول أهمية الدراسة الصوتية ومزاياها في البحث العلمي والتطبيق الاجتماعي. ثم تليه أربعة فصول، عالجنا في الفصل الأول منها المنهج الصوتي للزمخشري في الكشاف ويضمّ ثلاثة مباحث:

❖ **المبحث الأول:** مصادر المادة الصوتية: ويتحدث عن :

ـ الأعلام اللغويين المستشهد بأقوالهم وآرائهم.

ـ أعلام القراءات المستشهد بقراءاتهم.

ـ كتب اللغة والقراءة المنقول عنها في الكشاف.

❖ **المبحث الثاني:** طرق نقل المادة الصوتية: ويتحدث عن:

ـ نقل المواد الصوتية من أقوال واستشهادات مع عزوها لقائليها.

ـ نقل المواد الصوتية من غير عزوها لقائليها.

❖ **المبحث الثالث:** مصادر الاستشهاد الصوتي: ويتحدث عن:

ـ القراءات مشهورها وشاذها.

ـ لغات العرب وأقوالهـــــم.

وأما الفصل الثاني فتناول الجوانب النطقية في الكشاف من خلال ثلاثة مباحث:

❖ **المبحث الأول:** مخارج الأصوات وصفاتها، ويتحدث عن:

ـ مخارج الأصوات الوارد ذكرها في الكشاف.

ـ صفات الأصوات المُتحدّث عنها في الكشاف.

❖ **المبحث الثاني:** الصوت اللغوي في فواتح السور (الحروف المقطعة) ويتحدث عن:

ــ التصنيف الصوتي في فواتح السور.

ــ فلسفة التركيب الصوتي في الفواتح .

❖ **المبحث الثالث:** الدلالة الصوتية في الكشاف، ويتحدث عن :

ــ دلالة الخوف الهادر .

ــ دلالة الندى الصارخ.

ــ دلالة الاستغراق في المدّ الصوتي.

ــ سيادة القالب الواحد .

ــ مصاقبة اللفظ للمعنى .

ــ اللفظ المناسب للصوت المناسب .

وأما الفصل الثالث فعقدناه للاتجاهات الصوتية في الكشاف، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

❖ **المبحث الأول:** اتجاه المماثلة، ويتحدث عن:

ــ المماثلة وأنوعها بين الأصوات الصامتة .

ــ المماثلة بين الحركات.

ــ الإتباع.

❖ **المبحث الثاني:** اتجاه المخالفة، ويتحدث عن:

ــ المخالفة بين الصوامت.

ــ طرائق المخالفة بين الصوامت (بالحذف ، بالإبدال).

ـ المخالفة بين الحركات .

❖ **المبحث الثالث:** اتجاه السهولة واليسر.

وأما الفصل الرابع فقد خصصناه لمناقشة الجوانب التشكيلية في الكشاف، ويشتمل على ثلاثة مباحث:

❖ **المبحث الأول:** الظواهر التشكيلية في الصوائت.

❖ **المبحث الثاني:** الظواهر التشكيلية في الصوامت.

❖ **المبحث الثالث:** ظواهر صوتية أخرى (الإبدال الصوتي / القلب المكاني).

وأما الخاتمة فضمنّاها أهمّ ما توصل إليه البحث من نتائج.

وقد رجعت في هذا البحث إلى مصادر لغوية وقرآنية قديمة وحديثة متعدّدة؛ فكانت كتبُ: الكشاف، ومعاني القرآن للفراء، ومعاني القرآن للأخفش، وبعض كتب التفسير كالتفسير القرطبي، وبعض كتب القراءات، كانت أهمّ المصادر القديمة التي شكّلت روافد لمادة البحث.

وكانت كتب: الأصوات اللغوية لإبراهيم أنيس، ودراسة الصوت اللغوي لأحمد مختار عمر، وعلم الأصوات لكمال بشر، واللهجات العربية القديمة لشام رابين، والعربية الفصحى لهنري فليش، واللهجات العربية في التراث لأحمد علم الدين الجندي وغيرها.. كانت أهمّ المراجع المعاصرة التي أفدت منها في بحثي.

وقد بذلت ــ بقدر الوسع والطاقة ــ جهدي في هذا البحث، وحرصت على العناية به، عناية رفدها الإخلاص لكتاب الله، وللغة القرآن، ثم لجهود سلف الأمة.

ولا يسعني في نهاية هذه المقدمة إلا أن أشكر لأستاذي المشرف: الأستاذ الدكتور سيدي محمد غيثري إشرافه على هذا البحث، فقد غمرني بعلمه الجمّ وخلقه الكريم، وتوجيهاته السديدة، فجزاه الله عنيّ وعن طلاب العلم خيراً.

والله أسأل أن يجعل عملي هذا خالصاً لوجهه، متقبلاً عنده، إنه نعم المجيب.

الفصل الأول.

المنهج الصوتي للزمخشري في الكشاف وموقفه من أصل اللغة

تناول هذا الفصل مصادر المادة الصوتية التي اعتمدها الزمخشري في التحليل الصوتي لديه، بحيث تنوعت هذه المصادر بين الأعلام في اللغة والقراءات والكتب؛ فقد أخذ الزمخشري مادته الصوتية عن أمثال ابن عباس ومجاهد والخليل وسيبويه والفراء والأخفش وغيرهم، وأخذ عن مثل سعيد بن جبير ويحي بن وثاب والحسن البصري وعاصم والكسائي وأبن حيوة وغيرهم. وأما في مجال الكتب فقد اعتمد الزمخشري مادته من كتب مثل كتاب معاني القرآن وإعرابه للزجاج والمحتسب وسر صناعة الإعراب لابن جني وغيرها من الكتب.

وأما المبحث الثاني من هذا الفصل فقد تناول طرق نقل المادة الصوتية في الكشاف، وقد اختلفت طرق نقل تلك المادة بين نقل مع عزوها ونقل من دون عزو لقائليها. كما يتناول هذا المبحث طريقة أخرى اعتمدها الزمخشري وهي نقل آراء الأعلام في مجال اللغة والقراءة سواء أشار إلى صاحب الرأي إشارة واضحة بذكر اسمه أو عبّر عن ذلك الرأي بالإشارة فقط من خلال كلمات (يقال، قيل، قالوا) وغيرها.

وأما المبحث الثالث فقد تناول الإشارة إلى مصادر الاستشهاد الصوتي في الكشاف من قراءات قرآنية ولغات العرب وأقوالهم؛ فقد شكلت القراءات القرآنية

مادّة ثرة اعتمدها الزمخشري في تحليله الصوتي، نظراً لما تشتمل عليه من صور أدائية نطقية تشهد على وقوع العديد من الظواهر الصوتية في العربية من إمالة وإتباع وإدغام وقلب ومخالفة وغيرها.

وأما المبحث الرابع فقد تناول موقف الزمخشري من أصل اللغة؛ فتناول المبحث مختلف نظريات أصل اللغة وموقف الزمخشري من أصل اللغة الذي يميل فيه إلى اعتبار اللغة وحي وتوقيف، وهو معتقد مخالف لمعتقد المعتزلة ـ وهو واحد منهم ـ الذين يعتبرون أصل اللغة اصطلاح وتواضع.

الفصـــــــل الثاني

الجوانب النطقية في الكشّاف

تناول هذا الفصل موضوعات ينظمها ما يعرف عند الأصواتيين "بالفونيتيك" وهي موضوعات مخارج الأصوات وصفاتها، والصوت اللغوي في فواتح السور، وأخيراً الدلالة الصوتية في الكشاف.

فقد أشار الزمخشري إلى بعض مخارج الأصوات من خلال ما أشار إليه من فرق بين الضاد والظاء وتحديد الفرق المخرجي بينهما، كما أشار الزمخشري إلى صفات الأصوات حين عرض لوجوه تأويل فواتح السور، فقد ذكر الأصوات المجهورة والمهموسة، والشديدة والرخوة، والمطبقة والمنفتحة، والمستعلية والمنخفضة، وحروف القلقلة.

وأما المبحث الثاني فقد تناول الصوت اللغوي في فواتح السور(الحروف المقطعة)، وفي هذا المبحث تناولنا بالحديث التصنيف الصوتي في الفواتح عند الزمخشري وبعض أعلام علوم القرآن كالباقلاني والزركشي. كما تناول هذا المبحث فلسفة التركيب الصوتي في الفواتح من خلال الوقوف على الملامح

الإفرادية والتركيبية التوليفية للأصوات، وكذا الدلالة السياقية الأدائية في الكلام المنظوم. وكل ذلك نجده مقرراً واضحاً في تفسير الكشاف غيره من كتب علوم القرآن كإعجاز القرآن للباقلاني والبرهان في علوم القرآن للزركشي.

وأما المبحث الثالث فقد تناول الدلالة الصوتية في الكشاف من خلال الوقوف على مظاهر تعانق الصوت مع الدلالة، إن في مجال الجرس الصوتي للصوامت، وإن في مجال الدلالة الصوتية للأصوات الصائتة، وإن في مجال الوقع الصوتي لمجموعة أصوات ذات صبغة صوتية متوافقة. ومن صور الدلالة الصوتية التي وقفنا عندها في الكشاف؛ دلالة الخوف الهادر، دلالة الندى الصارخ، دلالة الاستغراق في المدّ الصوتي، سيادة القالب الواحد، مصاقبة اللفظ للمعنى، اللفظ المناسب للصوت المناسب.

الفصل الثالث

الاتجاهات الصوتية في الكشّاف

تناول هذا الفصل ما يعرف في اصطلاح الدراسات الصوتية بالقوانين أو الاتجاهات الصوتية، وهو موضوع يدرس التغيرات الصوتية المطّردة في الأصوات، والتي يسعى النظام اللغوي فيها إلى إعادة التوازن في حال وجود عدم تكافؤ وانسجام في الأصوات المتجاورة في السياق والتركيب.

فقد تناول المبحث الأول اتجاه المماثلة الذي يفسر ما يكون من تقارب بين صوتين أو مجموعة أصوات متنافرة في التركيب اللغوي، وتكون المماثلة في الصوائت والصوامت على السواء. وقد أشتمل تفسير الكشاف على شواهد هذا الاتجاه في مجال الصوائت والصوامت؛ ففي مجال الصوائت نجد الفتح الضم والكسر والسكون تتفاعل فيما بينها تأثراً وتأثيراً في التركيب اللغوي.

وأما في مجال الصوامت نجد ما يكون من تأثير وتأثر بين الصوامت يسفر عن ظهور "أصول مطردة " إذا تشابهت الخصائص الصوتية بصرف النظر عن التركيب الواردة فيه.

وأما المبحث الثاني فقد تناول اتجاه المخالفة الذي يشير إلى أنه إذا تماثل صوتان في تركيب، وكان ذلك التماثل سبباً في ثقل أو عدم انسجام صوتي فإن النظام اللغوي يلجأ إلى التخالف بغية التقليل والتيسير في الجهد العضلي.

وأما المبحث الثالث فقد تناول اتجاه السهولة واليسر، وهو قانون عام يهدف من خلاله النظام اللغوي إلى أداء أصوات اللغة من أي طريق سهل ويسير، وهذا يعني أن جهاز النطق لدى الإنسان يسعى بطريق فطري إلى تخيّر الأسهل والأيسر من الأصوات في الأداء؛ فظواهر الإدغام والمخالفة والقلب والإسكان والوقف وغيرها من الظواهر جميعها في الواقع تهدف التيسير في الأداء وتقليل الجهد العضلي.

الفصل الرابع

الظواهر التشكيلية في الكشّاف

يتناول هذا الفصل الظواهر التشكيلية السياقية بين الصوائت والصوامت في كتاب الكشّاف من خلال الكشف عن صور التفاعل والتشاكل بين الأصوات؛ فوقف على الخصائص الصوتية للحركات والسكون، وانطلق منها في سبيل تفسير ما يقع من تعامل بين بعضها وبعض. كما تناول أيضاً ما يكون من تفاعل بين الأصوات الصامتة في التركيب من خلال الوقوف على الخصائص الصوتية للصوامت من مخرج وصفات، والانطلاق منها التفسير التقارب بين تلك الصوامت .

كما عرض هذا الفصل إلى ظواهر أخرى تفاعلية تشكيلية مثل الإبدال اللغوي والقلب المكاني والترخيم.

نتـــــائج البحث.

استوفيت في الفصول الأربعة التي يتألف منها هذا البحث الكلام عن قضايا الصوت اللغوي في كتاب الزمخشري " الكشاف"، فقد عرضت في والفصل الأول إلى المنهج الصوتي للزمخشري من حيث تناول مصادر المادة الصوتية وطرق نقلها، وكذا موقف الزمخشري من موضوع أصل اللغة. ثم تناولت في الفصل الثاني الجوانب النطقية التي تندرج ضمن علم الفونيتيك، وذلك بعرض ما يتعلق بمخارج الأصوات وصفاتها، والصوت اللغوي في فواتح السور(الحروف المقطعة)، وكذا الدلالة الصوتية.

وأما الفصل الثالث فقد عالجت فيه موضوع الاتجاهات الصوتية (القوانين الصوتية) التي توافرت شواهدها في الكشاف، وهي المماثلة والمخالفة والسهولة والتخفيف. وتناولت في الفصل الرابع الجوانب التشكيلية الناشئة عن التركيب والتفاعل بين الأصوات، في قسمي الصوائت والصوامت. كما تناولت في هذا الفصل ظواهر تعاملية أخرى رأيت إضافتها، مثل الإبدال الصوتي والقلب المكاني.

إن أهم نتائج هذا البحث تقوم على اعتبار تفسير "الكشاف" تفسيراً حفل بالمادة الصوتية ــ كما حفل بغيرها من مواد اللغة ــ انطلاقاً من أهميتها وخطرها في وصف تآلف وحدات التركيب، والوقوف على أسرار ذلك التآلف، واستنتاج القوانين اللغوية المفسرة له .

وأما ما خلص إليه البحث من نتائج فنوجزه في الآتي:

1. ـــ تبيّن من خلال مباحث الفصل الأول أن الزمخشري خطّ لنفسه منهجاً صوتياً فريداً يقوم على التنويع بين مصادر مادته الصوتية، بين علماء اللغة وعلماء القراءة، انطلاقاً من حاجة المفسر إلى الوقوف على خصائص التركيب القرآني، ومن ثم لابد له من أن يأخذ عن أهل القواعد والتأصيل وهم النحاة واللغويون، يأخذ عنهم آراءهم في وصف شواهد كلام العرب وكذا وصف شواهد القرآن والقراءات. هذا إلى جانب حاجة المفسر إلى معرفة الجانب الأدائي في نطق هذا الشاهد أو ذلك من القرآن، وهو ما توفره كتب التجويد والقراءات فضلاً عن قدرة تلك الكتب وأعلامها على التفريق بين ما هو شاذ من القراءة وما هو مشهور منها. وإن كان منهج الزمخشري في هذا الموضوع هو الأخذ بالشاذ والمشهور معاً، بل نجد أن الشاذ غلب على المشهور في كثير من المواضع.

وليس الأخذ بالشاذ من القراءة فيما قام به الزمخشري يعدّ عيباً منهجياً، بل هو الأقرب إلى الموضوعية العلمية أثناء التعامل مع ألوان النطق العربي، وكأنني به يردِّد مع ابن جني قالته الشهيرة " إن لغات العرب كلها حجّة".

كما حرص الزمخشري في كشافه على عزو الأقوال والآراء إلى قائليها من علماء لغة وقراءات. وهو المنهج العلمي الصحيح، ولكنه في عديد الأحيان يهمل ذلك العزو، وقد يكون ذلك الإهمال ناتجاً عن ضياع اسم العَلَم أو صاحب الرأي، أو يكون قصد به معرفة القارئ لصاحب الرأي أو القول لاشتهار الشاهد،و كثرة دورانه بين أهل التفسير واللغة، فلا يحتاج في كل مرة إلى التنبيه على القائل وذكر اسمه.

وأما الشواهد الصوتية الواردة في الكشاف فقد تنوعت بين أوجه القراءات أو الشواهد القرآنية، وبين شواهد من لغات العرب أو لهجاتهم. ويبدو وأن لجوء

الزمخشري إلى لغات القبائل هو وعي منه لأهمية الجانب الاجتماعي في وصف وتفسير الشواهد اللغوية.

2. ــ تبين من خلال مباحث الفصل الثاني أن الزمخشري وظف قضايا علم الأصوات النطقي من معرفة المخارج والصفات في وصف بعض الاختلافات الصوتية بين شواهد القراءة. كما وظف الزمخشري مبادئ علم الأصوات النطقي في الوقوف على أسرار وفلسفة التركيب الصوتي في فواتح السور (الحروف المقطعة)، وكذا الربط بين الدلالة والجرس الصوتي لبعض التراكيب اللغوية الواردة في القرآن، وكيف أحدثت تلك الخصائص الصوتية النطقية الأدائية انسجاماً وتلاؤما مع الدلالة المراد تقريرها، من خلال استخدام هذه اللفظة أو تلك في التركيب القرآني.

3. ــ أظهر الفصل الثالث أنّه كان للزمخشري وعي بالاتجاهات الصوتية الكبرى مثل المماثلة والمخالفة واتجاه السهولة والتخفيف، وهي اتجاهات أو قوانين تفسر كثيراً من ألوان التطور الصوتي التركيبي في الصوائت والصوامت على السواء، فيميل بعض الأصوات المتجاورة في التركيب إلى التماثل والتشابه تسهيلا للأداء النطقي وتحقيقاً للانسجام الصوتي..هو قانون عامّ في العربية وغيرها. كما أن التقليل من حدّة التماثل والتشابه في بعض التراكيب، هو ما يهدف إليه قانون المخالفة الصوتية.

وأما قانون السهولة والتخفيف فيقف وراء كثير من حالات الحذف والإسكان والإبدال والقلب، وغيرها من أساليب الانحراف الصوتي في الصوائت والصوامت في العربية.

4. ــ أوضح الفصل الرابع أن كثيراً من التغيرات الصوتية التي طرأت على صيغ الأسماء والأفعال من حيث التحريك والإسكان والإتباع وكسر أول حروف

المضارعة..وغيرها من التغيرات،هي في الواقع صور للتشكيل الصوتي بين الحركات. كما أن التشكيل الصوتي بين الصوامت، وظواهره كالإدغام بأنواعه المختلفة، والإبدال والقلب الصوتيين.. كل ذلك تناوله الزمخشري بكثير من التحليل يسفر وعي بالجانب الوظيفي للصوت اللغوي، يرفده تذوق للعربية رفيع، وعلم بأساليبها المختلفة في الإبانة عن المعاني المقصودة والدلالات المرومة.

ختاما آمل أن تكون هذه الدراسة المتواضعة ضميمة إلى أخواتها من الدراسات الهادفة إلى خدمة لغة القرآن الكريم، كما أرجو أن يتحقق لها الأثر الطيب والوقع الحسن في نفوس الدارسين.

فكر وإبداع

إصدار علمى جامعى متخصص محكم

مؤسس الإصدار وإشراف

أ.د.حسن البنداري

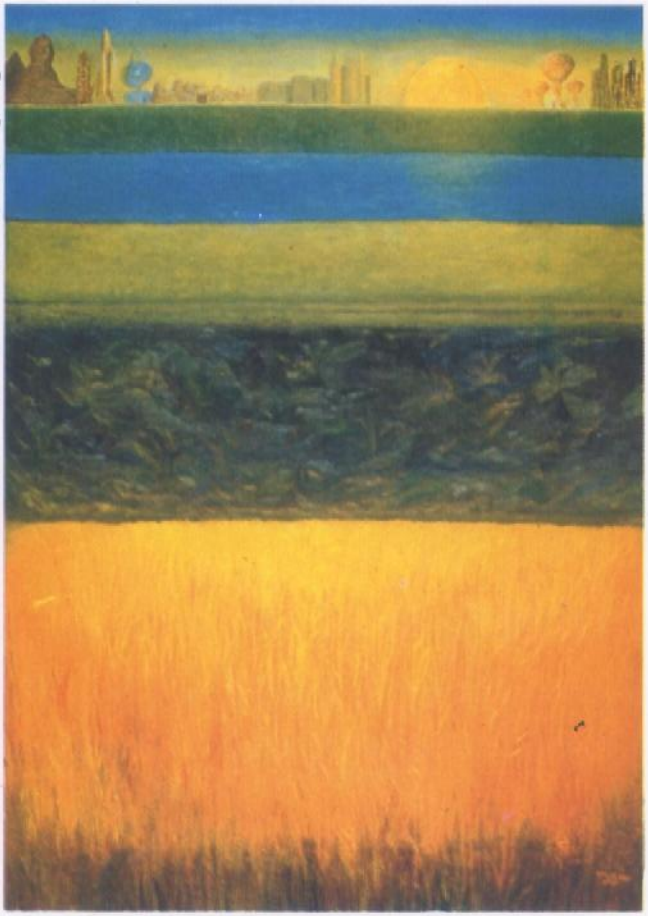

- حوار الحضارات مقعد أخير في قاعة إيوارت "لمي خالد" في مرآة "البيضاء" ليوسف إدريس: نموذجًا
- الدراما المسرحية تكشف إشكالية الإرهاب وتدعو للسلام
- تماسك المتواليات الصورية في الشعر الفلسطيني الحداثي
- أبو الطيب المتنبي بين الثقة في النفس والغرور
- تلقي اللغة بين محدودية الكتابة وانفتاح الأداء
- مصطلح العنف مفهومه، مرادفاته وأضداده في الخطاب النبوي "دراسة في المعنى والأبعاد صحيح البخاري أنموذجًا"
- الإعراب وعلله
- العلويون و الدعوة العلوية في مصر الإسلامية إلى نهاية عصر الإخشيديين
- علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة
- البعد الفلسفي لمفهوم البيئة في فلسفة "مارتن هيدجر"
- المصارف الإسلامية والخلاص من الشوائب الربوية
- قاعدة "لازم المذهب ليس بمذهب" وتطبيقاتها في الأصول والفروع
- فن الموسيقى بوصفه فنًا تكنولوجيًا
- أسلوب الأداء الغنائي الديني عند سعاد محمد من خلال فيلم الشيماء
- التصميم الدرامي الشفيف والإدراك الخلاق المفرد في تشكيل الفنان مصطفى أحمد (١٩٣٠-١٩٩٩)
- نحو النص عند "فان ديك"... من الجملة إلى الخطاب

الجزء الرابع والأربعون

أبريل ٢٠٠٨م

رابطة الأدب الحديث

قواعـد النشـر بالإصدار

- يقبل إصدار فكر وإبـداع نشر المواد وفقا للاعتبارات التالية:

١ - أن تكون المواد المرسلة إلى الإصدار- مبتكرة ولم يسبق نشرها.

٢ - تخضع المواد للتحكيم النوعى المتخصص.

٣ - يخطر الإصدار الكتاب بقرار صلاحية المواد أو عدمها.

٤ - لا يقبل الإصدار المواد المنشورة أو المقدمة إلى جهات أخرى.

٥ - البحوث والدراسات التى يرى المحكمون تعديل مواضع فيها - ترد إلى أصحابها لتنفيذ ملاحظات المحكمين لكى تأخذ طريقها إلى النشر.

٦ - الإصدار غير ملزم بإعادة الأصول المرسلة إلى أصحابها سواء نشرت أم لم تنشر.

المواد المنشورة بالإصدار تعبر عن آراء أصحابها فقط

فكر وإبداع

إصدار متخصص

يعنى بنشر بحوث ودراسات جامعية محكمة

يصدر عن رابطة الأدب الحديث

مؤسس الإصدار والمشرف عليه (عضو مجلس الإدارة)

أ.د. حسن البنداري

البريد الإلكتروني : Wafafarahat@yahoo.com -
- drbendary@yahoo.com

* * * * *

تسعى الرابطة إلى :

- إرساء مفاهيم البحث العلمي .
- الكشف عن الباحثين المتميزين والمغمورين .
- تنمية قدراتهم الفكرية والبحثية .
- المشاركة في تحديد معالم ثقافتنا المعاصرة .
- عقد حوارات متنوعة مع كافة الاتجاهات .
- التوفيق بين الصيغة التراثية والصيغة الحداثية .

الناشر : دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع.

العنوان : ٩٥٣ كورنيش النيل – مصر القديمة .

البريد الإلكتروني : E.mailDarelebdaa@hotmail.com

ت :٥٣٢٦٧٤٤ – ٥٣١٢٣٣٢١ – ٠١٠٦٦٣١٥٨٤ .

رئيس مجلس الإدارة : د. هدى الكومي

المدير العام : منى عثمان

لوحة الغلاف : للفنان مصطفى أحمد

فكر وإبداع

إصدار علمي جامعي متخصص محكم
يعنى بنشر بحوث ودراسات علمية محكمة
يصدر عن رابطة الأدب الحديث
القاهرة : ٦ شارع بنك مصر
ت : ٣٩٣٤٦٩٥
رئيس مجلس إدارة الرابطة : الشاعر/ محمد علي عبد العال

مطبعة العمرانية للأوفست
الجيزة : ٣٣٧٥٦٢٩٩

رقم الإيداع	٢٠٠٧ / ٣٦٦١
الترقيم الدولي	I.S.B.N ٩٧٧-٦١٢١-٤١-١

فكر وإبداع

مؤسس الإصدار والمشرف عليه (عضو مجلس إدارة الرابطة)

أ.د حسن البنداري

المشاركون في الإصدار (أعضاء الرابطة)

أ.د السعيد الورقي	د. أحمد عبد التواب
أ.د صلاح بكر	د. (طبيب) أنس عزقول
أ.د عزيزة السيد	د. (طبيب) رباب عزقول
أ.د علي علي صبح	د. شيخة الخليفي
أ.د علي طلب	د. سامية رشدان
أ.د علية الجنزوري	د. فهمي حرب
أ.د وفاء إبراهيم	د. محمد رياض العشيري
أ.د كاميليا صبحي	د. نعيم عطية
أ.د نادية يوسف	د. نادية عبد اللطيف
أ.د أمل الأنور	د. ماجدة منصور حسب النبي
أ.د محمد مصطفى سلام	د. يحيى فرغل

أمانة الإصدار : فاطمة عبد العزيز صديق

المراسلات : توجه باسم المشرف على الإصدار أ.د.حسن البنداري

القاهرة : مصر الجديدة - روكسي، شارع أسماء فهمي كلية البنات - جامعة عين شمس

تليفون : ٥٨٥٤٦٦٢ - ٥٨٥٦٦٢٣

القاهرة : دار الإبداع للصحافة والنشر والتوزيع

٩٥٣ كورنيش النيل - مصر القديمة

ت : ٥٣٢٦٧٤٤ - ٥٣١٢٣٢١ - ٠١٠٦٦٣١٥٨٤.

الجزء الرابع والأربعون: أبريل ٢٠٠٨م

مستشارو الجزء الرابع والأربعين

١ - أ.د أحمد إبراهيم الشعراوي	١٥- أ.د علياء شكري
٢ - أ.د أحمد سيد كرشك	١٦- أ.د علي أبو المكارم
٣ - أ.د اعتماد علام	١٧- أ.د ماجدة عبد السميع
٤ - أ.د جمال عبد الناصر	١٨- أ.د محمد حسن عبد الله
٥ - رمضان بسطويسي	١٩- أ.د محمد حماسة عبد اللطيف
٦ - أ.د زين نصار	٢٠- أ.د محمد سالم
٧ - أ.د سامي عفيفي حجازي	٢١- أ.د محمد السعيد جمال الدين
٨ - أ.د سامية عبد الرحمن	٢٢- أ.د محمد الطويل
٩ - أ.د سهير عبد العظيم	٢٣- أ.د محمد عبد المطلب
١٠- أ.د السيد فضل	٢٤- أ.د مكارم الغمري
١١- أ.د شفيع السيد	٢٥- أ.د. نادية عبد العزيز عوض
١٢- أ.د صبري إبراهيم السيد	٢٦- أ.د نبيل راغب
١٣- أ.د الطاهر مكي	٢٧- أ.د نبيل غنايم
١٤- أ.د عبد الحكيم حسان	٢٨- أ.د نفيسة عليش

المحتويات		الصفحة
- افتتاحية الجزء الرابع والأربعين (العام العاشر للإصدار)	د. حسن البنداري		
المادة العربية		
- حوار الحضارات مقعد أخير في قاعة إيوارت "لمي خالد" في مرآة "البيضاء" ليوسف إدريس: نموذجًا	د. سعاد صالح	١١
- الدراما المسرحية تكشف إشكالية الإرهاب وتدعو للسلام	د. فاطمة يوسف	٤٧
- تماسك المتواليات الصورية في الشعر الفلسطيني الحداثي	عبلة سلمان ثابت	٩٩
- أبو الطيب المتنبي بين الثقة في النفس والغرور	د. فاطمة الزهراء	١٢٧
- تلقي اللغة بين محدودية الكتابة وانفتاح الأداء	د. أبو بكر حسيني	١٤٩
- مصطلح العنف مفهومه، مرادفاته وأضداده في الخطاب النبوي "دراسة في المعنى والأبعاد صحيح البخاري أنموذجًا"	د. أحمد جعفري	١٥٥
- الإعراب وعلله	أ. رشيد سهلي	١٦٥
- العلويون و الدعوة العلوية فى مصر الإسلامية إلى نهاية عصر الإخشيديين	د. صفي علي محمد عبدالله	١٨٣
- علم الاجتماع الريفي نحو رؤية جديدة وأجندة بحثية مقترحة	د. عالية حبيب	٢١٩
- البعد الفلسفي لمفهوم البيئة في فلسفة "مارتن هيدجر"	د. آمال الشامي	٢٦١
- المصارف الإسلامية والخلاص من الشوائب الربوية	د. عبدالناصر بن خضر ميلاد	٢٩١
- قاعدة "لازم المذهب ليس بمذهب" وتطبيقاتها في الأصول والفروع	د. طاهر مصطفى نصار	٣٥٩
- فن الموسيقى بوصفه فنًا تكنولوجيا	د. وليد محمود شوشة	٤١٧
- أسلوب الأداء الغنائي الديني عند سعاد محمد من خلال فيلم الشيماء	د. خيرية محمد مصطفى	٤٥٥
- التصميم الدرامي الشفيف والإدراك الخلاق المغرِّد في تشكيل الفنان مصطفى أحمد	أ . سيد هويدي	٤٧٩
- نحو النص عند "فان ديك"... من الجملة إلى الخطاب	أ. مبارك بلالي	٤٨٣
- مفهوم النثر في التراث النقدي المغاربي	د. مصطفى البشير	٤٩٧	
المادة غير العربية		
- Narrative Strategies in Muriel Spark's The Prime of Miss Jean Brodie	د. نجوى إبراهيم عبدالرحمن	1
- Taha Husayn's Theory of Culture: A Re-assessment	د. مها عمارة	33	

بسم الله الرحمن الرحيم

افتتاحية الجزء الرابع والأربعين أبريل ٢٠٠٨

د. حسن البنداري

تنتمي مواد الجزء الرابع والأربعين إلى النقد الأدبي الحديث، ونحو النص، والدراما والتاريخ، القديم وعلم الاجتماع، والفلسفة، والدراسات الإسلاميتن فضلاً عن الموسيقى، والفن التشكيلي، سواء جاءت هذه البحوث باللغة العربية أو بغير العربية .

أما البحوث العربية فهي حوار الحضارات من وجهة النظرة المقارنة بين عملين أدبيين للدكتورة سعاد صالح ، والدراما المسرحية الكاشفة للإرهاب والداعية للسلام للدكتورة فاطمة يوسف ، وتماسك المتواليات الصورية للدكتورة عبلة سلمان ثابت ، وأبو الطيب المتنبي بين الثقة في النفس والغرور للدكتورة فاطمة الزهراء ، وتلقي اللغة بين محدودية الكتابة وانفتاح الأداء للدكتور أبو بكر حسيني ، مصطلح العنف "دراسة في المعنى والأبعاد" للدكتور أحمد جعفري ، والإعراب وعلله للأستاذ رشيد سهلي ، والعلويون والدعوة العلوية في مصر الإسلامية للدكتورة صفي علي محمد ، وعلم الاجتماع الريفي للدكتورة عالية حبيب ، والبعد الفلسفي لمفهوم البيئة في فلسفة "مارتن هيدجر" للدكتورة آمال الشامي ، والمصارف الإسلامية والخلاص من الشوائب الربوية للدكتور عبد الناصر بن خضر ميلاد ، وقاعدة لازم المذهب ليس بمذهب وتطبيقاتها في الأصول والفروع للدكتور طاهر نصار ، وفن الموسيقي بوصفه فنًا تكنولوجيًا للدكتور وليد محمود شوشة ، وأسلوب الأداء الغنائي الديني عند سعاد محمد من خلال فيلم الشيماء للدكتورة خيرية جميل ، والتصميم الدرامي الشفيف والإدراك الخلاق المفرد في تشكيل الفنان مصطفى أحمد للناقد الفني : سيد هويدي ، ونحو النص عند "فان ديك" من الجملة إلى الخطاب للأستاذ مبارك بلالي ، ومفهوم النثر في التراث النقدي المغاربي للدكتور مصطفى البشير قط .

وأما البحوث غير العربية فهي :

(1) Narrative Strategies in Muriel Spark's The Prime of Miss Jean Brodie

د. نجوى إبراهيم عبد الرحمن

(2) Taha Husayn's Theory of Culture : A Re-assessment

د. مها عمارة

ويتضمن هذا العدد مقالاً عن الفنان التشكيلي الكبير مصطفى أحمد الذي ولد في مثل هذا الشهر (إبريل) من عام ١٩٣٠م ، ورحل عن عالمنا في عام ١٩٩٩م .. وإصدار فكر وإبداع يحرص على أن يتذكره مع قراء هذا الجزء إيمانًا بقيمته الفنية العالية التي تمثل مدرسة جديدة في الفن التشكيلي ، ومن ثم جاءت تحيتنا لفنه باختيار إحدى لوحاته لتتصدر هذا الجزء الرابع والأربعين .

نحو النص عند "فان ديك" ... من الجملة إلى الخطاب

أ. مبارك بلالي (*)

تمثل مقاربة "فان ديك" اللغوية، طرحًا جديدًا في مجال تحليل النصوص أو الخطابات ، فقد كشف عن مجموعة من الملحوظات النصية في الأنحاء السابقة تفتقر إلى المعالجة في إطار أوسع؛ فهناك ظواهر تتجاوز حدود الجملة، ومعالجتها في هذه الحدود قد لا يقود إلى نتائج واستدلالات دقيقة وعميقة، مثلما إذا عولجت في مستوى أوسع وهو مستوى النص أو الخطاب. هذه المقاربة تنظر إلى البنى السطحية على أنها بنى غير كافية لتفسير النص والكشف عن خصائصه وفهمه، وإنما ينبغي أن يربط النص ببنيات خارجية ، تتجاوز الحد السكوني الذي تقف عنده السرديات إلى مقاربة دينامية للنص .

إن مصطلح "نحو" هنا ، يشرف على مفهوم يتجاوز القواعد أو القيود الصارمة التي تطبق على النصوص إلى الدلالة على العلاقات الدلالية العميقة بين الجمل والمتتاليات الجملية، ولا يتضمن مفهوم القاعدة سوى مجموعة القوانين الاختيارية المستخلصة من النص ذاته، وليس لها أي سلطة خارجية مفروضة على النص سلفًا، خاصة إذا علمنا أن قوانين الدلالة تتصف بالدينامية والتغير، ومن هنا فإن تحديد المعنى الكلي للنص ينطلق من مجموع المعاني

(*) أستاذ مكلف بالدروس ، قسم اللغة العربية وآدابها ، جامعة العقيد أحمد دراية ـ أدرار ـ الجزائر .

الجزانية للجمل التي تكونه ليصل إلى تحديد المعنى الكلي بوصف النص بنية كبرى أو بنية شاملة [1].

فالنص هو مجموعة من الممارسات النصية والتواصلية يرتبط ببعضها البعض ويتداخل بعضها مع البعض الآخر . وانطلاقاً من هذا فإن النص – بوصفه بناء نظريًا مجردًا – لا يتجسد إلا من خلاله الخطاب بوصفه فعلاً تواصلياً ، ومن ثم يتم الربط بين النص وسياقه التداولي . وقد تم "فان ديك" في هذا الصدد نظرية متكاملة تستفيد من المعطيات التداولية والسيوسيو – لسانية والسيكو – لسانية وغيرها ... من أجل معاينة أفضل للنصوص من خلال دراسة خصائص السياق بمختلف تمظهراته .

البناء النصي عند "فان ديك"

يتكون النص عادة من كلمات وجمل، غير أن أجزاءه الطبيعية ليست مؤلفة من تلك الكلمات والجمل، لأن الوقوف عند هذه الوحدات بمستواها اللغوي الصِّرف لن يسهم في الكشف عن الخصائص النوعية المميزة للنص، ذلك أن النص هو مجموعة من المكونات الوظيفية والبنيوية معًا أو هو مجموعة من الممارسات النصيّة والتواصلية كما ذكرنا سابقا .

فتعرّف الأجزاء المكونة للنصوص الأدبية يجب أن يشمل – بالإضافة إلى الاعتداد بالوحدات المادية المباشرة – يشمل الوظائف الفنية والخصائص التواصلية التي تتضافر مع بنى النص السطحية لتحقيق بناء الدلالة . وهنا يأتي مفهوم "البنية الكبرى" عند "فان ديك" ليعبر عن الوحدات البنيوية الشاملة، ويرتبط بالقضايا المعبر عنها بجمل النص بواسطة ما يسمى : القواعد الكبرى

---

[1] علم لغة النص ، سعيد حسن بحيري ، ص ١٨٣ .

(Macroregle) وهذه القواعد ما هو الأكثر جوهرية في مضمون نصّ متناول ككل [٢] ، إن هذه القواعد الكبرى تتمثل في قواعد :

١ ـ الحذف

٢ ـ الاختيار

٣- التعميم

٤ ـ التركيب أو البناء

فالقاعدة الأولى :

وهي الحذف تعني أن أية معلومة ليست جوهرية وليست ذات أهمية، يمكن أن تحذف ، فانطلاقًا من أن النص هو مجموعة من الأقوال ينضم بعضها إلى بعض وليس من الضروري الاحتفاظ بكل تلك الأقوال إذ إن بعضها يحذف مما ليس له وظيفة يقوم بها النص، أي مما لا يعتبر فرضًا تترتب عليه نتائج في بقية النص [٣] .

ففي عبارة : "دخل الأستاذ إلى المدرج يتأبط كتاب الخصائص" نواجه ثلاثة أقوال :

أ - دخل الأستاذ ...

ب ـ يتأبط كتابًا

جـ - كان الكتاب هو كتاب الخصائص

فيمكن اختصار العبارة إلى " أ " و " ب " أو " أ " حتى إذا كان الخطاب لا يحتاج إلى معرفة عنوان الكتاب هل هو لابن جني أو لغيره ؟ أو ما إذا كان

---

[٢] السياق والنص الشعري على أيت أو شان ، ص ٧٨ .
[٣] بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ، ص ٢٥٧ .

مرجعًا أو مصدرًا ... ففي هذه الحال تعتبر هذه المعلومات قليلة الأهمية بالنظر إلى النص الكامل .

وعلى الرغم من أنه من الناحية الشكلية يمثل الحذف قاعدة إلغاء – وكذلك الاختيار – فإن بعض الباحثين يعدون الحذف علاقة اتساقية أو نصبه بين الجمل وليس داخل الجملة الواحدة، لأن العلاقة بين أطراف الجملة علاقة بنيوية لا يقوم فيها الحذف بأي دور اتساقي .[٤]

وأما القاعدة الثانية :

وهي الاختيار وتعني حذف بعض المعلومات وإلغاء البعض الآخر مع مراعاة وضوح العلاقة بين المحذوف والمتروك ، ففي مجموعة من الأقوال مثل :

أ - اشترى محمد كتابًا

ب – وضعه في محفظته

جـ - وصل به إلى المكتب وبدأ في قراءاته .

فطبقًا لقاعدة الاختيار يمكن أن نحذف الجملتين الأولى والثانية، فهما طبقًا لشروط القول نجدهما فرضين مكملين، أو هما نتيجتان لقول آخر غير محذوف وهو " ج " ، فواضح أنه يترتب على الوصول بالكتاب إلى المكتب أن يكون الكتاب قد اشترى أو أعير، كما يترتب عليه وضعه في محفظة أو غيرها [٥] .

---

[٤] لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطابي ، ص ٢١ – ٢٢ .

[٥] قاعدة الاختيار تشبه – في مضمونها العام – ما يعنيه مفهوم "الإطار" عند العلماء الذكاء الصناعي؛ فهم يعرفون الإطار بأنه بنيات معطيات جاهزة في الذاكرة، فلا يحتاج المتلقي إذا صادف كلمة "مدرج" مثلًا إلى أن يذكر بأن لهذا المدرج سقفًا وبابًا وكراسي وغيرها، باعتبار أن هذه المعلومات جاهزة لديه وهي معلومات تبعية

وأما القاعدة الثالثة :

فهي التعميم وتقضي بحذف البيانات الجوهرية ففي مجموعة من الأقوال مثل :

أ - في الجامعة كان هناك معرض الكتاب

ب – كان هناك احتفال

جـ - كانت هناك ندوة فكرية وثقافية .

يمكن أن نضع بدلاً منها "قولاً واحدًا وهو " في الجامعة كانت هناك مجموعة من النشاطات الثقافية" ، إذ إن كل الأقوال السابقة متضمنة من الناحية التصويرية أو المفهومية في القول "د" ، ومن هنا فإن قاعدة التعميم تضع التصور الكلي موضع الجزئيات المحذوفة ، وهو يشملها كلها.

وأما القاعدة الرابعة :

فهي قاعدة البناء والتركيب "فأي موقف يتطلب مجموعة من الشروط والمواصفات والنتائج التي يمكن أن تكون في جملتها مفهومًا عامًا كليًا يمكن إعادة تكوينه في جملة واحدة" (٦)

فمثلاً لدينا الأقوال الآتية :

أ - اجتزت امتحان البكلوريا

ب – اخترت تخصص علوم هندسة .

جـ - تناقشت مع مجموعة من التخصصيين .

د - تابعت دروس الهندسة التطبيقية .

---

(٦) بلاغة الخطاب وعلم النص ، صلاح فضل ، ص ٢٥٩ .

إن هذه الأقوال يمكن تقسيمها إلى تفصيل أدق غير أنها في مجملها يمكن أن يتضمنها قول واحد هو : التحقت بالجامعة، فمن المعلوم أن الالتحاق بالجامعة يقتضي كل تلك العناصر التبعية السابقة في " أ " و " ب " و " ج " و " د " .

إن هذه القواعد لا يمكنها أن تعمل إلا من خلال معرفة المتلقي بعالم المفاهيم أو المعرفة الخلفية [٧] التي تضم تجارب المتلقي السابقة والمعارف المتراكمة نتيجة احتفاظه بالخطوط العريضة للنصوص .

بني النص الفوقية :

وهو نوع من البني الإجمالية للنص متعلق بالترابط الداخلي الكلي لنص أكثر مما يتعلق بمضمونه مباشرة ... وأشهر نموذجين من البني الفوقية هما : الخطاطة السردية والخطاطة الحجاجية .

أسلوب النص :

إن اختيار الكلمات والجمل يخضع إلى حالة المتكلم الذهنية ومواقفه والانفعالات التي يريد التعبير عنها، بهدف حث قارئه / مستمعة أو المتلقي بشكل عام على تفسير هذه المميزات الأسلوبية بوصفها إشارات وعلامات على حالته النفسية في وقت بعينه [٨] .

بني النص البلاغية :

تظهر بني النص البلاغية في جميع المستويات النصية : المستوى الصوتي، المعجمي، البني الجملية، العلاقات بين الجمل، والبني الكبرى، وكذا البني الفوقية والبني البلاغية تهدف إلى إحداث فاعلية للنص في مقام تواصلي،

---

[٧] ينظر : لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطابي ، ص ٦١ وما بعدها .
[٨] السياق والنص الشعري ، علي آيت أوشان ، ص ٨١ .

وتلعب دورًا خاصًا واستراتيجيًا في منح النص بنية إضافية ... وتغيرات البني البلاغية هي :[٩]

١- الحذف

٢- الإضافة / التكرار .

٣- المبادلة .

٤- الاستبدال

إن هذه المعطيات الضرورية في النصوص ومعالجتها تنطلق من أساس راسخ هو أن النصوص و (سياقاتها) تعد مادة بحث وتدريس في أكثر من مجال وميدان،فإضافة إلى علمي اللسانيات والآداب تدرس النصوص أيضًا في الانتروبولوجيا وعلم النفس واللاهوت وفي العلوم القانونية والتاريخية وغيرها[١٠] .

نقول هذا على الرغم من أن "فاك ديك" في تحديده لمفهوم النص ارتكز على النص الأدبي يقول في مقدمة مقاله (النص ، بناه ووظائفه ، مدخل إلى علم النص) : " لكي نجيب بجدية عن السؤال المتعلق بمعرفة الخصائص النوعية التي تتصف بها النصوص الأساسية ... "[١١]

لقد أخذ السياق مسارًا أكثر بعدًا مع الدراسات التداولية فقد عمّق أصحابها مفهوم السياق متجاوزين في ذلك الإطار اللغوي المحض إلى السياق الاجتماعي والثقافي، والسياق أداة إجرائية فعّالة لا يمكن الاستغناء عنها إذ يلعب دورًا بارزًا في تحديد المعنى وفهم الملفوظات .

---

(٩) المرجع نلفسه ، ص ٨٢ .
(١٠) المرجع نفسه ، ص ٧٩ .
(١١) المرجع نفسه ، ص ٧٨ ،

فانطلاقا من هذا المفهوم الواسع للسياق درس "فان ديك" السياق وقسمه إلى المستويات الآتية :

١ ــ السياق التداولي :

إن الملفوظات اللغوية أو النصوص من حيث بنيتها الشكلية لا تمثل حقيقة الخطاب أو النص وإنما حقيقته تكمن فيما تؤديه هذه الملفوظات من وظائف أو بمعنى آخر إن "الأشكال" و "المضامين" لا تكفي لمعرفة خواص النص، بل يجب توافر شروط أخرى تساهم في عملية التأويل ومن ضمنها السياق التداولي، الذي يعمل على تأويل النص بوصفه فعلاً كلاميًا [١٢] . فمهمة التداولية أو البرغماتية تحديد الشروط الضرورية لتكوين أفعال الكلام التي تشكل عناصر حاسمة في أية عملية اتصال ناجحة شريطة توافر بعض الشروط التي ينبغي تحديدها وراء كل جملة أو مجموعة من الجمل المنتجة فعله (شفهيًا أو كتابيًا) [١٣] .

ويعتمد السياق التداولي على استحضار مجموع العوامل النفسية، والاجتماعية التي تحدد نسقًا ملائمًا من الأفعال الكلامية ومن هذه العوامل : المعرفة التي يمتلكها مستعملو اللغة ورغباتهم وإرادتهم وأشياؤهم المفضلة، وآراؤهم وكذا علاقاتهم الاجتماعية ... [١٤]

لابد ــ إذن ــ أن يضم مفهوم التداولية النصية مجموع الشروط التي تمكن من ترتيب أفعال الكلام في متواليات ، مثلها في ذلك مثل بني النص الفوقية التي هي عبارة عن مجموعة من المتتاليات الجملية ... فهنالك بنى تداولية كبرى تمكن من تأويل المضمون الإجمالي للنص، وتسهم في الكشف عن خصائصه الداخلية .

---

[١٢] ينظر مقدمة إلى علم الدلالة الألسني ، هربيت بركلي ص ١١٠ .
[١٣] نفسه ص ١١٠ .
[١٤] السياق والنص الشعري ، ص ٨٢ ــ ٨٣ .

٢ – السياق الإدراكي :

إن فهم النصوص وتأويلها لغرض تواصلي تمثل هدفًا يسعى إليها الملتقي، ومن ثم فإن الملتقي سيفهم أولاً الكلمات ثم مجموعة الكلمات والجمل، وسينطلق من بينة النص السطحية ليترجمها إلى مضمون، أي إلى معلومات مفهومية .

ومن أجل توضيح السياق الإدراكي ، كشف "فان ديك" عن مجموعة من المعطيات يجب أن تؤخذ بعين الاعتبار وهي [١٥] :

١- استعانة مستعمل اللغة بمعرفته للعالم انطلاقًا من تجاربه المخزنة في الذاكرة ومجموع الممارسات على النصوص، خاصة النصوص المشابهة للنص المواجه .

٢- تخزين القضايا في الذاكرة الطويلة الأمد فحتى تؤول نصًا معينًا يتعين علينا إقامة روابط بين جملة وأخرى في الذاكرة العملية، ثم نحرر هذه الذاكرة العملية جزئيًا من حمولتها وندخل فيها من جديد معلومات جديدة .

٣- لكي نتمكن من إضفاء ترابط خطي على نص معين يجب أن تحفظ المعلومات في الذاكرة العملية، ولا نكون بحاجة إلى تسجيلها باستمرار في الذاكرة الطويلة الأمد .

٤- من المهم جدًا – عند إرادة فهم النص – أن تكون كمية المعلومات الكبرى التي يمكن استخلاصها من نص ما منظمة ومبينة ومختصرة، ومن أجل ذلك تلعب البنى الكبرى دورًا أساسيًا في المعالجة الإدراكية للنص، وهنا يمكن للبنى الكبرى للنص أن تقوم

---

(١٥) السياق والنص الشعري، ص ٨٤ .

بـدور مـا عنـد إرادة التـذكر . فقـد وظـف بارتليت مصـطلح "تشييد"للدلالة على تذكر بعض أجزاء النص فـ "قدرتنا على تذكر الخطاب ليست مبنية على إعادة إنتاج الخطاب بطريقة قويمة وإنما على تشييده ، وتستعير عملية التشييد هذه المعلومات من الخطاب المواجـه سابقا ، بالإضـافة إلـى المعرفـة المستعارة من التجربـة المرتبطة بالخطاب الذي بين أيدينا من أجل بناء تمثيل ذهني" [١٦].

يقترح "فان ديك" مصطلح "الاستعداد" الإدراكي وهو مصطلح يشرف على مجموع معارفنا وآرائنا يضاف إلى ذلك البنى الفوقية والبنى البلاغية التي هي منظمات مهمة للمعلومات النصية في الذاكرة [١٧].

٣ ـ السياق النفسي الاجتماعي :

إن الكشف عما يمكن أن تحدثه النصوص من أثر في مستعملي اللغة فرديًا أو جماعيًا، يعد هدفًا يسعى إليه دارس اللغة العربية، فهناك عوامل اجتماعية ونفسية تؤدي دورًا مهمًا في فهم النص وتأويله .

وثمة مبادئ ثلاثة [١٨] صاغها "فان ديك" ورأى أن لها إسهامًا حاسمًا في مدى تأثير النصوص في مستعملي اللغة .

وأما المبدأ الأول :

فهو "الوظيفية" فمستعمل اللغة ينمي لديه نوعًا من المعرفة والمواقف التي يستطيع استخدامها في نشاطه الإدراكي والاجتماعي، فالمعرفة تضمن إتمام بعض الافعال ، بينما المواقف تعمل على تنظيم هذه الأفعال .

---

(١٦) السانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، ص ٦٨ – ٦٩ .
(١٧) ينظر السياق والنص الشعري ، ص ٨٦ .
(١٨) السابق ، ص ٨٥ .

وأما المبدأ الثاني :

فهو الترابط الإدراكي ، ومفاده أن مستعمل اللغة يفضل المعرفة والمواقف التي تتفق مع المعرفة والمواقف المستوعبة قبلاً .

وأما المبدأ الثالث :

هو تحقيق الذات اجتماعيًا وشخصيًا، فمن المهم أن تكون المعرفة والمواقف متفقة مع الآراء التفسيرية التي يكونها الفرد عن ذاته وعن علاقاته مع باقي أعضاء مجتمعه .

٤ – السياق الاجتماعي :

الفعل الكلامي هو فعل اجتماعي ، ومن أجل ذلك يعد "فان ديك" اللسانيات الاجتماعية مما تولي الكثير من الأهمية للعلاقة القائمة بين السياق الاجتماعي واستعمال اللغة .

إن ممارسة التأثير من النص على المقام الاجتماعي، وكذا تأثير المقام الاجتماعي على النص يمارسان بواسطة الاستعداد الإدراكي للمستعمل، فمهما كان للمقام الاجتماعي من تفسيرات اصطلاحية، فإن مستعمل اللغة يمارس تأثيره على فهم النص من خلال آرائه ورغباته وحاجاته .

٥ – السياق الثقافي :

النص ظاهرة ثقافية ، ومن ثم فإنه بالإمكان استخلاص استنتاجات حول البنية الاجتماعية لجماعة ثقافية معينة، وغالبًا ما تمكن دراسة النصوص من استخراج خصائص مجتمع معين، من حيث الحقوق والواجبات والقواعد والأعراف وغيرها ... وبالجملة فإن تحليل النص عند "فان ديك" هو ممارسة ذات فاعلية كبيرة ، في إطار التحليل العام للثقافة وتمظهراتها .

وختامًا .. فإن الدراسة المنهجية للنصوص عند "فان ديك" لا يمكن إلا أن تكون مشتركة بين عدة ميادين علمية، ذلك أن النصوص لا تمتلك فقط بنيات نحوية في مستوى الأصوات والمعجم والتركيب والدلالة، وإنما أيضًا تمتلك بنيات أخرى مثل البنى الفوقية ، والبنى الأسلوبية، والبلاغية التي تعد مسئولة عن عدة مستويات في النص .

ثبت بالمراجع :

- بلاغة الخطاب وعلم النص ، د. صلاح فضل، منشورات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، الكويت ، ١٩٩٢م ، د ط .
- السياق والنص الشعري – من البنية إلى القراءة - ، علي آيت أوشان ، دار الثقافة، الدار البيضاء، المملكة المغربية ، د ط ، د ت .
- علم لغة النص ، المفاهيم والاتجاهات ، د. سعيد حسن بحيري، مؤسسة المختار، ط ١، ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٤م .
- لسانيات النص ، مدخل إلى انسجام الخطاب ، محمد خطابي ، المركز الثقافي العربي، ط ١ ، ١٩٩١م .
- مقدمة إلى علم الدلالة الألسني، هربيرت بركلي ، . تر : د. قاسم المقداد، منشورات وزارة الثقافة ، د ط ، د ت .

FIKR WA IBDA'

- Taha Husayn's Theory of Culture: A Re-assessment
- Narrative Strategies in Muriel Spark's The Prime of Miss Jean Brodie

دار الإبداع
للصحافة والنشر والتوزيع

No. 44

April . 2008